الدار العربية للعلوم ـ ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

مكتبة مدبولي
Madbouly Bookshop

بيع من كتبه مئات ملايين النسخ في مختلف أنحاء العالم وترجمت أعماله إلى أكثر من 39 لغة

جون لوكارّيه

خيوط المؤامرة

رواية



خيوط المؤامرة

بسم الله الرحمن الرحيم

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
The Mission Song
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر
Hodder & Stoughton, A division of Hodder Headline
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم

خيوط المؤامرة

تأليــف

جون لو كاريه

ترجمـــة

مروان سعد الدين

الدار العربية للعلوم - ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

الطبعة الأولى

1428 هـ - 2007 م

ردمك 978-9953-87-090-8

الدار العربية للعلوم ـ ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611)
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (9611)

خيوط المؤامرة

"إن فـــتح الأرض، الذي يعني غالباً أساليب الاستيلاء عليها من أولئك الذين يملكون بشرة مختلفة أو أنوفاً مسطّحة أكثر قليلاً من أنوفنا، ليس شيئاً جميلاً عندما ننظر إليه بإمعان".

مارلو

جوزيف كونراد، قلب الظلام

1

اسمي برونو سلفادور، ويدعوني أصدقائي سالفو، وكذلك أعدائي. وبخلاف ما قد يقوله لكم أي شخص، أنا مواطن ذو منزلة محترمة في المملكة المتحدة وأيرلندا الشمالية، وأعمل في الترجمة عن السواحيلية واللغات الأقل شهرة، ولكن الواسعة الانتشار شرق الكونغو والتي كانت خاضعة سابقاً للحكم البلجيكي، ويعتبر إتقاني للفرنسية سهماً آخر في جعبتي الاحترافية. ويمكن اعتباري وجهاً مألوفاً في محاكم لندن سواء المدنية أو الجنائية منها، ومشاركاً منتظماً في المؤتمرات التي تخصّ شؤون العالم الثالث، ولديَّ علاقات واسعة مع عدّة شركات كبيرة في أمتنا. ونظراً لمهاراتي الخاصة، يتمّ استدعائي لتأدية واجبي الوطني بشكل سري من قبل إحدى الإدارات الحكومية التي يتمّ إنكار وجودها دائماً. ولم أقع في المشاكل من قبل، وأدفع ضرائبي بشكل اعتيادي، وسجلي الطبي ممتاز كما أنني أملك حساباً مصرفياً معتبراً. وهذه حقائق أكيدة لا يمكن لأي بيروقراطي أن يغيّرها مهما حاول.

خلال ست سنوات من العمل الصادق في عالم التجارة، قدّمت خدماتي - حضور مؤتمرات أو لقاءات سرية في مدن محايدة في القارة الأوروبية - حول أسعار النفط، والذهب، والماس، والمعادن والسلع الأخرى، فضلاً عن تحويل ملايين الدولارات بعيداً عن أعين المساهمين المتطفلة إلى بنما، وبودابست، وسنغافورة. وتستطيعون سؤالي فيما إذا شعرت، عندما كنت أقوم بتلك التحويلات، بحاجة لاستشارة ضميري وستحصلون على جواب مؤكد "لا". إن مجموعة مبادئ مترجمكم هي السرية المطلقة، ولا يتمّ توظيفه لإطلاق العنان لشكوكه، وهو مخلص لصاحب عمله بنفس الطريقة التي يخلص بها الجندي لعلم بلاده. وبخلاف سيئي الحظ في العالم، من عادتي أيضاً التواجد دائماً في مستشفيات وسجون لندن والمثول

أمام سلطات الهجرة رغم حقيقة أن التعويض في مثل هذه الحالات ضئيل جداً.

اسمـــي مسجل على قائمة الناخبين في 17 شقق نورفولك، شارع أمير ويلز، باترسي، جنوب لندن، وهي منطقة سكنية راقية أعيش فيها مع زوجتي بينلوب - لا أدعـــوها بـــيني إطلاقـــاً - وهـــي صحفية الدوائر العليا في جامعتي أكسفورد وكمـــبريدج، وتكـــبرني بأربـــع سنوات، وأصبحت في سنِّ الثانية والثلاثين نجمة صـــاعدة في سماء صحافة الأسواق البريطانية الضخمة التي تحركها الملايين. ووالد بيـــنلوب شريك أساسي في شركة *المدينة* للمحاماة، ووالدها عضو نافذ في حزب المحافظين المحلي. ولقد تزوجنا قبل خمس سنوات نتيجة لانجذابنا الشديد إلى بعضنا الـــبعض، إضافة إلى التفاهم بأنها ستحمل حالما تسمح مهنتها بذلك نـــزولاً عند رغبتي بإنشاء عائلة مستقرة مع أم تتقيد بالعادات والتقاليد البريطانية المحافظة. وبكل الأحـــوال، لم تحـــن اللحظة الملائمة بعد نظراً لصعودها السريع في عالم الصحافة وعوامل أخرى.

لم يكـــن ارتباطنا صحيحاً بكل شؤونه. فبينلوب الابنة الكبرى لعائلة سوريه الـــتي تحـــتل مركزاً مرموقاً، فيما برونو سلفادور المعروف باسم سالفو، ابن مبشّر كاثوليكـــي روماني أيرلندي وامرأة كونغولية ريفية اختفى اسمها للأبد في غياهب الحرب والزمن. ولقد ولدت - حتى أكون دقيقاً - خلف الأبواب الموصدة لأحد أديـــرة الـــرهبنة الكرملية في بلدة كيسنغاني - أو ستانلفيل كما كانت سابقاً - وأشـــرفت على ولادتي الراهبات اللواتي نذرن إبقاء أفواههن مغلقة، وهو ما كان يـــبدو للجميع - ما عداي بالطبع - أمراً هزلياً وسوريالياً أو محض ابتكار منهن. ولكـــن الأمـــر بالنـــسبة لي كان حقيقة حيوية كما سيكون تماماً بالنسبة لكم إذا جلستم في سنِّ العاشرة إلى جانب سرير والدكم الورع في منـــزل إرسالية دينية في مرتفعات جنوب كيفو الخصبة في شرق الكونغو، تستمعون إليه ينشج كلاماً نصفه بفرنسية أهل النورماندي ونصفه الآخر بإنكليزية فصحى، والمطر الاستوائي يضرب بعنف مثل أقدام فيل على سطح الصفيح الأخضر، فيما تنهمر الدموع على خدّيه اللذين تركت الحمّى آثارها عليهما بسرعة حتى ليظن المرء أن الطبيعة بأكملها قد جـــاءت لتنـــضم إلى الحفلة. وإذا سألت غربياً عن مكان كيفو، سيهزّ رأسه بجهل

ويبتسم. وإذا سألت أفريقياً سيخبرك بأنها "الجنة"؛ أرض في أفريقيا الوسطى مليئة بالبحيرات التي يغشاها الضباب، والجبال البركانية، وأراضي الرعي الشديدة الخضرة، وبساتين الفاكهة الذكية الرائحة وما شابه.

في سنّ السبعين، وكانت تلك السنة الأخيرة في حياته، كان اهتمام والدي الرئيسي فيما إذا كان قد استعبد أرواحاً أكثر مما حرّر. وكانت بعثات الفاتيكان التبشيرية إلى أفريقيا، وفقاً له، تواجه مأزقاً دائماً بين ما تدين به للحياة وما تدين به لروما، وكنت أنا جزءاً مما يدين به للحياة بغضّ النظر عن الطريقة التي ينظر بها إخوته الروحيون إليّ. وتمت مراسم دفنه باللغة السواحيلية بناءً على طلبه، لكن عندما حان دوري لقراءة *الله مولاي* إلى جانب قبره، قمت بأداء ذلك بلغة "شي"، وهي المفضّلة لديه من بين كل لغات شرق الكونغو لحيويتها ومرونتها.

لم يكن الأصهار غير الشرعيين من أعراق مختلطة يندمجون بشكل اعتيادي في النسيج الاجتماعي لعائلة سوريه الثرية، ولم يكن والدا بينلوب استثناءً لتلك الحقيقة البديهية الغارقة في القدم. واعتدت بشكل إيجابي على القول لنفسي عندما كنت أكبر أنني أبدو أيرلندياً أسمر أكثر مني أفريقياً داكن البشرة، إضافة إلى أن شعري مسترسل وليس أجعد، وهو ما يوفّر عليَّ وقتاً طويلاً عندما أحاول التشبّه بهؤلاء القوم. ولكن ذلك لم يخدع والدة بينلوب أو صديقاتها في نادي الغولف، وكانت أسوأ كوابيسها أن تلد ابنتها حفيداً أسود البشرة وهو ما أثّر ربما على رغبة بينلوب في الخضوع لهذا الاختبار، ورغم أنني عندما أستعيد الأحداث الماضية لا أقتنع تماماً بهذا، إلا أنه يبدو أن جزءاً من حافزها للزواج بي كان لإصابة أمها بصدمة والاستعلاء على شقيقتها الصغرى.

* * *

لن تكون أي كلمة أخرى هنا تخصّ كفاح أبي العزيز الراحل في حياته خارج نطاق الموضوع. ولقد كان دخوله إلى هذا العالم، كما قال لي، سهلاً مثل ولوجي إليه. فلقد ولد أبي سنة 1917 لعريف في مشاة أولستر الملكية وفتاة من قرى النورماندي تبلغ من العمر أربع عشرة سنة، والتي صادف وجودها في ذلك الوقت،

وأمـــضى طفولته في الانتقال بين كوخ في جبال سبرن وآخر في شمال فرنسا، حتى ضـــمن لنفـــسه بقـــوة دراسته واللغتين اللتين اكتسبهما عن أبويه مكاناً في معهد جونـــيور لعلوم اللاهوت في براري مقاطعة دونغال، وهكذا وضع قدميه الشابتين دون سابق تفكير منه على طريق الله.

أُرســـل والدي إلى فرنسا ليتعمّق في دراسته، وتحمّل دون شكوى سنوات لا متناهـــية من تلقّي التعاليم القاسية للعقيدة الكاثوليكية، ولكن حالما اندلعت الحرب العالمـــية الثانية، استولى على أقرب درّاجة هوائية، والتي أكّد لي بذكاء أيرلندي أنها تخصّ بروتستانتياً ملحداً، وعبر على متنها جبال البيرينيه إلى لشبونة. وتخفّى ضمن مجمـــوعة من المتسولين سافرت إلى ليبولدفيل (الكونغو) كما كانت تسمّى آنذاك، وتجـــنّب مـــراقبة الحكومة الاستعمارية التي كانت تأخذ موقفاً عدائياً ضد بعثات التبـــشير البيضاء الضالة، ووضع نفسه ضمن مجتمع بعيد من الرهبان الذين كرّسوا أنفسهم لغرس "الإيمان الحقيقي" في نفوس أعضاء المثي قبيلة التي تتكوّن منها منطقة شرق الكونغو، وهو التزام طموح في أي وقت. وينبغي على أولئك الذين اتهموني بـــين الحـــين والآخـــر بالتهور الإمعان في رحلة والدي العزيز الراحل المارقة على الدرّاجة.

وبمـــساعدة المؤمنين من السكان الأصليين الذين يتكلمون اللغة المحلية، والتي أتقنها بدوره بسرعة، صنع الآجر من الطين الأحمر الذي عجنه بقدميه، وحفر أقنية للري على سفوح التلال، وأنشأ دورات مياه داخل بساتين الموز. ثم جاءت المباني: أولاً الكنيسة، ثم المدرسة مع برج ناقوس الجرسين، ثم عيادة الأم ماري، ثم بحيرات السمك ومزارع الفاكهة والخضار لإمدادهم بما يلزم، وكانت تلك مهنته الحقيقية كفـــلاحٍ في مـــنطقة تتمـــتع بطبيعة غنية سواءً كان المرء يتكلم عن نباتات مثل القريـــسة، والبابايا، والذرة الصفراء، وفول الصويا والكينا، أو فراولة كيفو البرية الأفضل في العالم بلا منازع. وجاء بعد كل هذا منـــزل الإرسالية التبشيرية نفسه، وخلفه بيت صغير من الآجر بنوافذ صغيرة عالية لإقامة موظفي البعثة.

باسم الله، سافر مئات الكيلومترات إلى مناطق بعيدة ومستعمرات التنقيب عن المعـــادن، ولم يـــضعف أبـــداً عندما كانت الفرصة مواتية لإضافة لغة أخرى إلى

مجموعته المتزايدة باضطراد. وعاد يوماً إلى إرساليته ليجد أن زملاءه الرهبان هربوا، وأن الأبقار والماعز والدجاج قد سُرقت، وأنه قد تمّ تدمير المدرسة ومبنى الإرسالية التبشيرية، وتمّ نهب المستشفى واغتصاب الممرضات وذبحهن، ووجد نفسه أسيراً للعناصر الهمجية لسيمبا، وهي مجموعة إجرامية من الثوار الضالّين التي كان هدفها الوحيد - حتى انقراضها الرسمي قبل عدّة سنوات - نشر الموت والفوضى بين كل عملاء الاستعمار، والذين ربما يكون منهم أي شخص يعيّنونه بأنفسهم أو من قبل أرواح أسلافهم المحاربين المتوفين منذ زمن طويل.

كقاعدة عامة، كان من الواضح أن سيمبا توقفت عن إيذاء الكهنة البيض خوفاً من أن يؤدي ذلك إلى تحطيم *داوا* التي تمنحهم حصانة ضد الرصاص. وبكل الأحوال، كان الآسرون في حالة والدي العزيز الراحل سريعين في تنحية تحفظاتهم جانباً، وجادلوا بأنه ما دام يتكلم لغتهم كما يتكلمونها هم، فمن الواضح أنه شيطان أسود متخفٍّ. وكان هناك حكايات مثيرة تناولت ثباته في الأسر. فقد تمّ ضربه بالسوط بشكل متكرر للكشف عن اللون الحقيقي لجلده الشيطاني، وتعذيبه وإجباره على مشاهدة تعذيب الآخرين، وكان يقرأ مقاطع من الإنجيل ويطلب من الله أن يصفح عن معذّبيه. وكان يمشي بين زملائه من الأسرى كلما استطاع، ويزوّدهم بالقربان المقدّس. ولم تكن كل التعاليم الكنسية المقدّسة بكل حكمتها المعهودة مستعدة لمقاومة التأثير المتزايد لتلك الممارسات الهمجية. وساعد انكسار الجسد، كما علمنا، على تعزيز انتصار الروح. ولم تكن تلك هي القضية بالنسبة لوالدي العزيز الراحل، الذي شرح بعد شهور من إطلاق سراحه خطأ نظريته، ولم يكن ذلك موجهاً لوالدتي العزيزة الراحلة وحسب:

"إذا كان هناك هدف كهنوتي في مخيلتك يا بني - استودعني سرّه عندما كان على فراش الموت، وكان يتكلم بلهجة أيرلندية محببة خشية أن يسمعه بقية زملائه الكهنة عبر ألواح أرضية الغرفة - يمكنك إيجاده في كوخ ذلك السجن العفن وفي سوط الجَلْد". وكانت فكرة أنني قد أموت دون معرفة متعة جسد المرأة تعذيباً لم أستطع تحمّله.

* * *

كانت مكافأتها لإنجابي قاسية وغير عادلة بنفس الوقت. وبعد جدال مع والدي، سافرت والدتي إلى قريتها الأصلية على نيّة ولادتي بين عشيرتها وقبيلتها. لكن تلك الأوقات كانت عصيبة على الكونغو، أو كما يصرّ الجنرال موبوتو على تسميتها؛ زائير. وباسم الأصالة، تمّ طرد الكهنة الأجانب بتهمة تعميد الأطفال بأسماء غربية، وتمّ منع المدارس من تعليم حياة السيد المسيح (عليه السلام)، وتمّ إعلان عيد الميلاد يوم عمل عادي. ولهذا لم يكن مفاجئاً أن شيوخ قرية والدتي تكتّلوا ضد إمكانية تنشئة طفل إرسالية أبيض، والذي كان حضوره بينهم سبباً لنزول عقاب فوري بهم، ووفقاً لذلك تمّت إعادة المشكلة إلى المكان الذي جاءت منه.

ولكن كهنة الإرسالية امتنعوا عن استقبالنا أيضاً مثل شيوخ القبيلة، وأرسلوا والدتي عوضاً عن ذلك إلى دير بعيد وصلت إليه قبل ساعات فقط من ولادتي. وكانت ثلاثة شهور من العناية الفائقة بين أيدي أتباع الرهبنة الكرملية أكثر من كافية بالنسبة لها. واقتنعت أنهم في موقع أفضل منها لتوفير مستقبل جيد لي، وهكذا استودعتني رحمتهم، وهربت في جوف الليل بعد أن صعدت إلى سطح الحمام، وتسللت عائدة إلى عشيرتها وعائلتها؛ والتي تعرّضت لإبادة كاملة بعد عدّة أسابيع على يد قبيلة منافسة وصولاً إلى آخر جد، وخال، وقريب وخالة بعيدة وأخ أو أخت غير شقيقة.

همس والدي وهو يبكي: "ابنة زعيم قبيلة يا بني"، عندما ضغطت عليه للحصول على تفاصيل قد تساعدني على تشكيل صورة ذهنية عنها للحفاظ عليها في سنواتي التالية. "اتخذت من سقفه ملجأ لي. وطهت لنا الطعام، وأحضرت لي الماء لأغتسل به. وقد غمرتني بكرمها". وكان عندها يتحاشى الوعظ، ولم تكن لديه رغبة للحروب الكلامية. ورغم ذلك، أضرمت الذاكرة نيران فصاحة الرجل الأيرلندي الكامنة: "طويلة بقدر ما ستكون يوماً ما يا بني! أجمل من كل المخلوقات! كيف يمكنهم، باسم الله، أن يقولوا لي إنك ولدت في الخطيئة؟ لقد ولدت في الحب يا بني! ليس هناك خطيئة، ولكن كراهية!"

العقوبة التي تلقّاها والدي من الكنيسة المقدّسة كانت أقل قسوةً من تلك التي أصابت والدتي، ولكنها أكثر حزماً. وكان عليه قضاء سنة واحدة في إصلاحية

تأهيل يسوعية خارج مدريد، وسنتين أخرتين كقسٍ عامل في أحد أحياء مرسيليا الفقيرة، وبعدها يستطيع العودة إلى الكونغو التي كان يحبها كثيراً. ولا أعرف كيف استطاع تدبّر ذلك الأمر، وربما لم تكن تلك مشيئة الله أيضاً، ولكنه في وقت ما على دربه الحجري استطاع إقناع الميتم الكاثوليكي الذي كنت فيه على تسليمي له. ومنذ ذلك الحين، تبعه الابن الهجين غير الشرعي الذي يدعى سالفو ليتلقّى العناية من الراهبات اللواتي يتمّ اختيارهن بحسب عمرهنّ وقبحهن، بدايةً بهيئة ابن قريب متوفى، ولاحقاً كمساعد للقس وخادم في الكنيسة، حتى حانت ليلة عيد ميلادي العاشر عندما أدرك أنه فانٍ بقدر ما أصبحت كبيراً، وفتح قلبه الإنساني لي كما وصفت آنفاً، وهو ما اعتبرته آنذاك - وما زلت - أعظم مديح يمكن أن يسبغه أب على ابنه الذي لم يخطط لإنجابه.

* * *

لم تمر السنين التي تلت وفاة والدي العزيز الراحل بسهولة على سالفو اليتيم، ويعود ذلك إلى حقيقة أن البعثات التبشيرية البيضاء اعتبرت وجودي المستمر بينهم كجرح متقرّح، وهكذا جاء اسمي المستعار السواحيلي متوتو وا سيري أو الطفل السري. وحافظ الأفارقة على فكرة أننا نأخذ أرواحنا من آبائنا ودماءنا من أمهاتنا، وكانت تلك هي مشكلتي باختصار. وفي حال كان والدي العزيز الراحل أسود، كان الآخرون سيعاملونني كحقيبة زائدة. لكنه كان أبيض بكل معنى الكلمة، رغم ما قد تعتبره سيمبا، والأيرلنديون معهم. وعلاوةً على ذلك، من المعروف أيضاً أن البعثات التبشيرية البيضاء لا تولّد الأطفال. وربما يستطيع الطفل السري خدمة طاولة الكهنة والمذبح، والالتحاق بمدارسهم؛ ولكن عند الأخذ بالحسبان المقام الكنسي الرفيع، تمّ نقله إلى مبنى العمّال في البعثة التبشيرية لإخفائه حتى انتهاء التهديد الذي يشكّله، ولم يكن ذلك انتقاصاً من الأخوية التي تمتلك ذهنية معينة، كما أنه ليس سبباً لإلقاء اللوم عليهم بسبب حماستهم الشديدة في تطبيق تلك الإجراءات. وبخلاف والدي العزيز الراحل، حصروا أنفسهم بالتعامل مع أبناء جنسهم فقط عند محاولة إرضاء شهواتهم: كان بير أندريه، خطيب بعثتنا

التبشيرية الأول، يخصّني باهتمام أكبر مما أستطيع احتماله براحة. كان بير فرانسوا، يحب التفكير بأندريه كصديق مقرّب، ويحسّ بالامتعاض من مشاعره الظاهرة. ولم ترق لي في مدرسة البعثة التبشيرية آنذاك المعاملة الخاصة التي كنا نتلقاها كأقلية من الأطفال البيض، ولا الصحبة التي كان يخصني بها نظرائي المحليون. ولم تكن هناك دهشة إذا تحرّكت بشكل طبيعي تجاه مبنى الإرسالية الصغير المصنوع من الآجر، والذي لم يكن معروفاً للقساوسة أنه المحور الفعلي لجماعتنا، والحرم العالي المقام الذي سيتوقف عنده أي مسافر بشكل طبيعي، ونقطة تبادل المعلومات الشفهية على امتداد أميال حوله.

هناك، متكوراً على نفسي دون أن يلاحظني أحد على فراش خشبي بجانب جدار المدخنة الآجرية، استمعت بشغف إلى حكايات الصيادين المتنقلين، والأطباء المشعوذين، وبائعي التعاويذ، والمحاربين والشيوخ؛ ونادراً ما كنت أجازف بكلمة تصدر عني خوفاً من أن يقوم هؤلاء بربطي إلى السرير. وهناك أيضاً نمت جذور حبي المتزايد دائماً للغات ولهجات منطقة شرق الكونغو. وكنت أكتنزها باعتبارها ميراثاً ثميناً تركه لي والدي العزيز الراحل، وعملت على تقويتها وتنقيحها سراً، وحفظتها في رأسي حماية لي من أخطار ومضايقات السكان المحليين والبعثة التبشيرية على حدٍّ سواء لدرجة أنني بِتُّ أعرف كل لهجة عامية والمعاني المختلفة لكل عبارة. في خلوة غرفتي الصغيرة الخاصة، كنت أضع قواميسي الصبيانية على ضوء الشموع. وسرعان ما أصبحت هذه الأحاجي السحرية هويّتي وملجئي، وفضائي الخاص الذي لا يستطيع أحد أخذه مني وغير مسموح سوى لعدد محدود جداً بدخوله.

تساءلت دائماً، كما أتساءل الآن، عن المسار الذي اتخذته حياة الطفل السري، وهل كان مسموحاً لي الاستمرار في طريق النسك ذاك: فيما إذا تحولت دماء والدتي لتصبح أقوى من روح والدي. ويبقى السؤال أكاديمياً، بكل الأحوال، لأن الإخوة السابقين لوالدي العزيز الراحل كانوا يتآمرون بنشاط للتخلص مني. وكان لون جلدي الذي تسبب لي بالاتهامات، ومواهبي المتعددة في اللغات، وأسلوبي الأيرلندي المعتدّ بنفسه، والأسوأ من كل ذلك المظهر الجيد والذي ورثته،

وفقاً لكهنة الإرسالية التبشيرية، عن والدتي تذكيراً يومياً عن الطرق الضالّة.

وبعد طول تآمر، تبيّن على الأرجح أن ولادتي مسجلة لدى القنصلية البريطانية في كمبالا، وأحمل وفقاً لذلك اسم برونو مجهول باقي الهوية، وأنني لقيط تبناني الحبر الأعظم. ووالدي المزعوم بحار أيرلندي شمالي دفع بي حين كنت طفلاً مولوداً حديثاً إلى عناية رئيسة دير الطائفة الكرملية مع استعطافه لها أن يتمّ تلقيني الإيمان الحقيقي. واختفى بعد ذلك دون أن يترك عنواناً يمكن مراسلته عليه. أو هكذا يقول السجل الغريب والمكتوب بخط يد القنصل الطيب، والذي كان بنفسه مؤمناً كاثوليكياً ورعاً. وتمّ اختيار اللقب سلفادور - كما شرح - من قبل رئيسة الدير نفسها والتي كانت من أصول إسبانية.

لكن لماذا المواربة؟ كنت نقطة رسمية على خريطة سكان العالم، وأنا ممتن دائماً لذراع روما الطويلة الحنونة التي ساعدتني كثيراً.

* * *

وجهتني نفس الذراع الطويلة إلى بلدي غير الأصلي إنكلترا، وتمّ وضعي تحت حماية حرم *القلب المقدّس*، وهي مدرسة داخلية لليتامى الكاثوليك مغموري النسب تقع ضمن مباني حي سوسيكس داونز. وأيقظ وصولي إلى بوابات ذلك المبنى الذي يشبه السجن في ظهيرة يوم قارص من أواخر تشرين الثاني روح التمرد داخلي والتي لم أكن مستعداً لها وكذلك مضيفيّ. في فضاء عدّة أسابيع، تسببت باندلاع النيران في ملاءات سريري، وأفسدت كتاب اللغة اللاتينية الخاص بي، وتغيبت عن القدّاس دون عذر، وتمّ إلقاء القبض عليَّ وأنا أحاول الهرب في مؤخرة شاحنة الغسيل. وإذا كانت جماعة سيمبا قد جلدت أبي في محاولة لإثبات أنه كان أسود، فإن مهارات مدير المدرسة الحارس كانت موجهة لإثبات أنني أبيض. وباعتباره رجلاً أيرلندياً، كان يشعر بالتحدي على وجه الخصوص. الهمجيون - صرخ في وجهي بصوت يشبه الرعد - متهورون بطبعهم. ليس لديهم ضوابط. والضوابط بالنسبة لأي رجل هي الانضباط الذاتي، وفيما كان يضربني ويصلي لأجلي، كان يأمل بأن يعوّض القصور الذي يعتريني. ودون معرفة منه، بكل

الأحوال، كانت المساعدة في متناول اليد على شكل راهب أشيب، ولكنه نشيط، والذي تخلّى عن إنجاب الأطفال واكتساب الثروة.

كان الأخ مايكل المدافع الجديد عني والمعيّن لسماع الاعترافات، سليل طبقة كاثوليكـــية إنكليـــزية عريقة. وقادته أسفاره التي استمرت طوال حياته إلى أبعد أصـــقاع الأرض. وكـــبرت في العمر معتاداً على لطفه، وأصبحنا صديقين مقرّبين وحليفين، وبالتوازي مع ذلك، تراجعت ملاحظات مدير المدرسة، سواء كان ذلك نتيجة لتحسّن سلوكي، أو كما أشك الآن أنه كان نتيجة اتفاق في ما بينهما، وهو ما لم أعرفه أو أهتم به. وفي نـــزهة منعشة وحيدة بعد ظهيرة أحد الأيام عبر حي داونـــز الذي غسلته الأمطار، والتي تخللها إظهار للعواطف، أقنعني الأخ مايكل أن عرقـــي المختلط، بعيداً عن كونه وصمة يجب طمسها، كان هدية الله الثمينة لي، وهـــي وجهـــة نظر وافقته عليها بامتنان. وأفضل ما في الأمر أنه أحب قدرتي - التي كـــنت قادراً تماماً على إبرازها أمامه - على التحول بسهولة متناهية بين لغة وأخرى. وفي منـــــزل الإرسالية - كنت قد دفعت الثمن غالياً لإظهار مهاراتي - ولكن تحت نظرات الأخ مايكل الشغوفة، اكتسبت تلك المهارات حالة قريبة من القداسة:

وصـــرخ فـــيما كانت إحدى قبضتيه تخرج من ردائه الكهنوتي لتلكم الهواء، والأخـــرى تفـــتش ضمن ملابسي: "إنها نعمة عظيمة أيها العزيز سالفو، وتصلح لتكون جسراً، أو صلة لا بد منها، بين الأرواح المناضلة؟ لتجمع الرعية معاً بتناغم وتفاهم مشترك؟"

وســـرعان مـــا ســـردت لمايكل ما لم يكن يعرفه من تاريخ حياتي في سياق محادثاتنا. وأخبرته عن ليالي السحر التي قضيتها بجانب النار في مبنى خدم الكنيسة. ووصفت له رحلاتي مع أبي - في سنواته الأخيرة - إلى قرية نائية. وأخبرته أنه فيما كـــان يـــتفاوض مع شيوخها، كنت أتجه إلى ضفة النهر مع الأطفال لأتعلم منهم الكلمـــات والمصطلحات التي كانت تستحوذ عليّ ليل نهار. وربما كان الآخرون ســـيبحثون عن الألعاب القاسية، أو الحيوانات والنباتات البرية، أو يتطلّعون لتعلم الـــرقص المحلـــي كأسلوب لبلوغ السعادة، لكن سالفو الطفل السري كان يتطلّع للتآلف مع الصوت الأفريقي بأشكاله واختلافاته المتنوعة.

وفي الوقت الذي كنت أتذكّر فيه تلك المغامرات وما شابهها، حصل الأخ مايكل على هبة الغطّاس.

وصرخ: "فيما الله سعيد بما يراه فيك يا سالفو، دعنا نحصد النتائج معاً!"

وقمنا بالحصاد فعلاً. وبإظهار مهارات تناسب قائداً عسكرياً أكثر من راهب، درس الأرستقراطي مايكل البيانات، وقارن الأجور، ودفعني نحو المقابلات، وتفحّص مدرّسيّ الخاصين المحتملين، رجالاً ونساءً، ووقف إلى جانبي فيما كنت أجهّز نفسي. وكانت أهدافه، التي يوقدها الإعجاب، راسخة مثل إيمانه. وكان عليَّ الخضوع لمرحلة تأسيس رسمية في كل لغة أعرفها. وكان عليَّ إعادة اكتشاف تلك اللغات التي سقطت في مجرى طفولتي الجوّالة على جانب الطريق.

كيف يمكن تغطية مصاريف كل هذا؟ عن طريق مبلغ معيّن ترسله لنا شقيقة مايكل الثرية إيملدا التي تمتلك منزلاً كبيراً مطلياً بلون عسلي ذهبي، والذي يقع في وسط سومرست، والذي أصبح محجاً لي بعيداً عن البعثة التبشيرية. وفي ويلوبروك، حيث ترعى الخيول الصغيرة في الحقول الخضراء، ولكل كلب مكانه الخاص به، تعيش ثلاث شقيقات ودودات أكبرهن سناً إيملدا. وكانت هناك كنيسة صغيرة خاصة، وجرس تبشير، وسياج منخفض، ومنزل جليدي، وحديقة لعب، وأشجار زيزفون متدلية تنحني أثناء العاصفة. وكانت هناك غرفة العم هنري، لأن العمة إيملدا كانت أرملة بطل حرب يدعى هنري والذي استطاع وحيداً جعل إنكلترا مكاناً آمناً لنا، وكان كل شيء يتعلق به موجوداً هناك من دبه الدمية الذي يستلقي على وسادته إلى *رسالته الأخيرة* من الجبهة الموضوعة في إطار ذهبي. لكن الحمد لله أنه لا توجد صورة. وتتذكر العمة إيملدا – التي كانت متكلفة في تعاملاتها ورقيقة بمشاعرها – هنري بشكل جيد جداً، وكانت تبقيه لنفسها بتلك الصورة.

* * *

ولكن الأخ مايكل كان يعرف نقاط ضعفي أيضاً. وكان يعرف أن الطفل الأعجوبة – كما كان يراني – يجب أن يتمّ كبح جماحه بالإضافة إلى تربيته. وكان

يعـــرف أنني مجتهد ولكن متهور: متلهف كثيراً لمنح ما أملكه لأي شخص يكون لطـــيفاً معـــي، وأخاف كثيراً من رفض الآخرين أو تجاهلهم لي، والأسوأ من كل ذلـــك من أن يضحكوا عليَّ، وسريع جداً في قبول ما قد يعرضونه عليَّ خوفاً من عـــدم حصولي على فرصة أخرى. وكان يعتزّ - مثلي تماماً - بأذن طائر الزرزور الاســـتوائي (طائر أسود كبير يتعلم الكلام) وذاكرة غراب الزّرع اللتين أتمتع بهما، ولكنه يصرّ على أن أستخدمهما بعناية كما يفعل الموسيقي مع أدواته، والكاهن مع إيمانه. وكان يعرف أن كل لغة عزيزة عليَّ، ليس فقط البليغة منها، ولكن البسيطة أيـــضاً والمحكـــومة بالمـــوت لافتقارها إلى شكل مكتوب؛ وكان ينبغي على ابن الإرســـالية الجري خلف الخراف التائهة وإعادتها إلى القطيع؛ وسمعت بتلك اللغات الأساطير، والتاريخ والخرافات والشعر، وكنت أتخيل صوت أمي يُدخل البهجة إلى نفسي بحكايات الأشباح. وكان يعرف أن شاباً يفتح أذنيه لكل اختلاف أو عطف إنـــساني ســـيكون سهل التأثّر بأفكار الآخرين وأكثر طوعاً وبراءة ويمكن تضليله بسهولة. وكان سيقول لي: "سالفو توخَّ الحذر. هناك أشخاص في العالم الخارجي لا يمكن سوى لله أن يحبهم".

تـــسبّب مايكل أيضاً، بإجباري على سلوك طريق الانضباط، وذلك بتحويل مهـــاراتي الاستثنائية إلى آلة متعددة الاستعمالات. ولم يكن من المسموح هدر أي جـــزء من سالفو، وأصرّ على عدم السماح لأي شيء بأن يعلوه الصدأ نتيجة عدم الاستعمال. فيجب أن تعمل كل عضلة ونسيج من موهبتي الإلهية يومياً في التدريب الـــذهني، أولاً عن طريق المدرّسين الخصوصيين، وبعد ذلك في "مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية" في لندن، حيث حصلت على المركز الأول مع مرتبة الشرف في الـــثقافة واللغـــة الأفريقية، وتخصصت في اللغة السواحيلية مع الفرنسية كمرجع. وأخـــيراً في إدنـــبورغ، حـــصلت علـــى إكليل الغار: درجة ماجستير في الترجمة والخدمات العامة.

في نهايـــة دراستي، حصلت على شهادات وأنجزت ترجمات تفوق نصف ما تقدّمه وكالات الترجمة من خدمات وضيعة على طول تشانسري لين. وكان الأخ مايكـــل، الذي توفي على سريره الحديدي، قادراً على لمس يدي والتأكيد لي أنني

مـــشروعه الأروع، وتقديـــراً لذلك منحني ساعة يد ذهبية، وهي هدية جاءته من إيملدا وحفظها الله بين يديه، وتوسّل إليّ الاحتفاظ بها سليمة في كل الأوقات كرمز لعلاقتنا بعد موته.

* * *

لا تخطـــئ أبداً من فضلك، أنت لست مجرد مترجم وإنما مفسّر بارع. المفسّر مترجم، هذا صحيح، لكن العكس ليس صحيحاً. وقد يكون المترجم أي شخص يمـــتلك مهارة لغوية محدودة وقاموساً ومكتباً يجلس عليه فيما يحرق سراج منتصف الليل: ضباط سلاح الفرسان البولنديون المتقاعدون، وطلاب ما وراء البحار الذين لا يتلقون رواتب كافية، وسائقو سيارات الأجرة، والندّل بدوام جزئي، والمعلمون الـــبدلاء، وأي شخص آخر مستعد لبيع روحه مقابل سبعين جنيهاً. والمترجم ليس لديه أي قاسم مشترك مع المفسّر الذي يكدح خلال ست ساعات من المفاوضات المعقّـــدة. ويجب على المفسّر البارع أن يفكّر بسرعة فتى الأرقام الذي يرتدي سترة ملوّنة ويتعامل في البورصة المالية. وسيكون من الأفضل أحياناً أن لا يفكّر إطلاقاً، وإنما يأمر المسننات الدوّارة على جانبـــي دماغه بالتنسيق معاً، ثم يسترخي وينتظر رؤية ما يخرج من فمه.

يـــأتي إليّ الـــناس أحياناً خلال المؤتمرات عادةً في نهاية اليوم الحافل بين انتهاء العمل وحفلة الكوكتيل. "مرحباً يا سالفو، احسم لنا مسألة نتناقش بها، ما هي لغة والدتك؟" وإذا اعتقدت أنهم متكبّرون قليلاً، وهم كذلك عادةً لأنهم أقنعوا أنفسهم آنـــذاك بـــأنهم أكثر الأشخاص أهمية على وجه الكوكب، سأحوّل السؤال إليهم. وأجيب بتلك الابتسامة الغامضة التي أملكها: "يعتمد ذلك على هوية والدتي، أليس كذلك؟" وبعد ذلك يتركونني مع كتابي.

لكني أحب أن يتساءلوا، ويبدو لي أنني أستخدم صوتي بشكل مناسب. وأعني صـــوتي الإنكليزي. إنه ليس مترفعاً أو متجهماً أو حتى مُدرّباً. وليس ملكياً فخماً، أو يتّـــبع أصول اللفظ الصحيح الذي يسخر منه اليسار البريطاني. إنه – في حال كان يتمتع بأي شيء على الإطلاق – محايد بشدة، وبعيد تماماً عن المجتمع الناطق

بالإنكليزية. إنها ليست الإنكليزية التي يصفها الناس: "آه، إنها المنطقة التي تمّ إجباره على الدخول إليها، والمنطقة التي يريد البقاء فيها، والتي كان والداه بها من قبل، إنه رجل فقير ولهذا ذهب إلى المدرسة". إنها – بخلاف لغتي الفرنسية، التي أبذل بها كل جهد، والتي لن تتخلص تماماً من عبئها الأفريقي – لن تفضح أصولي المختلطة. إنها ليست مناطقية، أو متداخلة اللهجات وتتظاهر باللطف، أو تشبه لهجة سكان لندن الأصـــليين المحافظين، أو قريبة من لغة أهل الكاريبـــي. وليس فيها الكثير من آثار حروف العلّة الغابرة التي تميّز اللهجة الأيرلندية لوالدي العزيز الراحل. لقد أحببت صوته، وما زلت، لكنه كان صوته وليس صوتي.

لا. اللغـــة الإنكليـــزية التي أتحدّث بها فصيحة، وبسيطة ولا تتميز بأي شيء معـــين ما عدا صفات جمالية تظهر أحياناً: إيقاع لهجات الصحراء الكبرى، والتي أشير إليها على سبيل المزاح بنقطة الحليب في القهوة. أحببت ذلك الإيقاع، وأحبه الزبائن أيضاً. وكان يمنحهم شعوراً بأنني مرتاح مع نفسي. ولست في معسكرهم، ولكـــنني لست في معسكر الآخرين أيضاً. إنني ملتزم في مكاني هناك في المنتصف تماماً، وأصبحت ما كان الأخ مايكل يقول دائماً إنني يجب أن أكونه: الجسر، صلة الوصـــل الـــتي لا يمكن الاستغناء عنها بين الأرواح المناضلة. لكل إنسان طموحه، وطموحـــي أن أصـــبح الـــشخص الـــذي لا يستطيع أحد فعل شيء بدونه في الاجتماعات.

ذلك هو الشخص الذي أردت أن أكونه لزوجتي الفاتنة بينلوب، وكدت أتسبب بقتل نفسي وأنا أصعد مسرعاً على الدرجات الحجرية في محاولتي اليائسة حتى لا أتأخر عـــن الحفـــل الذي يقام على شرفها في غرف الطابق الأعلى لمصنع أنيق للشراب في كـــناري ورف في لـــندن، عاصمة صناعة الصحافة البريطانية العظيمة، والذي يسبق عشاءً رسمياً تحضره نخبة مختارة في منـــزل كنسنغتون، مالك صحيفتها المليونير الجديد.

* * *

التأخر لنحو اثنتي عشرة دقيقة على ساعة العمة إيملدا الذهبية – ربما تقول – وبالنـــسبة لكل المظاهر الخارجية الموجودة في هو المنـــزل، التي يمكن اعتبارها في

لندن الخائفة من انفجار القنابل في نصف محطة قطار الأنفاق إنجازاً، لكنها بالنسبة لسالفو، الزوج المخلص بإفراط، ربما تبدو مثل اثنتي عشرة ساعة. إنها ليلة بينلوب العظيمة، والأكبر في سيرتها المهنية لغاية هذا الوقت، وأنا زوجها، الذي ينبغي عليه العناية بكل الضيوف، تأخرت عن الدخول إلى مكاتب صحيفتها. ومن مستشفى مقاطعة شمال لندن حيث كنت محتجزاً بشكل لا يمكن الهروب منه منذ الأمسية السابقة نتيجة ظروف خارجة عن سيطرتي، ركبت سيارة أجرة في طريقي إلى المنزل في باترسي. وطلبت من السائق الانتظار، فيما ارتديت على وجه السرعة بدلتي الرسمية التي تحمل علامة دو ريغوار للجلوس إلى مائدة المالك، دون أن تكون لديّ الفرصة لحلاقة ذقني أو الاستحمام أو حتى تنظيف أسناني. وفي الوقت الذي وصلت فيه إلى المكان المنشود وفي الزي المناسب، كنت أتصبب عرقاً قذراً، ولكنني بشكل ما تمكّنت من الوصول لإثبات وجودي؛ وكانوا جميعاً هناك، ويبلغ عددهم مئة أو أكثر من زملاء بينلوب المختلفين، والقليل منهم يرتدي البدلات الرسمية والفساتين الطويلة، والآخرون في ملابس عادية أنيقة. كانوا جميعهم محتشدين في غرفة في الطابق الأول ذات إضاءة خافتة ودروع بلاستيكية على الجدار، ويرتشفون شراباً أبيض دافئاً ومرافقهم مرفوعة للأعلى، والتزمت بصفتي الوافد المتأخر بالوقوف إلى جانب الندّل، الذين كان معظمهم سود البشرة.

لم أستطع رؤيتها لأبدأ بتحيتها. واعتقدت أنه أصابها ما أصاب زوجها. ثم انتابتني لحظة أمل بأن تكون قد قرّرت الدخول بشكل متأخر إلى الحفلة، حتى رأيتها تحشر نفسها في الطرف الآخر من الغرفة وتشترك في محادثة مفعمة بالحيوية والنشاط مع كبار موظفي صحيفتها، وترتدي ثوباً من الساتان الحريري الناعم الذي لا بد أنها ابتاعته بنفسها كهدية لها وارتدته في مكتبها أو في أي مكان كانت فيه قبل أن تأتي إلى الحفل. لماذا، لماذا – صرخ أحد جانبي رأسي – لم أشترهِ لها؟ لماذا لم أقل لها قبل أسبوع عند تناول الفطور أو في الفراش – مفترضاً وجودها هناك لأستطيع قول ذلك لها – عزيزتي بينلوب، لديَّ فكرة رائعة، لنذهب إلى نايتبريدج معاً وننتقي ملابس جديدة لمناسبتك الكبيرة، على حسابي؟ إنها تحب التسوق أكثر من أي شيء آخر. كنت أستطيع صنع مناسبة من ذلك، وأن ألعب

دور الرجل النبيل المعجب بها، وأدعوها للعشاء في أحد المطاعم المفضلة لديها، ولا أهتم إطلاقاً بأنها تجني مالاً أكثر مني بمرتين، إضافة إلى مخصصات إضافية لا يمكنك تصديقها.

ومن جانب آخر، ولأسباب يمكن الكشف عنها في لحظة مناسبة أخرى، كان هناك جانب آخر من رأسي في غاية السعادة لأنني لم أقدّم مثل ذلك العرض، رغم أن الأمـــر لا علاقـــة له بالنقود على الإطلاق، لكنه يتعلق بالأفكار المتناقضة التي تنتاب الدماغ البشري عندما يتعرض للضغط.

قرصـــتني يد غير معروفة في ردفي، واستدرت لأجد نظرة سعيدة من جيلوك، المعـــروف باسم جيلي، الشاب الذي يمثّل أمل الصحيفة، والذي انضم إليها مؤخراً مـــن صحيفة منافسة. كان نحيلاً، ومزاجياً كالعادة، ويحمل لفافة تبغ ملفوفة يدوياً بين الصغرى والإبهام.

صـــرخت متجاهلاً الرجل: "بينلوب، هذا أنا، نجحت في المجيء! قضيت وقتاً عصيباً في المستشفى. آسف جداً!"

آسف على ماذا؟ على قضاء وقت عصيب؟ واستدارت بعض الرؤوس تجاهي. *إنـــه هو، سالفو. رمّاح بينلوب*. وحاولت الصراخ بصوت أعلى، وبطريقة ذكية: "مـــرحباً بينلوب! هل تتذكرينني؟ إنه أنا، زوجك"، واستجمعت قواي كلها لأبدأ سرد قصة متقنة حول كيفية قيام إحدى مستشفياتي - لن أحددها لأسباب أمنية - باســـتدعائي لأكـــون إلى جانب رجل رواندي ذي تاريخ إجرامي وهو يحتضر، ويـــستيقظ ويغيب عن الوعي باستمرار، مما تطلب مني ترجمة ليس ما يقوله كادر التمريض وحسب ولكن ما يقوله اثنان من محققي سكوتلنديارد أيضاً، وهي ورطة كـــنت آمـــل أن تأخـــذها بالاعتبار: المسكين سالفو. ورأيت ابتسامة باهتة تعلو وجههـــا، واعـــتقدت أنني أستطيع التوجه نحوها حتى أدركت أنها تبتسم للرجل صـــاحب العـــنق الثخين الذي كان يقف على كرسي مرتدياً بدلة سهرة ويصرخ بلهجة اسكتلندية: *"هدوء، اللعنة عليكم! يجب أن تخرسوا، جميعكم!"*

ســـكت الحضور الجموح حالاً، وتجمّعوا حوله في طاعة عمياء. وكان ذلك الـــرجل رئـــيس تحريـــر بينلوب الواسع النفوذ فيرغس ثورن، والمعروف في دوائر

الصحافة باسم ثورن البوق، يعلن أنه يقترح إلقاء خطبة ظريفة عن زوجتي. وتملّكني الأمـل، وفعلت كل ما في استطاعتي لأجعل عينيها تقعان عليَّ، لكن الوجه الذي كنت أسعى للحصول على السماح منه ارتفع إلى مديرها مثل زهرة تتجه إلى أشعة الشمس التي تمنحها الحياة.

أخـذ ثـورن البوق يقول لينتزع ضحكة تملّق أزعجتني: "الآن جميعنا نعرف بينلوب، ونحب بينلوب - توقف ذو مغزى - كلٌّ من موقعه الخاص".

كنت أحاول شق طريقي عبر الحشد للوصول إليها، لكن الصفوف ازدحمت وتمّ الدفـع ببينلوب نحو الأمام مثل عروس خجولة حتى وقفت بخضوع عند قدمي السـيد ثـورن، مما مكّنه من إلقاء نظرة ثاقبة على مقدمة فستانها المكشوف تماماً. وبدأ يجول في خاطري أنها ربما لم تلحظ غيابي، ناهيك عن حضوري، عندما تحوّل انتباهـي بما شخّصته على أنه قضاء الله الذي أصابني على شكل أزمة قلبية. فلقد كـان صـدري يخفق بعنف، واستطعت الشعور بخدر ينتشر على شكل موجات متتالية من حلمة صدري اليسرى، واعتقدت أن وقتي قد حان وأنها النهاية. وفقط عـندما وضعت يدي على المنطقة المصابة أدركت أن هاتفي الخليوي يرنّ بوضعية الاهتزاز غير المألوفة، والتي ضبطته عليها عندما غادرت المستشفى قبل ساعة وخمس وثلاثين دقيقة مضت.

تحوّل ابتعادي عن الازدحام آنذاك إلى أفضلية لي. فيما كان السيد ثورن يعبّر عن ملاحظاته التي تحمل معنيين مختلفين حول زوجتي، كنت قادراً على المشي على أطـراف أصـابعي تجاه باب عليه علامة *دورة مياه*. وفيما كنت أستفيد من هذا المخـرج، نظرت للخلف مرة أخرى لأشاهد بينلوب التي سرّحت شعرها بشكل جديد ترفع رأسها نحو مديرها، وقد افترقت شفتاها بدهشة سارة، وظهر صدرها داخـل القسم الأعلى المكشوف من فستانها. وتركت هاتفي يستمر في الرنين حتى نـزلت ثـلاث درجات إلى ممر هادئ، وضغطت على الزر الأخضر والتقطت أنفاسي. ولكن عوضاً عن سماع الصوت الذي كنت أتوق له، حصلت على صوت أجش يتكلم بلهجة أهل شمال البلاد والذي كان صاحبه يدعى السيد أندرسن من وزارة الـدفاع، وكـان يرغب بمعرفة فيما إذا كان لديَّ وقت لأشترك في ترجمة

حيوية لبلادي خلال وقت قصير، وهو ما يأمل بإخلاص أن يكون متوفراً لي.

يجـب أن يدعو السيد أندرسن ذاك بالعمل الجزئي فقط، مثلما كنت بنفسي أحـدّد أهمية الأزمة الراهنة. وكان بارني يتصل بي عادة، وهو مديره المتّقد حيوية. ووضـعني بـارني مرتين خلال الأيام العشرة الأخيرة على أهبة الاستعداد لما كان يدعوه مهمة ساخنة، فقط ليخبرني بعد ذلك أنني أستطيع الاسترخاء.

"الآن يا سيد أندرسن؟"

اسـتمر يقول: "هذه اللحظة. كلما كان أسرع كان أفضل، إذا كان ذلك ملائمـاً. آسف لمقاطعتك عن حفلة الكوكتيل وكل تلك الأشياء، لكننا نحتاجك بسرعة"، وافترضت أنني يجب أن أتفاجأ بأنه يعرف حول حفلة بينلوب، لكنني لم أكـن كذلك. وكان السيد أندرسن رجلاً جعل من معرفة أشياء ينكرها الفانون المتواضعون عملاً له. "إنها بلادك الأم يا سالفو، إنه وطنك".

"لكن يا سيد أندرسن؟"

"ما الأمر يا بني؟"

أضفت للتأثير عليه: "إنها ليست حفلة كوكتيل تخصها وحسب. هناك أيضاً حفلة عشاء المالك الجديد التي ستتبعها. حفلة رسمية. إنها سابقة. بالنسبة إلى مالك الـصحيفة، أعـني. رئيس التحرير، نعم. لكن المالك...". يمكنك أن تدعو ذلك شعوراً بالذنب، أو مشاعر رقيقة؛ فأنا مدين لبينلوب بإظهار مقدار من الممانعة.

تبع ذلك فترة صمت كما لو أنني خذلته، ولكن لا أحد يفعل ذلك مع السيد أندرسن، إنه الصخرة المبنية عليها معتقداته الخاصة.

"هل ذلك ما ترتديه، هل هو كذلك يا بني؟ لباساً رسمياً؟"

"إنه كذلك بالفعل يا سيد أندرسن".

"الآن؟ فيما نحن نتكلم؟ هل ترتديه الآن؟"

"نعـم". ماذا كان يقصد؟ أنني أحضر حفلة عربدة؟ "كم ستطول على أي حال؟" سألت نفسي في الصمت الذي تلا ذلك، والذي تعمّق - كما اعتقدت - نتيجة لوضعه يده الضخمة على سماعة الهاتف.

"كم سيطول ماذا يا بني؟" كما لو أنه أضاع رأس الخيط.

"المهمة يا سيدي. العمل العاجل الذي تحتاجني لتأديته. كم سيطول؟"

"يـــومان. اعتبرها ثلاثة أيام لتكون في الجانب الآمن. سيدفعون مقداراً جيداً من المال، أو من المتوقع ذلك. خمسة آلاف دولار أميركي لن تكون مبلغاً كبيراً". وبعـــد مـــشاورات لم أستطع سماعها، وبلهجة مرتاحة: "يمكنهم تقديم الملابس يا سالفو. أخبروني أن الملابس ليست مشكلة".

انتبهت إلى استخدامه صيغة المجهول، وكنت أحب سؤاله عمّن يكون هؤلاء الذين يقدّمون لي هذه المكافأة غير المتوقعة أبداً كمقدّم أتعاب، إضافة إلى ساعات من العمل المضني للحصول على شرف المساهمة في حماية البلاد، لكنّ سبباً ما منعني من ذلك، وهو ما يحدث مع السيد أندرسن عادةً.

التمست القول: "لديَّ عمل في المحكمة العليا يوم الاثنين يا سيد أندرسن. إنها قـــضية كبيرة". والتمست عذراً يخصّ زوجتي للمرة الثالثة والأخيرة: "أعني، بماذا سأخبر زوجتي؟"

"تمّ إيجـــاد بـــديل لك يا سالفو، والمحكمة العليا مرتاحة للإجراءات الجديدة، شكراً لك". وتوقف عن الكلام، وعندما يفعل السيد أندرسن ذلك، ينبغي أن أفعل الشيء نفسه. "بالنسبة لزوجتك، يمكنك أن تقول إن إحدى الشركات الموكلة منذ زمن طويل تطلب خدماتك على وجه السرعة، ولا تستطيع تخييب أملهم".

"حسناً يا سيدي، مفهوم".

"إيضاحات أخرى ستربك عملك، لهذا لا تحاول الحصول على أي منها تحت أي ظـــرف. أنـــت تـــرتدي بدلة كاملة، أليس كذلك؟ الحذاء اللامع، والقميص الرسمي، والباقي؟"

وعبر حيرتي التي جعلتني أدور مثل الدوّامة، اعترفت أنني أرتدي البدلة كاملة.

"ما لا أسمعه هو أحاديث الحفلة الفارغة في الخلفية؟"

وشرحت أنني نقلت نفسي إلى ممر هادئ لتلقّي هذه المكالمة.

"هل هناك مخرج منفصل قريب منك؟"

كانت هناك سلالم مكشوفة أمام أقدامي، وفي وسط حيرتي كان ينبغي عليَّ قول ذلك.

"إذاً لا تعـــد إلى الحفلة. وعندما تخرج إلى الشارع، انظر إلى يسارك وسترى ســـيارة مونديـــو زرقاء متوقفة خارج محل مراهنات. آخر ثلاثة أحرف من لوحة التسجيل هي *إل* – *تي* – *يو*، واسم السائق الأبيض فريد. ما هو مقاس حذائك؟"

لا ينـــسى أي إنسان على وجه الأرض مقاس حذائه، لكن كان عليَّ الغوص عميقاً في ذاكرتي لأتذكّره. تسعة.

"هل القالب عريض أم نحيف؟"

قلت له: "عريض يا سيدي. وربما كنت أستطيع القول أيضاً إن الأخ مايكل كان يقول لي إن لديَّ قدمين أفريقيتين، لكني لم أفعل ذلك. ولم يكن تفكيري مع الأخ مايكل أو قدميّ، الأفريقيتين أو خلاف ذلك. ولم يكن أيضاً مع مهمة السيد أندرســـن التي تتمتع بأهمية قومية حيوية، رغم أنني كنت متلهفاً كما دائماً لخدمة بلدي. وكان هناك شعور يخبرني أنه خارج الفردوس المنشود سأحصل على المفتاح لـــنجاتي، إضـــافة إلى حجرة لإزالة الضغط والتي ستوفّر لي يومين من العمل المنتج وليلـــتين من التأمل المنعزل في فندق فخم فيما أقوم بتجميع قطع فضائي الضائع. وأثناء عملية إخراج هاتفي الخليوي من الجيب الداخلي لسترتي الرسمية ووضعه على أذني، شممـــت رائحـــة جسد ممرضة أفريقية سوداء في المستشفى تدعى حنا والتي مارســـت معهـــا حـــباً جامحاً بدأ بعد وقت قصير من الساعة الحادية عشرة مساءً بتوقـــيت بريطانيا الصيفي في الليلة السابقة، واستمر إلى لحظة مغادرتي قبل ساعة وخمـــس وثلاثين دقيقة مضت، ولم أستطع الاغتسال لعجلتي في الوصول إلى حفلة بينلوب في الوقت المناسب.

2

لست ممن يؤمنون بنذر الشؤم، والعرافة، والكهانة أو السحر الأبيض أو الأسود، رغم أنك تستطيع المراهنة بمالك بأن كل ذلك موجود في مكان ما من دماء والدتي. وتبقى الحقيقة أن طريقي إلى حنا كان مليئاً بالإشارات، ولم يكن الأمر يستلزم أكثر من عينين لأرى ذلك، ولكني لا أملك البصيرة.

كانت الإشارة الواضحة الأولى في أمسية يوم الاثنين الذي سبق الجمعة الفاصلة التي كنت أتحدث عنها آنفاً، في تراتوريا بيلا فيستا في شارع منتزه باترسي، حيث لم أكن أستمتع بتناول وجبة بمفردي من الكانيلوني (طبق إيطالي من العجين والسبانخ) والشراب الإيطالي. وكنوع من التحسين الذاتي، أحضرت معي نسخة ورقية من كتاب أنتونيا فريزر **كرومويل، رئيس رجالنا**، وهي رواية تاريخية تشكّل نقطة ضعف في ترسانة أسلحتي، والتي كنت أسعى لإصلاحها تحت الإشراف الكريم من السيد أندرسن، والذي كان بنفسه طالباً نجيباً في قصة جزيرتنا. وكان المطعم الإيطالي خالياً ما عدا طاولتين: الكبيرة في الفسحة بين عامودين، والتي كانت تشغلها مجموعة صاخبة من القرويين القادمين من خارج المدينة، إضافة إلى طاولة صغيرة مخصصة للقلوب الوحيدة، والتي كان يشغلها في تلك الأمسية رجل نبيل أنيق المظهر، ربما يكون متقاعداً وذا مكانة رفيعة. ولاحظت حذاءه الذي كان لامعاً بشكل لافتٍ للنظر. ومنذ كنت في الإرسالية التبشيرية، كنت مشهوراً بالأحذية اللامعة.

لم أكن أقصد تناول كانيلوني مسخّن. وكان ذلك اليوم يصادف الذكرى الخامسة لزواجي من بينلوب، وعدت إلى البيت في وقت باكر لأحضّر لها عشاءها المفضل **كوك - او - فين** المصحوب بقارورة من الشراب الفاخر، إضافة إلى **بري** (جبن فرنسي) مقطّع إلى حجم معلباتنا. وكان يجب أن أكون معتاداً آنذاك على

نـــــزوات عـــالم الصحافة، لكن عندما اتصلت بي متلبساً - كنت متلبساً في نقع قطع الدجاج - لتخبرني أن هناك أزمة تواجه الحياة الخاصة لأحد نجوم كرة القدم، وأنها لن تعود إلى المنـــزل قبل منتصف الليل، تصرفت بطريقة أذهلتني بعد ذلك.

لم أصرخ، لأنني لست من ذلك النوع. كنت هادئاً، ومتفهماً وبريطانياً أسمر البـــشرة. كان لديَّ تحفظات، غالباً أكبر مما لدى أولئك الذين كنت أستوعبهم. ووضـــعت *سماعة الهاتف بلطف*. ثم دون تفكير إضافي أو تعمّد، وضعت الدجاج، وجبن البري والبطاطا المقشّرة في آلة التخلص من المهملات، ووضعت إصبعي على زر التـــشغيل وأبقيته هناك، ولا أستطيع تحديد المدة، ولكنها أطول مما ينبغي تقنياً علـــى اعتـــبار أن هناك دجاجة يافعة تقاوم قليلاً. واستيقظت مجدداً، لأجد نفسي أمـــشي بنشاط غرباً في شارع أمير ويلز مع نسخة من كتاب **كرومويل** في جيب سترتي.

كـــان هناك ستة أشخاص يتناولون العشاء إلى مائدة بيضوية في بيلا فيستا، وثلاثـــة رجال أقوياء البنية يرتدي كل منهم سترة فضفاضة وإلى جانبهم زوجاتهم اللـــواتي يضاهينهم وزناً، وكان واضحاً أنهم جميعاً معتادون على الأشياء الجيدة في الحياة. وسرعان ما عرفت أنهم يتحدّرون من ريكمانسورث، سواء رغبت بذلك أم لا، وأنهـــم يدعونها ريكي. وكانوا يُحضّرون حفلة في الهواء الطلق عن ميكادو - لقب إمبراطور اليابان - في منتزه باترسي. واعترض الصوت المهيمن، والذي كان لإحدى الزوجات، على الإنتاج. لم تهتم باليابانيين إطلاقاً من قبل - أليس كذلك يا عزيزي؟ - وحقيقة أن لديهم أغاني يؤدونها لا تجعل منهم شعباً لطيفاً. ولم يكن كلامهـــا يميز بين المواضيع، وإنما يستمر على نفس الوتيرة. وكانت تتوقف أحياناً لالتقاط ما يفوتها من أفكار، وكانت تتلعثم قبل أن تتابع حديثها، لكنها لم تتعرض للإزعـــاج لأنـــه لم يكن أحد متهوراً ليقاطعها. ومن ميكادو، تحوّلت دون التقاط أنفاسها أو تغيير نغمة صوتها إلى عمليتها الجراحية الأخيرة. فلقد أجرى لها الطبيب النـــسائي كشفاً كاملاً، ولكن ذلك غير مهم فقد كان صديقاً شخصياً، وقرّرت عـــدم مقاضـــاته. ومن هناك انتقلت بسلاسة إلى صهرها الفنان غير المقنع، وهو شـــخص كسول لم يسبق لها أن رأت مثله في حياتها. وكانت لديها آراء أخرى،

وكلـــها قوية، وكانت تبدو جميعها مألوفة خصوصاً بالنسبة لي، وكانت تعبّر عنها بـــصوت عالٍ عندما طوى الرجل النحيل الذي ينتعل الحذاء اللامع قسمي صحيفة ديلي تلغراف، وضرب طاولته بالأوراق المطوية معاً مرة وثانية وثالثة وأخيرة لجلب الحظ.

وأعلـــن بتحدٍّ على الملأ: "سأتكلم. أدين بذلك لنفسي. ولهذا يجب أن أفعل ذلك". إفادة عن المبدأ الشخصي، الذي يوجهه لنفسه وليس لأحد آخر.

وتوجّه بعد ذلك إلى أضخم الرجال الثلاثة الأقوياء البنية. وعلى اعتبار أن بيلا فيستا مطعم إيطالي، فإن أرضيته فسيفسائية ولا توجد فيه ستائر. والسقف المصنوع من الجص منخفض وشديد الانحدار. وفي حال لم يسمعوا إعلان نواياه، فلا بد أنهم سمعـــوا على الأقل وقع صوت حذائه اللامع على الأرضية فيما كان يقترب منهم، لكن الزوجة المسيطرة كانت تعاملنا مثل تمثال جامد دون حراك. وتطلب الأمر من الرجل النبيل قول كلمة سيدي عدّة مرات بصوت عالٍ ليلفت الانتباه إلى وجوده.

ثم كرّر "سيدي"، وتحدّث كما لو أنه يتقيد بالأصول الدبلوماسية مباشرة إلى رأس الطاولة. "أتيت إلى هنا للاستمتاع بوجبتي وقراءة صحيفتي"؛ وكان يحمل ما تبقّـــى منها، والتي تبدو وكأن كلباً قد مزّقها، كدليل قانوني. "وعوضاً عن ذلك، وجـــدت نفـــسي أستمع مرغماً إلى طوفان من حديث مرتفع *جداً*، وتافه *جداً*، ومـــزعج *جداً*، بحيث إنني "نعم" – كلمة "نعم" للتأكد من أنه يستحوذ على انتباه الأشخاص الموجودين حول الطاولة – وكان هناك صوت *واحد* يا سيدي، صوت واحـــد يعلـــو كل ما عداه، ولن أشير بإصبعي إليه لأنني رجل مهذب يا سيدي، وأتوسّل إليك أن تكبحه".

لكـــن بعـــد الانـــتهاء من قول ذلك، لم يغادر الرجل النبيل النحيل المكان. وعوضـــاً عـــن ذلك، وقف على الأرضية أمامهم مثل مقاتل حرية شجاع يواجه فـــصيلة الإعدام، ويعرض أمامهم صدره، وحذاءه اللامع، وبقايا الصحيفة مطوية بعناية إلى جانبه، فيما كان الرجال الثلاثة الأشدّاء يحدّقون به، والمرأة المتهمة تحدّق بزوجها.

وتمتمت: "عزيزي، افعل شيئاً".

أفعل ماذا؟ وماذا سأفعل *أنا* إذا ما تحركوا؟ وكان الرجال الأشدّاء من ريكي رياضيين قدماء، وكان ذلك واضحاً. وكانت الشارات على ستراهم تلمع بشدة. ولم يكـن صعباً افتراض أنهم كانوا فيما مضى أعضاء في فريق ركبـي الشرطة. وإذا اختـاروا تحـويل الرجل النحيل إلى عجين، فما الذي سيفعله المتفرج الأسمر البـريء بغضّ النظر عن تعريض نفسه للضرب والتحوّل أيضاً إلى عجين، وأن يتمّ اعتقاله بموجب قوانين مكافحة الإرهاب إضافة إلى ذلك؟

على أي حال، لم يفعل الرجال شيئاً. وعوضاً عن ضربه ضرباً مبرحاً، وإلقاء مـا يتبقى منه إلى الشارع وأنا خلفه، بدا أنهم يفحصون أيديهم المفتولة العضلات، ويتفقون فيما بينهم همساً على أنه من الواضح أن الرجل المسكين يحتاج للمساعدة، ومخـبول. ربمـا يـشكل خطـراً على العامة، أو على نفسه. ليستدعي أحدكم الإسعاف.

أما في ما يخصّ ذلك الرجل النحيل، فقد عاد إلى طاولته ووضع قطعة نقدية من فئة العشرين جنيهاً عليها وخاطب بكل وقار هؤلاء الرجال قائلاً: "أتمنى لكم قضاء ليلة ممـتعة يـا سـادة"، ولم يقل لي شيئاً، ومشى بخطوات واسعة مثل تمثال ضخم نحو الـشارع، وتركني لأعقد مقارنة بين رجل يقول: "نعم يا عزيزتي، أفهم تماماً" ويضع **كـوك – او – فين** في آلة التخلص من المهملات، والرجل الذي واجه عرين الأسود فيما كنت أجلس هناك أتظاهر بقراءة كتاب **كرومويل، زعيم رجالنا**.

* * *

تلقيت الإشارة الثانية في الأمسية التالية، أي يوم الثلاثاء. وفي طريق عودتي إلى باترسـي بعد عمل استغرق أربع ساعات في غرفة المحادثات لحماية أمتنا العظيمة، وقـد أذهلت نفسي بالقفز من الحافلة المتحركة قبل ثلاثة مواقف، واتجهت بأقصى سـرعة ليس عبر المنتزه باتجاه شارع أمير ويلز وهو ما يبدو اتجاهي المنطقي، ولكن لأعبر جسر تشلسي عائداً من حيث أتيت للتو.

لمـاذا بحـق السماء؟ حسناً، إنني متهور. لكن ما الذي كان يرغمني؟ كانت سـاعة الازدحـام في ذروتها. وكنت أمقت – في أي وقت – المشي إلى جانب

حركة المرور البطيئة، خصوصاً في تلك الأيام. ولم أكن أرغب برؤية تلك الوجوه في السيارات وهي ترمقني بتلك النظرة. لكن الجري، بأقصى سرعة مرتدياً أفضل أحذيتي المكوّن من نعل وعقب جلديين ووجه مطاطي، الجري، إذا كنت بمثل لوني وبنيتي وعمري، وتحمل حقيبة يد، الجري بأقصى سرعة في لندن المشغولة والنظر أمامك مباشرة، باكتئاب، دون أن تسأل أحداً المساعدة وتصطدم بالناس أثناء ذلك؛ ذلك النوع من الجري، في أي وقت من اليوم، لا يقوم به بكل صراحة إلا من به لوثة في عقله. وفي ساعة الازدحام، سيكون مجنوناً.

هل كنت بحاجة لبعض التمارين الرياضية؟ كلا. لدى بينلوب مدربها الخاص، وكنت أقضي الصباح في الهرولة حول المنتزه. وكان الشيء الوحيد في العالم الذي سيشرح تصرفي ذلك، فيما كنت أشق طريقي على الرصيف المزدحم وعبر الجسر، الطفل المتسمّر مكانه والذي لاحظته من مقدمة الحافلة. وكان يبلغ من العمر ست أو سبع سنوات، وكان عالقاً في منتصف جدار غرانيتي يفصل الطريق عن النهر، وكانت قدماه على الجدار وذراعاه ممدودتين في الهواء، ورأسه يهتزّ جانبياً لأنه كان خائفاً للغاية من النظر إلى الأعلى أو الأسفل. وكانت هناك حركة مرور تندفع تحته، وفوقه متراس ضيق ربما تمّ تصميمه لأطفال أكبر عمراً وأكثر شقاوةً يرغبون بالاستعراض عليه، وكان هناك اثنان منهما يسخران منه، ويقفزان على قدميهما ويصفران له استهجاناً، ويتحدّيانه بأن يصعد إليهما. لكنه لم يكن يستطيع ذلك، لأنه كان خائفاً من المرتفعات أكثر من حركة السير، ويعرف أنه على الجانب الآخر من المتراس، في حال استطاع الوصول إليه، هناك منحدر يبلغ ارتفاعه ستين قدماً ينتظره، وصولاً إلى الضفة والنهر، ولا يستطيع التعامل مع الارتفاعات ولا يستطيع السباحة، ولهذا السبب كنت أجري بكل ما أوتيت من قوة.

ورغم ذلك، عندما وصلت لاهثاً أتصبب عرقاً، ماذا رأيت؟ لم يكن هناك طفل، متسمّر أو غير متسمّر. وطرأ تحوّل على طبيعة الموقع. لا متراس غرانيتي. لا أحد مصاب بالدوار مع حركة مرور سريعة إلى جانبه، ونهر التايمز الذي يجري متدفقاً إلى الجانب الآخر. وعند النقطة المركزية، كانت هناك شرطية لطيفة توجّه حركة السير.

وقالت فيما كانت ترسل الإشارات: "ينبغي أن لا تتكلم إليّ يا عزيزي".

"هل رأيتِ ثلاثة أطفال كانوا يلعبون هنا الآن؟ ربما لقوا حتفهم".

"لا لم أرَ أحداً هنا يا عزيزي".

"رأيتهم، أقسم أنني رأيتهم! كان هناك طفل صغير عالق على الجدار".

"سيكون عليّ اعتقالك في غضون دقيقة يا عزيزي. والآن انصرف".

هذا ما فعلته. وسرت عائداً عبر الجسر الذي ما كان ينبغي أن أعبره في المقام الأول. وطـوال الليل، وفيما كنت أنتظر عودة بينلوب إلى المنـزل، كنت أفكّر بالطفل المتسمّر وبجحيم الأفكار التي كانت تراوده. وفي الصباح عندما مشيت على أطراف أصابعي إلى الحمام حتى لا أوقظها، كان الطفل الذي لم يكن هناك ما يزال يـؤرقني. وخلال النهار، وفيما كنت أقوم بأعمال الترجمة لاتحاد الماس الهولندي، بقي عالقاً في ذهني الذي كان يدور فيه الكثير دون معرفتي. وكان ما يزال هناك في الأمسية التالية، كانت ذراعاه مبسوطتين، وأصابعه متشبثة بالجدار الغرانيتي، عندما استجبت لطلب عاجل من مستشفى مقاطعة شمال لندن، ودخلت في الساعة 7:45 مـساءً إلى جـناح الأوبئة الاستوائية لأقوم بالترجمة لرجل أفريقي يحتضر لا يمكن تحديد عمره، ويرفض التحدث بكلمة من أي لغة معروفة عدا أنه من مواليد كينيا – رواندا.

* * *

أرشـدتني أضواء الليل الزرقاء عبر الأروقة التي لا تنتهي. وأخبرتني لافتة أنيقة عـن الطـريق الذي يجب أن أسلكه. وكانت بعض الأسرّة مزوّدة بآلات تصوير للمراقبة، وتخصّ الحالات الأكثر حـرجاً. وكان رجلنا على أحـد تلك الأسرّة. جثم سالفو على أحد جانبـي السرير، وكانت هناك على الجانب الآخر دون أن تفـصل بيننا سوى ركبتي ذلك الرجل المحتضر، تلك *الممرضة المجازة*. وكانت تلك الممرضـة المجازة، التي استنتجت أن أصولها تعود إلى أفريقيا الوسطى، تتمتع بمعرفة وتـتحمل مـسؤوليات تتجاوز معظم الأطباء، رغم أن ذلك لم يكن بادياً عليها، وكانـت رشيقة ومهيبة في مشيتها، واسمها الأول حنا، ناهيك عن الجسد الطويل

النحـــيل الـــذي يلفّه رداء أبيض وأزرق اللون. ولكن عندما نهضت ومشت عبر الجـــناح، تحـــركت مثل راقصة، واسترسل شعرها المرتب وتراجع عن جبينها إلى الـــنقطة الـــتي يُسمح له فيها بالنمو بشكل طبيعي، رغم أنه كان قصيراً لأغراض عملية.

كـــل ما كنا نفعله، تلك الممرضة المجازة حنا وأنا، هو النظر إلى أعين بعضنا الـــبعض لفتـــرات طويلة جداً من الزمن فيما كانت تطرح أسئلتها حول مريضنا بطريقة اضطررت بها للتعامل بجدية وحزم مع الموقف، ونقلتها في حينه إلى الكينية - الرواندية، وانتظرنا كلانا - أحياناً لدقائق بدت دون نهاية بالنسبة لي - لسماع إجابات الرجل التي يقولها بلهجة طفولية أفريقية كان مصمماً على أن تكون آخر ذكرياته عن الحياة.

لكن هذا لم يكن ليأخذ بالحسبان الأعمال الأخرى التي كانت الممرضة المجازة حنا تقوم بها له بمساعدة ممرضة أخرى تدعى غريس، والتي عرفت من ترانيمها أنها جامايكـــية، والتي كانت تقف فوق رأسه، تنظف تقيؤه، وتتفقّد سوائله وحالته، وغـــريس امرأة طيبة أيضاً، وبتفاعلهما معاً والنظرات التي كانتا تتبادلانها، كانت غريس رفيقة جيدة لحنا.

ينبغي أن تعرف بأنني رجل يكره، ويمقت بحق المستشفيات، وشديد الحساسية مـــن الناحـــية الدينية تجاه الصناعة الصحية. دماء، وإبر، وأوعية تبوّل، وطاولات العملـــيات مـــع المقـــصّات عليها، وروائح غرف العمليات، والمرضى، والجثث، والمـــرافقون في الأروقـــة، ولم يكن عليَّ سوى دخول عالمهم حتى أصاب بالهياج، وهـــو ما يصيب أي رجل عادي آخر تمّ استئصال لوزتيه، وزائدته الدودية وختانه على التوالي في عيادات أفريقية غير صحية.

لقـــد التقيتها من قبل - تلك الممرضة المجازة - مرة واحدة. وخلال الأسابيع الـــثلاثة الماضية، كما أدرك الآن، كانت محفورة في لا وعي ذاكرتي، وليست فقط مـــثل مـــلاك حارس في هذا المكان الحزين. وتكلمت إليها، رغم أنها قد لا تتذكّر هذا. وفي أول زيارة لي لذلك المكان، طلبت منها توقيع وثيقة تصادق على قيامي بتأدية واجباتي التي تمّ التعاقد معي لإنجازها بما يرضيها. وابتسمت، وأمالت رأسها

إلى الجانـــب كما لو أنها تتمهل بكل صدق في الاعتراف بأنها راضية، ثم سحبت مصادفة قلم حبر أزرق ناشف من خلف أذنها. وأصابت الإيماءة، رغم عدم وجود شـــك في براءتها من جانبها، جانباً مني. وفي مخيلتي الخصبة، كانت مقدّمة لنـــز ع الملابس.

لكـــن هذه الأمسية لم يكن لديَّ مثل تلك الأوهام غير المناسبة. هذه الأمسية مخصـــصة كلـــها للعمل، ونحن نجلس إلى جانب سرير رجل يحتضر. وحنا الخبيرة الصحية، والتي حسبما أعرف تقوم بهذا العمل ثلاث مرات يومياً قبل موعد وجبة الغداء، وضعت على وجهها تعبيراً غريباً، وفعلت نفس الشيء أيضاً.

طلبت مني بإنكليزية تحمل لكنة فرنسية: "اسأله عن اسمه من فضلك".

اسمه، الذي أخبرنا به بعد طول تفكير، هو جان بيير. وأضاف لحسن الحظ - بكل ضراوة يستطيع حشدها في حالته المرضية - أنه توتسي وفخور بذلك، وهي معلـــومة هامشية اتفقت مع حنا ضمنياً على تجاهلها، أقله لأنه تمّ الطلب منا ذلك، ولأن مظهـــر جـــان بـــيير كان توتسياً تقليدياً رغم الأنابيب الموصولة به، بعظام الوجنتين البارزة، والفك الناتئ والرأس الطويل من الخلف، تماماً كما يجب أن يبدو التوتـــسي في المخـــيلة الشعبية الأفريقية، رغم أن الكثيرين منهم لا يتمتعون بتلك المواصفات.

استفسرت بنفس التجهم: "جان بيير ماذا؟" وساعدتها مجدداً.

ألا يـــستطيع جـــان بيير سماعي، أو يفضّل أن لا يكون لديه لقب؟ وكان التأخير فيما كنت أنتظر جوابه مع الممرضة المجازة حنا مناسبة لأول نظرة طويلة تبادلناها معاً، أو أنها طويلة بمعنى أنها أطول من اللازم عندما تريد فقط التحقق مـــن أن الشخص الذي تتكلم معه يصغي إليك، لأننا لم نكن نقول أي شيء، ولا حتى هو.

قالت: "اسأله أين يقيم، من فضلك"، وتنحنحت برقة وبطريقة تشبه ما أقوم بـــه عادةً؛ عدا أنها هذه المرة لدهشتي وسروري كانت تكلّمني بشكل مباشر باللغة السواحيلية كشخص أفريقي. وكما لو أن ذلك لم يكن كافياً، كانت تتكلم *بلهجة امرأة من شرق الكونغو!*

لكني موجود هنا للعمل. وطرحت الممرضة المجازة سؤالاً آخر على مريضنا، ولهــذا ينبغي أن أترجمه. وقمت بذلك. من السواحيلية إلى الكينية - الرواندية. ثم نقلت الجواب لها، من الكينية - الرواندية التي يتكلم بها جان بيير مباشرة إلى عينيها البنيتين الواسعتين، وكنت أردد، إن لم أكن أقلّد، لهجتها المألوفة الساحرة.

أخـــبرها: "أعيش في هيث"، وكرّرت كلمات جان بيير كما لو أنها صادرة عني، "في الأدغال. وسأعود إلى هناك عندما أخرج من هذا" - توقف - وحذفت كلمـــة "المكـــان" لياقةً مني حتى لا أستخدم اللقب الذي نعته به. "حنا"، تابعت بالإنكليزية، ربما للتخفيف من الضغط قليلاً. "بحق الله، من أنتِ؟ ومن أين أتيتِ؟"

أجابت على السؤال، دون أدنى تردد، وتمتمت لتعلن أصلها: "أنا من منطقة غوما في شمال كيفو، ومن قبيلة *ناندي*. وهذا الرجل المسكين الرواندي عدوٌّ لشعبـــي".

سأخبرك كمسألة واقعية مفهومة أن تنفسها الصعب، واتساع حدقتي عينيها، ولهفتها للحصول على تفهمي فيما كانت تقول ذلك، أوحت لي في لحظة واحدة المـــأزق الذي يعاني منه بلدها الحبيب الكونغو كما تعيه: الأجساد الهزيلة لأقربائها وأحـــبائها، والحقول غير المنتجة، والماشية الميتة، والمناطق المهجورة التي كانت فيما مـــضى وطـــنها حـــتى اندفع الروانديون عبر الحدود، وسيطروا على منطقة شرق الكونغو وجعلوها ساحة لحربهم الأهلية، ونشروا الرعب الذي يعجز عنه الوصف على أرضٍ تعاني سلفاً من الإهمال.

في البداية، أراد الغزاة فقط ملاحقة أولئك الذين ارتكبوا جرائم إبادة جماعية، والـــذين قـــتلوا الملايين من مواطنيهم في مئة يوم. ولكن ما بدأ كمطاردة سريعة ســـرعان ما تحوّل إلى استغلال لموارد كيفو الطبيعية، مما نتج عنه اندفاع البلد نحو حافـــة الفوضى السياسية والاجتماعية، وهو ما جهدت في شرحه لبينلوب، والتي فضّلت كصحفية بريطانية تمتلك ضميراً واعياً أن تكون معلوماتها مثل أي شخص آخـــر. وقلت لها، عزيزتي، أصغي إليّ، أعرف أنكِ مشغولة. أعرف أن صحيفتك تفـــضل الالتـــزام بالتوجيهات العائلية. لكن من فضلك، ولأجلي هذه المرة فقط، اكتبـــــي شـــيئاً، أي شيء، لتخبري العالم عمّا يحدث في منطقة شرق الكونغو. وأخـــبرتها أن أربعة ملايين إنسان لقوا حتفهم. فقط في السنوات الخمس الأخيرة.

والناس يدعونها الحرب العالمية الأفريقية الأولى، وأنتِ لا تطلقين عليها أي اسم. إنها ليست حرب مفرقعات، وهذا ما أضمنه لكِ. وليست الرصاصات والغازات والقنابل اليدوية التي تتسبب بالقتل. إنها الكوليرا، والملاريا، والإسهالات، والجوع بأشكاله القديمة، ومعظم الموتى لا تتجاوز أعمارهم الخمس سنوات. وما زالوا يحتضرون *الآن*، فيما نتكلم، بالآلاف كل شهر. لهذا يجب كتابة قصة عنهم في مكان ما، بالتأكيد. وكان هناك قصة بالفعل. في الصفحة التاسعة والعشرين، بجانب الكلمات المتقاطعة.

من أين حصلت على تلك المعلومات المروّعة؟ كنت أستلقي في سريري بعد الانتهاء من العمل، أنتظر عودتها إلى المنزل. وكنت أستمع إلى أخبار العالم من محطة الإذاعة البريطانية *بي بي سي*، ومحطات الإذاعة الأفريقية البعيدة، فيما كانت تقوم بإنجاز أعمالها الليلية المتأخرة. وكنت أجلس وحيداً في مقاهي الإنترنت فيما كانت تدعو مصادرها إلى العشاء. ومن الصحف الأفريقية التي اشتريتها خلسةً. ومن الوقوف في الهواء الطلق خلف حشود المتجمهرين في المنتزهات الضخمة، وأنا مرتدٍ سترة مع غطاء للرأس، فيما كانت تحضر دورة تدريبية في عطلة نهاية الأسبوع تتناول كل المعلومات التي تحتاج لتجديدها.

لكن غريس الواهنة، التي كانت تقاوم تثاؤب فمها، لا تعرف شيئاً عن هذا، ولماذا ينبغي عليها ذلك؟ إنها لا تحل الكلمات المتقاطعة. ولا تعرف أنني أشترك مع حنا في فعل رمزي من الإلفة الإنسانية. ويرقد أمامنا رجل رواندي يحتضر يدعو نفسه جان بيير. وإلى جانبه تجلس شابة كونغولية تدعى حنا، والتي تعتبر أن جان بيير وأمثاله السبب في شقاء بلدها. ورغم ذلك، هل أدارت له ظهرها؟ هل استدعت زميلاً لها أو أرسلته ليكون بعهدة غريس المتثاقلة؟ لم تفعل ذلك. كانت تدعوه *الرجل الرواندي المسكين*، وتمسك بيده.

طلبت مني بترمّت، وبإنكليزية فرانكوفونية: "اسأله أين *كان* يقيم، من فضلك يا سالفو".

انتظرنا مجدداً، وهو ما يعني أنني وحنا حدّقنا ببعضنا بذهول، كما لو أننا خارج جسدينا، مثل شخصين يشتركان برؤية مقدّسة لا يستطيع غيرهما رؤيتها

لأنهم لا يمتلكون الأعين المناسبة. لكن غريس رأت ذلك، وهي تتابع تطور علاقتنا بانتباه وتساهل.

ســـألته بصوت مصمم وخالٍ من أي عاطفة مثل حنا: "جان بيير، أين كنت تقيم قبل أن تنتقل إلى هامبستيد هيث؟"

"في السجن".

"وقبل السجن؟"

إنهـــا المرحلة التي تسبق تزويدي بعنوان ورقم هاتف في لندن، لكنه فعل ذلك أخـــيراً، وترجمت المعلومات لحنا التي وضعت يدها خلف أذنها قبل أن تكتبها على دفتـــرها بقلمها الأزرق الناشف. ومزّقت ورقة وأعطتها إلى غريس التي مشت عبر الجـــناح إلى الهاتف ببطء؛ لأنها لم تكن تريد في ذلك الوقت تفويت أي شيء. في تلك اللحظة جلس مريضنا منتصباً، كما لو أنه أفاق من كابوس، مع كل الأنابيب الموصـــولة به وتساءل بطريقة فظّة وغليظة بلغته الكينية - الرواندية: *"اللعنة على أمـــي، مـــا خطبـــي"*، لماذا سحبته الشرطة إلى هنا رغم إرادته؟ وطلبت مني حنا عندها بإنكليزية تملؤها العواطف الجيّاشة بأن أترجم ما كانت على وشك أن تقوله لـــه، "دون إضـــافة أو حذف أي شيء يا سالفو من فضلك، رغم أنك قد ترغب بفعـــل ذلـــك شخصياً لصالح مريضنا". *مريضنا* كان آنذاك مفهوماً هاماً بالنسبة لكليـــنا. وأكّدت لها، بصوت خافت قدر صوتها، أنني لن أقوم بتجميل أي شيء تقوله، بغضّ النظر عن الأسى الذي قد يسبّبه ذلك لي.

أعلنت حنا عمداً: "لقد أرسلنا في طلب موظف التسجيل، وسيأتي بأسرع ما يستطيع"، وتوقفت عن الكلام بطريقة أكثر ذكاءً مما يفعله معظم زبائني ليسمحوا لي بمـــتابعة التـــرجمة. "ينبغـــي أن أخبرك يا جان بيير أنك تعاني من مرض دموي عـــضال، وهو وفقاً لخبرتي في مراحله المتقدمة جداً بحيث لا نستطيع علاجه. آسفة جداً، لكن يجب علينا تقبّل الوضع".

رغـــم ذلك، كان هناك أمل حقيقي في عينيها عندما كانت تتكلم، وتركيز واضح وسعيد حول إمكانية الشفاء. وإذا كانت حنا تستطيع التعامل مع أنباء سيئة مـــثل تلك، ينبغي أن يكون جان بيير عندها قادراً على التعامل معها أيضاً، كذلك

أنا. وعندما ترجمت رسالتها بأفضل ما أستطيع - كلمات دقيقة يقصد بها تضليل ذلــك الرجل، لأن قليلاً من الرونديين في مثل موقف هذا الرجل المسكين كانوا يعرفون ما يعنيه وباء الدم العضال - ودفعته ليكرر لها عبري ما كانت تقوله لتكون مــتأكدة مــن أنه يعرف ما تعرف، وأنه يعرف ذلك جيداً، وأنني أعرف ما يعرفه كلاهما وليس هناك تلاعب بين السطور.

عــندما كرّر جان بيير رسالتها بصوت أجش، وترجمتها أيضاً، سألتني: "هل يــرغب جــان بيير بوصول أقربائه فيما ينتظر؟ وكانت تلك إشارة نعرفها كلانا لإخباره بأنه سيموت على الأرجح قبل وصولهم. والسؤال الذي لم تسأله، وكذلك أنا، هو لماذا يرقد عاجزاً في هيث ولم يعد إلى منــزله ليكون مع زوجته وأطفاله. لكــني شعرت أنها تعتبر مثل تلك الأسئلة الشخصية تطفلاً على خصوصيته، كما أعتــبرها أنــا. وإلا لماذا يريد رجل رواندي الموت في هامبستيد هيث إذا لم يكن يرغب بأن يكون لوحده؟

ثم لاحظــت أنهــا لا تمــسك بيد مريضنا وحسب، ولكنها تمسك يدي أيضاً. ولاحظــت غــريس ذلك وتأثرت به - رغم أن ذلك لم يكن بطريقة شهوانية - لأن غــريس تعــرف، كما أعرف، أن صديقتها حنا ليست معتادة على الإمساك بيد أي متــرجم. ورغــم ذلــك كانت يدي السمراء نصف الكونغولية ويدا حنا السوداوان الأفريقيتان مشبوكتين على سرير عدو رواندي. ولا علاقة للأمر بالجنس - كيف يكون ذلــك، وجــان بيير يحتضر بيننا؟ - وإنما يتعلق بدرجة القرابة المكتشفة ومواساة بعضنا الــبعض فــيما نواسي مريضنا المشترك. ويعود ذلك إلى أنها تأثرت بشدة، وكذلك أنا. تأثرت بالرجل المسكين المحتضر، رغم أنها ترى مثل هؤلاء الرجال طوال الوقت وفي كل يــوم مــن أسبوعها. تأثرت لأننا نهتم بعدونا اللدود، ونحبه وفقاً للكتاب المقدّس الذي نــشأت وفقاً لتعاليمه كما أرى من الرمز الديني الذهبي الذي يتدلّى من عنقها. تأثرت بــصوتي. وفي كــل مرة ترجمت فيها من السواحيلية إلى الكينية - الرواندية وبالعكس، كانت تخفض عينيها كما لو أنها تصلي. تأثرت لأننا كنا - عندما أحاول مخاطبتها بعينيّ لدفعها للاستماع لي فقط - الشخصين اللذين يبحثان عن بعضهما طوال حياتهما.

*　　*　　*

لـــن أقول أننا أبقينا يدينا على تلك الحالة لفترة طويلة، لأننا لم نفعل ذلك، لكننا أبقينا أعيننا على بعضنا البعض. وكانت تستطيع النظر إليّ لوقت طويل عندما تنحني فوقه، وترفعه، وتلمس وجنتيه أو تتفقّد الآلات التي وصلتها غريس به. لكنها في كـــل مرة استدارت لتنظر إليّ، كنت موجوداً هناك لأجلها وكنت أعرف أنها موجـــودة هناك لأجلي. وكل ما حدث بعد ذلك، من انتظاري لها بجانب البوابة الـــتي تـــنيرها أضواء النيون حتى تنتهي من عملها، وخروجها لتنضم إليّ وعيناها تنظران للأسفل، وكلانا يعتريه خجل أطفال الإرسالية التبشيرية، ومسيرنا يداً بيد مـــثل طالبين جديين صعوداً على التل إلى شقتها، عبر طريق ضيق تفوح منه روائح الطعام الأفريقي وصولاً إلى باب مقفل تحمل مفتاحه، وتدفق كل ذلك من النظرات التي تبادلناها في حضرة المريض الرواندي المحتضر ومن المسؤولية التي شعرنا بها تجاه بعضنا البعض فيما كانت حياة بشرية تنسلّ من تحتنا.

كـــان ذلك هو سبب استطاعتنا - بين شغف أدوار تبادل الحب - إجراء حوارات من النوع الذي لم يكن متاحاً لي منذ وفاة الأخ مايكل، ولم يظهر منذ ذلـــك الـــوقت مـــؤتمن طبيعي على الأسرار في حياتي ما عدا السيد أندرسن، وبالتأكـــيد لم يكن على شكل امرأة أفريقية جميلة، ومرحة وتثير الرغبة، والتي كـــان هدفها الوحيد العمل مع أولئك الذين يعانون في العالم، والتي لا تطلب مـــنك - بـــأي لغة كانت - شيئاً لست مستعداً لمنحها إياه. ولتقديم شروح واقعـــية عـــن أنفسنا، تكلمنا بالإنكليزية. وبالفرنسية أثناء تبادل الحب. وعن أحلامنا لأفريقيا، كيف لنا ألا نتكلم بالسواحيلية باللهجة الكونغولية التي تحدثنا بها في طفولتنا بمزيجها من التصريح والتلميح؟ وفي غضون عشرين ساعة من عدم النوم، أصبحت حنا الأخت، والحبيبة، والصديقة المقرّبة والتي فشلت بثبات في الدخول إلى عالم طفولتي المتجوّل.

هـــل ارتكبـــنا معصية؟ كلانا مسيحيان مؤمنان، ترعرعنا وفقاً لتعاليم الله ونحن الآن راشدان بالغان؟ لم نفعل ذلك. لقد تكلمنا عن زواجي الذي أعلنت أنـــه مـــيت، والذي كنت على يقين بأنه كذلك. وتكلمنا عن ابن حنا الصغير نوح الذي تركته وراءها مع عمتها في أوغندا، واشتقنا إليه معاً. وقطعنا وعوداً

مقدّسة، وتحدثنا في السياسة وحول الذكريات المتبادلة، وشربنا عصير التوت مع المـــياه الغازيـــة، وتناولـــنا البيتزا، وتبادلنا الحب حتى اللحظة التي ارتدت فيها ملابسها بتردد، وقاومت محاولاتي لأعانقها مرة أخيرة، وقطعت التل على عجل إلى المستـــشفى لحـــضور دورة عن التخدير قبل بدء نوبتها الليلية مع مرضاها المحتـــضرين، فيما انطلقت أبحث عن سيارة أجرة، لأنه بعد التفجيرات، كانت قطـــارات الأنفاق معطّلة جزئياً في أحسن الأحوال، والرحلة بالحافلة ستستغرق وقـــتاً طـــويلاً، ونظرت إلى الساعة. وكانت كلماتها عند المغادرة، والتي قالتها بالـــسواحيلية، ترنّ في أذنيّ. وكانت تمسك بوجهي بين يديها، وتحرّك وجهها بلطف والفرحة تغمرها.

وقالـــت: "سالفو. عندما أنجبك أبوك وأمك، لا بد أنهما كانا يحبان بعضهما كثيراً".

3

صرخت على فريد، سائقي الأبيض: "هل أستطيع فتح النافذة؟"

جلست مسترخياً على المقعد الخلفي لسيارة *مونديو* فيما كانت تشق طريقها بخبرة عبر حركة سير مساء الجمعة المزدحمة، وكنت أستمتع بمشاعر انعتاق تلامس حدود الغبطة.

أجـــاب بحيوية: "افعل ما يحلو لك يا صديقي"، لكن أذني المرهفة الحساسية الـــتقطت مباشرة تحت ذلك التعبير بالعامية أثر لهجة مدرسة عامة إنكليزية. وكان فـــريد في مـــثل عمـــري ويقود بكل ثقة بالنفس. وقد أحببته مباشرة. وأنـــزلت النافذة، وتركت هواء الليل الدافئ ينعشني.

"هل من فكرة عن المكان الذي نقصده يا فريد؟"

"نهايـــة شارع أودلي الجنوبي". واستشعر قلقي من الانتقال بالسرعة التي كان يقود بها، وقال: "لا تقلق، سنوصلك إلى هناك سالماً".

لم أكن قلقاً ولكن مندهشاً. فقد جرت لقاءاتي مع السيد أندرسن لغاية الآن في مقـــر الـــوزارة في وايتهول في قسم مفروش بسجاد ثمين يقع في نهاية شبكة من الأروقـــة المبنية من الآجر الأخضر اللون والتي يحميها حرّاس أشدّاء يضعون أجهزة اتصال صغيرة. وعلى الجدران صور خفيفة التلوين لزوجة، وبنات وكلاب السيد أندرسن، وتنتشر في كل مكان شهادات تحيطها أطرٌ ذهبية ممنوحة لحبه الآخر، جمعية *كورال السنديانات السبع*. وفي ذلك القسم، وبعد أن اجتزت بموجب وثيقة رسمية سلـــسلة من *مقابلات الاختبار* التي جرت فوق الأرض من قبل هيئة تدعو نفسها "لجنة التدقيق اللغوي"، تعرّفت على كامل سلطان *قانون السرية الرسمي*، إضافة إلى العديـــد من العقوبات المخيفة، أولاً بإسماعي محاضرة أخلاقية لا بد أنه ألقاها مئات المرات لغاية ذلك الوقت، ثم بتقديم نموذج مطبوع عليه اسمي ومكان وتاريخ ولادتي

تمّ إدخالهما مسبقاً بشكل إلكتروني، والتحدّث إليّ من وراء نظارات القراءة التي يضعها فيما كنت أضع توقيعي عليه.

قال: "تراودك أفكار عظيمة الآن، أليس كذلك يا بني؟" بلهجة ذكّرتني بالأخ مايكل. "إنك رجل لامع، والقلم الأمضى في العلبة إذا كان كل ما أخبروني به صحيحاً. لديك مجموعة من اللغات الرائعة الجاهزة للاستعمال، وسمعة مهنية من الدرجة الأولى لا يستطيع جهاز استخبارات محترم مثل هذا أن يتجاهلها".

لم أكن متأكداً من هوية جهاز الاستخبارات المحترم الذي كان يشير إليه، لكنه أخبرني للتو أنه موظف بارز لدى العرش، وأن ذلك يجب أن يكون كافياً بالنسبة لي. و لم أسأله أيضاً أي من لغاتي يعتبرها رائعة، رغم أنني ربما كنت سأفعل ذلك في حال لم أكن بمثل تلك الحالة، لأن احترامي للشخص يهرب أحياناً من نافذة سجله الشخصي.

تابع يقول، معقّباً على موضوع مؤهلاتي: "ذلك لن يجعلك مركز الكون، بكل الأحوال، لهذا لطفاً لا تعتقد أنك كذلك. ستكون *مساعداً بدوام جزئي*، ولا يمكنك الوصول إلى مرتبة أقل من تلك. وعملك سري، وهامشي، وسيبقى كذلك حتى تتولى منصباً ما. ولا أقول إن بعضاً من أفضل البرامج ليست هامشية، لأنها كذلك حقاً. أفضل المسرحيات وأفضل الممثلين برأي زوجتي ماري. هل تفهم ما أقوله لك يا سالفو؟"

"أعتقد ذلك يا سيدي".

أستخدم سيدي كثيراً، وأدرك معناها، تماماً كما كنت أقول *مزي* كثيراً عندما كنت طفلاً لأن كل شخص في البعثة التبشيرية هو سيد إن لم يكن أخاً.

اقترح قائلاً: "إذاً كرّر لي ما أخبرتك إياه للتو من فضلك، بحيث تكون أفكارنا واضحة"، مستفيداً من تقنية استخدمتها حنا فيما بعد لتقديم الخبر السيئ لجان بيير.

"يجب أن لا أتمادى كثيراً. يجب أن لا أكون..." - كنت سأقول "متهوراً" لكني أوقفت نفسي في الوقت المناسب - "حماسياً".

"أطلب منك إطفاء وميض التلهف في عينيك، يا بني. من الآن فصاعداً وإلى الأبد. لأنني إذا رأيته مجدداً، سأقلق بشأنك. نحن مؤمنون، لكن لسنا متطرفين. وإذا وضعنا مهاراتك الاستثنائية جانباً، ما سنقدّمه لك هنا هو شطائر اللحم والبطاطا العادية، وهي نفس الخدمات التي ستقدّمها لأي زبون في ظهيرة يوم ماطر، عدا أنك ستخدم الملكة والوطن، وهو ما يحبه كلانا".

أكّدت له - حريصاً على أن لا أبدو شديد الحماسة - أن حب الوطن يحتل موقعاً عالياً على قائمة اهتماماتي الشخصية.

تابع قائلاً: "هناك بعض الاختلافات الجوهرية، وهذا ما أضمنه لك"، مخالفاً اعتراضاً لم يصدر عني. "أحد الاختلافات هو أننا لن نزوّدك بالكثير من المعلومات عن خلفية العمل قبل أن تضع السمّاعات على رأسك. لن تعرف هوية أو مكان الأشخاص الذين تتكلم معهم، أو ما يتحدثون عنه، أو كيف استطعنا الاستماع إليهم. أو فيما إذا كنا نستطيع التدخل لأن ذلك لن يكون آمناً. إذا خرجت *فعلاً* بأي افتراضات خاصة بك، أنصحك بأن تُبقيها لنفسك. وهذا ما وقّعت عليه يا سالفو، وهذا ما تعنيه الأسرار، وإذا أمسكنا بك تخرق القوانين، سنرمي بك مذموماً مع وصمة سوداء عليك. ولا يمكن إزالة وصمتنا السوداء أبداً مثل الناس الآخرين"، وفيما كان يضيف ذلك بكل ارتياح، لم أستطع سوى أن أتساءل فيما إذا كان يلمح باللاشعور إلى لون جلدي. "هل تريد تمزيق تلك الورقة ونسيان أنك أتيت إلى هنا؟ لأن هذه فرصتك الأخيرة".

. ابتلعت ريقي عندما قال تلك العبارة، وقلت: "لا يا سيدي، أنا معكم. حقاً"، بكل الهدوء الذي استطعت حشده، وشدّ على يدي مرحباً بما كان يفضل أن يدعوه شركة *لصوص الصوت الشريفة*.

* * *

سأقول حالاً إن جهود السيد أندرسن لتثبيط عزيمتي كانت عديمة الجدوى. وكنا نربض في مهجع معزول صوتياً، وهو واحد من أربعين، في ملجأ آمن تحت الأرض يدعى غرفة المحادثة - حيث كان باريني مديرنا الدمث الذي يرتدي سترات

ملـــوّنة يراقبنا من شرفته المرتفعة على دعائم كبيرة - وكان يدعوها لحماً وبطاطا؟ وكانـــت الفتيات اللواتي يلبسن سراويل الجينـــز يجلبن ويأخذن شرائط التسجيل والترجمة، والأكواب التي نتناول بها الشاي أيضاً بعكس القواعد المعروفة عن أصول التعامل في مكان العمل، وفيما أستمع في لحظة ما إلى عضو بارز في جيش *المقاومة الملحد* في أوغندا يتكلم باللغة الأشولية حول التخطيط لإنشاء قاعدة عبر الحدود في مـــنطقة شـــرق الكونغو، أنتقل في اللحظة التالية إلى رصيف ميناء دار السلام مع أصـــوات ضجيج الشحن في الخلفية، وصيحات الباعة الجوّالين، وصوت المروحة الأرضـــية غير الثابتة التي تبعد الذباب، إلى حفنة من المتشددين الذين يتآمرون على استيراد ترسانة من الصواريخ المضادة للطائرات بصفة معدات ثقيلة؟ في نفس تلك اللـــيلة، أكون المستمع الوحيد لمحادثة ثلاثية بين ضباط الجيش الرواندي الفاسدين يـــساومون وفداً صينياً على شراء المعادن الكونغولية المنهوبة؟ أو أدخل عبر حركة الـــسير الخانقة في نيروبي إلى ليموزين شخصية سياسية كينية متنفذة يقودها سائق خـــاص عندما يستلم رشوة ضخمة للسماح لشركة مقاولات هندية ببناء خمسمئة مـــيل مـــن طريق جديد بطبقة إسفلت واحدة لا يتجاوز سمكها رقة الورقة، والتي تضمن بقاءها موسمين ماطرين على الأقل؟ هذا ليس لحماً وبطاطا يا سيد أندرسن. هذا قدس الأقداس!

لكـــني لم أسمـــح للوميض بأن يظهر، ليس حتى أمام بينلوب. وكنت أقول لنفـــسي: "لـــو كـــنتِ تعرفين فقط"! وذلك كلما قلّلت من شأني أمام صديقتها الحمـــيمة بولا، أو ذهبتِ إلى أحد مؤتمراتها خلال عطلات نهاية الأسبوع التي يبدو أن لا أحـــداً غيرها يحضرها، وتعود متعبة وقانعة بكل الأعمال التي أدّتها. لو كنتِ تعلمـــين فقط أن هذا الشخص العالق في حياتكِ، والزوج الشبيه بالدمية يعمل مع الاستخبارات البريطانية!

لكني لم أضعف إطلاقاً، بغضّ النظر عن الارتياح النفسي اللحظي. فقد كنت أقوم بواجبـــي تجاه إنكلترا.

* * *

دارت سيارتنا الفورد - مونديانو حول ميدان بيركلي، ودخلت شارع كورزون. وعندما تخطّت دار العرض، ركن فريد السيارة بجانب الرصيف، وانحنى نحو المقعد الخلفي ليخاطبني، بصفة جاسوس إلى جاسوس.

تمتم: "إنه هناك يا زميل"، وأومأ برأسه لكنه لم يشر إلى اتجاه محدد في حال كنا نتعرض للمراقبة. "رقم 22 ب، الباب الأخضر على بعد مئة ياردة إلى اليسار. يوجد على الجرس كلمة *هارلو* مثل البلدة. وعندما يجيبون، قل إنك تحمل طرداً إلى هاري".

وسألته: "هل سيكون باربي موجوداً؟" وشعرت بالقلق للحظة من إمكانية مواجهة السيد أندرسن لوحده في بيئة غير مألوفة.

باربي؟ من باربي؟

ألقيت اللوم على نفسي لتوجيه أسئلة غير ضرورية، ونزلت إلى الرصيف. وانتابتني موجة قشعريرة. وكاد راكب دراجة هوائية أن يصطدم بي، وشتمني. وابتعد فريد بالسيارة، وتركني مع شعور أنه كان بمقدوري الاستفادة منه. واجتزت الرصيف ودخلت شارع أودلي الجنوبي. وكان 22 ب أحد المنازل القرميدية التي تقود درجات مرتفعة إلى بابها الأمامي. وكان هناك ستة مفاتيح أجراس خافتة الإنارة. وكان على أعلاها كلمة *هارلو* على اسم البلدة بحبر باهت. وفيما كنت على وشك الضغط عليه، استحوذت عليَّ صورتان متناقضتان. وكانت إحداهما لبينلوب التي تقف ستة إنشات أسفل ثورن البوق بينما تحدّق للأعلى بشغف إليه وصدرها يكاد يخرج من فستانها الجديد. والأخرى لعيني حنا الواسعتين اللتين لا تجرؤان على أن ترمشا، وفمها المفتوح الذي يعبر بصمت عن هجتها فيما كانت تعتصر آخر قطرة حياة مني على الأريكة في غرفتها.

وترنّمت قائلاً: "طرد إلى هاري"، وشاهدت الباب السحري ينفتح.

* * *

لم أصف مظهر السيد أندرسن الخارجي عدا الإشارة إلى شبهه بالأخ مايكل. ومثل مايكل، فإنه شخص مكتمل الرجولة، وطويل وخشن، ويتميز بأنه مثل الحمم

المنصهرة؛ وكل حركة تعني القيام بشيء. ومثل مايكل، يتعامل مع رجاله مثل الأب العطوف. ويفترض المرء أنه في أواخر العقد الخامس من عمره، وليس هناك شعور بأنه كان بالأمس غلاماً شقياً، أو سيكون غداً خارج إطار الزمن. وهو شخص مستقيم، والمؤتمن على الأمن وسنديانة إنكلترا. وبمجرد عبوره الغرفة، يحصل على المبرر الأخلاقي للأعمال التي يودّ القيام بها. ويمكن الانتظار للأبد لرؤية ابتسامته، ولكن المرء يشعر حين يراها تخرج من ثغره بشيء عظيم.

بالنسبة لي فإن الميزة المهمة حقاً، كما كانت دائماً، هي الصوت: تناغم إيقاع الكلام، والتوقفات المحسوبة دائماً لإحداث تأثير ملموس، ونبرة لهجة شمال البلاد. وفي معهد **السنديانات السبع**، أخبرني أكثر من مرة أنه مغني الأوبرا الرئيسي. وفي سنوات شبابه، كان يشدو بطبقة صوتية أوبرالية وتلقى تشجيعاً لاحتراف الغناء، لكنه أحب الاستخبارات أكثر. ولدى دخولي عبر البوابة هيمن صوت السيد أندرسن مجدداً على كل الانطباعات الأخرى. وكنت قلقاً، وأشعر بالضعف من الأصوات والأشخاص الآخرين المحيطين بي. رأيت نافذة مفتوحة وستائر تتحرك، ومن الواضح تماماً أن هناك تياراً هوائياً غريباً في هذا المكان، غير موجود على مستوى الشارع. ولكن صلب اهتماماتي كان منصباً على خيال السيد أندرسن المنتصب بجانب النافذة، ولهجته الشمالية البسيطة التي كان يتكلم بها عبر هاتفه الخليوي.

سمعته يقول: "سيكون هنا في أي لحظة يا جاك، شكراً لك"، وكان من الواضح أنه غافل عن تواجدي على بعد ستة أقدام منه. "سندرّبه على طرقنا بأسرع ما نستطيع يا جاك؛ ليس بسرعة أكبر". توقف عن الكلام. "أنت محق. سنكلير". ولكن سنكلير لم يكن اسم الشخص الذي يتكلم معه. وكان يؤكد أن سنكلير هو الرجل. "إنه على دراية تامة بذلك يا جاك. وسأطلعه على المزيد حالما يصل - كان ينظر آنذاك إليّ مباشرة، ولا ينتبه رغم ذلك لوجودي - لا، إنه ليس جديداً. قام ببعض الأعمال لنا من قبل، وتستطيع الوثوق بي لأنه الرجل المناسب لهذه المهمة. وهو متمكّن تماماً من كل اللغات التي تستطيع التفكير بها، ومخلص إلى أقصى حدّ".

هـــل من المعقول أنه يشير *إليّ* – متمكن *تماماً* – *مخلص إلى أقصى حدّ*؟ لكني ضبطت نفسي. وكبحت وميض اللهفة في عينيّ.

"سيكون تأمينه مسؤوليتك، وليس مسؤوليتنا، ويجب أن تتذكّر ذلك يا جاك. كل المخاطر من فضلك، إضافة إلى المرض في الميدان وإعادته إلى الوطن بأسرع ما يمكـــن. لا شيء ينتهي على هذه العتبة. وسنكون هنا إذا احتجتنا يا جاك. تذكّر فقــط أنـــك في كل مرة تتصل بنا، تتسبب بإبطاء العملية. أعتقد حقاً أنه يصعد الـــدرج الآن. أليس كذلك يا سالفو؟" أنهى المكالمة. "أصغِ إليّ جيداً الآن يا بني. لديـــنا الكـــثير من العمل ننجزه في غضون وقت قصير. ستزوّدك الشابة بريدجت بملابـــس ترتديها. إنها سترة سهرة جميلة تلك التي ترتديها، لكن من المؤسف أنك ستـــضطر لتغـــييرها. لقد تغيّرت ملابس السهرة كثيراً عن تلك التي كانت سائدة ســـابقاً. وكانت سوداء في *حفلة المطربين السنوية*. وكانت السترات الخمرية مثل التي ترتديها خاصة بقادة الفرقة الموسيقية. إذاً، أخبرت زوجتك بكل شيء، أليس كذلك؟ مهمة بالغة السرية تحظى بأهمية قومية والتي ظهرت فجأة، كما أتوقع؟"

أجبت بحزم: "لم أنبس ببنت شفة يا سيدي. طلبت مني ألا أفعل ذلك، ولهذا لم أخبرها". وأضفت: "اشتريتها خصيصاً لأجل ليلتها"، لأن حنا أو لا داعٍ لذكر حـــنا، فقـــد كـــنت بحاجة للحفاظ على ثقته بإخلاصي الزوجي حتى يحين وقت إطلاعه على ترتيباتي التي ستتغير لاحقاً.

وقفت المرأة التي أطلق عليها بريدجت نفسها بعيدة عني قليلاً، وكانت تنظر إليّ فـــيما تمسك شفتها بطرف ظفر إصبعها المطلي. وكانت تضع قرطاً من اللؤلؤ وتلبس جينـــزاً أنيقاً، وتتمايل في مشيتها في تناغم مع تفكيرها.

"ما هو قياس خصرك يا سالفو؟ نعتقد أنه اثنان وثلاثون".

"ثلاثون، في الحقيقة". كنت أقول مع حنا إنني نحيل جداً.

"هل تعرف طول ساقك من الداخل؟"

وأجبت، بشكل يماثل أسلوبها الهزلي: "كانت اثنان وثلاثون آخر مرة تفقّدها".

"الياقة؟"

"خمسة عشر".

واختفت في أحد الممرات، وتملكتني رغبة جامحة تجاهها حتى أدركت أنها كانت مجرد انبعاث لشوقي إلى حنا.

أعلن السيد أندرسن: "لدينا عمل يتطلب حركة ونشاطاً منك يا بني"، كان صوته مفعماً بالدلالات فيما كان يعيد هاتفه الخليوي إلى جيبه الداخلي مجدداً. "أخشى أنه لا جلوس بعد الآن في مقصورة مريحة والاستماع إلى العالم من مسافة آمنة. أنت على وشك لقاء بعض أولئك المتوحشين شخصياً، وعليك القيام بعمل نافع لوطنك في انتظار حدوث ذلك. أنت لا تتهيب من تغيير هويتك حسبما فهمت؟ الجميع يريد أن يكون شخصاً آخر في مرحلة ما من حياته وفقاً لمعرفتي".

"لست متهيباً على الإطلاق يا سيد أندرسن. لست متهيباً إذا قلت إن ذلك ضروري. أنا مستعد تماماً لذلك في الحقيقة". لقد غيّرتها مرة في الساعات الأربع والعشرين الماضية، ولهذا لن ينتج عن التغيير مرتين فرق كبير. وتساءلت: "من الذي ننقذ العالم منه هذه المرة؟" وكنت حريصاً على إخفاء حماستي بأسلوب بارع. لكن لدهشتي، أخذ السيد أندرسن سؤالي على محمل الجد، وفكّر به جيداً قبل أن يتحفني بالجواب بطريقته الخاصة.

"سالفو".

"سيد أندرسن".

"ما رأيك بالاشتراك في باطل يراد به حق؟"

"أعتقد أنني كنت أقوم بذلك سلفاً؛ حسناً، فقط *بطريقة* ما"، صححت عبارتي بسرعة.

تأخرت كثيراً. تقطّب جبين السيد أندرسن. كان يعوّل كثيراً على استقامة أخلاق غرفة المحادثة، ولم يكن يهتم بالطعن بها، على الأقل من جانبي.

"لغاية الآن يا سالفو قمت بعمل جوهري، لكنه كان دوراً *دفاعياً* نيابةً عن أمتنا المحاصرة. ومنذ الليلة، بكل الأحوال، ستنتقل المعركة إلى العدو. ستتوقف عن كونك *دفاعياً*، وستصبح – كان يبحث عن الكلمة المناسبة – *متفاعلاً*. هل أشعر بتردد من جانبك لبذل ذلك المجهود الإضافي؟"

أضفت: "إطلاقاً يا سيد أندرسن. ليس إذا كان هناك سبب جيد، وهو ما

تقول إنه موجود. سأكون سعيداً للقيام بذلك. طالما أن الأمر لن يستغرق أكثر من يـومين"، منتبهاً إلى قرار حياتي الذي يخصّ حنا، والذي كنت متلهفاً لتطبيقه بالسرعة الكلية. "أو خلال ثلاثة أيام كأقصى حدّ".

"ينبغي عليَّ، بكل الأحوال، تحذيرك أنه من اللحظة التي ستغادر فيها هذا المبنى لن تكون موجوداً بالنسبة لنا. وإذا تعرّضت، لأي سبب، لمكروه ما – مصيبة كما نقول – ستتخلى عنك دون تردد بشأن مصيرك. هل فهمت ذلك جيداً يا بني؟ أنت مقبل على حياة مختلفة إذا صحّ التعبير".

نزعت بريدجت، بأصابع نحيلة مدرّبة جيداً، السترة الرسمية عني، غافلة أنه على بعد مسافة قصيرة منها، كنت وحنا نرتمي على أريكتها فيما نمزّق الملابس المتبقية علينا ونتبادل الحب للمرة الثانية.

قلت مازحاً، رغم أنني تأخرت قليلاً: "فهمت جيداً وقبلت يا سيد أندرسن. ما هي اللغات التي يحتاجونها؟ هل نتكلم عن مفردات خاصة هنا؟ ربما أستطيع العودة لفترة قصيرة إلى باترسي بينما الجو مناسب وأحصل على بعض المراجع".

كان من الواضح أن عرضي لم يلقَ القبول لديه، لأنه زمّ شفتيه. "سيكون ذلك أمراً يقرره المسؤولون المؤقتون عنك، شكراً لك يا سالفو. نحن لسنا مطلعين على خططهم التفصيلية، ولا نرغب بذلك أيضاً".

اصطحبتني بريدجت إلى غرفة نوم داكنة، لكنها لم تدخل. وكان على السرير غير المرتب زوجٌ من السراويل الداخلية الصوفية الخضراء اللون، وثلاثة قمصان رخيصة، ومجموعة من الملابس الداخلية التي يستعملها السجناء، وجوارب وحزام جلدي تمّ انتزاع الكروم عن قفله. ويوجد تحتها على الأرض ثلاثة أحذية، مستعملة. وكان هناك معطف رياضي بالٍ يتدلّى من مشبك على الأرض. وتخلّصت من ملابس السهرة، وشممت مجدداً رائحة جسد حنا العطرة. ولم يكن في غرفتها الصغيرة مغسلة. وكانت الممرضات اللواتي يجهّزن أنفسهن للذهاب إلى العمل يشغلن الحمّامات عبر الممر.

بخصوص الأحذية، لم يوافق أفضلها حالاً مقاس قدمي. وفي حالة انتصار

خاطـــئة للغـــرور على الإدراك، اخترت ذلك الحذاء. وكان المعطف الرياضي من صـــناعة هاريس تويد القوية، ومزوّد بقطع معدنية على الكتفين: دفعت كتفيّ إلى الأمـــام، وضايقت الياقة عنقي. وإلى الخلف، احتجزتني مثل شخص ألقى مواطن القبض عليه. وأكملت ربطة عنق زيتية من النايلون المحبوك الزي الموحد الكئيب.

عـــند تلـــك المرحلة وللحظة واحدة فقط تهاوت معنوياتي لأنه سيكون عليَّ التخلي مباشرة عن ملابسي الفاخرة، ورغبتي في إحداث تأثير على الآخرين والتي تنبع مباشرة من جينات والدتي الكونغولية. وما الذي يمكن إيجاده لدى إلقاء نظرة خاطفـــة على حقيبتي اليدوية في أي يوم عمل بين الشهادات المكتوبة، والتعليمات والأوراق المخـــتلفة وأوامـــر الترحيل؟ مجلات صقيلة مجانية عن الملابس الرجالية الأغلى في العالم، وهي مواد لا أستطيع شراءها في حياتي. وإليك منظري الآن.

لـــدى العودة إلى غرفة المعيشة، وجدت بريدجت تكتب قائمة بمقتنياتي على وثـــيقة قانونية: هاتف خليوي حديث جداً – مصنوع من الفولاذ الخفيف مع آلة تـــصوير – ورزمة من مفاتيح المنـــزل، وشهادة قيادة، وجواز سفر بريطاني كنت أحملـــه دائمـــاً للتباهي أو لشعوري بعدم الأمان، ومحفظة صغيرة من الجلد الأصلي تحـــتوي على خمسة وأربعين جنيهاً إضافة إلى بطاقات ائتمان. والتزاماً مني بروح المسؤولية، سلّمتها الآثار الباقية لمجدي الغابر: سروال بدلة السهرة التي لم أستخدمها بعـــد، وربطـــة عنق من نوع تورنبل وآسر، وقميصي المطوي المصنوع من أجود أنـــواع القطـــن، وأزرار الـــبدلة والقميص المزخرفة، والجوارب الحريرية، والحذاء الجلدي اللامع. وكنت ما أزال أخضع لتلك المحنة المؤلمة عندما عاد السيد أندرسن.

ســـألني كما لو أنه يوجّه لي اتهاماً: "هل سبق أن عرفت شخصاً باسم بريان سنكلير يا سالفو؟ فكّر جيداً من فضلك، سنكلير؟ بريان؟ نعم أو لا؟"

أكّـــدت له أنني لا أعرفه عدا سماعي له يذكر الاسم على هاتفه الخليوي قبل دقائق قليلة.

"حسناً، من الآن فصاعداً، وخلال اليومين والليلتين القادمين، ستكون بريان سنكلير. لاحظ من فضلك الشبه المناسب في الاختصارات التي تدل على الاسم **ب س**. وفي شؤون التمويه، القاعدة الذهبية أن تبقى قريباً من الحقيقة قدر ما تسمح به

الإجـــراءات العملياتية. ولن تكون بعد الآن برونو سلفادور، وإنما بريان سنكلير، متـــرجم حرّ ترعرع في أفريقيا الوسطى، وابن مهندس مناجم، وموظف مؤقت في نقابـــة دولية مسجلة في جزر *القنال*، ومتخصص في نقل أحدث التقنيات الزراعية إلى العـــالمين الـــثالث والرابع. أخبرني من فضلك إذا كانت لديك أي مشكلة في ذلك، مهما تكن طبيعتها".

لم تـــضعف عزيمتي، ولكنها لم ترتفع أيضاً. وكان قلقه بادياً. وبدأت أتساءل فيما إذا كان ينبغي عليَّ القلق أيضاً.

"هل أعرفهم يا سيد أندرسن؟"

"تعرف من يا بني؟"

"النقابة الزراعية. إذا كنت سنكلير، من هم؟ ربما عملت لصالحهم من قبل".

كان من الصعب عليَّ رؤية تعابير وجه السيد أندرسن لأنه كان يقف باتجاه الضوء.

"نحـــن نتحدث يا سالفو عن *نقابة مجهولة*. وسيكون من غير المنطقي فعلاً أن يكون لمثل تلك النقابة اسم".

"المدراء لديهم أسماء، أليس كذلك؟"

وصـــدّني السيد أندرسن قائلاً: "ليس لدى صاحب عملك المؤقت اسم، تماماً مـــثل النقابة". ثم ظهر لين في موقفه. "بكل الأحوال، سوف يكون - أعتقد أنني أتـــسرع بقول ذلك - ماكسي مسؤولاً عنك. رجاءً لا تقل، تحت أي ظرف وفي أي وقت في المستقبل، أنك سمعت هذا الاسم مني".

تـــساءلت: "السيد ماكسي؟ ماكسي ماذا؟ إذا عرّضت نفسي لمشكلة ما يا سيد أندرسن".

"ســـيكون اســـم ماكسي كافياً بذاته، شكراً لك يا سالفو. وفي كل شؤون القيادة والسيطرة، ستقدّم تقاريرك التي تتعلق بهذه العملية الاستثنائية إلى ماكسي ما لم تتلقَ أوامر أخرى".

"هل يمكنني الوثوق به يا سيد أندرسن؟"

ارتفعــت ذقــنه بحــدّة، وكنت واثقاً أن ردّ فعله الأول هو أن أي شخص يستخدم اسمه الخاص ينبغي أن يكون أهلاً للثقة. ثم خفّف من موقفه حالما نظر إليّ.

"في ضوء المعلومات التي وصلتني، يمكنك أن تطمئن بالفعل إلى أنك تستطيع وضــع ثقتك بماكسي. إنه، وفقاً لما أعرفه، عبقري في مجاله. مثلك تماماً يا سالفو، مثلك تماماً".

"شــكراً لك يا سيد أندرسن". لكنّ شيئاً ما بداخلي التقط بعض التحفّظ في صــوته، مما جعلني أضغط عليه أكثر. "لمن يقدّم ماكسي تقاريره؟ لتحقيق أهداف هــذه العملــية الاستثنائية؟ ما لم يتلقَ تعليمات أخرى؟" وأسرعت، مشدوهاً من صــرامته، لتعديل سؤالي بطريقة أكثر قبولاً بالنسبة له. "أعني، نقدّم تقاريرنا جميعنا إلى شخص ما، أليس كذلك يا سيد أندرسن؟ حتى أنت".

لدى تعرضه لضغط يفوق قدرة احتماله، كان السيد أندرسن معتاداً على أخذ نفسٍ عميق وخفض رأسه مثل حيوان ضخم على وشك الانهيار.

أقــرّ بعــد تردد: "فهمت أن هناك شخصاً يدعى فيليب، أو كما أخبروني، عــندما يقتضي الأمر ذلك - زفرة - فيليب على الطريقة الفرنسية". ورغم إتقانه لعدّة لغات، إلا أن السيد أندرسن لطالما اعتبر الإنكليزية كافية لأي شخص. "مثلما أنــت مــسؤول أمام ماكسي، كذلك ماكسي مسؤول أمام فيليب. هل يرضيك ذلك؟"

"هل لفيليب رتبة يا سيد أندرسن؟"

وبغضّ النظر عن تردده السابق، جاء جوابه سريعاً وقاسياً:

"لا، ليس لفيليب رتبة. فيليب مستشار. ليس لديه رتبة، وهو ليس عضواً في أي جهاز رسمي. بريدجت. بطاقات عمل السيد سنكلير من فضلك".

قدّمت لي بريدجت مع إيماءة ذات مغزى محفظة بلاستيكية. وعندما فتحتها، أخــرجت مــنها بطاقة رقيقة تعرّف ببريان س. سنكلير، مترجم مجاز، مع عنوان صــندوق بــريد في بركــستون. ولم تكن أرقام الهاتف، والفاكس وعنوان البريد الإلكتروني مألوفة لي. وليس هناك ذكر لأيٍّ من شهاداتي أو درجاتي العلمية.

"إلى ماذا يرمز حرف "س"؟"

أجـــاب السيد أندرسن برحابة صدر: "أي شيء تريده. سيكون عليك فقط اختيار الاسم والالتزام به".

ســألت، فيما كانت أفكاري تتسابق نحو حنا: "ما الذي سيحدث إذا حاول شخص ما الاتصال بي؟"

"ســيخبرهم تسجيل مهذّب مسجّل أنك ستعود إلى مكتبك في غضون أيام قليلة. وإذا اختار أحد ما إرسال بريد إلكتروني لك، وهو ما نعتبره أمراً غير وارد، سيتم استلام الرسالة والتعامل معها بالطريقة المناسبة".

"لكني الشخص نفسه من كل النواحي الأخرى؟"

كان إصراري يشكل ضغطاً على ما تبقى من صبر السيد أندرسن.

"ســتكون الشخص نفسه يا سالفو، وتعمل وفقاً للظروف الخاصة بك. إذا كنت متزوجاً، ستبقى متزوجاً. وإذا كان لديك جدّة عزيزة عليك في بورنماوث، يمكنك أن تنقل لها تحياتنا. ولن يكون بمقدور أحد تقفّي آثار السيد سنكلير نفسه، وعــندما تنتهــي هذه العملية، لن يعود له وجود. لا أستطيع توضيح المزيد، أليس كــذلك؟" وبنبرة أكثر هدوءاً: "إنه نموذج عادي جداً من المواقف في العالم الذي توشك على دخوله يا بني. مشكلتك الوحيدة هي أنك جديد على هذا".

"ماذا عن مالي؟ لماذا ينبغي عليك الاحتفاظ بمالي؟"

"تعليماتي هي...".

توقف. ولدى النظر إلى الطريقة التي يحدّق بها إليّ، أدركت أنه لا يمعن النظر في ســالفو المتكلف من المشاركة في الحفلات، وإنما إلى فتى الإرسالية الأسمر اللون الــذي يــرتدي السترة الرياضية الخاصة بجيش *الخلاص*، وقميصاً فضفاضاً وينتعل حذاءً ضيقاً جداً. وكان من الواضح أن المظهر ضرب على وتر حساس لديه.

"سالفو".

"نعم يا سيد أندرسن".

"يجب أن تشد من عزمك يا بني. ستعيش كذبة في الخارج".

قلت: "لا أمانع، وأنا مستعد. وحذّرتني. ينبغي أن أتصل بزوجتي". وبالنسبة

للزوجة كنت أقصد حنا، لكني لم أقل ذلك.

"ســتختلط بآخــرين يعيــشون في الأكاذيب أيضاً. أنت تفهم هذا، أليس كذلك؟ إهم ليسوا مثلنا، هؤلاء الناس. الحقيقة ليست مطلقة بالنسبة لهم. ولا حتى حقــيقة الكــتاب المقــدّس التي ترعرعنا عليها جميعاً، بمقدار ما نرغب بأن تكون كذلك".

لم أتعــرّف أبداً من قبل، و لم أفعل لغاية هذا اليوم، على معتقدات السيد أندرســن الدينــية، والتي أشك بأنها ماسونية إلى حدٍّ كبير. لكنه كان يذكرني دائمــاً بأنــنا رفــاق ســلاح بغضّ النظر عن العقيدة التي نؤمن بها. وسلّمتني بريدجت الهاتف الخليوي لإجراء مكالمة أخيرة، وانتقلت إلى غرفة النوم التي لا تبعد أكثر من ستة أقدام عن المكان الذي أقف فيه. وكان السيد أندرسن واقفاً في قاعة الاستقبال، ويستطيع سماع كل كلمة أقولها. ووقفت في الردهة أفكّر في المــسار الــشاق لتعقــيدات الخيانة الزوجية. وانتابتني رغبة جامحة لإخبار حنا بحبــي الخالــد لها وتحذيرها بأنني لن أكون قادراً على الحديث معها ليومين بخلاف كل تأكيداتي لها. ولكن بوجود باب رقيق فقط يفصلني عمن يستمعون إليَّ، لم يكــن لــديَّ خيار سوى الاتصال بزوجتي والاستماع إلى جهاز الردّ الصوتي:

"أنــت تتصل بالبريد الصوتي لبينلوب راندال. أنا خارج مكتبــي الآن. إذا كــنت مهــتماً بتــرك رســالة، يرجى القيام بذلك بعد الإشارة. وللحديث مع مساعدتي، اطلب إما على 9124".

أخــذت شهيقاً. "مرحباً يا عزيزتي. إنه أنا. اسمعي، أنا آسف *جداً*، لكن تمّ استدعائي للقيام بمهمة بالغة الأهمية. إنها إحدى أقدم وأفضل الشركات التي أتعامل معهــا. قالوا إنها مسألة حياة أو موت. سأقضي يومين أو ثلاثة. سأحاول الاتصال بكِ، لكن ذلك سيكون صعباً".

مــن كنت أشبه؟ شخصاً لم يسبق أن التقيت به. شخصاً لم يسبق أن سمعت به. شخصاً لا أريد لقاءه مجدداً، وحاولت جاهداً:

"اسمعــي، ينفطــر قلبــي حزناً حقاً يا عزيزتي. وكانت حفلتك تبدو *رائعة*.

أكـــرّر، *رائعة*. وكان فستانك مذهلاً. وكان الجميع يتحدث عنه. وأنا *آسف جداً* لأنه كان ينبغي عليَّ المغادرة قبل انتهاء الحفلة. أودّ قول الكثير عندما أعود، حسناً؟ أراكِ قريباً يا عزيزتي. إلى اللقاء".

اســتعادت بريدجت هاتفي الخليوي، وسلّمتني حقيبة السفر وراقبتني عندما كـــنت أتفقّـــد محتوياتها: جوارب، ومناشف، وقمصان، وملابس داخلية، ولوازم حمّام، وبلوزة صوفية رمادية لها فتحة بشكل V.

تمـــتمت: "هل تستخدم أي أدوية؟ ماذا عن العدسات اللاصقة؟ لا سوائل، القليل من العلب؟"

وهززت رأسي نفياً.

قال السيد أندرسن: "حسناً، ينبغي أن تغادر إذاً"، ولم تكن ستصيبني الدهشة إذا رفع يده اليمنى وأنعم علينا بإحدى بركات الأخ مايكل.

4

إنــه لغــز بالنسبة لي، لأنني عندما أسترجع تلك الأحداث من المكان الذي أتــواجد فــيه اليوم، أتذكر أنني لحقت ببريدجت نــزولاً على الدرج إلى رصيف شارع أودلي الجنوبي، مرتدياً ملابس معلم مدرسة ثانوية آت من الريف، ولا شيء يــربطني بالعــالم سوى حفنة من بطاقات العمل الزائفة والتأكيد بأنني على وشك التعرض لمخاطر غير مألوفة، ولا بد أنني اعتبرت نفسي الرجل الأكثر حظاً في لندن تلك الليلة، إن لم يكن في كل إنكلترا، وأكثر الوطنيين والعاملين في الاستخبارات السرية بسالةً، ولكن ذلك ما كنت عليه بالفعل.

فــرام هــو اسم القارب الذي صمّمه المستكشف النرويجي الشهير نانسن، العضو البارز في مجموعة العمل التي شكلها الأخ مايكل. وتعني فرام باللغة النرويجية "إلى الأمــام"، وهي مستوحاة من رحلة والدي العزيز الراحل الغريبة التي قطع بها البيرينــيه على الدرّاجة. وكان فرام – شئت أم أبيت – يهيمن على حالتي النفسية مــنذ أطلق الأخ مايكل في سياق مختلف *الصرخة الكبرى*. "إلى الأمام" فيما كنت أســتجمع شــتاتي لاتخاذ القرار الذي ينبسط أمامي، "إلى الأمام" فيما كنت أفرد جناحيّ في حرب بلادي السرية ضد المتوحشين وأشارك بها شخصياً، "إلى الأمام" وبعــيداً عــن بينلوب التي لطالما كانت غريبة عني، "إلى الأمام" فيما كنت أخطط لطــريق عودتي الأبيض اللامع إلى الحياة مع حنا. "إلى الأمام"، أخيراً، نحو رئيسي الجديد الغامض ماكسي، والمستشار الأكثر غموضاً فيليب.

نظــراً للسرعة القصوى للعملية وأهميتها، توقعت إيجاد فريد سائقنا الأبيض ينتظــر بــتلهف في سيارته المونديو عند الرصيف، ولكن مع الحصار الذي كانت الــشرطة تفرضــه في المنطقة والازدحام المروري، أكّدت لي بريدجت أن المشي سيكون أسرع.

سألتني: "لا تمانع، أليس كذلك يا سالف؟"، وأمسكت بذراعي بقوة، إما لأنها كانت تعتقد أنني قد أهرب - وهو ما لم يكن بعيداً عن تفكيري - أو لأنها كانت واحدة من الدلالات الشعورية التي تداعب وجنتيك وتضع راحة الكف حول عنقك ولا تعرف أبداً، أو أنني لم أعرف، فيما إذا كانت تعبيراً عن اللطف الإنساني أو دعوة إلى السرير.

ورددت: "أمانع؟ إنها أمسية رائعة! لا أستطيع استعارة هاتفكِ للحظة، أليس كذلك؟ ربما لن تستمع بينلوب إلى رسائلها الصوتية".

"آسفة يا عزيزي. أخشى أن ذلك مخالف للتعليمات".

هل كنت أعرف إلى أين نتجه؟ هل سألت؟ لم أفعل ذلك. لا تساوي حياة العميل السري شيئاً إذا لم تكن رحلة نحو المجهول، وحياة الحبيب السري ليست أقل من ذلك. ومشيت بخطوات واسعة أضبط إيقاعي مع بريدجت، منتعلاً حذائي المستعمل الذي يضغط على عظام كاحلي. وارتفعت معنوياتي أكثر في ضوء الغسق، وربما ساعدت بريدجت بشكل لا شعوري في ذلك، وقامت برفع ساعدي الأيمن عالياً على ذراعها حتى وصل إلى تحت صدرها الأيسر، وكان لمس انحناءته مبهجاً للنفس. وعندما تضيء حنا المصباح لك، سيكون من الطبيعي أن ترى نساء أخريات في أشعة ضوئه.

قالت بإعجاب فيما كانت تقودني عبر حفنة من الأشخاص الذين يحتفلون ليلة الجمعة: "تحبها حقاً، أليس كذلك؟ الكثير من الأزواج الذين أعرفهم يشتكون باستمرار من بعضهم البعض. ويسبب ذلك تسرب الملل إلى نفسي. لكن أنت وبينلوب لستما من هذا النوع، أليس كذلك؟ لا بد أن ذلك رائع".

كانت أذنها على بعد ستة إنشات من فمي، وكانت تضع عطراً يدعى جي ريفنيز، والذي كان المفضّل لدى شقيقة بينلوب الصغرى غيل. لقد تزوجت غيل، قُرة عين والدها، مالكاً لمرآب سيارات من الفروع الأدنى للأرستقراطية. وتزوجت بينلوب، كردّ فعل انتقامي، مني. وحتى اليوم، يتطلب الأمر هيئة من كبار اليسوعيين لتفسير ما فعلته لاحقاً.

لماذا يشعر شخص ارتكب الزنا حديثاً، والذي منح قبل ساعات جسده،

وروحه وأصوله إلى امرأة أخرى للمرة الأولى في زواجه منذ خمس سنوات، برغبة ملحّة في تلميع صورة زوجته المخدوعة؟ هل يحاول إعادة ابتكار صورتها التي شوّهها؟ هل يعيد ابتكار صورته قبل أن يقع؟ هل كانت تعاليمي الكاثوليكية الحاضرة دائماً تستحوذ عليَّ في غمرة ابتهاجي؟ هل كان رفع بينلوب إلى السماء أقرب ما يمكنني القيام به لرفع حنا دون كشف سري؟

كان لديَّ نيّة قوية في تشجيع بريدجت على الكلام عن المشرفين الجدد على عملي، وأن أعرف عن طريق أسئلة ماكرة المزيد عن تركيبة النقابة المجهولة، وعلاقتها مع العديد من الجهات السرية في الدولة البريطانية التي تكدّ ليل نهار لحمايتنا، بعيداً عن عيون المواطن العادي. وفيما كنا نشق طريقنا عبر حركة السير المتوقفة تقريباً، باشرت في تقديم وصف لبينلوب مدّعياً أنها الزوجة الأكثر جمالاً، وروعةً وإثارةً وإخلاصاً التي يمكن لمترجم محترف وجندي ملكي سري أن يحظى بها، إضافة إلى أنها صحفية لامعة تجمع بين العناد والرفق، وطاهية ماهرة. سيعتقد الجميع أن ذلك يقترب من الخيال، خصوصاً إذا شاهدوا من يقوم بالطهي حقاً. ولم يكن كل ما قلته إيجابياً بالكامل، ولا يمكن أن يكون كذلك. وإذا كنت تتكلم في ساعة ذروة الازدحام إلى امرأة أخرى حول زوجتك، لا تستطيع إخفاء بعض جوانبها السلبية وإلا لن تجد من يستمع إليك.

احتجّت بريدجت، بصوت حزين لشخص التزم بالقواعد دون جدوى: "لكن كيف بحق الله وجد السيد والسيدة **مناسب** بعضهما البعض في المقام الأول؟ هذا ما *أريد* معرفته".

وأجاب صوت غريب في داخلي: "بريدجت، إليك كيف".

* * *

قلت لها فيما كنا ننتظر يداً بيد تغير ضوء ممر المشاة: إنها الثامنة مساءً في حجرة سالفو الكئيبة في إيلنغ. وكان السيد أماديوس عثمان من **وكالة الترجمة القانونية العالمية** يطلبني من مكتبه الكريه الرائحة في شارع محكمة توتنهام. وكان ينبغي عليَّ الذهاب مباشرة إلى رصيف التحميل في الميناء حيث تعرض إحدى

الـصحف القومية الرائدة مبالغ طائلة مقابل خدماتي. وكانت تلك أيام الكفاح، والسيد عثمان يمتلك نصفي.

في غـضون ساعة، كنت جالساً في مكاتب الصحيفة الفخمة مع محررها إلى جانبـي ومراسـلتها المميـزة - احزري من؟ - على الجانب الآخر. ويجلس القرفـصاء أمامـنا تاجر ملتحٍ من أفريقيا، والذي يدفع رشى لمجموعة من ضباط الجمارك والشرطة الفاسدين الذين يعملون في حوض سفن ليفربول أكثر مما أجنيه في سـنة كاملة. وكانت إنكليزيته ضعيفة، ولغته الأم السواحيلية بلهجة تنـزانية تقلـيدية. وكانت مراسلة الجنايات المتميزة ومحررها في ورطة: التحرّي عن المصدر مـع الـسلطات والتفاوض حول المسألة؛ وقبول ما يقوله المصدر بناءً على الثقة، وإفساح المجال أمام محامي التشهير ليستولي على كل ما تملك.

حضرت الاستنطاق بعد موافقة بينلوب. وفيما كان الاستجواب يأخذ مجراه، عـدّل ذلك الشخص وغيّر من قصته، وأضاف عناصر جديدة، وسحب القديمة. وكـرّرت أقواله نفسها. وشرحت تناقضاته العديدة حتى اعترف بكل شيء تحت ضـغطي المتواصـل. وكان محتالاً، ومخادعاً. وسيختفي عن الأنظار مقابل خمسين جنـيهاً. وكـان المحرر متهللاً في امتنانه. وحفظت بضربة واحدة، كما قال، ماء وجههم وحساباهم المصرفية. وأعلنت بينلوب، بعد التغلب على صدمتها المخزية، أنها تدين لي بشراب كبير جداً.

شـرحت لـبريدجت بتواضـع: "يتوقع الناس أن يكون المترجمون صغاراً، ومـنهمكين بالدراسـة وموضع سخرية"، وبددت مخاوف بينلوب من التفكير بما سـيحدث لاحقاً، و لم تُظهر اهتماماً واضحاً بي منذ البداية. "أعتقد أنني فشلت في الارتقاء إلى مستوى توقعاها".

قالت بريدجت: "أو أنها اهتمت كثيراً"، وشدّدت من قبضتها على يدي.

هل أبوح بما تبقى لبريدجت أيضاً؟ هل أعتبرها كاهن الاعتراف البديل في غياب حـنا؟ وأكشف لها كيف أنني، حتى قابلت بينلوب، كنت بتولاً بعمر ثلاث وعشرين سـنة، ورغـم الأناقـة الشديدة في مظهري الخارجي، إلا أنه يوجد خلف واجهتي المرسومة بعناية إرهاق يثقل كاهلي مع ملابس تكفي لملء خزانة كبيرة؟ هل كانت نيّة

الأخ مايكـــل، ومـــن بعده بير (الأب) أندريه، أن يتركاني في أمّية جنسية أخشى أن أخرج منها فيما بعد؟ وأن عقدة ذنب والدي العزيز الراحل فيما يخصّ اندفاع شهواته قــد تحوّلت بالكامل دون نقصان إلى ابنه؟ وكيف كنت أخشى، فيما كانت سيارة الأجـــرة تتجه نحو شقة بينلوب، اللحظة التي ستكتشف بها عدم أهليتي بالمعنى الدقيق، وخوفي من جنس النساء؟ وكيف أنه بفضل معرفتها وتدبيرها انتهى كل شيء على ما يـــرام؟ على *أفضل* ما يرام. أفضل مما كانت تتخيله حتى، كما أكّدت لي. كان سالفو فحـــل أحلامها، والأفضل في توازنه كما أضافت؛ ومنحتني العلامة الكاملة؟ أو، كما قالـــت لاحقاً لصديقتها بولا عندما اعتقدتا أنني أستمع إليهما، أن *جندي الشوكولاته* يقـــف على أهبة الاستعداد؟ وأنه بعد أسبوع من ذلك، كان يتقن كل شيء في تلك المـــسألة الجديدة عليه، وكل المهارات التي تخمد النار في غرفة النوم، ويغمره الامتنان ومستعد لمزج العملية الجنسية مع الحب الرائع، وأن سالفو باندفاعه وسذاجته المألوفين عرض الزواج على بينلوب، فقط ليلقى القبول فوراً؟ لا. سأكون رحيماً، وسأعمل في ذلك الموضع على الأقل على كبح جماح نفسي. ولم أجرؤ أيضاً على إخبار بريدجت بالثمن الذي دفعته منذ ذلك الحين، سنة بعد أخرى، ولكن فقط لأننا كنا قد تجاوزنا فندق كونوت ووصلنا إلى نهاية ميدان بيركلي.

* * *

كـــنت أعتقد في أعماق قلبـــي، دونما سبب خارج توقعات الجاذبية العادية، أن طـــريقنا ســـيأخذنا نـــزولاً نحو البيكاديلي. لكن قبضة بريدجت على ذراعي اشـــتدت فجأة، وقادتني بضع درجات للأعلى إلى باب كبير فشلت في قراءة الرقم الموجـــود علـــيه. وأُغلق الباب خلفنا وأصبحنا في الداخل، ووقفنا في بهو تحيط به ستائر المخمل أمام رجلين أشقرين متشابهين. ولا أتذكر أنها ضغطت على جرس أو قـــرعت الباب، لهذا لا بد أنهما كانا يترقبان حضورنا على شاشة مراقبة. وأتذكر أنهمـــا كانا يرتديان قميصين رماديين مثل الذي أرتديه، وتوجد في سترتيهما ثلاثة أزرار مغلقة جميعها. وأتذكر أنني تساءلت فيما إذا كان ينبغي عليَّ إحكام إغلاق سترة هاريس تويد الخاصة بي.

أخبر الرجل الجالس بريدجت دون أن يرفع عينيه عن صورة الباب الذي دخلنا منه للتو بالأبيض والأسود: "سكيبر متأخر. إنه في الطريق إلى هنا، حسناً؟ عشر إلى خمس عشرة دقيقة. هل تريدين تركه هنا معنا، أم الانتظار معه؟"

وقالت بريدجت: "سأنتظر".

ومدّ الرجل يده نحو حقيبتي، وسلمته إياها بناءً على إيماءة من رأس بريدجت.

كانت هناك قبة في سقف البهو الرئيسي الذي دخلنا إليه، مع حوريات بيضاوات، وأطفال بيض ينفخون في الأبواق. وسلالم فخمة تنفصل في منتصفها إلى قسمين يصلان إلى شرفة يوجد عليها صف من الأبواب، جميعها مغلقة. ويوجد عند أسفل السلالم، وعلى الجانبين، بابان آخران كبيران، يهيمن عليهما نسران ذهبيان يبسطان أجنحتهما فوقهما. كان الباب الأيمن مغلقاً بستارة من الحرير الأحمر مع أدوات نحاسية. ولم أرَ أحداً يدخل أو يخرج منه إطلاقاً. ويوجد أعلى الباب الأيسر لافتة حمراء مكتوب عليها "صمت مؤتمر منعقد" دون أي علامات ترقيم، لأنني ألاحظ ذلك دائماً. لهذا إذا أردت أن تكون مدّعي علم، يمكن أن تفسّرها على أن هناك أشخاصاً يعقدون مؤتمراً حول الصمت: والذي لا يدل سوى على أن حالتي الذهنية كانت تتأرجح بين الاطمئنان، والفزع، والخروج من هناك والحماس المفرط. ولم يسبق لي أن تعاطيت الممنوعات من قبل، ولكن إذا فعلت ذلك، أتخيل أن حالتي ستكون كما أشعر الآن، ولهذا أحتاج لاستبيان كل شيء حولي قبل أن يتحول إلى شيء آخر.

وقف رجل ضخم أشيب الشعر يحرس الباب الرئيسي، وكان يبدو عربياً وأكبر سناً من الشابين الأشقرين الجالسين معاً وكأنه ما يزال مشتركاً في دروس الملاكمة: أنفه مفلطح، وكتفاه ضخمتان، ويداه مشبوكتان فوق بطنه. ولا أتذكر أنني صعدت السلالم للأعلى. وكنت سأتذكر ذلك إذا قادتني بريدجت وهي ترتدي الجينز الضيق للغاية، لهذا لا بد أننا صعدنا جنباً إلى جنب. ولا بد أن بريدجت جاءت إلى هذا المنزل من قبل. وهي تعرف مخططه والشابين. وتعرف الرجل العربي أيضاً لأنها ابتسمت له، وابتسم لها بأسلوب رقيق كأنه معجب بها قبل أن يعود إلى وضعية الملاكم الجادة. وكانت تعرف دون أن يخبرها أحد أين

تستطيع الانتظار، وذلك في منتصف السلالم قبل أن تنقسم إلى نصفين، وهو شيء لا يستطيع أحد تخيله من الأسفل.

كـــان هناك كرسيان مريحان، وأريكة جلدية دون ذراعين، ومجلات صقيلة تعـــرض جزراً خاصة في الكاريبـــي ويخوتاً للتأجير مع الطاقم والمروحية، والسعر عـــند الطلـــب. التقطت بريدجت واحدة وتصفّحتها، ودعتني للقيام بالمثل. وفيما كنت مستغرقاً في الأوهام حول فرام الذي أستطيع مع حنا الإبحار على متنه، كنت أوجّـــه أذن عقلي إلى الأصوات القادمة من غرفة المؤتمرات، لأنني مستمع بطبيعتي ومـــدرّب على ذلك، ليس فقط من خلال غرفة المحادثة. بغضّ النظر عن الارتباك الـــذي أشعر به، أستمع وأتذكر لأنها مهنتي. إضافة إلى حقيقة أن الأطفال السريين في منازل الإرسالية النائية يتعلمون إبقاء آذانهم مصغية إذا أرادوا معرفة ما ينتظرهم لاحقاً.

عندما أصغيت السمع، بدأت ألتقط أصوات آلات الفاكس التي تعمل لوقت طـــويل في الغرف الموجودة فوقنا، ورنين الهواتف الخافت جداً، وفترات الصمت الهادئة عندما لا يحدث شيء ويحبس المنـــزل بأكمله أنفاسه. وكل دقيقتين أو أقل، كانت إحدى المساعدات الشابات تنـــزل من أمامنا على السلالم لتسليم رسالة إلى الحارس، الذي يفتح بابه بمقدار ستة إنشات، ويمرر الرسالة إلى شخص في الداخل قبل أن يغلقه مجدداً ويضع يديه على بطنه مرة أخرى.

أثـــناء ذلـــك، كانـــت الأصوات تستمر في الخروج من غرفة المؤتمرات. وكانـــت أصوات ذكور، وجميعهم *مهمون* بطريقة ما، وهناك اجتماع لرجال يتمتع كل منهم بثقل كبير، وليس اجتماعاً لمسؤول يتحدث فيه إلى مرؤوسيه. ولاحظـــت أيضاً أن *الكلمات* كانت بالإنكليزية، إلا أن الأصوات كانت من جنسيات ولهجات مختلفة، من شبه القارة الهندية، إلى الأميركية – الأوروبية أو ســـكان المستعمرات الأفريقية البيض، ومعظمها بصيغة مؤتمرات عالية المستوى اعـــتدت ارتـــيادها حيث يتمّ إلقاء الخطب بالإنكليزية، ولكن المناقشات غير الرسمية تجري بلغات الوفود الأصلية، مع قيام المترجمين بإنشاء الجسور الأساسية بين الأرواح المناضلة.

كـــان هناك صوت واحد، بكل الأحوال، يبدو بأنه يخاطبني شخصياً. كان إنكليـــزياً أصلياً، ومن الطبقة العليا، وهناك صعود وهبوط في نغمة حديثه. أخيراً، وبعـــد دقيقتين استطعت ضبط الهوائي الخاص بي مع ما كنت أدعوه أذني الثالثة، وأقنعت نفسي أنه كان صوت رجل نبيل مألوف ومحترم لديَّ، حتى إذا لم أستطع الـــتقاط كلمة واحدة مما كان يقوله. وكنت ما أزال أبحث في ذاكرتي عن صاحب الـــصوت عندما شتّت انتباهي صوت عاصف تحتنا لدى فتح الباب الذي يقود إلى الـــبهو ليخـــرج مـــنه الـــسيد يوليوس بوغارد الملقّب ببوغي، أستاذي السابق في الرياضـــيات والـــرئيس الـــبارز **لنادي نشاطات الشباب** التابع للبعثة التبشيرية. واخـــتلطت حقيقة أن بوغي اختفى قبل عشر سنوات عندما كان يقود فريقاً من أطفـــال المـــدارس المذعـــورين على الجانب الخاطئ من الجبل في كيرنغرومس مع دهشتي لرؤيته من جديد.

سمعت بريدجت تشهق بدهشة فيما كانت تثب على قدميها: "ماكسي! أيها الأحمق المجنون. من هي الفتاة المحظوظة هذه المرة؟"

وبكل الأحوال، لم يكن بوغي.

ارتـــبت فيما إذا كانت أي من فتيات بوغي، إذا كان لديه أي واحدة، تعتبر نفـــسها محظوظة، وليس العكس. ولكن، لديه معصما بوغي النحيلان، وخطوات بوغي الكئيبة ونظرته الخاطفة، وشعر بوغي الأصفر المشوّش والذي وجهته الرياح إلى جانـــب رأســـه وأبقته هناك، ولون وردي على وجنتيه. وتتدلّى حقيبة بوغي القماشـــية الـــصفراء، مـــثل علبة قناع الغاز الحربي في الأفلام القديمة، من كتفه. ونظاراتـــه، مـــثل تلـــك التي كان يضعها بوغي، تعمّق من محيط عينيه الزرقاوين الواســـعتين اللـــتين ترمشان فيما كان يهرول باتجاهنا تحت الثريا. وإذا سبق وجاء بوغي إلى لندن من قبل - وهو ما كان ضد مبادئه - كان سيختار دون شك هذه المستلزمات: بدلة استوائية ثابتة اللون يمكنه ارتداؤها في أي مكان وغسلها بنفسه، مع بلوزة صوفية دون أكمام وحذاء بالٍ من جلد الغزال. وإذا كان بوغي سيندفع عـــبر الـــسلالم إلى المنطقة التي ننتظر فيها، فإنه سيفعل ذلك بالطريقة الآتية: ثلاث قفزات سريعة مع إبقاء حقيبة قناع الغاز متدلّية إلى جانبه.

اشتكى بغضب: "درّاجتي الهوائية اللعينة"، ومنح بريدجت قبلة سطحية كانت تعني بالنسبة لها أكثر مما تعني له. "علقنا في وسط الهايد بارك. انفجر الإطار الخلفي إلى قطع صغيرة. هل أنت المترجم؟"

استدار فجأة حولي. و لم أكن معتاداً على كلمات بتلك القوة من الزبائن، ولا علـى تـرديدها أمام السيدات، لكني سأقول فوراً أن الرجل الذي وصفه السيد أندرسن على أنه قائدي العبقري في الميدان لم يكن من الزبائن الذين أتمنى اللقاء بهم أبداً، وهذا ما عرفته حتى قبل أن يرمقني بنظرة بوغي المتفحصة.

قالت بريدجت بسرعة: "إنه بريان يا عزيزي"، ربما لأنها كانت خائفة من أن أقول شيئاً مختلفاً. "بريان سنكلير. يعرف جاك كل شيء عنه".

كـان هناك صراخ رجل يصل إلينا، وهو نفس الصوت الذي اعتقدت أنني أعرفه.

"ماكسي، كيف حالك يا رجل؟ يبدو أن الجميع مشتركون في هذا".

لكـن ماكسي لم يعر الصوت اهتماماً، وفي اللحظة التي نظرت بها للأسفل، اختفى صاحبه مرة أخرى.

"هل تعرف مهمتك يا سنكلير؟"

"ليس بعد يا سيدي".

"ألم يخبرك ذلك العجوز الأحمق أندرسن؟"

احتجّت بريدجت: "عزيزي".

"قال إنه لا يعرف أيضاً يا سيدي".

"تعرف الفرنسية، لنغالا والسواحيلية أيضاً، صحيح؟"

"صحيح يا سيدي".

"بيمبـي؟"

"ليست مشكلة يا سيدي".

"شي؟"

"أتقن شي أيضاً".

"الكينية – الرواندية؟"

فنـــصحته بريدجت قائلة: "اسأله ما الذي لا يتقنه يا عزيزي. سيكون ذلك أسرع".

وأجبت كما لو أنني أبعث رسائل حب إلى حنا: "كنت أترجم عن الكينية – الرواندية مساء أمس يا سيدي".

"رائع جداً"، وفكّر ملياً، واستمر في التحديق إليّ كما لو أنني بعض البهارات الجديدة المثيرة. "من أين جاء كل هذا؟"

شـــرحت له: "كان والدي يعمل في بعثة دينية أفريقية"، وتذكرت بعد فوات الأوان أن الـــسيد أندرســـن أخـــبرني أنـــني ابن مهندس مناجم. وكانت كلمة "كاثوليكـــية" على رأس لساني بحيث يستطيع معرفة القصة كاملة، لكن بريدجت كانت تنظر إليّ بطريقة مخيفة لهذا قرّرت الاحتفاظ بذلك إلى وقت لاحق.

"وتتقن الفرنسية مئة بالمئة، صحيح؟"

شـــعرت بالإطراء من الطبيعة الإيجابية لاستجوابه، وكان عليَّ الاعتراض. "لا أدّعـــي أنني أتقنها مئة بالمئة يا سيدي. أتطلع نحو الكمال، لكن هناك دائماً مساحة للتطوير"، وهو ما كنت أقوله لكل زبائني، من أقواهم إلى أكثرهم تواضعاً، ولكن عندما قلت ذلك لماكسي، كان يبدو أنني أدخل في منعطف جديد.

ردّ ســـريعاً: "حسناً، فرنسيتي لا تتعدّى المستوى الأول". ولم تتركني نظرته المتفحـــصة لـــوهلة واحدة. "وتريد الاشتراك في هذا، صحيح؟ لا تمانع استخدام مهاراتك؟"

قلت، مردّداً إجابتي للسيد أندرسن: "ليس إذا كان ذلك لصالح البلاد يا سيدي".

وأكّد لي: "لصالح البلاد، لصالح الكونغو، لصالح أفريقيا".

ثم غـــادر، ولكـــن لـــيس قبل أن ألاحظ بعض النقاط الإضافية في شخصية صاحب عملي الجديد. كان يضع ساعة على معصمه الأيسر، وعلى المعصم الآخر سواراً ذهبياً. وكانت يده اليمنى، نظراً لتركيبتها، مضادة للرصاص. ولمست شفتا امرأة صدغي، وأقنعت نفسي للحظة أنهما شفتا حنا، لكنهما كانتا شفتي بريدجت

تقـــبلني قبلة الوداع. ولا أدري المدة التي انتظرت فيها بعد ذلك. أو ما خرجت به بعـــد الـــتفكير بما حدث أكثر من ثانيتين. ومن الطبيعي أنني كنت أفكر بقائدي الجديـــد وكـــل مـــا حدث بيننا في لقائنا القصير. وبقيت أكرّر لنفسي "بيمب". وكانـــت "بـــيمب" تجعلـــني أبتسم دائماً. وهي الكلمة التي كان أطفال مدرسة الإرسالية ينادون بها بعضهم البعض، عندما كانوا يخرجون إلى قطعة الأرض المجاورة المليئة بالطين الأحمر ويلعبون كرة القدم تحت الأمطار الغزيرة.

تذكّرت أيضاً الشعور بالاستياء عندما تركني كل من ماكسي وبريدجت على الـــتوالي، وكان هناك لحظة تمنيت بها العودة إلى حفلة بينلوب، وهو ما جعلني أقفز على قدميّ مصمماً على الاتصال بحنا من البهو، مهما تكن النتائج. ونـــزلت على السلالم - كان عليها درابزين نحاسي صقيل جداً، وشعرت بالذنب عندما وضعت راحـــة يـــدي المتعرقة عليه - وكنت أجهّز نفسي لعبور القاعة تحت عيني الحارس الأشيب عندما انفتحت الأبواب إلى غرفة المؤتمرات بحركة بطيئة، وخرج المحتشدون داخلها في مجموعات مثنى وثُلاث حتى تجمّع حوالى ستة عشر شخصاً منهم.

* * *

كـــان علـــيَّ توخّي الحذر هنا. فعندما تنضم إلى مجموعة كبيرة مثيرة تضم وجـــوهاً معروفة، تحاول نبش شخصياهم من ذاكرتك ومحاولة استرجاع أسمائهم. ولكـــن هـــل ستكون الأسماء صحيحة؟ ومن بين الرجال البيض العشرة أو الأحد عـــشر، لم أكـــن قادراً آنذاك سوى على تحديد هوية مسؤولين بارزين من بلدية لـــندن، وطبـــيب سابق لرئيس الوزراء تحوّل إلى مستشار مستقل، ومدير إحدى الشركات في السبعين من عمره، وأحد نجوم الراب المشهورين وصديق أفراد العائلة المالكة الشباب والذي كان مؤخراً هدفاً لمزاعم عن تورطه في الممنوعات والدعارة في صحيفة بينلوب الواسعة الانتشار. وكانت وجوه هؤلاء الرجال الخمسة محفورة في ذاكرتي للأبد. وتعرّفت عليهم حالما خرجوا من الغرفة. وبقوا مجتمعين، وتكلموا مجـــتمعين، ولم يكونـــوا يبعدون سوى ثلاث ياردات عن المكان الذي أقف فيه. وكنت أحاول الإطلاع على فحوى محادثتهم.

لم يكـــن أيٌّ مـــن الرجلين الهنديين معروفاً لي، رغم أنني لاحظت أن الرجل الأكثـــر صخباً بينهما كان مؤسس إمبراطورية صناعة ملابس بملايين الجنيهات مع مراكـــز رئيســـية في مانشـــستر ومدراس. ومن بين الأفارقة السود الثلاثة، كان الـــشخص الوحـــيد المألـــوف لي وزير المالية السابق المنفي لإحدى الجمهوريات الأفريقية الغربية، ونظراً لظروفي الحالية سأحجم عن تسميته. ومثل مرافقيه الاثنين الآخرين، ظهر مرتاحاً ويرتدي ملابساً غربيّة ويتصرف على الطريقة الغربية.

تـــبدو الحالـــة النفسية للوفود التي تنبثق من غرفة المؤتمرات وفقاً لخبرتي بأحد شكلين: ممتعضة، أو متحمسة. وكان هؤلاء الأشخاص متحمسين ويحبون القتال. و لم تكن لديهم آمال عريضة وحسب، وإنما أعداء أيضاً. وكان أحد هؤلاء الأعداء تـــابي، على اسم القط الرمادي اللون، والمصنف بين الأنياب الصفراء للمضاربين السبعين في أسواق البورصة. وكان تابي وغداً قذراً، حتى بمقاييس أعماله التجارية، وكـــان يقول لمستمعيه الهنود: سيكون من دواعي سروري تجاوز الآخرين عندما تحـــين الفرصـــة. وبكل الأحوال، اختفت مثل هذه الانطباعات الزائلة بسرعة من ذهني لدى انبثاق ماكسي المتأخر من غرفة المؤتمرات، وإلى جانبه صاحب الصوت الذي كان يماثله طولاً تقريباً ولكنه أكثر أناقة بالملابس والسلوك، والذي كان يبدو أنه يتحدث إليّ فيما كنت أنتظر على السلالم: لورد ساندس برنكلي، نصير الفن، ورجل الأعمال، والعضو البارز في المجتمع ووزير العمل السابق - كانت البدلة التي يلبسها محط اهتمامي دائماً - والمدافع منذ أمدٍ بعيد وبطل كل ما هو أفريقي.

ســـأقول فـــوراً إن انطباعـــي عن اللورد برنكلي لدى رؤيته يعزز تقديري لشخـــصيته كمـــا كنت أراها على التلفاز، وحين كنت أسمع صوته عبر جهازي المفـــضل، الـــراديو. المعالم البارزة مع الفك القوي والغُرّة المتطايرة تعكس بالضبط شـــعوراً بالمكانة العالية التي لطالما اقترنت به. كيف لم أهتف له عندما كان يوبخ العـــالم الغـــربي لمحاولته السيطرة على الضمير الأفريقي؟ وإذا كان ماكسي واللورد برنكلي يعملان يداً بيد في محاولة سرية لدعم الكونغوليين - وكانا يمشيان يداً بيد آنذاك - حرفياً - فيما يتقدمان نحوي - إذاً، كوني جزءاً من تلك العملية سيكون شرفاً لي بالفعل!

كان اللورد برنكلي يحظى بتقديري أيضاً لسبب شخصي، يدعى بينلوب. وفيما كنت أتحرك بحذر على حافة الحشد، تذكرت بمتعة كيف انتقد السير جاك، كما كان يسمّى عندها، صحيفتها بقسوة لتسجيلها الأضرار الناتجة عن الادعاءات التي لا أساس لها من الصحة عن تعاملاته المالية، وكيف فرض انتصاره بالمقابل ضغطاً على سعادتنا المنزلية، وكانت بينلوب كما هي العادة تدافع عن حرية الصحافة المقدسة لتلطيخ سمعة الشخص الذي تختاره، وأيّد سالفو السير جاك نظراً لتعاطفه الصريح مع قارة أفريقيا، وتصميمه على تحرير شعوبها من اللعنة الثلاثية المتمثّلة في استغلال الموارد الطبيعية، والفساد، والأمراض، وأعاد المشكلة بذلك اقتصادياً إلى حيث تنتمي.

كانت نقمتي كبيرة جداً، بكل الأحوال، وكتبت دون علم بينلوب رسالة دعم شخصية وخاصة إلى اللورد برنكلي، والذي كان كريماً بما فيه الكفاية ليبعث لي برسالة رد. وشجعني ذلك الشعور بالقرابة الشخصية – سأعترف بأنه ممزوج مع بعض الكبرياء كأحد مناصريه المخلصين – على التقدم للأمام من مكاني في الظل ومخاطبته رجل لرجل.

قلت: "عذراً يا سيدي"، وذكرت نفسي أولاً أن تلك عملية لا تحمل أي اسم، ولهذا ينبغي أن لا أقول اللورد برنكلي، أو مولاي أو سيدي اللورد.

توقف مع ماكسي لدى سماعي. واستنتجت من حيرتهما أنهما غير واثقين إلى من كنت أوجّه حديثي، ولهذا غيّرت مكاني لأواجه اللورد برنكلي مباشرة. وكنت سعيداً بملاحظة أن اللورد برنكلي كان يبتسم مرة أخرى بتهذيب فيما بدا ماكسي متحفظاً. ومع هذا النوع من الأشخاص، إذا كان لك لون جلدي، تحصل على ابتسامة مضاعفة: أولاً الرمز، ثم سعة الصدر. ولكن ابتسامة اللورد برنكلي كانت تطبيقاً عملياً عفوياً لأخلاق رفيعة.

قلت: "أردت فقط القول إنني فخور جداً يا سيدي".

وكنت أحب القول إن حنا ستكون فخورة مثلي إذا تسنّى لها أن تعرف، لكني تمالكت نفسي.

"فخور؟ فخور بماذا يا بني؟"

"الاشتراك يا سيدي. العمل لصالحك بأقصى طاقة أستطيعها. اسمي سنكلير يا سيدي. المترجم الذي أرسله السيد أندرسن. فرنسية، سواحيلية، لنغالا ولغات الأقليات الأفريقية".

لم تتغير الابتسامة المهذبة.

وكرّر، كما لو أنه يبحث في ذاكرته: أندرسن؟ لا أذكر هذا الاسم. آسف بشأن ذلك. لا بد أنه صديق ماكسي.

أدهشني ذلك بشكل طبيعي، لأنني افترضت خطأً أن جاك في محادثة السيد أندرسن كان يقف أمامي، ولكن من الواضح أن ذلك لم يكن صحيحاً. وأثناء ذلك، تحرك رأس اللورد برنكلي استجابةً لنداء من أسفل الغرفة، رغم أنني لم أسمع شيئاً.

"سأكون معكم في غضون لحظة واحدة يا مرسيل. تلقيت دعوة لحضور اجتماع في منتصف الليل، وأريد ثلاثتكم إلى جانبي. سنضع النقاط على الحروف قبل أن يُقدم ذلك التافه تابي على أي عمل أخرق في اللحظة الأخيرة".

خرج مسرعاً، وتركني مع ماكسي الذي كان يتفحصني بطريقة ساخرة. ولكن نظري بقي معلقاً باللورد برنكلي. وفتح ذراعيه بلباقة، واحتضن الأفارقة الثلاثة معاً: عمل مقنع بأي لغة كان، كما استطعت أن أشاهد من التعابير المتألقة على وجوههم.

استفسر ماكسي: "هل يزعجك شيء ما أيها الشاب؟" وكانت عيناه المخيفتان تحدّقان بي بمتعة مبطّنة.

"لا شيء فعلاً يا سيدي. كنت أتساءل فيما إذا قلت شيئاً غير لائق".

وأطلق ضحكة خشنة عندما قلت ذلك، وربّت بيده القوية على كتفي.

"كنت مقنعاً جداً. لقد أخفته كثيراً. هل حصلت على حقيبة؟ أين حقيبتك؟ مكتب الاستقبال. تحرّك".

وبمجرد إيماءة إلى الرفقة المميزة، دفعني عبر الحشد إلى البهو، حيث وقف رجل أشقر مع حقيبة سفري. ووقفت سيارة رسمية بنوافذ سوداء وأبواب مفتوحة إلى جانب الرصيف، مع ضوء أزرق يدور على سقفها، وسائق يرتدي ملابس

بسيطة خلف المقود. وسار رجل قصير الشعر ويحمل جهاز اتصال على الرصيف جيئة وذهاباً. وكان هناك رجل عملاق ذو شعر طويل أشيب يرتدي سترة جلدية ويجلس في زاوية السيارة الخلفية. ودفعني الرجل ذو الشعر القصير إلى المقعد الخلفي بحيث أصبحت بينهما، وأغلق الباب بعنف خلفي. وجلس ماكسي في المقدمة بجانب السائق. وحالما فعل ذلك، ظهرت دراجتان ناريتان تابعتان للشرطة تهدران باتجاه الميدان من شارع مونت وسار سائقنا خلفهما بسرعة.

لكني استطعت النظر إلى الخلف من فوق كتفي. وأكون على تلك الشاكلة عندما أتعرض للضغط. وإذا طلبت مني النظر إلى أحد الاتجاهات، سأنظر إلى الاتجاه الآخر. والتفتُّ، وعبر الزجاج الخلفي الذي كان نصف شفاف، ألقيت نظرة طويلة على المنزل الذي غادرناه للتو. ورأيت ثلاث أو أربع درجات تقود إلى باب أزرق غامق وربما أسود، والذي كان مغلقاً. ورأيت آلتي تصوير فوقه، كبيرتين وعاليتين. ورأيت واجهة مبنى مستوية من الطراز الجورجي مع نوافذ بيضاء. وبحثت عن رقم على الباب، ولم يكن هناك وجود له. واختفى المنزل في لحظة، ولكن لا أحد يستطيع أن يقول لي إنه ليس موجوداً. لقد كان هناك، ورأيته. لقد دخلت عبر بوابته، وصافحت بطلي جاك برنكلي، ووفقاً لماكسي فقد أخفته كثيراً.

* * *

إذاً هل كان العميل السري المبتدئ سالفو خائفاً من لون جلده وهو يندفع بسرعة جنونية عبر حركة سير يوم الجمعة في لندن المزدحمة بصحبة رجال لا يعرفهم، مُقدماً على مخاطر لا يستطيع سوى تخمينها؟ لم يكن خائفاً. كان جاهزاً لخدمة صاحب عمله الجديد، والقيام بعمل جيد لصالح بلاده، والكونغو، والسيد أندرسن وحنا. وتذكّرت مجدداً جارتنا بولا، صديقة بينلوب الحميمة، والتي درست علم النفس في جامعة كندية مغمورة. ونظراً لافتقارها لزبائن منتظمين يدفعون المال، كان من عادة بولا تطبيق ما تعلمته على أي شخص متساهل بما فيه الكفاية ليدور في فلكها، وهي الطريقة التي أخبرتني بها، بعد أن شربت الجزء الأكبر من قارورة "ريوغا"، أن ما أفتقر إليه ضمن أمور أخرى هو *الإدراك المفترس*.

كـــان هناك خمسة رجال في تلك المركبة الرسمية التي انطلقت غرباً من ميدان بيركلـــي، والـــتي تبعت مواكبة الشرطة على مسار الحافلات، وأطلقت أضواءها خلفهـــم، وتجـــاوزت الجزر المرورية على الجانب الخاطئ، ورغم ذلك كان الجو داخلها هادئاً مثل نـــزهة نهارية على النهر. وكان ظل سائقنا الذي يرتدي ملابس بسيطة يبدو من خلال الزجاج الأمامي وهو يقوم بنقل حركة السرعة، ولا يتحرك مع ذلك سوى نادراً. وجلس ماكسي إلى جانبه دون وضع حزام الأمان. وكانت حقيبـــته مفتوحة على ركبتيه، ويفتش في حاسوب محمول قديم على ضوء السيارة الداخلي فيما كان يصدر مجموعة من الأوامر الاعتيادية عبر الهاتف الخليوي:

"أين سفن بحق السماء؟ أخبره أن ينتهي من عمله ويستقل طائرة الليلة. أريد ستين شخصاً مستعدين للانطلاق بنهاية الأسبوع القادم. وإذا كان عليه إحضارهم من كيب - تاون، لا بأس بذلك. وكن مستعداً يا هاري. محنّك، لكن ليس على الجانب الآخر، هل فهمت؟ عملة صعبة، وتأمين شامل. ما الذي تريده أيضاً؟ بغايا مجاناً؟"

كنت أتعرف على شخصيتي المرافقين اللذين يجلسان إلى جانبـــي. وكان ذو الشعر الأشيب إلى يميني بيني، وهذا ما أخبرني به عندما تعرّف عليَّ مصافحاً، وكان يتمـــتع بجسد ممشوق وبشرة ملاكم عفا عليه الزمن. وافترضت من نبرة صوته أنه أبيض من روديسا. وكان الرجل ذو الشعر القصير إلى يساري بنصف حجم بيني، ومـــن ســـكان لندن الأصليين، ويدعو نفسه أنطوان. وكان يرتدي سترة رياضية أفضل من تلك التي أرتديها، وسروالاً قماشياً، وينتعل حذاءً بنيّاً مع قطعة معدنية في مقدمته. وكنت قد أشرت من قبل إلى احترامي للأحذية اللامعة.

تمتم أنطوان: "وهذه هي كل الأمتعة التي نملكها، أليس كذلك أيها الحاكم؟" ونخز بمقدمة حذائه المعدنية حقيبة سفري.

"أنطوان، هذه كل أمتعتنا".

"مـــاذا يـــوجد فيها؟" وكان بالكاد يفتح شفتيه بحيث كان صعباً عليَّ من موقعي أن أؤكد أنه كان يتحدث على الإطلاق.

أجبته بمرح: "مؤثرات شخصية أيها الضابط".

"إلى أي حدٍّ شخصية أيها الحاكم؟ شخصية مثل مسجلة؟ شخصية مثل مسدس عيار تسعة ميليمتر؟ أو شخصية مثل الملابس الداخلية؟ لا أحد يعرف ما هو شخصي هذه الأيام، هل تعرف ذلك يا بيني؟"

ووافق بيني من جانبي الآخر: "لطالما كان الجانب الشخصي غامضاً".

استمر ماكسي يتكلم لوحده من المقعد الأمامي:

"لا أهتم إن كان الوقت متأخراً في الليل، لأن كوركي لا ينام إطلاقاً في حياته. وإذا لم يكن مستعداً خلال خمسة أيام من الآن، ستفوته الحفلة. حسناً، هل لديك قلم لعين، أم أنك أضعت ذلك أيضاً؟"

تخطينا جسر الفرسان، ثم تشلسي، حيث كنت مسروراً لملاحظة أنه لا يوجد طفل متسمّر يتشبث بجدار السد. واتجهت الدراجتان الناريتان اللتان ترافقاننا تجاه الغرب. وبعد تجاوز إشارة ضوئية أخرى، انحرفتا يساراً واتجهتا جنوباً، مما تسبب بدوار لا يمكن السيطرة عليه داخل رأسي. كنا *نعبر* جسر *باترسي*! وكنا على بعد مئة ياردة من الشقة رقم 17، شقق نورفولك، شارع أمير ويلز، وهي شقتي، وشقتها، وشقتنا وكنا قريبين جداً منها! وظهرت رؤية مثالية لحياتنا الزوجية أمامي، مشابهة لتلك التي نقلتها إلى بريدجت. وكانت إلى يساري، حديقتنا التي كنت أخطط في أي سنة قريبة لاصطحاب ابني إليها للنزهة! وخلفي يقع نهرنا! كم مرة لم أمشِ بها مع بينلوب بعد الزواج على ضفته؟ انظر، أستطيع رؤية نافذة غرفة نومنا! وأثناء استعجالي لارتداء بدلتي الرسمية، تركت الأضواء مشتعلة!

عدّلت من جلستي لأن موظفي التاج السريين يجب أن لا يبالغوا في ردود أفعالهم، وكذلك الموظفين المؤقتين منهم، وحتى إذا ضربتهم الصاعقة. ورغم ذلك كانت رؤيتي لباترسي تمد يديها لابنها الضال قد أصابتني بحالة من الرعب البالغ المألوف مع كل من يقترف الزنا لأول مرة: رعب أن يجد المرء نفسه في الشارع مع حقيبة واحدة فقط؛ وأن تفقد احترام المرأة الرائعة التي تذكّرت متأخراً جداً أنك تعتز وترغب بها فوق كل الأخريات؛ وأن تخسر مجموعة الأقراص المضغوطة الخاصة بك ومكانك على سلم الملكية، حتى إذا لم يكن سوى مجرد موطئ قدم؛ وأن تلقى حتفك دون أن يكون أحد إلى جانبك على سرير حديدي في هامبستيد هيث.

كـنا فـوق الجسر وعلى بعد مسافة قصيرة من بابي الأمامي عندما ابتعدت مواكبتـنا الشرطية، وغيّر سائقنا مساره مرة أخرى نحو اليسار، ونـزل هذه المرة من على منحدر وعبر بوابة مفتوحة قبل أن يتوقف فجأة. وانفتحت أبواب السيارة الـرسمية لتسمح لنا بسماع ضجيج محركات يصمّ الآذان، لكني لحيرتي لم أستطع تحديـد المصدر. ثم رأيت، على بعد أقل من ثلاثين ياردة منا، لمعاناً تحت حلقة من مصابيح الصوديوم، وكانت هناك مروحية فضية شفراتها في حالة الدوران.

صرخت على أنطوان فيما كان يقفز بمهارة على الإسفلت: "أين سنذهب؟"

"سـنقوم بجـولة حـياتك أيها الحاكم! لندن في الليل! أخرج مؤخرتك من السيارة، *الآن*!"

لم يكـن ماكـسي قد مشى أكثر من ثلاث خطوات باتجاه المروحية قبل أن يلتفت نحوي، وحقيبة قناع الغاز ترتطم بردفه. ودفع أنطوان جانباً، ومال نحوي.

"هل من خطب، أيها الفتى؟"

شرحت له: "إنه منـزلي يا سيدي. أعلى الطريق. خمسمئة ياردة. إنه حيث أعـيش مع زوجتي. إنها ليلتها"، ونسيت مرة أخرى لانـزعاجي الشديد أنه من المفروض أن يكون عنواني رقم صندوق بريد.

"ماذا تعني، *ليلتها*، يا فتى؟"

"حفلتها يا سيدي. إنها تنال ترقية. في عملها. إنها صحفية بارزة".

"حـسناً. ماذا يعني ذلك؟ هل ستأتي معنا، أو ستذهب للمنـزل إلى والدتك وتلقي بنا في الحضيض؟"

ظهـر شكل غامض لثورن البوق يعدو لإنقاذي، مصحوباً بكل شخصيات ثورن الأخرى أمامه، إضافة إلى عشائي من الدجاج الذي ألقيت به رمزياً في وحدة الـتخلص من المهملات، أو أنني فشلت في ذلك. وفي حالة التشويش الذهني التي كـنت أتـوقعها من نفسي، شعرت بأنني أغرق بخجلي وأنني أواجه لحظة ضعف يفـسح بها الهدف الأسمى الطريق لمثل هذه الاعتبارات التافهة. ومع تقدم ماكسي أمامـنا وسـير بيني وأنطوان إلى جانبيّ، عدوت باتجاه المروحية التي كانت تنتظر. ورفعـني بيني الضخم أعلى الدرجات وعبر باب المروحية المفتوح، ودفعني أنطوان

نحـــو مقعد بجانب النافذة، وثبّت نفسه إلى جانبـــي، وحشر ماكسي نفسه بجانب الطيار ووضع زوجاً من السماعات على أذنيه.

فجـــأة أصبحت فرام حقيقة. وهبطت محطة طاقة باترسي إلى الأرض تحتنا، وأخـــذت شـــارع أمـــير ويلز معها. وكنا على ارتفاع ستمئة قدم فوق الحقيقة وتأرجحـــنا نحو الشمال. وطرنا بسرعة فوق حركة السير الكثيفة المليئة بالسيارات المتكدســـة خلـــف بعضها البعض في بارك لين، وألقيت نظرة خاطفة على ملعب "لـــورد" للكريكت لكن لم يكن هناك أحد يلعب. ثم لسرور قلبـــي وألمه في آن واحـــد، رأيـــت المستشفى الذي شهد مساء أمس ولادتي من جديد بجانب سرير رجـــل يحتـــضر. ولويت عنقي فقط لأشاهده يختفي في الأفق البعيد. واغرورقت عيـــناي بالدموع، فأغلقتهما، ولا بد أنني غفوت لبضع دقائق لأنني عندما نظرت مجـــدداً كانت أضواء مطار لوتون ترتفع لتغمرنا، وكانت رغبتي الوحيدة الاتصال بحنّا مهما كلّف الأمر.

* * *

أصـــبحت أعرف الآن أن لكل مطار جانباً مضيئاً وجانباً مظلماً. ومن بعيد، كانت الطائرات العادية تحط وتقلع، ولكن الصوت الأعلى فيما كنا نتجاوز المنطقة المفصولة بسياج جاء من عقبـــي حذائي المستعار عندما ارتطما بالإسفلت. وكان الغسق الرطب يهبط على الأرض. وكان أمامنا حظيرة خضراء وسط منطقة مرتفعة مـــن الأرض، وأبوابها مفتوحة لاستقبالنا. وكان الجو في الداخل مثل قاعة تدريب عـــسكرية. ووقـــف ثمانـــية رجال أشدّاء بيض يرتدون ملابس عادية في الداخل، وحقائب سفرهم عند أقدامهم. ومشى ماكسي بينهم، ومداعبة على الكتف هنا، ومصافحة أفريقية بكلتا اليدين هناك. وبحثت حولي عن هاتف عمومي لكني لم أرَ واحداً. وبكل الأحوال، ما الذي كنت سأستعمله بدلاً من قطعة النقود؟

"أين سبايدر، بحق السماء؟"

جـــاء ردّ أنطـــوان باحترام: "سيصل في أي لحظة يا سكيبر، قال إن شاحنته تعطّلت".

لاحظت وجود باب عليه عبارة "للموظفين فقط"، وخطوت داخله. و لم يكن هناك هاتف في الداخل. وخرجت لأشاهد ماكسي يتحدث مع رجل يبدو نكداً، ويضع قبعة قماشية سوداء، ويرتدي معطفاً مطرياً طويلاً، ويقف في زاوية الغرفة ويمسك بحقيبة مستندات. وكان الاثنان يحاولان التفاهم بالفرنسية. وكانت فرنسية ماكسي، كما أخبرني مصححاً، شنيعة. هل يكون الرجل الآخر فيليب الغامض؟ و لم يكن لديَّ وقت أو رغبة في استكشاف الجواب. وكان هناك رجل يرتدي بدلة رياضية يجمع الهواتف الخليوية، ويقوم بوضع لصاقات عليها، ومن ثم يكدّسها في علبة كرتونية ويمنح مقابلها بطاقات كإيصالات تسليم. ومع كل جهاز يدخل تلك العلبة كنت أشاهد تلاشي فرصتي للحديث مع حنا.

لجأت إلى أنطوان: "أخشى أنني بحاجة إلى إجراء مكالمة طارئة أخرى".

"إلى من إذاً أيها الحاكم؟"

"زوجتي".

"ولماذا تحتاج للحديث مع زوجتك، إذا سمحت لي بالسؤال؟ لم أتحدث مع زوجتي لثماني سنوات".

"نواجه نوعاً من الأزمة العائلية. صديق عزيز علينا مريض. وهي إلى جانبه. أعني زوجتي. في المستشفى. تعتني به. إنه يحتضر".

وابتعد ماكسي عن الرجل الفرنسي لينضم إلى محادثتنا. وكان يبدو أنه لم يفوّت شيئاً.

"يحتضر أين أيها الرجل؟"

"في المستشفى يا سيدي".

"ما السبب؟"

"داء دموي عضال. في مراحله المتقدمة ولا أمل بشفائه".

"يا لها من طريقة بشعة للموت. أي مستشفى؟"

"مقاطعة شمال لندن".

"عام أم خاص؟"

"عام. مع أقسام خاصة. أجنحة. لديهم طابق خاص لأمراض الدم".

"سيرغب بالعيش سنة أخرى. المرضى المحتضرون يعتقدون دائماً أن أمامهم فرصة للعيش سنة أخرى. هل يرغب بالعيش سنة أخرى؟"

"لم يقل ذلك يا سيدي. حسناً، ليس لغاية الآن. ليس مما سمعته".

"هل يستطيع البلع؟"

تذكّرت روائح الكحول التي تخرج مع أنفاس جان بيير. نعم، يستطيع البلع.

"نصيحتي أن تحقنه بجرعة زائدة. قارورة من الأسبرين القابل للذوبان، ليس لها آثار. ولتتأكد من مسح بصماتها على القارورة، وأن تخفيها تحت وسادته. هل معك هاتفك الخليوي يا أنطوان؟"

"معي هنا يا سكيبر".

"ليقم بإجراء مكالمته، ثم سلّمه للرجال. الهواتف الخليوية ممنوعة في هذه العملية. وممنوع التدخين أيضاً"، وصرخ ليجعل صوته مسموعاً في كل الغرفة "هذه آخر فرصة لكم. انهوا ذلك *الآن*!"

أخبرت أنطوان، حالما أصبحنا لوحدنا مرة أخرى: "أرغب بأن أكون بمفردي".

فأجاب، دون أن يتزحزح عن المكان الذي يقف فيه: "ألا نرغب بذلك جميعنا أيها الحاكم؟"

نزعت سترة هاريس تويد عني، وسحبت كم قميصي الأيسر فظهر رقم الهاتف والتحويلة الداخلية التي كتبتهما حنا بخط يدها باستخدام القلم الأزرق الناشف الذي سحبته من خلف أذنها. اتصلت، وردّ عليَّ صوت نسائي يقول "استوائي" بلهجة جامايكية.

قلت بسعادة: "نعم، مرحباً يا غريس. أتصل بخصوص المريض جان بيير. أعتقد أن حنا تقف إلى جانبه. هل أستطيع الحديث معها من فضلك؟"

سالفو؟ وقفز قلبي من مكانه، ولكنها كانت ما تزال غريس. "هل هذا أنت يا سالفو؟ المترجم".

"نعـــم، هذا أنا وأريد التحدّث إلى حنا من فضلك"، وأبقيت الهاتف ملتصقاً بقـــوة علـــى أذني في حـــضور أنطوان. "الأمر شخصي، وهو عاجل قليلاً. هل تـــستطيعين إحضارها إلى الهاتف؟ أخبريها فقط أنه... - وكنت على وشك قول سالفو لكني تمالكت نفسي في آخر لحظة - وقلت أنا"، مع ابتسامة إلى أنطوان.

تتحـــرك غـــريس، بعكس حنا بطريقة أفريقية. وإذا كان هناك شيء ينبغي إنجازه، يمكن فعل ذلك ببطء. وأجابت أخيراً: "حنا، إنها مشغولة يا سالفو".

مشغولة؟ مشغولة مع من؟ كيف هي مشغولة؟ وتبنيت لهجة عسكرية شبيهة بتلك التي يتحدث بها ماكسي.

"رغم ذلك، ربما أستطيع الحديث معها لدقيقة واحدة فقط، حسناً؟ الأمر هام يا غريس. ستعرف *تماماً* ماهية الموضوع. إذا لم تمانعي من فضلك".

وتأخير أبدي آخر، شاركني به أنطوان بصبر.

"هل أنت بخير يا سالفو؟"

"بخير، شكراً لكِ. هل هي هناك؟"

"حنا تحضر اجتماعاً هاماً حقاً مع المشرفة. وهما لا تحبان المقاطعة إطلاقاً. من الأفضل أن تتصل مرة أخرى يا سالفو. ربما غداً عندما تكون في عطلة".

مـــع *المـــشرفة*؟ هل تدير تلك المشرفة العالم؟ هام حقاً؟ حول ماذا؟ *النوم مع المترجمين المتزوجين*؟ يجب أن أترك لها رسالة، لكن أي رسالة؟

وقالت غريس مجدداً: "سالفو؟"

"ما الأمر؟"

"لديَّ أنباء سيئة فعلاً لك".

"ما هي؟"

"جـــان بـــيير. المتشرد العجوز الذي كان يستلقي محتضراً. فقدناه يا سالفو. حزنت حنا كثيراً. وكذلك أنا".

عـــندها، كان ينبغي أن أغلق عينيّ. وعندما فتحتهما، كان أنطوان قد أخذ الهاتف من يدي ومرّره إلى الرجل الذي يرتدي البدلة الرياضية.

وسألني: "ذلك اسم زوجتك، أليس كذلك؟ حنا".

"لماذا لا يكون كذلك؟"

"لن أعرف أيها الحاكم، أليس كذلك؟ هذا يعتمد على من كتبت اسمه أيضاً على ذراعك، أليس كذلك؟"

كـــان رجال ماكسي يضعون حقائبهم العسكرية على أكتافهم ويمشون نحو الظلام. ولاحت لنا طائرة خالية المعالم في حمرة الغسق. وسار أنطوان إلى جانبـــي فيما اعتنى بيني الضخم بالرجل الفرنسي الذي يعتمر القبعة القماشية.

5

إنها حقيقة معروفة أن أفكار أكثر المجندين العاديين إخلاصاً وولاءً في أمسية المعركة تضل في اتجاهات غير محددة، وينحو بعضها نحو العصيان. ولن أتظاهر أن أفكاري الخاصة بهذا الشأن كانت استثناءً، مع الأخذ بعين الاعتبار أن ديكور ونظام تهوية وإضاءة آلتنا الطائرة التي تفتقر للنوافذ مناسبان أكثر لنقل الكلاب الحائزة على جوائز، وأن ضجيج المحركين، حالما تصبح على متنها، مركّب من كل الأصوات التي لا أتمنى سماعها، مع صوت بينلوب في المقام الأول. ومكان المقاعد الوثيرة، كان لدينا أقفاص حديدية مفتوحة باتجاه ممر مركزي، وكل منها مزوّد بفراش سجن كئيب. وكانت شبكات برتقالية تتدلّى من السقف، ونمسك بقبضات مخصصة لاستخدام أولئك الذين يريدون القفز إلى المجهول. وكان العامل المسكّن وجود أنطوان وبيني في حجرات صغيرة إلى جانبي، لكن بيني كان يقوم بحساباته المنزلية، بينما أظهر أنطوان انشغالاً ظاهرياً بمجلة خلاعية قديمة جداً.

كانت أرضية الطائرة، التي يعتبرها الكثيرون خاصة، مفروشة بنسيج بالٍ. وكان الملاحان في منتصف العمر، وثقيلي الوزن وغير حليقي الذقن، ومشغولين تماماً عن ركابهما بحيث يتساءل المرء فيما إذا كانا يعرفان أن معهما مسافرين. أضف إلى ذلك سلسلة من أضواء الممر الزرقاء التي تثير ذكريات عن مستشفى في شمال لندن، وكان هناك تساؤل فيما إذا كان شعوري بالهدف الأسمى ينبغي أن يفسح المجال للرحلات الداخلية التي كنت أقوم بها على المسار المفتوح حديثاً بين بينلوب وحنا.

في غضون دقائق من إقلاعنا، استسلم فريقنا، وتقريباً كله، لداء النوم الأفريقي، واستخدموا حقائبهم العسكرية كوسائد. وكان هناك استثناءان هما ماكسي وصديقه الفرنسي اللذان اجتمعا معاً قرب نهاية الطائرة، وتبادلا أوراقاً مثل

زوجين قلقين تلقيا إنذاراً من شركة الرهن. كان الرجل الفرنسي قد رفع قبعته القماشية، كاشفاً عن وجه كالعقاب، وعينين ثاقبتين وقمة رأس صلعاء مع شعر بلون القش. وكان اسمه، الذي استخلصته من بيني المقتصد في الكلام، السيد جاسبر. وسألت نفسي مشككاً: لماذا يدعو رجل فرنسي نفسه جاسبر؟ لكنه ربما كان مثلي يسافر تحت اسم مستعار.

سألت أنطوان: "هل تعتقد أنني يجب أن أذهب إليهما وأعرض خدماتي؟" مفترضاً أن الاثنين يواجهان صعوبة في التواصل.

أجاب: "أيها الحاكم، إذا أراد سكيبر خدماتك، سيخبرك بنفسه"، دون أن يرفع رأسه عن مجلته.

لا أستطيع تقديم وصف لبقية أعضاء فريقنا، عدا واحد منهم. وأتذكّرهم كأفراد مجموعة شرسة يرتدون سترات مضادة للمطر ويضعون قبعات لاعبي كرة القاعدة (البيسبول)، والذين يتوقفون عن الكلام كلما اقتربت منهم.

"هل لديك مشاكل زوجية أيها الفتى؟ الرجال هنا يدعونني سكيبر والشيء بالشيء يذكر".

ولا بد أن غفوة انتابتني لأنني عندما نظرت للأعلى وجدت نفسي أحدّق في عيني ماكسي الزرقاوين الواسعتين فيما كان يتربع على الأرض على الطريقة العربية قريباً من مرفقي. وانتعشت روحي مباشرة. كم مرة لم أستمع بها للأخ مايكل وهو يشرح لي الأعمال العسكرية الناجحة التي قام بها ت. هـ. لورنس والرجال الإنكليز الآخرون الرائعون؟ وبلمسة عصا الساحر، تحول كل ما بداخل طائرتنا إلى خيمة بدوي عربية. وأصبحت الشبكات القماشية التي كانت فوق رؤوسنا سقفاً مصنوعاً من جلد الماعز. وفي مخيلتي، كانت نجوم الصحراء تلمع من خلال الفتحات.

أجبت، بطريقة تتوافق وأسلوبه المفعم بالنشاط والحيوية: "زوجتي بخير، وكل شيء على ما يرام. شكراً لك يا سكيبر. وأنا سعيد للقول بأن لا مزيد من المشاكل بهذا الخصوص".

"ماذا عن صديقك العليل؟"

أجبت غير مبالٍ: "آه، حسناً، في الحقيقة لقد مات".

"الوغد المسكين. لا فائدة من التواجد خلف الحشد إذا حان وقتك. هل أنت مهتم بنابليون؟"

كانت إجابتي: "حسناً، ليس تماماً"، متردداً بالإقرار أن *كرومويل، رئيس رجالنا* كان أبعد ما وصلت إليه في أبحاثي التاريخية.

"في الوقت الذي وصل فيه إلى بوردينو، كان قد فقد زمام المبادرة. ونام أثناء المسير في سمولسنك، وأصبح مخبولاً لدى وصوله إلى بوردينو بعمر يناهز الأربعين. لم أستطع قضاء حاجتي، أو التفكير بشكل منطقي. هذا يمنحني ثلاث سنوات إضافية. ماذا عنك؟"

أجبته: "حسناً، في الواقع إنه يمنحني اثنتي عشرة"، واستغربت بشكل خاص من اعتبار رجل لا يعرف الفرنسية نابليون مثاله الأعلى.

تابع قائلاً: "هذا سابق لأوانه. لا بد أن أندرسن أخبرك ذلك؟" دون انتظار جوابي. "سندخل خلسة، ونتكلم إلى بعض الكونغوليين، ونعقد اتفاقاً معهم، ونحصل على توقيعهم على عقد، ونخرج خلسة. سنلتقي بهم لمدة ست ساعات. وقد وافق كل منهم بشكل منفصل، وينبغي أن نجعلهم يقولون نعم لبعضهم البعض. وسيكونون رسمياً في مكان آخر، وهو المكان الذي ينبغي أن يتواجدوا فيه بحلول منتصف الليل. هل تفهمني؟"

"معك يا سكيبر".

"هذه عمليتك الأولى، أليس كذلك؟"

أقررت "أخشى أنها كذلك. يمكنك القول إنها تجربتي الأولى"، مع ابتسامة حزينة للدلالة على أنني مدرك لعيوبي. وغير قادر على كبح فضولي: "لا أعتقد أنك ستخبرني عن المكان الذي نقصده، أليس كذلك يا سيدي؟"

"جزيرة صغيرة إلى الشمال حيث لن يزعجنا أحد. وكلما كان ما تعرفه أقل، كلما نمت بشكل أفضل لاحقاً". وسمح لنفسه ببعض اللين في معالم وجهه. "نواجه في كل مرة نفس الوضع مع هذه المهام. *أسرع وانتظر، ثم أين أنت؟* والشيء التالي الذي تعرفه هو أن هناك عشر أغبياء آخرين في السباق، وأن رجالك مبعثرون عبر الكرة الأرضية وأن عجلتك الخلفية مثقوبة".

لمعت نظرته الثاقبة المتواصلة على مجموعة من العلب التي تشبه الحقائب السوداء اللون والموحدة الحجم، والمربوطة إلى شبكة من القضبان الحديدية قرب باب القمرة. وعند قاعدها، تكوّر رجل على فراشه مثل عجل مولود حديثاً، ووضع رأسه على قبعة قماشية كبيرة والتَحَف بسترة صغيرة، ومن كل تلك المظاهر كان يبدو نائماً بالنسبة لرفاق سلاحه.

تساءل ماكسي: "هل *تعمل* أيٌّ من هذه الخردة يا سبايدر؟" ورفع صوته ليملأ فضاء جسم الطائرة.

قفز سبايدر على قدميه، لدى سماعه ذلك الكلام، بأسلوب بهلواني ووقف أمامنا بشكل هزلي.

وأجاب بابتهاج: "ينبغي أن لا تفكر بتلك الطريقة يا سكيب. الكثير من الهراء القديم على ما يبدو"، والتقطت أذني المترجمة الخبيرة فوراً لهجة ويلزية. "مع اثنتي عشرة ساعة لتنفيذ ذلك، ماذا تتوقع أن يكون المقابل؟"

"ماذا لدينا لنأكله؟"

"حسناً الآن يا سكيب، بما أنك تسأل، فقد أرسل لنا متبرع مجهول بكل لطف هذه السلّة، كما ترى. أو أعتقد أنه مجهول، لأنه بغضّ النظر عن المكان الذي تفتش به، لن تجد اسم المرسل بكل الأحوال، ولن تجد بطاقة أيضاً".

"هل من شيء بالداخل؟"

"ليس الكثير، بصراحة، لا. أفترض وجود فخذ كامل. وهناك كيلوغرامان من السلمون المدخّن، وشريحة من لحم البقر المشوي البارد، وبسكويت جبن الشيدر، وزجاجة كبيرة من الشراب. لا شيء يثير الشهية، ليس فعلاً. فكّرت في إعادتها".

قاطعه ماكسي قائلاً: "خذها في طريقك للمنزل. ماذا يوجد أيضاً على قائمة الطعام؟"

"تشو - مين" (أكلة صينية من الخضار وشرائح اللحم والشعيرية) التي يشتهر بها مطعم لوتون. "ينبغي أن تكون جاهزة وباردة الآن".

"دع عنك ذلك الآن يا سبايدر. ورحّب برجل اللغات هنا. اسمه بريان. مُعار من غرفة المحادثة".

"غرفة المحادثة، أليس كذلك؟ حسناً، سأقول إن هذا يعيد لي الذكريات. المكان الذي يكدح فيه السيد أندرسن. ما يزال مغنياً أوبرالياً، أليس كذلك؟ ليس مخصياً أو أي شيء؟"

ابتسم سبايدر، كما عرفت اسمه آنذاك، لي بعينيه الثاقبتين، وابتسمت له بالمقابل واثقاً من حصولي على صديق آخر في مغامرتنا الرائعة.

صرخ ماكسي: "وتعرف عن الأعمال العسكرية"، وسحب من حقيبته العسكرية قارورة معدنية قديمة ملفوفة بقطعة ملابس صفراء وعلبة من بسكويت باث أوليفر. وعرفت أن القارورة تحتوي على مياه مالفرن.

قلت بالمقابل: "ما نوع الأعمال العسكرية الذي نتحدث عنه يا سبايدر".

كانت وجبتي من تشو - مين باردة ودبقة، لكني كنت مصمماً على الاستفادة منها إلى أقصى حدّ.

"أسلحة، مدفعية، قوى نارية، قذائف وكل تلك الأشياء"، وأخذ قطعة من بسكويت باث أوليفر.

أكّدت له أنه بفضل خبرتي في غرفة المحادثة كنت متآلفاً مع مجموعة من المصطلحات التقنية والعسكرية. وأضفت، دون خوف: "لكن ما يحدث أساساً، عندما لا يكون هناك مماثل في اللغة العامية، أنهم يبحثون عنه في أقرب لغة يستخدمها سكّان المستعمرات. والتي تعني بشكل طبيعي الفرنسية في حالة الكونغوليين". وتابعت غير قادر على تمالك نفسي: "ما لم يكونوا بالطبع رواندبين أو أوغنديين محنكين، وفي هذه الحالة ستحصل على إنكليزية مختصرة، مثل ماغنوم وكمين أو آر بي جي".

ظهر أن ماكسي ليس مهتماً بسماع ما أقول سوى ما تقتضيه أصول اللياقة فقط. "إذاً، في حال كان أحد ما يفر هارباً نحو بيمبي سيتكلم حول الأسلحة النصف آلية؟!"

أجبت، متلهفاً لإظهار خبراتي: "حسناً، على افتراض أنهم يستطيعون التحدّث إلى بعضهم البعض".

"ماذا تعني أيها الرجل؟"

"مثلاً، قد يتكلم بيمبي الكينية – الرواندية، ولكنه قد لا يستطيع التواصل بشكل *كامل* مع الكينية".

"إذاً، ماذا يفعلون؟" ومسح فمه بمعصمه.

"حسناً، سيكون عليهم بشكل أساسي التواصل بأي شيء مشترك بينهم. وسيفهم كل منهم الآخر إلى حدٍّ ما، لكن ليس كل شيء بالضرورة".

"وماذا بعد ذلك؟"

"ربما يتكلمون قليلاً بالسواحيلية، وقليلاً بالفرنسية. ذلك يعتمد على ما يجيدونه، حقاً".

"هذا إذا لم تكن بينهم، أليس كذلك؟ ستتحدث إليهم جميعاً".

أجبت بتواضع: "حسناً، في هذه الحالة، نعم. لن أقحم نفسي في الحديث. سأنتظر لرؤية ما يحتاجون إليه".

قال مستغرقاً في التفكير: "إذاً مهما كانت اللغة التي يتحدثون بها، سنفهمها بشكل جيد، صحيح؟ مرحى لنا". لكن كان واضحاً من نبرة صوته أنه لم يكن واثقاً كما توحي كلماته بذلك. "السؤال هو، هل ينبغي علينا إخبارهم بكل ذلك؟ ربما يجب أن نكون حذرين، وأن نُخفي معدّاتنا".

معدّات؟ أي معدّات؟ أم أنه ما يزال يتحدّث حول كفاءتي بالأمور العسكرية؟ وعبّرت عن حيرتي بحذر.

"*معدّاتك*. يا إلهي. ترسانتك من الأسلحة. كل طفل يعرف أن الجندي الجيد لا يعرض نقاط قوته على العدو. ونفس الشيء ينطبق على اللغات. ينبغي إخفاءها وإبقاءها على تلك الحال حتى تظهر الحاجة لاستخدامها. تلك هي الحصافة".

بدأت أكتشف أن ماكسي يمتلك سحراً خطيراً وخادعاً. وجزء من ذلك السحر كان يجعلك تشعر بأن أغرب خططه هي العادية، حتى إذا كان عليك أن تكتشف ما تستلزمه تلك الخطط.

اقترح: "اسمع الآتي كنوع من التغيير"، كما لو أنه يقدّم لي تسوية سترضي معاييري المتكلفة. "افترض أننا تظاهرنا بأنك تعرف الإنكليزية، والفرنسية

والسواحيلية، وتمّ استدعاؤك يوماً ما؟ سيكون ذلك أكثر من كاف لأي شخص. وسنقوم بإبقاء اللغات النادرة لأنفسنا. كيف سيكون تأثير ذلكً عليك؟ نوع مختلف من التحدي بالنسبة لك. جديد".

وإذا كنت قد فهمته جيداً، لم يكن ذلك ليؤثر عليَّ إطلاقاً، لكن إجابتي لم تكن تماماً على هذا النحو.

أضفت، متظاهراً بأنني آمل برؤية ابتسامة حكيمة: "في أي *سياق* بالضبط يا سكيبر. في أي *ظروف* قد نقول ذلك؟ أو *لا* نقوله؟ لا أقصد أن أكون مدّعي علم، لكن *لمن* سنقول ذلك؟"

"للجميع. الفرقة بأكملها. لمصلحة العملية. للمساعدة في نجاح المؤتمر. اسمع". وتظاهر بواحدة من تلك التوقفات الطويلة التي يقوم بها المحترفون عندما يحاولون شرح شيء ما إلى شخص ساذج. وسأعترف أنني شعرت من جهتي بالذنب لنفس السبب. "لدينا اثنان سنكلير - ومدّ راحتي كفيه القويتين باتجاه يدي الاثنتين - سنكلير *فوق* خط المياه - رفع راحة كفه اليسرى - وسنكلير *تحت* خط المياه". أنزل راحة كفه اليمنى نحو حجره. "فوق الخط، قمة الجبل الجليدي. وتتكلم الفرنسية وعدّة أشكال من السواحيلية فقط. إضافة إلى الإنكليزية مع أصدقائك، كما هو واضح. وهذا شيء اعتيادي لأي مترجم محترف. هل أنت معي؟"

وأكّدت له محاولاً إظهار حماستي: "معك لغاية الآن يا سكيبر".

"وتحت خط المياه" - كنت أحدّق للأسفل نحو راحة يده اليمنى - "ما تبقى من تسعة أعشار الجبل الجليدي، وهو كل اللغات الأخرى التي تتكلم بها. يمكنك القيام بذلك حتى النهاية، أليس كذلك؟ ليس كل ذلك صعباً، حالما تحكم السيطرة على نفسك". وأعاد يديه، وشغل نفسه بقطعة أخرى من البسكويت فيما كان ينتظرني لرؤية النتائج.

قلت: "ما زلت لا أعتقد أنني هناك تماماً، وكلها متشابهة بالنسبة لي يا سكيبر".

"لا تكن متواضعاً يا سنكلير، وبالطبع أنت كذلك! الأمر بسيط جداً. لقد دخلت إلى غرفة المؤتمرات، وقدّمتك". وقال الآتي بفرنسية صعبة فيما كان يمضغ البسكويت:

"نقدّم لكم السيد سنكلير، مترجمكم المتميز. إنه يتكلم الإنكليزية، والفرنسية والسواحيلية. وبوب عمّك. ولا تستطيع فهم أي شخص يتكلم بلغة أخرى ضمن نطـــاق سمعك". ولم تكن تعابير وجهي، رغم أفضل جهودي، حسب ما يشتهيه. "حـــباً بالله يا رجل. التظاهر بالبكم ليس مسألة كبيرة. الرجال يفعلون ذلك كل يوم دون أن يحاولوا حتى. هذا لأنهم كذلك *فعلاً*. حسناً، أنت لست كذلك. أنت عبقري رائع. حسناً، كن عبقرياً. شاب قوي مثلك ينبغي أن يكون كذلك".

فألحّـــيت: "إذاً، متى أستطيع استخدام لغاتي *الأخرى* يا سكيبر؟ اللغات التي قلت عنها إنها تحت خط (سطح) المياه".

كـــنت أفكّـــر باللغـــات التي أنا فخور بها. اللغات التي تميّزني عن الآخرين. اللغات التي لم تظهر في سجلاتي، ولكنها باقية في ذاكرتي. اللغات التي ينبغي عليك - إذا كنت مكاني - إظهارها كلها للمستمعين.

"عندما نطلب منك وليس قبل ذلك. ستعمل وفقاً لأوامر محددة. الجزء الأول اليوم، والجزء الثاني في الصباح، حالما نحصل على الموافقة النهائية لنتابع العملية". ثم جـــاءت، بشكل يبعث على الراحة، ابتسامته النادرة؛ وهي من النوع التي ستقطع صحارى من أجل الحصول عليها. "أنت سلاحنا السري يا سنكلير. نجم العرض، ولا تنسَ ذلك. كم مرة في الحياة يستطيع المرء الحصول على فرصة لتغيير التاريخ؟"

وأجبت بإخلاص: "مرة واحدة إذا كان محظوظاً".

فـــصحح ماكسي لي قائلاً: "الحظ ليس سوى مرادف للقدر"، وكانت عيناه الثاقبـــتان تلمعان بغموض. "إما أن تقرّر قدرك، أو سيتغلب عليك. وهذه ليست مهمة تدريبية سخيفة ومملة. إن الغرض منها جلب الديمقراطية لمنطقة شرق الكونغو وإنهـــاء النـــــزاع المسلح. سنشكّل أمواجاً عاصفة، ونـــزوّدهم بالقيادة المناسبة، وستأتي نتيجة لذلك كيفو تهرول نحونا بأكملها".

أصاب الدوار رأسي من تلك النظرة الخاطفة لرؤيته الرائعة، ودخلت كلماته التالية مباشرة إلى قلبـــي؛ وقلب حنا.

"يمـــر الإثم الأكبر الذي يقترفه اللاعبون الكبار في الكونغو دون مبالاة لغاية الآن، صحيح؟"

أجبت بحماسة: "صحيح".

"ينبغي أن تتدخل إذا كنت تستطيع التغيير، وانتزاع فتيل الأزمة القادمة. صحيح؟"

"صحيح".

"البلد في حالة ركود. والحكومة عديمة الجدوى، والرجال يجلسون في انتظار انتخابات قد تحدث وقد لا تحدث. وإذا حدثت الانتخابات، ستقودهم إلى حالة أسوأ من ذي قبل. لذلك هناك فراغ. صحيح؟"

ردّدت مجدداً: "صحيح؟"

"وسوف نملؤه. قبل أن يقوم بذلك أي شخص آخر. لأنهم جميعاً يريدون ذلك؛ الأميركيون، والصينيون، والفرنسيون، والجنسيات الأخرى؛ الجميع. إنهم يحاولون الوصول إلى هناك قبل الانتخابات. وسوف نتدخّل، وسوف *نبقى*. وهذه المرة، ستكون الكونغو نفسها الفائز المحظوظ".

حاولت مجدداً إظهار امتناني لكل ما قاله، لكنه استمر في الكلام.

تابع يقول بذهول: "كانت الكونغو تنزف طوال الخمسة قرون الماضية. واستغلها النخّاسون، والإخوة الأفارقة، والأمم المتحدة، ووكالة الاستخبارات الأميركية، والمسيحيون، والبلجيكيون، والفرنسيون، والبريطانيون، والرونديون وشركات الماس والذهب والمعادن النفيسة، ونصف انتهازيي العالم، وحكومتهم في كينشاسا، وسيتم استغلالهم الآن في أي لحظة من قبل شركات النفط. لقد حان وقت حصولهم على الراحة، ونحن سنقدمها لهم".

تحوّلت عيناه اللتان لا تهدأان إلى السيد جاسبر على الطرف الآخر من عنبر الطائرة، والذي كان يرفع ذراعه مثل أمينة الصندوق في السوق الذي نبتاع منه حاجياتنا في باترسي عندما لا يكون لديها ما يكفي من القطع النقدية المعدنية".

وأعلن "ستعرف الجزء الثاني من الأوامر المحددة سلفاً غداً"، وأمسك بحقيبته العسكرية، ومشى عبر الممر.

* * *

يــصبح عقل المرء مخدراً عندما يكون تحت تأثير سحر ماكسي. وكل ما قاله كان مثل الموسيقى لأذني الثنائية الثقافة. ولكن بعد ذلك بدأت بسماع أصوات أقل خــضوعاً مـــن صوتي، والتي جعلت نفسها مسموعة فوق كل الارتجاجات غير المنتظمة لمحركات الطائرة.

قلت: "حسناً". هل وافقت؟

لم أعترض، ولهذا كان من الواضح أنني وافقت.

لكن وافقت على ماذا بالضبط؟

هـــل أخـــبرني السيد أندرسن، عندما أطلعني على المهمة، أنها تتضمن تحويل نفـــسي إلى جبل جليدي لغوي مع بقاء تسعة أعشار منه تحت خط المياه؟ لم يفعل ذلـــك. قـــال إن لديـــه مهمة تتطلب مني الحركة، وأنه يرسلني إلى الميدان حيث ســـأعيش كذبة وليس حقيقة الكتاب المقدّس التي ترعرعنا عليها. إذاً خطوط المياه وانفصام الشخصية ليستا كلمة واحدة.

لا تكـــن متواضعاً يا سنكلير، الأمر بسيط جداً. بسيط كيف، من فضلك يا ســـنكلير؟ التظاهـــر بأنك سمعت شيئاً في الوقت الذي لم تسمع به أي شيء سهل نـــسبياً، وسأقرّ بصحة ذلك. ويقوم الناس بهذا كل يوم. والتظاهر بأنك لم تسمع شـــيئاً في حـــين أنك سمعت، من جانب آخر، في اعتقادي هو عكس بسيط. ولا تكون ردود أفعال المترجم المحترف متعمّدة. وهو مدرّب على الانتقال المفاجئ من موضـــوع لآخـــر. ويسمع، وينتقل من موضع لآخر، والمهارة تأتي لاحقاً. الأمر مـــضمون: ســـتظهر مهارته في الوقت المناسب. ولكن المهارة تأتي في الاستجابة الفورية، وليس في تغيير المعنى.

كـــنت مـــا أزال مـــستغرقاً في التفكير بكل تلك الأمور عندما صرخ أحد الطـــيارين غـــير الحليقين علينا لنتمسك جيداً. وكما لو أن طلقة مدفعية أصابتها، اهتزّت الطائرة، واهتزت مجدداً، وتوقفت بقوة. وانفتح باب القمرة بعنف، وجعلني الهـــواء المـــنعش أشعر بالامتنان لارتداء سترة هارس تويد. وكان سكيبر أول من اختفـــى في الظلام؛ وتبعه بيني مع حقيبة معدّاته، وتبعهما السيد جاسبر وحقيبته. ونـــــزولاً عند إلحاح أنطوان، تبعتهم مع حقيبة السفر الخاصة بي. وهبطت على

أرض لينة، واستنشقت رائحة البحر عند الجَزر. كان هناك مجموعتان من المصابيح الأمامية تتجهان نحونا عبر الحقل. واندفعت أولاً شاحنة إلى جانبنا، ثم جاءت حافلة صغيرة. ودفعني أنطوان على متن الحافلة الصغيرة، وأقحم بيني جاسبر بعدي. خلفنا في ظـلّ الطائرة، كان هناك رجال يرتدون سترات مضادة للمطر يضعون صناديق سوداء في الشاحنة. وكانت سائقتنا نسخة عن بريدجت، وتضع وشاحاً على رأسها وترتدي معطفاً من الفرو. ولم يكن على الشاحنة علامات فارقة ولا إشارات طرق. هل كنا نتجه يميناً أو يساراً؟ وعلى الشعاع الخفيف لأضواء السيارة، حملقت بنا أغنام لا تحمل علامات مميزة على جانب الطريق. وارتقينا هضبة ثم بدأنا النزول عندما ظهر أمامنا فجأة عمودان من الغرانيت. وتخطينا سوراً لمنع مرور الماشية، وتجاوزنا غابة صغيرة من أشجار الصنوبر، وتوقفنا في ساحة مرصوفة بالحصى تحيط بها جدران عالية.

كانت خطوط السقف ضائعة في الظلام. وبإشارة واحدة تبعنا سائقتنا إلى سقيفة حجرية داكنة اللون ترتفع عشرين قدماً. ووجدنا صفوفاً من الأحذية الطويلة الساق التي كانت مقاساتها مكتوبة بطلاء أبيض عليها. وكان على مجموعة القياس سبعة خطوط مرسومة بأسلوب أوروبي. وكانت أحذية الثلج التي تشبه مضارب التنس مكدّسة على الجدار. هل ارتداها الاسكتلنديون؟ السويديون؟ النرويجيون؟ الدانمركيون؟ أم كان مضيفنا مجرد جامع لتحف أهل شمال أوروبا؟ *الجزيرة الصغيرة إلى أقصى الشمال حيث لن يزعجنا أحد*. وكلما كان ما نعرفه أقل، سننام بشكل أفضل. وسارت سائقتنا أمامنا. وكان مكتوباً على لصاقة على ياقتها من الفرو أنها غلاديس. واندفعنا نحو قاعة كبيرة محمولة على أعمدة خشبية. وكانت الممرات تقود إلى كل الاتجاهات. وكان متوافراً هناك إبريق شاي وأطعمة باردة لأولئك الذين لا يزالون جائعين بعد تناولهم وجبة تشو - مين. وكانت امرأة ثانية، تحمل لصاقة مشابهة مكتوب عليها جانيت، توجّه أعضاء الفريق كلٌّ إلى المكان المخصص له. وبناءً على تعليمات جانيت، جلست على مقعد خشبي مزخرف.

كانت هناك ساعة قديمة جداً معلّقة على الجدار ومضبوطة على التوقيت البريطاني. لقد مرّت ست ساعات منذ تركت حنا، وخمس ساعات منذ تركت

بيــــنلوب، وأربع ساعات منذ تركت السيد أندرسن، وساعتان منذ تركت لوتون، ونصف ساعة منذ أن أخبرني ماكسي بأنه ينبغي عليَّ إبقاء أفضل لغاتي تحت خط المياه. كان أنطوان، الذي اعتنى بي جيداً، يهزّ كتفي. ومشيت خلفه الهوينى صعوداً علـــى ســـلم حلزوني، وأقنعت نفسي أنني على وشك تلقّي عقاب على يد الأب الحارس للإرسالية.

سألني أنطوان وهو يدفع باباً مفتوحاً: "كل شيء على ما يرام، أليس كذلك أيها الحاكم؟ هل أنت مشتاق لزوجتك ومنـــزلك؟"

قلت بغباء: "ليس تماماً يا أنطوان. قليلاً فقط حسبما أعتقد".

"حسناً، دعني أقول إن تلك علاقة جيدة. متى سيحين الموعد؟"

أدركـــت أننا لم نتبادل الكلام سوى نادراً منذ محاولتي الفاشلة للاتصال مع حنا، واعتقدت أنه من المناسب تقوية عروة الصداقة بيننا. "هل أنت متزوج حقاً يا أنطوان؟" وضحكت عندما تذكّرت الزوجة التي ادّعى أنه لم يكلمها ثماني سنوات.

"أحياناً أيها الحاكم. بين الفينة والأخرى".

افترضت: "بين المهام حسبما أعتقد؟"

"كان الأمر كذلك. وربما يكون الآن. حسبما تسمح به الظروف".

حاولـــت مجـــدداً. "إذاً ماذا تفعل بأوقات فراغك؟ أعني عندما لا تقوم بهذه الأشياء؟"

"كل شيء تقريباً أيها الحاكم. الزواج نوع من السجن عندما تتحلى بالصبر. أحـــب كـــيب تاون. ليس السجن، ولكن شاطئ البحر. أحب فتاة هنا وهناك. حـــسناً، جميعـــنا يفعـــل ذلك، أليس كذلك؟ اتلُ صلواتك الآن بشكل جيد أيها الحاكم، لأن لدينا يوماً حافلاً غداً، وإذا فشلت في مهمتك، سنفشل جميعنا، وهو ما لا يحبه سكيبر، أليس كذلك؟"

قلت بإعجاب: "أنت نائب القائد. لا بد أن ذلك شيء مميز".

"دعنا فقط نقول إنك لست السيد زئبقي، ولا تحتاج إلى أحد ليعتني بك".

سألته بشكل فاجأني: "هل *أنا* زئبقي يا أنطوان؟"

"أيهـــا الحـــاكم، إذا أردت رأيي المتواضع، من هذا الموقع الذي وصلنا إليه، وأهداب غرف النوم التي لا نعرف التعامل معها، وكل السيدات اللواتي عرفناهن، ســـأقول إن هناك الكثير من الناس تحت خوذة واحدة، ولهذا نتعلم زخرفة الكلام بشكل متقن للغاية".

بعد أن أغلق الباب عليه، جلست على السرير، وغلب عليَّ الإرهاق الشديد. ورمـــيت جانـــباً ملابسي المستعارة، وسلّمت نفسي لذراعيّ حنا اللتين تنتظرانني. ولكـــن لـــيس قبل أن أرفع الهاتف الذي كان بجانب السرير وأحرّك سمّاعته عدّة مرات، لأتأكد فقط أنه ليس موصولاً.

6

استيقظت فجأة بملابسي الداخلية في ساعتي المبكرة المعتادة، وتحوّلت بقوة العادة إلى جانبي الأيمن تمهيداً لاتخاذ وضعية الغزل مع بينلوب، فقط لأكتشف أنها لم تعد بعد من إحدى مهامها الليلية. واستيقظت مرة ثانية، بحذر أكبر لإدراكي أنني أستلقي في سرير قريب أبيض راحل، والذي كنت أرى صورة وجهه الملتحي، الموضوعة في إطار فيكتوري مزخرف، يتجهم عبوساً من فوق الموقد الرخامي. وأخيراً، ولسعادتي، استيقظت مرة ثالثة أحتضن حنا بين ذراعيّ، وكنت قادراً على إخبارها، بغضّ النظر عن *قانون السرية الرسمي*، أنني مشترك في مهمة سرية لإحلال الديمقراطية في الكونغو، ولهذا السبب لم أستطع الاتصال بها.

فقط عندها، وفيما كانت أشعة الشمس تتسلل بين الستائر، شعرت بأنني قادر على استيعاب ما يوجد في غرفتي الكاملة الأثاث، والتي تجمع بشكل متناغم بين التقليدي والمعاصر، بما في ذلك طاولة تزيين تعتليها مرآة مع آلة كاتبة إلكترونية قديمة الطراز وأوراق قياسية، وخزانة أدراج وأخرى ذات أبواب كبيرة، إضافة إلى محافظ للبناطيل وصينية لتناول الشاي في الصباح الباكر مع إبريق وكرسي هزّاز. غامرت بالدخول إلى الحمام، وكنت سعيداً لوجود كل أسباب الرفاهية مثل المناشف، ورداء الحمام، وقسم الدش، والشامبو، وزيت الحمام، والمناديل الورقية والأمشاط، ولكن إذا كنت أفتش عن دلائل على مكان تواجدي، فلا بد أنني بحثت عبثاً بلا جدوى. وكانت أدوات النظافة من ماركات عالمية، ولم تكن هناك تعليمات في حال نشوب حريق، وقوائم بالغسيل أو أعواد ثقاب مجانية، ولا رسائل ترحيب من مدير أجنبي مع توقيعه المنسوخ الذي لا تستطيع قراءته.

استحممت ووضعت رداء الحمام على نفسي، ووقفت بالقرب من نافذة غرفة نومي، ونظرت عبر أعمدتها الغرانيتية، وتفحصت المنظر أمامي. وأول شيء

لاحظته كان بومة تبن عسلية اللون، وقد مدّت جناحيها ووقفت دون حراك عدا اهتزاز ريشها. وخفق قلبي لذلك المشهد، ولكن الطيور لا تقدّم عوناً كبيراً عندما يتعلق الأمر بالعلامات الوطنية الفارقة. وارتفعت إلى يساري ويميني تلال مزروعة بالزيتون، وبينها البحر الفضي الذي أبصرت على أفقه البعيد ظلال ناقلة حاويات متجهة نحو مكان أجهله؛ وتوجد أقرب منها إلى الشاطئ ثُلّة من سفن الصيد الصغيرة التي تلاحقها طيور النورس، ولكني لم أستطع، رغم التحديق الشديد، رؤية الرايات التي ترفعها بوضوح. ولم أستطع رؤية أي طريق، ما عدا مسار الريح الذي سلكناه في الليلة الماضية. ولم يكن مهبط الطائرة مرئياً، وبحثت بلا طائل على أداة تحديد اتجاه الرياح أو هوائي. واستنتجت من زاوية أشعة الشمس أني أنظر شمالاً، ومن أوراق النباتات التي تنمو على حافة المياه، أن الرياح السائدة غربية. وارتفع في مكان أقرب تل معشوشب يعلوه مبنى أو منزل صيفي مبني على طراز القرن التاسع عشر، وإلى الشرق منه توجد أنقاض كنيسة صغيرة ومقبرة، والتي يقف في إحدى زواياها ما يبدو أنه صليب كلتي (سكان بريطانيا القدماء)، لكنه قد يكون أيضاً نصباً تذكارياً لشهداء الحرب أو صرحاً لنبيل إسباني راحل.

ركّزت انتباهي على المبنى الذي يعلو التل، وكنت مندهشاً من رؤية شكل إنسان يتسلق سلماً متطاولاً. ولم يكن هناك منذ لحظة مضت، ولهذا لا بد أنه ظهر من خلف أحد الأعمدة. ويوجد على الأرض بجانبه صندوق أسود شبيه بتلك الصناديق التي سافرت معنا على الطائرة. وكان غطاء الصندوق باتجاهي، وبقيت محتوياته محجوبة عن العيان. هل كان الرجل يصلح شيئاً ما؟ ما هو إذاً؟ وتساءلت لماذا يقوم بذلك في هذه الساعة المبكّرة؟

ازداد فضولي، ورأيت رجلين آخرين، يعملان أيضاً على شيء ما بشكل غامض: رجل يجثو على ركبتيه بجانب أنبوب الماء الرئيسي أو نقطة الاتصال ذات الطبيعة الخاصة، والآخر يحاول نصب عمود للاتصالات، وهي المهمة التي يظهر أنه لا يحتاج لإتمامها إلى رداء حمام أو سلّم، وهكذا كان مدرّب بينلوب الشخصي، الذي يتخيل نفسه طرزان في الظلال التي ينتمي إليها. وأدركت مباشرة أن هذا

الرجل الثاني كان معروفاً بالنسبة لي ليس بالشكل فقط وإنما بالاسم أيضاً. وكان قد وصل بصعوبة بالغة إلى أعلى العمود قبل أن أتعرّف عليه وأكتشف أنه صديقي الويلزي الطليق اللسان سبايدر، مدير تموين الفريق والمحارب القديم في غرفة المحادثة.

تشكّلت خطتي على الفور. سأرتدي ملابسي للقيام بنزهة قبل الإفطار، وسأدخل في محادثة عادية مع سبايدر وأتمّعن بعد ذلك في النقوش الموجودة على شواهد القبور على أمل معرفة اللغة المحلية، وبالتالي مكان تواجدي. وارتديت قميصي الصوفي الرمادي وسترة هاريس تويد وانتعلت حذائي الضيق على عجل، ونزلت مسرعاً على السلالم إلى الرواق الأمامي. وبكل الأحوال، عندما حاولت فتح الباب، وجدته مغلقاً بوجهي، وكذلك كل الأبواب والنوافذ المجاورة التي جرّبتها. ولكن ذلك ليس كل شيء، فقد لمحت عبر النوافذ ما لا يقل عن ثلاثة حرّاس أشدّاء يقفون حول المنزل لحراسته.

ينبغي أن أعترف أنه عند تلك النقطة اعتراني القلق من جديد حول القدرات الاحترافية التي اقترح ماكسي أن عليَّ معرفتها، والتي أقلقت نومي على فترات زمنية متقطّعة طوال الليل رغم تصميمي على الاشتراك في تلك المغامرة الرائعة، وبقي حلم واحد على وجه الخصوص يعاودني. وكنت أسبح تحت الماء باستخدام أنبوب تنفس طويل، وكان خط المياه يزحف ببطء نحو أعلى القناع. وفي حال لم أستيقظ، لكان وصل إلى الأعلى، وكنت سأغرق. وعلى سبيل التسلية، وكطريقة أيضاً لتخليص نفسي من الأفكار السلبية، عقدت العزم على القيام بجولة لاكتشاف الحقيقة في غرف الطابق الأرضي على أمل التآلف مع مسرح محنتي التي تبدو قادمة.

كان يوجد في المنزل - المناسب لما اعتقدت أنها وظيفته الأصلية - مقر إقامة إحدى العائلات، وعلى طول الحديقة سلسلة متصلة من غرف الاستقبال المزودة كل منها بنوافذ فرنسية تحاذي مصطبة مزروعة ترتفع على سلالم حجرية عريضة إلى القاعة المرتكزة على دعائم في القمة. ومع الانتباه إلى الحراس، فتحت بهدوء باب أولى تلك الغرف ووجدت نفسي في مكتبة أنيقة من الخزف الأزرق النفيس مع رفوف متناسقة من الخشب الصلب والأبواب الزجاجية. وعلى أمل أن تزودني الكتب الموجودة هناك بدليل لتحديد هوية المالك، وضعت رأسي على

الـــزجاج واستعرضـــت العناوين، ولكني أصبت بخيبة أمل لرؤية الأعمال الكاملة لمجموعة من أفضـــل مؤلفي العـــالم، وكل منها مكتوب بلغتـــه الأصلية: ديكنـــز (Dickens) بالإنكليزية، وبلزاك (Balzac) بالفرنسية، وغوته (Goethe) بالألمانية، ودانـــتي (Dante) بالإيطالـــية. وعندما حاولت فتح الأبواب على أمل إيجاد رقعة كتاب أو إهداء مكتوب بخط اليد، وجدتها مغلقة بوجهي، من الأعلى والأسفل.

بعد المكتبة، جاءت غرفة البلياردو. ولم يكن في الطاولة، التي قدّرت حجمها بـــثلاثة أرباع المعتاد، أي جيوب، ولهذا يمكن وضعها مع تجهيزات الطراز الفرنسي أو الأوروبي، فيما كانت لوحة التسجيل الخشبية من صنع بوراوز في لندن. وكانت الغرفة الثالثة فخمة ومخصصة للرسم، ويوجد فيها مرايا مذهبة وساعة من النحاس الأصـــفر التي لا تتبع التوقيت البريطاني أو الأوروبي، وإنما تقف بعزم عند الساعة الثانـــية عـــشرة. وتحتوي خزانة رخامية ونحاسية لحفظ أدوات المائدة على مجموعة واســـعة مـــن المجـــلات الـــتي تتراوح من الفرنسية ماري – كلير، إلى تاتلر، إلى السويـــسرية دو. وفـــيما كنت أقوم بتفحص تلك المجلات، سمعت صوتاً ضعيفاً لـــشخص يشتم باللغة الفرنسية من الغرفة الرابعة المجاورة. وكان الباب الذي يصل إليها مفتوحاً قليلاً. وتسللت خلسة فوق الأرضية المصقولة إلى داخل تلك الغرفة. ووجـــدت نفسي أدخل غرفة ألعاب، والتي توجد في وسطها طاولة بيضاوية عليها قمـــاش أخـــضر. وكان هناك ثمانية كراسي لعب ورق مع مساند خشبية عريضة حولها. وفي أقصى الغرفة، جلس السيد جاسبر الحليق الرأس خلف شاشة حاسوب منتـــصب الظهـــر دون قبعـــته القماشية السوداء، ويحاول استخدام لوحة المفاتيح باســـتخدام إصبعين فقط. وظهر الإجهاد على وجهه الطويل نتيجة عدم النوم في الليل مما أكسبه مظهر المحقق القدير. وتفحّصني لبرهة بنظرة صارمة.

قال بالفرنسية أخيراً: "لماذا تتجسّس عليّ؟"

"لا أتجسس عليك".

"إذاً، لماذا لا ترتدي حذاءك؟"

"لأنه لا يناسب قياس قدمي".

"هل سرقته؟"

"استعرته".

"هل أنت مغربي؟"

"بريطاني".

"إذاً لماذا تتحدث الفرنسية مثل شخص أسود؟"

ردّدت عليه بالمثل قائلاً: "ترعرعت في أفريقيا الاستوائية. وكان والدي مهندساً"، ولم أتوقف للتعليق على رأيه بلغتي الفرنسية. "من أنت، بأي حال؟"

"أنا من بيزانكون. وأعمل كاتب عدل في ريف فرنسا، ولديَّ خبرة متواضعة في بعض القضايا التقنية في القانون الدولي، ومطّلع على قانوني الضرائب في فرنسا وسويسرا. وأعمل في جامعة بيزانكون حيث أحاضر عن مزايا الشركات الأجنبية. وأعمل كمحامٍ لنقابة مجهولة. هل يرضيك ذلك؟"

تجـرّدت من أسلحتي لدى سماعي تلك الشروحات، وكنت سعيداً لتصحيح صـورتي الخياليـة المبكرة عن نفسي، ولكن الحذر ساد. وسألته: "لكن إذا كانت خـبرتك متواضـعة للغايـة، كيف استطعت الاشتراك في مثل هذه المهمة الفائقة الأهمية".

"لأنـني خبير، وجدير بالاحترام؛ وأنا أكاديمي ولا أتعامل سوى مع القانون المـدني. ولا أمثّل تجّار الممنوعات أو المجرمين. ولم يسبق للشرطة الدولية أن سمعت بي إطلاقـاً مـن قبل. هل ترغب بإنشاء شركة قابضة في المارتينيز وتسجيلها في سويسرا وتمتلكها مؤسسة غامضة في ليشتنستاين والتي تعود ملكيتها بدورها لك؟"

ضحكت بأسف.

"هـل تـرغب بـأن تتعـرض لإفلاس مريح على حساب دافعي الضرائب الفرنسيين؟"

هززت رأسي مجدداً.

"إذاً ربما يمكنك على الأقل أن تشرح لي كيفية عمل هذا الحاسوب الأنغلو - ساكـسوني البغـيض. أولاً، منعوني من إحضار حاسوبـي المحمول. ثم أعطوني حاسوباً محمولاً دون دليل استخدام، أو علامات للحروف الفرنسية، ودون منطق؛

لا شيء". وأصبحت قائمة المفقودات طويلة جداً، وهزّ كتفيه علامةً على اليأس.

سألت: "لكن ما الذي تعمل عليه ويبقيك مستيقظاً طوال الليل؟" ولاحظت أكداس الورق وأكواب القهوة الفارغة المنتشرة حوله.

مـــع تنهـــيدة، عاد جسده النحيل الطويل ليسترخي على مقعد لعب الورق. "حقوق الامتياز. حقوق الامتياز الجبانة في ساعات مختلفة من الليل". وسألته: "لماذا تساعد هؤلاء اللصوص؟ لماذا لا تطلب منهم الذهاب إلى الجحيم؟"

أطلب *ممن*؟ واستغربت بصمت. لكني عرفت أنه ينبغي عليَّ التعامل معه بحذر كيلا أقاطع كلامه.

قالـــوا لي: "جاســـبر. لا نستطيع تحمّل فقدان هذا العقد الحيوي. الوقت من ذهب. ولسنا الحصان الوحيد في السباق".

هتفت: "إذاً أنت تضع مسودة العقد"، وتذكّرت أن ماكسي أعلن أن الهدف من المهمة الحالية هي توقيع عقد ما. "يا إلهي. حسناً، ينبغي أن أقول إنها مسؤولية كبيرة. هل المسألة معقّدة؟ أفترض أنها ستكون كذلك".

كان في سؤالي بعض الازدراء رغم أنه مصمم للإطراء.

"ليـــست المسألة معقّدة لأن أفكار المسودة واضحة. إنها عمل أكاديمي وغير ملزمة".

"ما هو عدد الأطراف هنا؟"

"ثلاثـــة. ولا نعـــرف من هم، لكنهم يعرفون بعضهم. ولا يوجد اسم على العقـــد، وهو غير قائم على الاحتمالات المفترضة. *وإذا* حدث شيء ما، *ربما* ينتج عن ذلك شيء آخر. وإذا لم يحدث شيء...". إيماءة فرنسية أخرى.

وتجرّأت على تحدّيه مجدداً، ولكن بحذر هذه المرة.

"لكن إذا لم يكن العقد يحمل اسماً، والاحتمالات المفترضة ليست محددة، وهو غير ملزم بكل الأحوال، كيف يكون عقداً؟"

غمرت بسمة متكلّفة من شعوره بالتفوق معالم وجهه.

"لأن هذا العقد ليس افتراضياً وحسب، وإنما زراعي أيضاً".

"زراعي افتراضي؟"

دلّت الابتسامة المتكلفة على أنه كان كذلك.

"كـيف يكـون ذلك؟ إما أن يكون العقد زراعياً بالتأكيد، *أو* افتراضياً. لا تستطيع الحصول على *بقرة* افتراضية. حسناً، هل يمكنك ذلك؟"

وقـف منتـصباً على كرسيه، ووضع السيد جاسبر يديه على قماش الطاولة الأخضر وخصني بنظرة استخفاف يحتفظ بها المحامون لزبائنهم الأقل ثراءً.

واقترح قائلاً: "إذاً، أجبني على الآتي من فضلك. إذا كان العقد يخص بشراً - لكـن ينبغي الإشارة إلى هؤلاء البشر *ليس* كبشر وإنما *كأبقار* - هل يكون العقد افتراضياً، أم أنه زراعي؟"

كنت حكيماً بما فيه الكفاية لاستيعاب قصده. "إذاً ما هي الفرضية التي نتكلم عنها بالتحديد في *هذه* الحالة، على سبيل المثال؟"

"الفرضية هي *حدث*؟"

"أي نوع من الأحداث؟"

"غـير محـدد. ربما يكون الموت". وحذّرتني سبّابة نحيلة من التهوّر في توقّع المأسـاة. "ربما تكون فيضاناً، أو زواجاً، أو عملاً من صنع الله أو الإنسان. وربما تكـون *الإذعان* أو *عدم الإذعان* للطرف الآخر. لا يوجد وصف محدّد لها". وكان يتحدث ولكن لا أحد، ما عداي أنا، كان سيأخذ كلامه على محمل الجد. "ما هو معـروف، في حالـة وقـوع هذا الحدث غير المحدّد، أن بعض القواعد والشروط الـزراعية ستـصبح فعّالـة، وأنه سيتم شراء بعض المواد الزراعية وبيعها، وستتم الاسـتفادة مـن بعض الحقوق الزراعية، وستتراكم نسبة مفترضة لبعض الأرباح الـزراعية لـصالح بعض الأشخاص غير المعروفين. لكن فقط في حالة وقوع ذلك الحدث".

قلت معترضاً: "لكن كيف استطاعت النقابة المجهولة الوصول إليك؟ إنك هنا مع هذه الخبرة الاستثنائية، وبعيد عن بيزانكون، وتخفي مواهبك".

لم يكـن يحتاج للمزيد من التشجيع. "قبل سنة مضت، دخلت في مفاوضات مـع العديد من المساهمين في بناء شاليهات يستخدمونها لقضاء العطل في فالنسيا.

وكان أدائي بارعاً، وكانت الصفقة ذروة حياتي المهنية. ولم يتمّ بناء الشاليهات، ولكن ذلك لم يكن مسؤوليتي. وكان زبوني شركة عقارات أجنبية، والتي أعلنت الآن إفلاسها، وهي مسجّلة في جزر القنال".

طرأ في ذهني خاطر يصلني بتلك الأحداث. *مساهمون في فالنسيا*. ألم تكن تلك هي الفضيحة التي جاءت باللورد برنكلي إلى صدر الصفحات الأولى في صحيفة بينلوب؟ كانت كذلك. لقد كان مشروعاً لم يوضع موضع التنفيذ.

سألته: "وهل عادت هذه الشركة نفسها للعمل؟"

"كان لي شرف تصفيتها. ولم يعد للشركة وجود".

"لكنّ مدراء الشركة موجودون".

ظهر عليه تعبير المتفوق المعتد بنفسه، كما لو أنه لم يغادره أبداً، بأزهى صوره. "لا وجود لهم، لأنه ليس لديهم *أسماء*. وإذا كان لهم أسماء، سيكونون موجودين. وإذا لم يكن لهم أسماء، سيكونون مجرد مفهوم تجريدي". ولكن إما لأنه سأم من حديثنا، أو لأنه قرّر أننا نتعدّى حدود اللياقة القانونية، قام بتمرير يده على ذقنه غير الحليقة، ثم حدّق بي كما لو أنه لم ينظر إليّ من قبل أبداً. "من أنت؟ وما الذي تفعله في هذا المكان؟"

"أنا مترجم المؤتمر".

"أي لغات؟"

أجبت بتردد: "السواحيلية، والفرنسية والإنكليزية"، كما لو أن خط المياه غمر مرة أخرى قناع الغطس الخاص بي.

"كم يدفعون لك؟"

"لا أعتقد أنه يجدر بي إخبارك". لكن الغرور تمكّن مني، وهو ما أتعرض له أحياناً. وكان الرجل يحملق بي لفترة طويلة كفاية. وحان الوقت لأكشف ثروتي الحقيقية. وقلت بغير اكتراث: "خمسة آلاف دولار".

وارتفع رأسه، الذي كان يستريح مؤقتاً بين يديه، بشكل مفاجئ: "خمسة؟"

"هذا صحيح. خمسة. لماذا؟"

"ليس جنيه؟"

"دولار. أخبرتك". و لم أحب إطلاقاً ابتسامته الساخرة.

"إنهم يدفعون لي" – وتلفّظ بالمبلغ بالتأكيد على أرقامه – "مئتي – ألف – فرنك – سويسري". ولإحداث صدمة أكبر: "نقداً. في وحدات من فئة المئة. وليس أكبر".

كنت مصعوقاً. لماذا لا يتلقى سالفو، سيد اللغات النادرة والذي تمّ إجباره على إخفائها، سوى جزء يسير من الأجر الذي يحصل عليه هذا الكاتب بالعدل الفرنسي؟ وازدادت نقمتي أكثر، عندما عدت بذاكرتي إلى أيام الكفاح الأولى عندما كان السيد عثمان من **وكالة الترجمة القانونية العالمية** يحصل على خمسين بالمئة مما أجنيه بالأصل. وتمالكت نفسي رغم ذلك. فقد كان بالمحصلة الخبير القانوني العظيم. وأنا مجرد مترجم عادي.

سألني، كما لو أنه يتعامل مع موظفيه: "هل تعرف أين يقع هذا المكان البغيض؟"

لم أكن أعرف سواء كان بغيضاً أم لا.

"لم يكن هذا جزءاً من الاتفاق. ينبغي أن أطلب أجراً إضافياً".

كان جرس الإرسالية يدعونا للصلاة. وفي ذلك الوقت، وصلت إلى الباب الذي كان السيد جاسبر يسند ظهره إليه أثناء الطباعة. وكان واضحاً من موقفه أن نقاشنا لم يحدث أصلاً.

أرشدتني جانيت إلى القاعة الرئيسية، وشعرت فوراً أن هناك شيئاً ليس على ما يرام مع الفريق. و لم تجذب مائدة إفطارها الفاخر المؤلفة من السجق البريطاني، واللحم المقدّد والبيض المخفوق سوى عدد محدود من الرجال، الذين جلسوا حولها في مجموعات، وعيونهم بارزةٌ وعلامات الاكتئاب على وجوههم. وكان أنطوان يتحدث على إحدى الطاولات مع اثنين من الحراس المكتئبين أيضاً؛ وعلى طاولة أخرى، كان بيني يضع ذقنه العريضة في يده الكبيرة، ويحدّق بصمت في فنجانه. وعدّلت من سلوكي ليتناسب مع الجو السائد، وانتقيت بنفسي قطعة صغيرة من السلمون المدخّن، وجلست منعزلاً مترقباً الأحداث. وكنت بالكاد قد تناولت

اللقمة الأولى عندما اقترب صوت نعل مطاطي بسرعة عبر الممر الحجري دليلاً على وصول ماكسي الذي كان يرتدي سترة فريق تجذيف جامعة أكسفورد، وسروالاً قصيراً مهترئ الأطراف، وينتعل حذاءً قماشياً قديماً دون جوارب. وكانت وجنتاه تتوردان نضارةً من هواء الصباح المنعش، وعيناه تشعان تألّقاً. وتوارى خلفه سبايدر.

أعلن ماكسي: "الذعر انتهى"، بعد أن أنهى تناول كأس عصير البرتقال الطازج الذي كانت تحمله غلاديس. "هدف مؤكد مئة بالمئة على كل الجبهات" - متجاهلاً تعابير الراحة التي ظهرت على الوجوه - "باقي العملية كما هو مخطط له. سيصل فيليب ومجموعة الرجال الثلاثة بعد ساعتين وعشر دقائق من الآن". فيليب، أخيراً! فيليب، الذي يخضع ماكسي لقيادته! الساعة الآن...

كانت ساعة العمة إيملدا تسبق الوقت بدقيقة واحدة. وضبطتها بسرعة. ولم يكن الأخ مايكل يستطيع أن يتخيل في أغرب أحلامه أنني سأستخدم الهدية التي قدّمها لي أثناء احتضاره لمثل تلك الحاجة.

"سيتبعهم الفريق الملكي بعد عشرين دقيقة. وسيبدأ المؤتمر عند الساعة الحادية عشرة والنصف تماماً، وقد أكّد فيليب على هذا الموعد بالذات. وستتناول الوفود الغداء عند الساعة الرابعة عشرة وخمس عشرة دقيقة بناءً على موافقة فيليب، على افتراض أننا وضعنا الجزء الأكبر من العمل خلفنا، أو الأشياء الأساسية على الأقل. أرجو منكم إشاعة جوٍ من الراحة وليس الأزمة. وتلك هي الطريقة التي يريدها، وهذا ما سنمنحه إياه. لقاء. وستكون التقارير من الطراز الأول، وهكذا ستبدو جيدة أثناء العمل في الهواء الطلق. ونتوقع أن نصل إلى نهاية اللعبة عند الساعة السابعة عشرة والنصف. جانيت. أريد لافتة ممنوع التدخين في غرفة المؤتمر من فضلك. لافتة كبيرة جداً. سنكلير، أحتاجك. أين سنكلير بحق السماء؟"

وكنت على وشك تلقّي الجزء الثاني من تعليماتي السرية.

7

لـــن أنكر أنني كنت عصبياً قليلاً عندما تبعت ماكسي نـــزولاً على درجات القبو الضيقة، رغم رؤية سبايدر وعينيه الويلزيتين اللتين تلمعان بإثارة صادقة فيما كـــان يرفع قبعته لنا لتحيتنا، مما هدّأ من مخاوفي. وكان يواسيني أكثر اكتشاف - بعـــيداً عن كوني على *أرض مجهولة* - أنني دخلت غرفة المحادثة بثقة بالنفس. ومن بـــاب خدمـــة سري مختلف عن ذلك الموجود في وايتهول، تقدّمنا عبر ممر ملطخ بالأوساخ تزيّنه أسلاك متدلية فوق الرؤوس إلى غرفة مرجل لم تعد موضع استخدام وتحولت إلى مركز تسجيل صوتي. من الناحية التقنية، كان صحيحاً أنها تقدّم خبرة مخـــتلفة عـــن عـــالم عجائب السيد أندرسن المعاصر، ولكن مع لمسة من الطلاء الأخضر، وعدد من ملاحظاته التحفيزية الشهيرة على الجدار، كنت أستطيع تخيّل نفسي في سرداب جادة نورثمبرلاند مع وقع خطوات مبهمة غير واضحة المعالم تعبر بجانب نوافذ القبو الموجودين فيه.

نظـــر إليّ ماكسي وسبايدر بإمعان فيما كنت أجرد المعدّات البدائية نوعاً ما. وكانت الأسلاك من الممر تغذّي شبكة من نوع ميكانو مع صفين من المسجلات التي تتكون كل منها من ست قطع مرقّمة وعليها لصاقة تحدّد طبيعة عملها.

سألت: "ماذا تعني ش. م".

"شقق ملكية".

"وأ. ض".

"أجنحة ضيوف".

استعرضت اللصاقات. ش. م/غرفة الرسم، ش. م/الغرفة الأولى، ش. م/غرفة الـــنوم الثانية، ش. م/غرفة الدراسة، ش. م/القاعة، ش. م/الحمام ودورة المياه، أ. ض/غـــرفة المعيـــشة، أ. ض/غـــرفة النوم، أ. ض/الحمام، الشرفة الغربية، الشرفة

الشرقية، أعلى السلالم الحجرية، أسفل السلالم الحجرية، الممشى، المسالك المفروشة بالحصى 1، 2 و3، البرج، الرواق والدفيئة.

حـثّني سبايدر قائلاً: "ما رأيك إذاً يا بريان؟" غير قادر على تمالك نفسه وقتاً أطول. "ألا ينبغي أن تكون لدينا أفضل التجهيزات الرقمية في العالم، وإلا لما ولدنا مختلفين، أليس كذلك؟ إلا إذا أردنا أن يدسّ الكثير من الصيادين الأجانب أنوفهم في عملنا".

لا أستطيع القول إنني فوجئت. وبطريقة غير محددة، كنت أتوقع شيئاً من هذا القبيل. ولهذا ربما كان الخوف هو الذي جعل شعر رأسي يقف، ولم يكن ماكسي يـساعد في تلك المسألة بإلحاحه على إظهار إعجابي بما دعاه *المقعد المثير* في وسط الغرفة، والذي يبدو للوهلة الأولى مغرياً مثل الكرسي الكهربائي، ولكن عند إلقاء نظرة عن كثب يتحول إلى قطعة أثرية مع أسلاك موصولة إلى جانبه، وسمّاعة رأس، ونـوع مـن صينية سرير المشافي مع مسند قصير، وأوراق قياسية، وأقلام رصاص *إتـش بي* مبرية مسبقاً، وجهاز راديو صغير على المسند؛ ويوجد على المسند الآخر جهـاز مـع أرقام عليه والتي لم أتأخر لأدرك أنها تتطابق مع تلك الموجودة على المسجلات.

كـان ماكسي يقول بصوته الآمر المنخفض: "حالما نأخذ فترة استراحة، تأتي بأقـصى سـرعة إلى هنا. وتستمع إلى كل ما يُطلب منك الإصغاء إليه، وتترجم بسرعة عبر سماعة الرأس إلى سام في غرفة العمليات".

"وهل سام هو سكيبر؟"

"إنه صلة الوصل. وسيتم تسجيل كل المحادثات آلياً. وسيخبرك سام إلى أيها تستمع مباشرة. وإذا كان لديك أي وقت فراغ، تمر بسرعة على الأهداف الثانوية. وسيزوّدك سام بالتعليمات، ويمرر موادك إلى الناس الذين يستطيعون استخدامها".

قلـت مفترضاً: "سيكون سام على اتصال مع فيليب"، في جهودي المستمرة للاقتراب من منبع عمليتنا، لكنه لم يأكل الطعم.

"حالمـا تنتهي فترة الاستراحة، تصعد إلى الأعلى بسرعة، وتأخذ مكانك إلى طاولـة المفاوضـات، وينبغي أن تتصرف بشكل طبيعي. ومهمة سبايدر هنا هي

صيانة النظام، والتأكّد من أن سمّاعاته تعمل، وحفظ كل الأشرطة. إنه على اتصال مباشـــر مع فريق المراقبة، لهذا يستطيع تحديد مواقع أعضاء وفود المؤتمر، ويضعهم على خريطته".

لم تكـــن تلك الخريطة أقل من نسخة منـــزلية عن أنفاق لندن، معلّقة على لـــوحة جداريـــة مع مصابيح كهربائية ملوّنة مثل قطار يلهو به الأطفال. ووضع سبايدر قبعته بشكل مائل على رأسه، ونظر إلى اللوحة بكبرياء وزهو.

تابع ماكسي قائلاً: "أنطوان مسؤول عن المراقبة. والحرّاس مرتبطون به، وهو بـــدوره يخـــبر سبايدر عن مواقع الأهداف، ويحدّد سبايدر مكانهم على الخريطة، وأنت تستمع إليهم، وتخبر سام بصوت خفيض عمّا يقولونه لبعضهم البعض. وكل هـــدف له لونه الخاص. والمراقبة عين محايدة. إنهم متصلون ببعضهم البعض. دعه يرى".

لكـــن أولاً، ولمصلحة سبايدر، كان عليَّ تقديم ما دعاه "على سبيل المثال". حثّني قائلاً: "اختر لونين يا بني. المفضلين لديك. أي لونين".

جازفت قائلاً: "الأخضر والأزرق".

"*أين يا بني، أين*".

قلت "أعلى السلالم الحجرية"، واخترت لصاقة بشكل عشوائي.

ضـــغط سبايدر بأصابعه على أربعة أزرار. وأضاءت مصابيح خضراء وزرقاء من الجهة اليسرى البعيدة للوحة الأنفاق. وبدأت إحدى المسجلات تعمل بصمت.

"هل أحببت ذلك يا بني؟ هل أحببت ذلك؟"

أصدر ماكسي أمراً: "دعه يرى الضوء الرئيسي".

ظهر ضوء أرجواني لامع من وسط الشقق الملكية، وذكّرني بالأساقفة الزائرين الذين كان الطفل السري يتجسّس عليهم من أجنحة خدمة الإرسالية.

حذّرني ماكسي: "لا توجد قيود على الضوء الرئيسي والشقق الملكية إلا إذا أخـــبرك فيليب شخصياً بخلاف ذلك. ميكروفونات للطوارئ. للحفظ، ولا علاقة لها بالعمليات. نسجل ولكننا لا نستمع. هل فهمت ذلك؟"

"فهمت يا سكيبر"، وسألته - أدهشت نفسي من فعلي المتهور - "من الذي يستشيره فيليب فعلاً يا سيدي؟"

حدّق ماكسي بي كما لو أنه يشك بحركة عصيان. كان سبايدر يقف صامتاً مثل الصخرة أمام لوحة الأنفاق. ولكن المسؤولية لا تقع عليَّ، وهو شيء لم أفهمه إطلاقاً حول نفسي: لحظات العناد الشديد التي تفرض نفسها في لحظات غير ملائمة.

قلت بارتباك: "إنه مستشار، صحيح؟ إذاً، لمن يقدم استشاراته؟ لا أقصد أن أتطفّل يا سكيبر، لكن لديَّ الحق بأن أعرف لصالح من أعمل، أليس كذلك؟"

فتح ماكسي فمه ليقول شيئاً، ثم أغلقه. وكان لديَّ انطباع بأنه مشوّش تماماً: ليس مما يعرفه، ولكن مما لا يعرفه.

"اعتقدت أن أندرسن أخبرك عن كل تلك الأشياء".

"كل ماذا يا سكيبر؟ إنني أسأل عن الخلفية فقط. وإذا لم تكن لديَّ معلومات كاملة، لن أستطيع إظهار أفضل ما لديَّ، أليس كذلك؟"

مرّت فترة توقف أخرى، وشارك فيها ماكسي حيرته مع سبايدر. "إن فيليب *مستقل*. يعمل لمن يدفع له. لديه *علاقات*".

"علاقات مع الحكومة؟ علاقات مع النقابة؟ علاقات مع من يا سكيبر؟" ويقولون إنه إذا وجد المرء نفسه في حفرة، عليه أن لا يحفر. ولكن في تلك الحالة لم يكن هناك شيء يمنعني من إنهاء ما بدأته.

"*علاقات* يا رجل! ألم تسمع *بالعلاقات* من قبل؟ لديَّ علاقات. وسبايدر لديه علاقات. لسنا مسؤولين رسميين، وإنما قريبين من ذلك، ولكن لدينا علاقات، وفي متناول اليد. إنها الطريقة التي يعمل بها العالم، بحق الله". ثم بدا أنه يأسف لحالي. "فيليب مستقل، وهو مستشار، ومرتبط بعقد. واختصاصه أفريقيا، وهو رئيس العملية. وهذا كافٍ بالنسبة لي، وهو كافٍ بالنسبة لك".

"إذا كان هذا ما تقوله يا سكيبر".

"فيليب ينسّق بين الوفود، وفيليب يضع قواعد الصفقة، ويستطيع إحضار أي شخص إلى الطاولة. وقبل ثمان وأربعين سنة لم تكن هناك أدنى فرصة لأن يجلس هؤلاء في نفس الغرفة مع بعضهم البعض. لهذا اسكت، وأظهر إعجابك به".

"سأفعل يا سكيبر. إنني معجب به. لا مشكلة".

كان ماكسي يقفز بغضب على عقبيه على الدرجات الحجرية في الوقت الذي كان يتكلم فيه معي. ولدى وصوله إلى المكتبة، رمى بنفسه على أحد الكراسي وأومأ لي إلى آخر، وجلسنا هناك مثل سيدين محترمين يقضيان وقت فراغ فيما كنا نهدّئ من روعنا. وخلف النوافذ الفرنسية، تمتد قطع خضراء من الأرض إلى البرج بشكل يبعث على الراحة.

استأنف القول: "في مكان لا يبعد ألف ميل عن هنا في الدانمارك، تدور حلقة بحث. هل أنت معي؟"

"معك يا سكيبر".

"تدعى منتدى البحيرات الكبرى. هل سمعت بها؟"

لم أسمع.

"مجموعة من الأكاديميين الاسكندنافيين الطويلي الشعر الذين يتولون إدارة مناقشات غير رسمية لحل مشاكل الكونغو الشرقية قبيل الانتخابات. ويستقطب المنتدى كل الرجال الذين يكرهون بعضهم، وتمّت دعوتهم للتنفيس عن غضبهم، وشيء رائع على وشك الحدوث، مثل الذي كنا نسمع عنه في القصص الخرافية".

ابتسمت ابتسامة العارف. فلقد كنا قد عدنا إلى المسار الصحيح، كرفاق مجدداً.

"اليوم عطلة بالنسبة لهم. ويفترض أنهم يقومون بزيارة إلى معامل تدخين السمك ومتاحف النحت في الهواء الطلق، ولكن ثلاثة من الوفود تخلّفت وستأتي إلى هنا عوضاً عن ذلك. لحضور مؤتمر غير رسمي خاص بها". وقذف ملفاً على الطاولة بيننا. "هذه هي الخلفية التي تبحث عنها. السير الذاتية، واللغات، والأصول العرقية للمشاركين. إنها مهمة فيليب التي يجيد إنجازها. ثلاثة وفود، وثلاثي واحد غير مقدّس". استمر بالقول: "قبل بضعة شهور فقط، كانوا يقطعون رقاب

بعضهم، ويذبحون نساء بعضهم ويسرقون الأراضي والماشية والموارد المعدنية لبعضهم البعض. ومع القليل من المساعدة، يقومون الآن بتشكيل تحالف".

سألت بنبرة كئيبة: "ضد من هذه المرة يا سكيبر؟" وكان الشك يتحدث عن نفسه، لأنه ما فائدة أي تحالف في ذلك الفردوس المظلم إذا لم يكن ضد عدو مشترك؟ ولهذا استغرقني الأمر لحظة لأستوعب ماهية ردّه.

"ليس *ضد من* مباشرة، إنما *تحت رعاية من*. هل صدف وسمعت رواية ذلك الرجل الكونغولي المنقذ، والأستاذ السابق لشيء ما، الذي يدير الهيئة التعليمية هذه الأيام؟ - يدعو نفسه موانغازا - هذا نور، أليس كذلك؟"

أجبت "أو تنوير"، والذي كان ردّ فعل متوقع من مترجم. "يتوقف الأمر على كلامنا سواء كان مجازياً أو حرفياً يا سكيبر".

"حسناً، إن موانغازا هو رجلنا، مجازياً أو مهما كان. وإذا استطعنا وضعه في المكان المناسب قبيل الانتخابات، سنعود إلى المنزل أحراراً. إذا لم نستطع ذلك، علينا اللعنة. لا توجد جائزة للمركز الثاني".

إذا قلت إن رأسي أخذ يدور سيكون تخفيفاً للوضع. فلقد كان الأمر شبيهاً بالالتفاف حلزونياً في مدار، وفي نفس الوقت إرسال إشارات مسعورة إلى حنا.

* * *

أخبرتني: "استمعت إليه يا سالفو"، وتحوّلت من الفرنسية إلى الإنكليزية في لحظة استرخاء نادرة خلال تبادلنا الحب. إنه داعية للحقيقة والمصالحة. وفي كيفو، يتواجد في كل مكان عبر محطات الإذاعة المحلية. ومنذ أسبوعين، وخلال يوم عطلتي، سافرت مع أصدقائي على طول الطريق إلى بيرمنغهام حيث تكلّم أمام حشود كبيرة. وكان بالإمكان سماع صوت الإبرة في تلك القاعة. وتدعى حركته **الطريق الوسط**. وستعمل ما لا يستطيع أي حزب سياسي فعله. ويعود سبب ذلك إلى أنها حركة نابعة من القلب، وليس من محفظة النقود. وستعمل على توحيد كل شعب كيفو معاً، شمالاً وجنوباً. وسترغم المسؤولين في كينشاسا على سحب

جـنودهم الفاسـدين من شرق الكونغو، وتركنا نتولّى شؤوننا بأنفسنا. وسوف تنـزع سلاح الجيوش البديلة والمليشيا التي ارتكبت المجازر الجماعية، وإعادتها عبر الحـدود إلى رواندا حيث تنتمي. ويستطيع أولئك الذين يملكون حقوقاً مشروعة الـبقاء إذا أظهروا رغبة حقيقية بأن يكونوا كونغوليين. وهل تعرف ماذا أيضاً يا سالفو؟

ماذا أيضاً يا حنا؟

في سنة 1964، وخلال العصيان الكبير، قاتل موانغازا لصالح باتريس لومومبا وجُرح!

لكن كيف استطاع فعل ذلك يا حنا؟ اغتالت وكالة الاستخبارات الأميركية لومومبا سنة 1961، بمساعدة قليلة من البلجيكيين. وكان ذلك قبل ثلاث سنوات من العصيان الكبير، بالتأكيد.

سالفو، أنت مدّعي علم. كان العصيان الكبير فكرة لومومبا. وكل من شارك بها كان ينظر إلى باتريس لومومبا على أنه مصدر إلهام له. وكانوا يقاتلون من أجل كونغو حرّة ومن أجل باتريس، سواء كان حياً أو ميتاً.

إذاً كنت أتبادل الحب مع الثورة.

أصـبحت الآن سـخيفاً أيـضاً. موانغازا ليس ثورياً. إنه يناضل من أجل الـتحديث، والنظام والعدالة، ومن أجل التخلص من كل الذين يسرقون من بلدنا ولا يحـبونها. ولم يرغب بأن يكون معروفاً من قبل الآخرين على أنه رجل حرب، وإنمـا جالـب سلام وتوافق لكل الوطنيين الحقيقيين في الكونغو. إنه عملة نادرة: البطل العظيم الذي جاء لعلاج كل أمراضنا. ربما أسبب لك الملل؟

اعتقدت أنني لا آخذها على محمل الجد، ووضعت ملابس النوم على نفسها وجلست على السرير. وينبغي أن تعرف كم هي جميلة، وكم هي لعوب في الحب، وأن تتخيل ما يعنيه ذلك. لا يا حنا، لا تسببين لي الملل. لقد شرد ذهني مؤقتاً لأنني سمعت الهمسات الليلية لوالدي العزيز الراحل، والذي كان يحلم مثلك تماماً.

كـيفو واحـدة يـا بـني سالفو... يسودها السلام تحت حكم الله والعلم الكونغولي... حرّة من وباء الاستغلال الأجنبـي، ولكن قادرة على استيعاب كل

من يرغب مخلصاً بالاشتراك في الهبة الإلهية لمصادرها الطبيعية وتنوير كل شعبها... دعنا نصلي لأن تعيش طويلاً بما فيه الكفاية لرؤية فجر ذلك اليوم، يا بني سالفو.

* * *

كـــان ماكسي ينتظر جوابي. حسناً، هل سبق وسمعت بهذا الرجل الكونغولي المخلّص، أم لم تسمع؟ ومثل موانغازا، اخترت *الطريق الوسط*.

أقـــرّيت "ربمـــا سمعت بذلك"، حذراً لتزويد صوتي بالكمية المناسبة من عدم الاكتراث. "أليس ذلك القائد الملهم الذي أجمعت عليه الآراء؟"

"قابلته، أليس كذلك؟"

"يا إلهي لا!" - كيف استطعت الإيحاء له بمثل ذلك الانطباع المنافي للعقل؟ - وقمت بالتأكيد على السياسات الكونغولية الواضحة بهذا الشأن. "لأكون صادقاً يا سكيبر. لقد تبنيت وجهة النظر التي أرتاح لها".

والـــتي كانت، قبل لقائي مع حنا، الحقيقة. وعندما تستوعب شيئاً ما، تبدأ بالاختيار.

ألقـــى ماكـــسي نظـــرة خاطفة على الحرّاس، وأخبرني: "حسناً، لتكن أعصابك فولاذية، لأنك على وشك اللقاء به. سيرافق الرجل العظيم حاشية من شخصين: أحدهما معـــاون مخلص ومستشار سياسي يحمل اسماً مستعاراً، والآخر وسيط لبناني شبه مخلص يدعى فليكس تابيزي، واختصاراً تابي. والأستاذ من قبيلة شي، ولهذا هو متعاون".

كرّرت اسم تابي على مسامعي فيما كنت انطلق عائداً إلى المنـــزل المتألق في مـــيدان بيركلي. تابي الوغد، تابي شخص الساعة الحادية عشرة الغامض. وكنت علـــى وشك التساؤل حول ما يفعله الوسيط اللبناني المشكوك في ولائه في حاشية موانغازا، فقط لأكتشف أن ماكسي يخبرني بذلك.

"تـــابي هو الجانب الشرير في الأستاذ. ولا يكتمل أي قائد أفريقي دون ذاك الجانب... ... ...، ... ...، ولكنه تحول مؤخراً إلى المسيحية حفاظاً على صحته. وساعد في إدارة حملة الرجل العجوز، وسهّل طريقه، وتولّى أموره المالية، وغسل جواربه".

"ولغاته يا سكيبر؟ السيد تابيزي؟"

"الفرنسية، والإنكليزية، والعربية وأي شيء يحصل عليه مجاناً خلال سفره".

"وفيليب. ما هي اللغات التي يتحدث بها؟"

"الفرنسية، ولنغالا، وقليلاً من السواحيلية، وليس كثيراً".

"الإنكليزية؟"

"بالطبع يتحدث بها. إنه إنكليزي".

"والأستاذ يتحدث في كل شيء حسبما فهمت. إنه رجل مثقف". ولم أكن أعني بذلك افتقار ماكسي لأي خبرة لغوية، ولكني خشيت من تعابير وجهه الغاضبة أن يكون قد اعتبرها كذلك.

سألني بغضب: "إذاً، ماذا تقصد؟"

"حسناً، لا تحتاجني فعلاً، أليس كذلك يا سكيبر؟ ليس فوق. ليس كثيراً. ليس إذا كان موانغازا يتكلم الفرنسية والسواحيلية. سأبقى في الأسفل وحسب في غرفة المرجل مع سبايدر واستمع إلى ما يدور".

"هراء كامل ومطلق. أنت نجم العرض، هل تتذكر؟ الرجال الذين يحاولون تغيير العالم لا يتوقعون القيام بأعمال الترجمة بأنفسهم. ولن أثق بتابيزي ليخبرني حتى عن الوقت بأي لغة كانت". واستغرق لحظة في التفكير. "إلى جانب ذلك، أنت سلاح أساسي. يصر موانغازا على التحدث بالسواحيلية لأن الفرنسية لغة استعمارية بالنسبة له. ولدينا رجل يتحدث الفرنسية بطلاقة والقليل من السواحيلية، وآخر يتحدث القليل من السواحيلية وأقل من الفرنسية".

شعرت بالإطراء لدى سماعي أنني *نجم العرض*، وكان لديَّ سؤال آخر. والأكثر دقة أن حنا لديها سؤال.

"والنهاية المنتظرة للمؤتمر يا سكيبر؟ حصيلة حلمنا؟ كيف سنحدد ذلك؟" وهو شيء أسأله دائماً لزبائني.

لم يكن الأمر كذلك، ولكن عنادي ضرب على وتر حسّاس لديه. واعترض بعنف وبصوت مكبوت: "نحن *نرتّب* المكان يا سنكلير حباً بالله! إننا نعيد العقل إلى

هذا المنـــزل المجنون اللعين. إننا نعيد للشعب الفقير والمضطهد بلده، ونرغمهم على *التسامح* مع بعضهم، وجني المال وعيش *حياة* رغيدة. هل لديك مشكلة مع ذلك؟"

جعلـــني الصدق الواضح في نواياه، والذي لا أملك لهذا اليوم سبباً للتشكيك به، أتوقف عن الكلام ولكن دون أن يلين موقفي.

"لا مـــشكلة على الإطلاق يا سكيبر. فقط أنك ذكرت الديمقراطية في نهاية النـــــزاع المسلح. وكنت أتساءل بشكل طبيعي من كنت تشاهد بالضبط عندما قلـــت ذلـــك. أعني، لدى نهاية النـــزاع المسلح. على افتراض أن هناك انتخابات قادمة. لماذا نستبقها، إذا كنت تفهمني؟"

هل ذكرت أن حنا لديها ميولاً سلمية، كما قد يدعوها السيد أندرسن؟ وأن مجمـــوعة منفـــصلة من الراهبات في مدرسة إرسالية العنصرة (الأحد السابع بعد الفصح) كانت تعظها حول عدم العنف مع تأكيد كبير على إدارة الخد الآخر؟

"نحن نتكلم عن الكونغو، أليس كذلك؟"

"صحيح يا سكيبر".

"إحدى أسوأ المقابر في العالم. صحيح؟"

"صحيح. دون شك. ربما تكون *الأسوأ*".

"يمـــوت الرجال مثل البعوض أثناء حديثنا هذا. عمليات قتل قبلية مستمرة، وأمـــراض، والموت جوعاً، وجنود يبلغون من العمر عشر سنوات، وأشخاص غير مؤهلين من القمة إلى الحضيض، وكثرة عمليات الاغتصاب والفوضى. صحيح؟"

"صحيح يا سكيبر".

"الانتخابات لن تجلب الديمقراطية، وإنما سوف تتسبب بالفوضى. وسوف يـــسيطر الفائـــزون علـــى كل شيء، وسيطلبون من الخاسرين الابتعاد تماماً. وســـيقول الخاسرون إن اللعبة مدبّرة، وسيذهبون إلى الغابات. وعلى اعتبار أن كـــل شخص سيصوت بكل الأحوال تبعاً لأصوله العرقية، سينتهون من حيث بدأوا وأسوأ. إلا إذا...".

وانتظرت.

"إلا إذا استطعت وضع قائد معتدل مرتبط بك، وأن تنقل رسالته إلى جمهور الناخبين، وأن تثبت لهم أنها تجدي نفعاً، وتوقف دائرة الفساد. هل أنت معي؟"

"معك يا سكيبر".

"تلك هي خطة لعب النقابة، وهي الخطة التي نطبّقها اليوم. والانتخابات ستكون على الطريقة الغربية. وينبغي أن تستحوذ عليهم، وتضع رجلك في المكان الذي تريده، وتمنح الشعب قطعة عادلة من الكعكة لمرة واحدة، وتساهم في إحلال السلام. الشركات المتعددة الجنسيات العادية تكره الفقراء. وتعتقد أن إطعام ملايين الجياع ليس مرتفع الكلفة، وأنه ينبغي تخصيص الملكية العامة. حسناً، نقابتنا الصغيرة لا تفكّر بتلك الطريقة. ولا موانغازا أيضاً. إنهم يفكرون في البنى التحتية، والمشاركة والسياسات الطويلة المدى".

عادت أفكاري بفخر وسرعة إلى اللورد برنكلي ومجموعته المتعددة الجنسيات من الممولين. نقابة صغيرة؟ لم يسبق لي أن رأيت هذا العدد الكبير من الأشخاص *المهمين* محتشدين في غرفة واحدة!

كان ماكسي يقول: "مبالغ مالية كبيرة للمستثمرين، هذا هو المفروض، ولم لا؟ ولا يمكن حمل ضغينة ضد شخص يكون مصراً على المجازفة. ولكن الكثير سيتبقى في الصندوق لصالح الوطن عندما ينتهي النزاع ويتوقف إطلاق النار: المدارس، والمستشفيات، والطرق والمياه النظيفة. وضوء في نهاية النفق للأجيال القادمة. هل لديك مشكلة في ذلك؟"

كيف يمكنني ذلك؟ كيف يمكن لحنا؟ كيف يمكن لنوح والملايين من مناصريه؟

"إذاً، إذا كان ينبغي على مئتي شخص أن يختبئوا في الأيام الأولى - وهو ما سيفعلونه - هل نكون الأشخاص الطيبين أم الأشرار؟" وكان يقف على قدميه، ويعدّل وضعية قبعة راكب الدراجة الهوائية. "شيء آخر فيما نتحدث بهذا الموضوع". وعدّل القبعة مرة أخرى. "لا تآخي مع السكان المحليين. ولست هنا لإنشاء صداقات ثابتة، وإنما لتقوم بعملك. وعندما يحين وقت الغداء، يمكنك أن

تنـــــزل إلى غــرفة المرجل وتتناول البسكويت مع سبايدر. هل هناك المزيد من الأسئلة؟"

علاوة على: *هل أنا من السكان المحليين؟* - لا شيء.

* * *

مع ملف فيليب بين يديّ، جلست أولاً على حافة سريري، ثم على الكرسي الهزّاز الذي كان يتقدم للأمام ولا يعود للخلف. وفي لحظة أكون نجم العرض، وفي اللحظة التالية أصبح أحمق خائفاً، مثل بحيرة كبرى تمثّل شخصاً واحداً وكل الأنهار في العـــالم تـــصب بي وضفافي تفيض. ومن نافذتي، بقي كل شيء ساكناً بشكل خادع. والحدائق مغمورة بالمياه مع أشعة شمس مائلة لصيف أوروبا الأفريقي. ومن الـــذي لا يرغب بالقيام بنـــزهة هادئة فيها، بعيداً عن عيون وآذان المراقبة في مثل ذلـــك اليوم؟ من كان يستطيع مقاومة المجموعة المغرية من كراسي الاسترخاء تحت الشمس في البرج؟

فــتحت الملـــف. أوراق بيضاء، دون علامات مميزة. ولا تصنيف أمني سواء ســـري للغايـــة أو خلاف ذلك. ولا اسم المرسل إليه، أو الكاتب. بطول الذراع. وتـــبدأ صـــفحتي الأولى في المنتصف ورقمها سبعة عشر. وفقرتي الأولى رقم اثني عـــشر، وتقـــودني إلى الاستنتاج بأن الفقرات من الرقم واحد إلى أحد عشر غير مناســـبة لنظرة مترجم رقيقة يخفق قلبه بقوة من أجل بلاده فوق وتحت خط المياه. وكان عنوان الفقرة الثانية عشرة **أمراء الحرب**.

يدعـــى أول أمراء الحرب ديدون مونتامولينج الذي لا يمكن فصله عرقياً عن الرواندين. وانجذبت له فوراً. وكانت بانيامولينج، وهي اسم الجمع الذي يطلقونه علـــيهم، المفضلين لدى والدي العزيز الراحل بين كل القبائل الأخرى. ولأنه كان رومانـــسياً دائماً، فقد أطلق عليهم لقب *يهود كيفو* احتراماً لنسكهم، ومهاراتهم القتالية وتواصلهم المباشر مع الله على أسس يومية. وكان إخوانهم من الكونغوليين *الأنقياء* مثل المتطفلين التوتسي يحتقرونهم، ولهذا كانوا ينظرون إليهم دائماً كأهداف للمطاردة، واستقر البانيامولينج خلال السنوات المئة الماضية على نجد مولنيغ الذي

يـــصعب الوصـــول إليه في جبال كيفو الجنوبية، ورغم المضايقات المستمرة تدبّروا عيش حياة متعددة الوجوه، وانصرفوا إلى العناية بالأغنام والماشية وتجاهلوا المعادن النفيـــسة الـــتي توجد ضمن حدودهم. وظهر من بين هذا الشعب المحارب ديدون كمثل أعلى:

أصـــبح في ســـن الثانية والثلاثين محارباً محنّكاً. وتلقى تعليماً جزئياً في الغابـــات من قبل إرساليات العَنْصَرة الاسكندنافية، حتى أصبح كبيراً بما فيه الكفاية للقتال. ومعروف عنه عدم الاهتمام بتكوين ثروة شخصية.

وحصل على تفويض كامل من شيوخه لتحقيق الأهداف الآتية:

أ – اشـــتراك البانياموليـــنج في حكـــومة جـــنوب كيفو المؤقتة قبيل الانتخابات.

ب – حل النـــزاع على الأراضي في السهول المرتفعة.

ج – حـــق العودة لآلاف البانيامولينج الذين تمّ إخراجهم من الكونغو، وخـــصوصاً أولـــئك الذين تمّ إجبارهم على الهروب بعد مشاكل سنة 2004 في بوكافو.

د – دمـــج البانيامولينج في المجتمع الكونغولي المدني، وإنهاء المفاوضات الـــرسمية حـــول الاضطهاد الذي تعرّضوا له خلال السنوات الخمسين الماضية.

اللغات: كينيا – مولينغ وكينيا – رواندا، وشي، والسواحيلية، والفرنسية الأساسية.

تحـــوّلت إلى أمـــير الحرب الثاني. ويدعى فرانكو تيمناً باسم المغني الأفريقي الـــبارز، والذي أعرف أعماله جيداً من تسجيلات فونغراف بير أندريه القديمة في دار الإرســـالية. وفرانكو محارب بيمبـــي قديم الطراز من منطقة يوفرا، ويبلغ من العمر حوالى خمس وستين سنة. ولم يكن متعلماً، ولكنه ماكر جداً وبطل كونغولي يثير العواطف. *ولكن فيليب وضع تحذيراً صحياً قبل أن يتابع الحديث عنه:*

في ظل حكم موبوتو، خدم بصفة ضابط شرطة متخفٍّ في تلال ولانغو. ودخـــل السجن عندما اندلعت الحرب سنة 1996، ثم هرب وتوّجه إلى الغابات وانضم إلى ماي ماي كطريقة للهروب من الإعدام نظراً لولائه

السابق. ويُعتقد أنه وصل حالياً إلى رتبة عقيد أو أعلى. وهو عاجز جزئياً نتيجة إصابته في ساقه اليسرى. وإحدى زوجاته هي ابنة أحد جنرالات ماي ماي كذا وكذا. ويمتلك مساحات شاسعة من الأراضي، ولديه ستة إخوة أثرياء. وهو مثقف نوعاً ما. ويتحدث لغته الأصلية بيمبي، والسواحيلية، وقليلاً من الفرنسية، وبشكل مدهش بعضاً من الكينية - الرواندية التي اكتسبها في السجن، إضافة إلى الكينياموليغ وهي اللغة القريبة منها.

من الصعب الوصف على هذا البعد الصور الخيالية التي أثارتها هذه الكلمات القليلة في ذهن الطفل السري بداخلي. وإذا لم تكن ماي ماي مجموعة سيمبا المروّعة نفسها أيام والدي، فسيكونون قريبين منهم في الأهداف الوحشية. وينبغي أن لا ينخدع أحد بكلمة **عقيد**. ونحن لا نتكلم هنا عن ضباط يحيّونك وهم يرتدون بدلاتهم الرسمية، والذين يفيضون صحةً، ويضعون أوسمة على صدورهم وأشياء من هذا القبيل. إننا نتكلم عن ملابس مكسوة بالريش، وقبعات كرة القاعدة (البيسبول)، ومعاطف مصنوعة من جلد الحمير، وسراويل كرة القدم، وبدلات تدريب اللاعبين ومواد تبرّج العينين. والأحذية المفضّلة هي الجزمة الطويلة الساق. وبالنسبة للقوى السحرية، هناك القدرة على تغيير الرصاصات إلى ماء، وهو ما تستطيع مجموعة ماي ماي - مثل سيمبا قبلها - فعله في أي وقت تقوم به بالشعائر الضرورية لذلك. تتضمن تلك الطقوس عدم السماح للماء بدخول فمك، وعدم تناول الطعام من طبق ملون، وعدم لمس أي شيء لم تُنثر عليه جرعات سحرية، وهي القوى التي يتم الحصول عليها من التربة النقية للكونغو التي أقسم ماي ماي على الدفاع عنها بدمائهم، إلخ... ونتكلم عشوائياً أيضاً عن الجرائم العبثية، وانتشار عمليات الاغتصاب، والأعمال الوحشية تحت تأثير كل شيء من العرافة المتطورة إلى غالون أو اثنين من جعة بريموس الممزوجة بشراب النخيل.

كيف استطاعت هاتان المجموعتان - ماي ماي والبانياموليغ - أن تصبحا شريكتين متحالفتين بالحكم، وأن تضعا كيفو تحت قيادة متنوّرة واحدة، سيبقى برأيي لغزاً غامضاً. والصحيح، أنه بين الحين والآخر، شكّلت ماي ماي تحالفات

تكتيكـية مـع البانياموليـنج، ولكن ذلك لم يمنعهم من استباحة قراهم، وحرق *محاصيلهم، وسرقة ماشيتهم وسبـي نسائهم.*

وما الذي يأمل فرانكو بأن يحصل عليه من مؤتمر اليوم؟

أ. اعتبار *الطريق الوسط* مسلكاً سريعاً محتملاً لكسب النقود، والقوة والسلاح لمليشياته.

ب. معـرفة تمثيل ماي ماي المحتمل في أي حكومة كيفو جديدة: أي، السيطرة على المعابر الحدودية (عوائد الرشى والجمارك) وامتيازات التنقـيب (تبيع ماي ماي خام المعادن النفيسة إلى الرواندين بغضّ النظر عن الرأي العام المناهض لهم).

ج. الاعـتماد على نفوذ ماي ماي في كيفو لزيادة حصته في الحكومة الاتحادية في كينشاسا.

د. بقاؤه مصمماً على تطهير كل الكونغو من تأثير الرواندين، وإطلاع ماي ماي بأنهم يستطيعون بيع خامات المعادن إلى مشترين آخرين.

هـ. اعتبار الانتخابات المقبلة كتهديد لوجود ماي ماي، وتهدف إلى الاستيلاء على أراضيهم.

أمير الحرب الثالث ليس أمير حرب إطلاقاً، ولكن الوريث الشرعي لثروة تجاريـة في الكونغو الشرقية والذي تلقّى علومه في فرنسا. واسمه الكامل أونور آمور – جويس، ومعروف عالمياً بأنه الحاج. وهو من العرق شي مثل موانغازا، ولهـذا يمكن اعتباره *كونغولياً نقياً*. وعاد مؤخراً إلى الكونغو من باريس، بعد دراسـته إدارة الأعمـال في السوربون حيث نجح بامتياز. ويكمن مصدر قوته – وفقـاً لفيليب – ليس في جبال البانيامولينج الجنوبية ولا في حصون ماي ماي إلى الشمال والجنوب، ولكن ضمن مجتمع رجال الأعمال الناشئ في بوكافو. وحدّقت خـارج الـنافذة. وإذا كان في طفولتي فردوس، ستكون بلدة بوكافو المستوطنة الـسابقة، والـواقعة علـى الطرف الجنوبي من بحيرة كيفو وسط الوديان الخصبة والجبال التي يغشاها الضباب.

تتضمن نشاطات العائلة مزارع القهوة والخضراوات، والفنادق، ومصنع لشراب الشعير مع أسطول من الشاحنات، ومناجم للمعادن الثمينة، والتجارة بالماس، والذهب، وخام القصدير وملهيين ليليين جديدين هما محط فخر الحاج. ومعظم هذه المشاريع تعتمد على التجارة مع الرونديين عبر الحدود.

إذاً، أمير الحرب الذي ليس أميراً للحرب، يعتمد على أعدائه في تجارته.

الحاج رجل تنظيم بارع ويحظى باحترام العاملين لديه. وباستخدام طرق التحفيز المناسبة، يمكنه تزويد أي مليشيا بخمسمئة رجل قوي عبر علاقاته مع الزعماء المحليين في مقاطعتي كازيبا وبورهيني حول بوكافو. ويدير والد الحاج المدعو لوك، مؤسس إمبراطورية العائلة، عملية مؤثرة بنفس القدر في الجزء الشمالي من غوما.

سمحت لنفسي بابتسامة سريعة. وإذا كانت بوكافو فردوس طفولتي، فإن غوما فردوس حنا.

لوك محارب قديم في الثورة الكبرى ورفيق سلاح موانغازا لوقت طويل. وكان تجار غوما البارزون الآخرون يستمعون له، والذين أغضبهم – مثله تماماً – إحكام الرونديين سيطرتهم على تجارة كيفو. وكان لوك ينوي حضور مؤتمر اليوم شخصياً، لكنه يتلقّى حالياً عناية خاصة في مستشفى لأمراض القلب في كيب تاون. ولهذا يحضر الحاج عوضاً عنه.

إذاً، ماذا يعرضان بالتحديد، هذا الثنائي المكوّن من الأب والابن من بارونات المدينة.

مع الأخذ بالاعتبار التوقيت والشخص، لوك ودائرته في شمال كيفو مستعدون لإشعال شرارة عصيان شعبي في شوارع غوما، وتقديم الدعم العسكري والسياسي الخفي إلى موانغازا. وبالمقابل، سيطلبان بسط نفوذهما على الحكومة الإقليمية الجديدة.

والحاج؟

في بوكافو، الحاج في موقف يمكّنه من حثّ المثقفين والتجّار على احتضان *الطريق الوسط* كطريقة للتنفيس عن غضبهم ضد رواندا.

لكن ربما يوجد سبب أكثر ابتذالاً لحضور الحاج بيننا هنا اليوم:

كرمز لرغبته في الالتزام مع *الطريق الوسط*، وافق لوك على قبول عمولة مقدّماً تبلغ (محذوف) والتي وقع على إيصال رسمي باستلامها.

يتكلم الحاج الشي، وقليلاً من السواحيلية، ويبدو أنه علّم نفسه الكينية - الرواندية لأهداف تجارية. واللغة المفضلة لديه هي الفرنسية التي يجيدها بطلاقة.

أخبرت حنا أن هذا ما لدينا فيما كنت أنهض لأجيب على الشخص الذي يقرع بابي: جندي - مزارع مونياموليِنج، وخبير ماي ماي أعرج ومحتال مدني فرنسي الثقافة ينوب عن والده. وكيف استطاع أستاذ جامعي ينوف عمره على السبعين - رغم أنه مثالي - جمع هذا الثلاثي غير المنسجم في تحالف محبّ للسلام من أجل الديمقراطية، سواء كان ذلك في نهاية النزاع المسلح أو لا؟

نصحني أنطوان، بعد أن دفع بملف مكتبي في يدي: "يقول سكيبر إن هذه بقية واجباتك. وسآخذ تلك المادة من الأدب الفاحش منك، فيما لا زلت قادراً على ذلك. لا نريدها أن تكون في مكان يستطيع الأطفال الوصول إليه، أليس كذلك؟"

أو بلغة بسيطة: إليك نسخة من عقد جاسبر الذي لا يوجد عليه اسم مقابل أوراق تعليمات فيليب التي لا يوجد عليها اسم أيضاً.

* * *

عدت إلى الكرسي الهزّاز استعداداً لقراءتي التمهيدية، وكنت مندهشاً لرؤية أنه تمّت إضافة حركات الأحرف الفرنسية بخط اليد وبقلم حبر. وتحدّد المقدمة أطراف الاتفاقية المجهولة الاسم.

الطرف الأول منظمة رأسمالية خيرية تقدّم معدّات وخدمات زراعية منخفضة الكلفة على أسس المساعدة الذاتية إلى دول أفريقيا الوسطى النامية أو في طور النمو.

وبكلمات أخرى، النقابة الغامضة.

الطرف الثاني، والذي يدعى هنا *الخبير الزراعي*، جهة أكاديمية بارزة ملتزمة بإعادة التنظيم الجذري للأساليب التي عفا عليها الزمن لتحقيق تطوير أكبر في كل شرائح السكان المحليين.

أو بفرنسية فصحى، موانغازا.

الطرف الثالث، والذي يدعى هنا التحالف، جمعية كريمة من قادة المجتمع التي تتعهد بالعمل معاً تحت إشراف الخبير الزراعي - انظر في الأعلى... وسيكون هدفهم المشترك دفع عملية الإصلاح إلى الأمام بكل الوسائل المتاحة لديهم من أجل تشكيل بنية اجتماعية متحدة تتضمن كل كيفو، بما في ذلك سياسة مالية مشتركة، والاستحواذ على مصادر كيفو الطبيعية لتحقيق توزيع أفضل لكل شعبها...

وفيما يخصّ مساعدة النقابة المالية والتقنية في سبيل تحقيق هذه الإصلاحات - التي تدعى الحدث - سيحث الخبير الزراعي بالاستشارة مع شركائه في الاتحاد على منح وضع تفضيلي للنقابة والشركات والمؤسسات التي ترى النقابة ضرورة ترشيحها بين الحين والآخر...

كما تلتزم النقابة من جانبها بتقديم الخدمات، والكادر الوظيفي والمعدّات المتخصصة بما قيمته خمسون مليون فرنك سويسري على دفعة واحدة سنوياً كما هو مذكور في الملحق...

كما تلتزم النقابة، خارج إطار دعمها المالي، بتوفير كل الخبراء، والتقنيين، والمدربين وملاك الموظفين الضروريين لتدريب القوة العاملة المحلية لاستخدام مثل تلك المعدّات، وللبقاء في مواقع العمل وضمان الإنجاز الرسمي للحدث، وفي كل الأحوال لفترة لا تقلّ عن ستة شهور من تاريخ الشروع بالعمل...

في مثل هذه الوثيقة غير الدقيقة، الملحق تفصيلي بشكل ملحوظ. وينبغي أن تتضمن المواد الأساسية المقدّمة المجارف، والمسطرين (المالج)، والمعاول، والمناجل وعربات اليد الخفيفة والثقيلة. أين يمكن استخدامها، من فضلك؟ في الغابات

المطرية، وما الذي سيتبقى منها؟ وأغلقت عينيّ وفتحتهما. هل سنجلب الحداثة إلى كيفو بمساعدة المناجل والمعاول وعربات اليد؟

لـــن تتحمل النقابة تكلفة أي مجموعة ثانية من المعدّات، إذا دعت الضرورة لطلبها، ولكن سيتم حذف قيمتها من أصل العائد الإجمالي الذي سينتج عن الحدث قبل كل الحسومات. ويتوقف إيثار النقابة - بكلمات أخرى - عند خمسين مليون فرنك فرنسي.

صـــفحة مـــن الأرقام والشروط ونسب الإنفاق موجهة لقسم التوظيف في الحـــدث. وخـــلال الـــشهور الـــستة الأولى، تطلب النقابة الحصول على حقوق احـــتكارية لكل المحاصيل مهما كانت طبيعتها ضمن المناطق الجغرافية المخصصة، والمعيّـــنة بخطـــوط الطول والعرض. ودون مثل هذا الحقوق الاحتكارية سيكون الاتفـــاق ملغـــياً. وبكل الأحوال، وكعلامة حسن نيّة والتي تكون مرتبطة دائماً بالـــولاء المطلـــق من جانب الاتحاد، ستدفع النقابة على سبيل التكرّم مبلغاً شهرياً للاتحاد يبلغ عشرة بالمئة من الإيصالات الإجمالية.

بالإضـــافة إلى الصفة الاحتكارية لمدة ستة شهور منقوصاً منها نسبة العشرة بالمئة، ينبغي أن تحصل النقابة على *إعفاء دائم من كل الضرائب والرسوم والتعرفات المحلـــية في المناطق المخصصة*. وينبغي أيضاً أن تحصل على *بيئة آمنة لتحضير، وجني ونقل كل المحاصيل*. وبصفتها *المموّل الوحيد الذي يتحمل المخاطر كافة*، ستحصل على سبعة وستين بالمئة من كل دولار من المبلغ الإجمالي قبل حسم النفقات النثرية والإدارية، ولكن ذلك سيكون فعالاً من بداية الشهر السابع الذي يتلو الحدث...

تـــبدأ، مثلـــي، بالشعور أن النقابة تملي شروطها الخاصة، ولكن فقرة أخيرة أعادت لي الأمل إلى المستوى الذي وصلوا إليه بعد حديثي المطوّل مع ماكسي:

> ســـيتم تحويل كل العائدات الباقية التي تنتج بعد انتهاء فترة الستة شهور إلى الاتحاد لتوزيعها بشكل متساوٍ وعادل على كل شرائح المجتمع وفقاً للمـــبادئ الدولـــية المقـــبولة للتطوير الاجتماعي في مجالات الصحة، والتعلـــيم، والخدمـــة الاجتماعية بهدف إنشاء مجتمع يسوده الانسجام، والوحدة والتسامح المتبادل تحت راية واحدة.

في حـــال تبيّن عدم إمكانية إجراء توزيع عادل نظراً للخلافات بين الفصائل، سيعين موانغازا وعلى مسؤوليته الشخصية هيئة من الممثلين الموثوقين والتي ستكون مفوّضــة بتوزيع ما يتم وصفه هنا **حصة الشعب**. الشكر لله! سيكون هناك على الأقل مصدر للأموال اللازمة لبناء المدارس، والطرق، والمستشفيات، والجيل القادم مـــن الأطفـــال، كما وعد ماكسي بالضبط. وتستطيع حنا الاسترخاء دون قلق. وكذلك أنا.

جلست خلف الآلة الكاتبة الإلكترونية العتيقة على خزانة الملابس، واندفعت بنـــشاط للعمـــل على طريقة ترجمتي للسواحيلية. وانتهت مهمتي، وتمدّدت على الـــسرير وفي نيتي التحدث إلى نفسي في حالة ذهنية أقل غضباً. إنها الحادية عشرة والنـــصف بتوقـــيت ســـاعة العمة إيملدا. وعادت حنا من النوبة الليلية، لكنها لا تـــستطيع الـــنوم. إنها تستلقي على سريرها، وما تزال في لباسها الرسمي، وتحدّق بالـــسقف المليء بالغبار، والذي حدّقنا به معاً فيما كنا نتبادل الحديث عن آمالنا وأحلامـــنا. إنها تفكر: أين هو، ولماذا لم يتصل، وهل سأراه مجدداً، أم أنه كاذب مثل الآخرين؟ إنها تفكر بابنها نوح، وفي اليوم الذي ستعيده إلى غوما.

حلّقت طائرة صغيرة فوق البرج. ووثبت إلى النافذة لأشاهد علاماتها المميزة، لكن الوقت فات على ذلك. وظهر في ذلك الوقت أنطوان الموثوق مرة أخرى عند بـــابي لأجمـــع أوراقي وأنـــزل معه على السلالم، فقد كرّست نفسي لتأدية مهمة حياتي.

8

تبعت أنطوان بأنفاسٍ مقطوعة إلى غرفة الألعاب حيث قابلت جاسبر في وقت مبكّر من النهار، وسرعان ما لاحظت أن مشهدها تغيّر كلياً. وانتصب لوح محاضرات أبيض مع حامل على المنصة الرئيسية. وأصبحت الكراسي الثمانية حول الطاولة عشرة. وتمّ وضع ساعة توقيت من النوع الذي نشاهده في مكاتب البريد فوق الموقد المصنوع من الآجر، بجانب لافتة *ممنوع التدخين* بالفرنسية. واتكأ جاسبر، المنتعش من حلاقة ذقنه وتنظيف أسنانه، والذي يلازمه بيني عن كثب، بجانب الباب الذي يقود إلى داخل المنزل.

تفحّصت الطاولة. كيف يمكن وضع بطاقات أسماء لمؤتمر دون أسماء؟ وكان موانغازا يدعى مزي ومكانه في وسط الطرف الداخلي، وهو كرسي الشرف. وإلى جانبه، المعاون المخلص السيد أمين السر، والأقل إخلاصاً السيد المستشار، المعروف باسم تابي، والذي لا يثق ماكسي به ليقول له التوقيت. وفي الجهة المقابلة لهم من الطاولة، حيث ستصبح ظهورهم إلى النوافذ الفرنسية، ستجلس عصبة الثلاثة، والمحددة بالسيد والحرف الأول لكل منهم: "د" لديدون، و"ف" لفرانكو و"أ" لأونور آمور – جويس؛ السيد الكبير في بوكافو والشهير بالحاج. ويجلس فرانكو باعتباره الأكبر سناً في الوسط مقابل موانغازا.

مع انشغال جانبي الطاولة البيضاوية، كان متروكاً للفريق الوطني أن يقسم نفسه بين الطرفين: في الأول، السيد العقيد، الذي افترضت أنه ماكسي، مع السيد فيليب بجانبه؛ وفي الآخر جاسبر وأنا. لم أستطع تجاهل أنه فيما تمّ منح جاسبر شرفاً كاملاً بتسميته السيد المحامي، تمت الإشارة لي على أنني مترجم.

يوجد أمام كرسي فيليب جرس نحاسي. وهو يرنّ في ذاكرتي الآن. وله يد خشبية سوداء، وهو نسخة طبق الأصل عن الجرس الذي حكم حياتنا اليومية

كنـــــزلاء في الإرســـالية. وكـــان يسحبنا من أسرّتنا، ويخبرنا بوقت التَعبُّد، وتناول الطعـــام، والـــذهاب إلى دورة المياه، والرياضة، والصف، وملعب كرة القدم، والتَعبُّد مجدداً، والعودة ثانيةً إلى السرير والصراع مع العفاريت. كما حاول أنطوان جاهداً أن يشرح لي، سيتم إرسالي بسرعة صعوداً وهبوطاً إلى غرفة المرجل مثل يو - يو بشري:

أضـــاف مـــع غمزة: "سيقرعه عندما يدعو لانعقاد الجلسة، وسيقرعه مجدداً عـــندما يـــريد عـــودتك إلى الطاولة عندما يكون وحيداً. ولكن بعضنا لن يحضر الجلـــسات، أليس كذلك أيها الحاكم؟ سنكون أسفل أشجار التفاح والإجاص في أماكن محددة سلفاً، ونستمع إلى شبكة سبايدر".

غمزته بدوري، ممتناً لرفقته. وكانت سيارة جيب متوقفة في الساحة. وسريعاً مثل جني صغير، اندفع أمام النوافذ الفرنسية، واختفى ليتولّى باعتقادي قيادة فريق المراقبة. وسمعت أزيز طائرة ثانية فوقنا، وأضعتها هي الأخرى. ومرّت دقائق أخرى تخليت فيها - ظاهرياً بمحض إرادتي - عن التحديق بغرفة الألعاب ورأيت فسحة في المـــساحات الفخمة خلف النوافذ الفرنسية. وكانت تلك اللحظة التي لاحظت فيها رجلاً أبيض يرتدي قبعة بنامية، وبنطالاً مائلاً للصفرة، وقميصاً وردياً، وربطة عـــنق حمراء وسترة مفصّلة زرقاء داكنة من النوع المعروف لضباط خفر السواحل بأنها سترات رياضة ركوب الزوارق، وشقّ طريقه على طول أفق التل المعشوشب قبل أن ينتهي للاستراحة في البرج، حيث وضع نفسه بين عمودين حجريين بطريقة عالم بريطاني مختص بالآثار المصرية من الأيام الغابرة، وابتسم للاتجاه الذي جاء منه. وســـأقول إنني كنت مدركاً فوراً، ومن تلك اللمحة الأولى لذلك الرجل، لظهور شيء جديد في حياتي، ولم يكن لديَّ أدنى شك إطلاقاً بأن تلك هي النظرة الأولى لمستشارنا الأفريقي المستقل و - بكلمات ماكسي مجدداً - *رئيس عمليتنا*، فيليب، الذي يجيد الفرنسية ولنغالا، ولكن لا يعرف السواحيلية، ومهندس مؤتمرنا، ومناصر موانغازا ووفودنا.

تالـــياً، ظهر رجل أفريقي أسود موقّر ونحيل عن بعد. وكان ملتحياً ويرتدي بدلـــة على النمط الغربي، ومتزناً في مشيته لدرجة أنه ذكّرني بالأخ مايكل عندما كـــان يمشي أمام موظفي الإرسالية في لنت. لهذا لم يتطلب الأمر تبصراً عظيماً من

جانبـــــي لأعـــرف أنـــه أمير الحرب ديدون، المندوب المفوّض عن البانياموليـنج المضطهدين، والذين كان والدي العزيز الراحل يكنّ لهم حباً شديداً.

تبعه أفريقي ثانٍ يمكن وصفه بأنه على النقيض منه تماماً: عملاق حليق الشعر يـــرتدي بدلـــة بنية زاهية لا تستطيع سترتها احتواءه سوى بصعوبة بالغة، ويمشي متـــرنحاً ويـــسحب ساقه اليسرى خلفه مما يشكل عبئاً كبيراً على جذعه. ومن قد يكـــون هذا الشخص سوى فرانكو، أمير الحرب الأعرج، ورفيق موبوتو السابق، والـــذي وصل إلى رتبة عقيد أو أكثر حالياً مع ماي ماي، والعدو اللدود والحليف المؤقت للرجل الذي سبقه؟

أخـــيراً، وكـــنوع من الامتياز الواهن لبقية المجموعة، دخل المندوب الثالث، الحاج، خريج السوربون الفظيع، وأمير التجارة غير المتوّج في بوكافو: ولكن ذلك التـــرفّع، والـــتأنق، وتلـــك المسافة التي أبقاها بينه وبين زملائه، كل ذلك أغراني بالتساؤل فيما إذا كانت لديه أفكار أخرى حول الحضور نيابة عن والده. و لم يكن شبيهاً بالهيكل العظمي مثل ديدون، ولا بسيطاً مثل فرانكو. لقد كان مدنياً شديد الأناقة. وكان على رأسه، الحليق على الجانبين، خطوط متموجة محفورة في ما تبقّى مـــن شعره. وتبرز غرّته اللامعة من جبينه. وفيما يخصّ ملابسه: حسناً، ربما خفّف سمـــو أخـــلاق حنا من رغبتي بتلك الزخارف الفانية، ولكن وفقاً للمعلومات التي زوّدني بهـــا أندرسن، فقد دفعه اختياره للملابس بسرعة إلى السطح. وكنت أنظر بالتأكيد إلى آخر تصميم في مجموعة صيف زيغنا: ثلاث قطع، وقماش الماعز بلون الفطـــر للرجل الذي لديه كل شيء أو يرغب به، ويكتمل هذا التصميم مع زوجٍ من أحذية جلد التمساح الإيطالي الأخضر، والذي يمكن أن أقدّر سعره بمئتي جنيه للقدم الواحدة.

أعرف الآن، إن لم أكن أعرف تماماً في ذلك الوقت، أن ما أشهده على التل المعـــشوشب كان اللحظات الأخيرة من جولة سياحية يقوم خلالها فيليب بعرض مرافق المنـــزل لنـــزلائه، بما فيها الجناح المراقب الذي يستطيعون أخذ حريتهم فيه بـــين الجلـــسات، والحدائق المراقبة التي يمكنهم فيها الاستمتاع بحرية بذلك الجزء الإضافي من الخصوصية الحيوية جداً لتبادل وجهات النظر بكل صراحة.

بـــناءً علـــى توصية من فيليب، حدّق المندوبون الثلاثة بإذعان إلى البحر، ثم إلى المقبرة. وعندما دار الحاج معهم، انفتحت سترة بدلته زيغنا لتكشف عن بطانة حريرية ووميـــيض فولاذي لمع تحت أشعة الشمس. ما ذلك؟ تساءلت. شفرة سكين؟ هاتف خليوي، وإذا كان كذلك، هل ينبغي أن أحذّر ماكسي؟ إلا إذا كنت أستطيع بالطبع اســـتعارته، في لحظة خفية، والاتصال بحنا. ولا بد أن شخصاً ما، اعتقدت أنه فيليب مجدداً، قد قال دعابة في تلك اللحظة، ربما داعرة لأن الأربعة انفجروا بالضحك الذي تسلل عبر المرج الأخضر والنوافذ الفرنسية لغرفة اللعب، والتي كانت مفتوحة بالكامل بسبب الحرارة. ولكن ذلك لم يؤثر بي كما ينبغي، فقد علمتني الحياة في مرحلة مبكّرة أن الـــشعب الكونغـــولي، المعروف عنه بمجاملته الشديدة، لا يضحك دائماً على أشياء لأسباب مناسبة، خصوصاً إذا كان ماي ماي أو ما يماثلها.

عـــندما انتهى الجمع من مرحه، تابع سيره إلى قمة السلالم الحجرية المزخرفة حيث وضع فرانكو العملاق الأعرج، بتأثير لطف فيليب الكبير، ذراعه حول عنق ديـــدون الضعيف وأعلن أنه رغم الخصومات بينهما، والتي تلتصق بهما مثل عكّاز المـــشي، إلا أنـــه مع مثل هذه التلقائية الودّية يمتلئ قلبه بالتفاؤل للخروج بحصيلة ناجحـــة مـــن هذا المؤتمر. وبدأوا بذلك الأسلوب هبوطهم المجهد، وكان فيليب مـــتقدماً على الثنائي المرتبط فيما كان الحاج يمشي بتثاقل خلفهم. وأتذكّر كيف كانـــت الـــسماء الـــشمالية فوقهم زرقاء فاتحة، وكيف أن أمير حرب ماي ماي ومعاونـــه النحيل كانا ينـــزلان التل ترافقهما سحابة من الطيور الصغيرة، وكانا يقفـــزان عالياً فيما الطيور تحوم فوقهما. وكيف أنه لمّا دخل الحاج الظل، انكشف سرّ جيب سترته الداخلي. لقد كان مالكاً فخوراً لمجموعة من أقلام باركر.

ما حدث لاحقاً كان واحداً من تلك الأخطاء التي لا يكتمل أي مؤتمر يحترم نفسه دونها. وكان ينبغي وجود صف من المرحبين بالوفود. وكان أنطوان قد شرح لنا ذلك مقدّماً. وسوف يسير فيليب مع عصبة الثلاثة من جانب الحديقة، وسيندفع ماكـــسي في الـــوقت نفسه من جانب المنـــزل مع حاشية موانغازا، وهكذا يتمّ الاجتماع التاريخي للأطراف المشاركة في المؤتمر. وسيشكل البقية صفاً واحداً وإما أن نصافح الضيوف أو لا بحسب أهوائهم في ذلك الوقت.

لكـــن مـــا حـــصلنا عليه كان شيئاً غير متوقع إطلاقاً. وربما كان ماكسي وصـــحبه بطيئين قليلاً في إكمال جولتهم في المنـــزل، أو أن فيليب والوفود كانوا ســـبّاقين في الوصـــول. وربمـــا كـــان فرانكو العجوز، مع محاولة ديدون النحيل مـــساعدته، ســـريع الخطى أكثر مما توقعوا منه. وكان الحدث نفسه: دخل فيليب وعـــصبته، وأحضروا معهم الروائح الطيبة التي كنت أشتمها في طفولتي الأفريقية، ولكن لم يكن أحدٌ متواجداً للترحيب بهم سوى مترجم محترف مع افتقاره للغات أقليـــته، وكاتب عدل فرنسي، وبيني الضخم بشعره الطويل. ما عدا أن بيني عندما شاهد ما يحدث، خرج من الباب للبحث عن أنطوان بسرعة كبيرة.

في أي مؤتمـــر آخـــر، كنت سأتولى الأمور من تلك النقطة، لأنه ينبغي على المترجمين المحترفين أن يكونوا مستعدين دائماً للتصرف مثل الدبلوماسيين عندما يتمّ اســـتدعاؤهم، وقمت بذلك في مناسبات عديدة. لكن تلك كانت عملية فيليب. ولخّـــصت عينا فيليب، المغروزتان داخل التجاويف المجعّدة لمحيّا وجهه، الموقف في لحظة. ورفع سبابتيه ببهجة وتزامن، وأطلق صرخة تعجب قائلاً: *"أنت هنا!"* ورفع قبعته البنمية برشاقة لي، كاشفاً بذلك عن رأسٍ قويٍّ يعلوه الشعر الأبيض المتموج والملتف مثل قرون صغيرة فوق كل أذن.

أعلـــن بفرنـــسية باريسية فصحى: "اسمحوا لي بأن أقدّم نفسي. أنا فيليب، مستـــشار زراعي وصديق عزيز للكونغو. وأنت يا سيدي؟" ومال الرأس الأبيض الأنيق للغاية نحوي كما لو أنه لا يسمع سوى بأذن واحدة.

أجـــبت برشاقة مماثلة وبالفرنسية أيضاً: "اسمي سنكلير يا سيدي. لغاتي هي الفرنـــسية، والإنكليـــزية والسواحيلية". واتجهت عينا فيليب بسرعة نحو جاسبر، وكنت سريعاً في التقاط التلميح. وتابعت "واسمحوا لي بتقديم السيد جاسبر ألبين، محامينا المختص من بيزانكون". ولإحداث تأثير إضافي: "وهل يمكنني، نيابة عن كل الموجودين هنا، أن أقدّم تحياتنا الحارة إلى وفودنا الأفريقية المتميزة؟"

كـــان لبلاغتي العفوية نتائج لم أستطع التوقع بها، وأعتقد أن فيليب لم يستطع ذلـــك أيضاً. ودفع فرانكو العجوز بمرفقه جانباً ديدون – عكّاز المشي البشري – وكـــان يمسك بيده كلتا يديّ. وأفترض أنه بالنسبة لتفكيرك الأوروبي العادي ليس

سوى رجل أفريقي ضخم آخر يرتدي بدلة أنيقة يتمسك بطرقنا الغربية. لكن الأمر لم يكـن كـذلك لسالفو الطفل السري. وبالنسبة لسالفو، كان حامي الإرسالية الذي عيّن نفسه بنفسه، والمعروف للأخوية والخدم على حدٍّ سواء *بالوجه الجميل*، اللـص الجوّال المتوحد، وأب عدد غير محدود من الأطفال، والذي كان يندفع إلى دار الإرسـالية المبني من الآجر الأحمر عند حلول الظلام مع سحر الغابة في عينيه وبندقـية بلجيكـية قديمة في يده، وصندوق من شراب الشعير وطريدة اصطادها حديـثاً تتدلى خارج حقيبته، وقطع رحلة لمسافة عشرين ميلاً لتحذيرنا من خطر وشـيك. وكـنا نجده عندما يبزغ الفجر جالساً على العتبة، مبتسماً في نومه مع بندقيته على ركبتيه. وفي ظهيرة نفس اليوم، وفي ساحة البلدة التجارية، كان يعرض تذكاراتـه الرهيبة على سياح السفاري السيئ الطالع: مخلب غوريلا مبتور أو رأس محنّط لغزال دون عينين.

أعلـن هـذا الرجل الموقّر قائلاً: "ترجم يا سنكلير"، وشدّ على قبضته طلباً للصمت: "أنا فرانكو، القيادي البارز في ماي ماي. ومجموعتي قوة حقيقية أنشأها أسـلافنا للـدفاع عن بلدنا المقدّس. وعندما كنت طفلاً، غزت حثالة الرواندين قـريتنا وأشـعلت النيران في محاصيلنا وقطّعت ثلاث من أبقارنا إلى أجزاء صغيرة نتـيجة حقـدهم. وقادتنا أمي إلى الغابة للاختباء. وعندما عدنا، كانوا قد قطعوا أوتار قدمي والدي واثنين من إخوتي إلى أجزاء صغيرة أيضاً". ووخز ديدون خلفه بإبهامـه. "وعـندما كانت أمي تحتضر، رفضت صراصير البانياموليبنج السماح لها بالذهاب إلى المستشفى. ولمدة ست عشرة ساعة، تمدّدت إلى جانب الطريق تحتضر أمـام عـينيّ. ولهذا لست صديقاً للأجانب والغزاة". وأخذ نفساً عميقاً، ثم أطلق تنهيدة كبيرة. "وبموجب الدستور، التحق ماي ماي رسمياً بجيش كينشاسا. ولكنّ هـذا الالـتحاق ذو طبيعة مزيفة. ومنحت كينشاسا الجنرال بدلة رائعة، لكنها لم تدفـع الـرواتب لجـنوده. ومنحوه رتبة عالية، لكن دون أسلحة. ولهذا نصحت الأرواح الجنـرال بالاسـتماع إلى كلمـات هذا الموانغازا. ولأنني أحترم جنرالي وتقودني نفس الأرواح، ولأنكم وعدتموني بمبلغ كبير وأسلحة جيدة، أتيت إلى هنا لأقدم عرض جنرالي".

رغم أن تلك الآراء القوية أثارتني، إلا أنني في الحقيقة فتحت فمي لترجمتها إلى الفرنسية عندما توقفت فجأة نتيجة لمحة ذات مغزى من فيليب. هل سمع فرانكو قلبي يخفق؟ هل سمعه ديدون الواقف خلفه؟ هل سمعه ذلك الحاج المغرور؟ وكان الثلاثة جميعاً ينظرون إليّ بترقّب، كما لو أنهم يشجعونني على ترجمة خطاب فرانكو البليغ. ولكن بفضل فيليب، ظهرت الحقيقة أمامي في اللحظة الأخيرة. ولأن وقار المناسبة غمره، ارتكب فرانكو العجوز هفوة بالتكلم بلغة بيمبي المحلية، وهي لغة لا أمتلكها فوق خط المياه.

و لم يكن فيليب يعرف شيئاً عن ذلك، وهذا ما ظهر واضحاً على وجهه. وكان يضحك بصوت خافت، ويلمّح للرجل العجوز عن الخطأ الذي وقع فيه. وألقى الحاج عليه نظرة ضبع ساخرة. لكن فرانكو نفسه، الذي لم تفتر همّته، أطلق بجهد واضح تكراراً لخطابه بالسواحيلية. وكان ما زال يفعل ذلك، وكنت ما أزال أومئ برأسي تعبيراً عن إعجابي بفصاحته، عندما فتح بيني الباب المؤدي إلى داخل المنزل بعنف ليجد أمامه ماكسي الذي كان يلهث وضيوفه الثلاثة، وموانغازا يقف في وسطهم.

* * *

لم تبتلعني الأرض، و لم يشر أحد لي بإصبعه أو ينتقدني. واجتمعنا بشكل ما إلى طاولة اللعب، وكنت أترجم كلمات ترحيب فيليب إلى السواحيلية. حرّرتني السواحيلية من القيود وهو ما تفعله دائماً. وقد تجاوزنا بطريقة ما المصافحة والتعارف، وكان الجميع في مواقعهم عدا جاسبر الذي رافقه بيني إلى خارج الغرفة بعد تقديمه إلى موانغازا ومستشاريه، وخمّنت أن ذلك لسلامة وعيه الاحترافي. وكان خطاب فيليب فكاهياً ومختصراً، وكانت وقفاته عن الكلام في الأماكن التي رغبتها.

بالنسبة للحضور، كنت قد اخترت قارورة تحتوي لتراً من مياه بيرير ووضعتها على بعد عشرين إنشاً أمامي، ويعتبر النظر إلى العينين في الدقائق الأولى من الجلسة قاتلاً لأي مترجم محترف. وإذا نظرت في عين أحد، ستشتعل شرارة

الـــتواطؤ، والشيء التالي الذي ستعرفه هو أنك ستصبح تحت تأثير ذلك الشخص كـــل تلك الفترة. ولهذا، كان أقصى ما أسمح به لنفسي هو بضع لمحات خفية من نظرتي، وفي ذلك السياق بقي موانغازا صورة ضبابية تشبه الطير جاثمةً بين مرافقيه الاثـــنين: إلى أحد جانبيه تابيزي المرعب الذي تملأ وجهه البثور، ويرتدي ملابس أنيقة من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه في ظلال قلم الفحم الذي يستخدمه مصمم الأزيـــاء؛ وإلى الجانب الآخر مساعده اللامع المجهول ومستشاره السياسي، والذي أسميـــته ســـراً الدلفين نظراً لجسده الخالي من الشعر والابتسامة التي لا تفارقه أبداً وتـــبدو، مـــثل ضفيرة رفيعة كرباط الحذاء تنبع من مؤخرة عنقه الحليق، وتعمل باستقلالية عن مالكها. وكان ماكسي يضع ربطة عنق خاصة بالبدلات العسكرية. وكانت أوامري أن لا أترجم له أي شيء إلى الإنكليزية ما لم يطلب ذلك.

وكلمـــة هنا تخصّ نفسية المترجم المتعدد اللغات. من الواضح أن الأشخاص الـــذين يـــتعلمون لغـــة أوروبية أخرى، يكتسبون شخصية أخرى معها. والرجل الإنكليـــزي الذي يتعلم الألمانية يتحدث بصوت أعلى. ويتغير شكل فمه، وتتسع حـــباله الصوتية، ويتخلى عن السخرية الذاتية مقابل الهيمنة. والمرأة الإنكليزية التي تتعلم الفرنسية ستخفف من صلابتها وستنتفخ شفتاها، فيما سيتجه نظيرها الرجل نحـــو الفخامة. وأتوقع أنني فعلت الشيء نفسه. لكن لغاتك الأفريقية لا تمنح هذه الامتيازات المختلفة. إنها عملية ومتينة، حتى عندما تكون اللغة الثانية هي الفرنسية الاستعمارية. إنها لغات ريفية مخصصة للكلام المباشر والصراخ العالي أثناء الجدال، والـــذي يقـــوم به الشعب الكونغولي كثيراً. ويمكن التعبير عن الدلالات المختلفة والمـــراوغة بحركات الشفاه أكثر من تغيير المواضيع أو – إذا أردت اللعب بأمان – قول الأمثال. وينتابني القلق أحياناً، فيما أقفز من لغة إلى أخرى، من دفع صوتي إلى مؤخرة حنجرتي للحصول على الهواء اللازم والنبرة المطلوبيْن. أو سينتابني شعور، مثلاً عندما أتحدث بالكينية – الرواندية، أنني أقذف بحجر ملتهب بين أسناني. ولكن الحقيقة الكبرى أنني قمت، منذ اللحظة التي جلست فيها على مقعدي، بالترجمة.

أنهى فيليب خطابه الترحيبـــي، وبعد لحظات، انتهيت أنا أيضاً. جلس فيليب وكافـــأ نفـــسه برشفة من الماء من كأسه. وأخذت رشفة من كأسي، ليس لأنني

ظمآن، لكن لأنني مرتبط به. اختلست نظرة أخرى إلى فرانكو الضخم مثل الجبل وجاره ديدون الهزيل. تظهر على فرانكو ندبة جرح واحد تمتد من أعلى الجبهة إلى نهاية الأنف. هل تحمل ذراعاه ورجلاه علامات مشابهة كجزء من الطقوس البدائية التي تحميه من الرصاصات المتطايرة؟ وجبين ديدون عالٍ وناعم مثل جبهة فتاة، وتبدو نظرته الحالمة ثابتة على التلال التي تركها خلفه. ويظهر الحاج المتأنق، الذي يجلس إلى الجانب الآخر من فرانكو، غير مهتم بأيٍّ منهما.

* * *

"صباح الخير يا أصدقائي! هل عيونكم مصوّبة تجاهي؟"

إنه صغير جداً يا سالفو. لماذا يمتلك الكثير من الرجال ذوي الأجساد النحيلة شجاعة أكبر من الرجال ذوي الأجسام الضخمة؟ صغير مثل كروموبل رئيس رجالنا، الذي كان معروفاً عنه أن نشاطه بالإنش المربع يبلغ ضعف كل من حوله. سترة قطنية خفيفة، يمكن غسلها، وهالةٌ من الشعر الأشيب المتساوي الطول من كل الاتجاهات: ألبرت أينشتاين أسود دون الشاربين. وعند الحنجرة حيث ينبغي أن توجد ربطة العنق، القطعة النقدية الذهبية التي أخبرتني عنها حنا، كبيرة مثل قطعة الخمسين بنس: إنها ياقة العبد يا سالفو. إنها تخبرنا أنه ليس للبيع. تمّ شراؤه سلفاً، ويا له من حظ سيئ. إنه يخصّ شعب كيفو كلها، وهذه هي القطعة النقدية التي اشترته. إنه عبدٌ *للطريق الوسط*!

نعم، كل عيوننا مصوّبة تجاهك يا موانغازا. وعيناي أيضاً. لم أعد بحاجة للاختباء خلف قارورة بيرير عندما أنتظره ليبدأ بالكلام. وبدأ مندوبونا الثلاثة، الذين عاملوا مضيفهم بمجاملة أفريقية بعدم التحديق به، بالنظر إليه بكل احترام. من هو؟ ما هي الأرواح التي تقوده، وما هو السحر الذي يمارسه؟ هل سيوبخنا؟ هل سيخيفنا، يعفو عنا، يجعلنا نضحك، أغنياء، نرقص ونعانق ونخبر بعضنا بكل ما نشعر به؟ أم أنه سيزدرينا ويجعلنا غير سعداء ونشعر بالذنب والتقصير، وهو ما نخافه نحن الكونغوليون وأشباه الكونغوليين طوال الوقت؟ الكونغو مخزون أفريقيا الساحر من جرائم الاغتصاب، والسلب، والنهب، والإفلاس، والفساد، وجرائم

القـــتل، والخداع، والغش والمعروفة لدى كل بلد في القارة لعدم أهليتها وفسادها وسريان الفوضى فيها.

كنا بانتظار إيقاع الكلام منه، أو الإثارة، لكنه أبقانا ننتظر: ننتظر حتى جفّت أفواهـــنا وييست أقدامنا – أو كان ذلك على الأقل ما ينتظره الطفل السري – مع الأخذ بعين الاعتبار حقيقة أن *مخلّصنا* شديد الشبه بخطيب منبر الوعظ في إرساليتنا بـــير أندريـــه. ومثل أندريه، لا بد أنه حدّق بالمقابل بكل فرد احتشد أمامه، أولاً بفرانكو، ثم بديدون، وبعدها بالحاج وأخيراً بي، ونظرة طويلة واحدة على كل منا، مع الفرق الذي شعرت به ليس من عينيه وحسب ولكن من يديه أيضاً كما لو أنه في ذاكرتي النشيطة جداً فقط.

"حـــسناً أيهـــا السادة! بما أن عيونكم مركزة عليَّ الآن، هل تعتقدون أنكم ارتكبتم غلطة كبيرة جداً بمجيئكم إلى هنا اليوم؟ ربما قام طيار السيد فيليب البارع بإنـــزالكم على جزيرة مختلفة".

كان صوته ضخماً جداً بالنسبة له، ولكن نظراً لخبرتي العملية ترجمت كلامه إلى الفرنسية بهدوء، وبكل حيادية تقريباً.

صـــرخ عبر الطاولة على فرانكو العجوز مما جعله يصرّ أسنانه غضباً: "ما الذي تبحثون عنه هنا، إنني أسأل نفسي؟ أنتم لا تبحثون عني، بالتأكيد؟ لست صديقاً لكم علـــى الإطـــلاق! أنـــا موانغازا، رسول التعايش المشترك والرخاء لكل كيفو. وأفكّر باســـتخدام رأسي، وليس بسلاحي، أو عضوي الحساس. ولا أعبث مع أمراء حرب مـــاي ماي الذين يقطعون الرقاب مثلكم، لا!" ونقل سخريته إلى ديدون. "ولا أعبث مـــع المواطنين من الدرجة الثانية مثل البانياموليـنج هنا أيضاً، لا!" – وحرّك فكّه بتحدٍّ نحو الحاج – "ولا أختلط بالشباب الأثرياء الأنيقين من بوكافو، شكراً جزيلاً لك" – ابتسامة العارف بالأمور إلى ابن لوك رفيقه القديم في السلاح والصديق من عرق الشي – "لـــيس حـــتى إذا قدّمـــوا لي شراب الشعير مجاناً وعملاً في منجم للذهب يديره الـــرواندیون. لا! أنـــا موانغازا، قلب الكونغو الطيب، والخادم المتواضع لكيفو قوية مـــوحدة. وإذا كان ذلك هو الرجل الذي أتيتم لرؤيته حقاً – حسناً، ربما فقط، لكن دعوني أفكّر بالأمر – ربما هبطتم على الجزيرة الصحيحة في النهاية".

هـــبط الـــصوت المتـــضخم إلى أعماق سحيقة. وتبعه صوتي بصعوبة باللغة بالفرنسية.

ســـأل: "هـــل يعقل أن تكون توتسي بالصدفة يا سيدي؟" وحدّق في عينيّ ديدون المحتقنتين. ووجّه بالمقابل نفس السؤال لكل مندوب، ثم لهم جميعاً في الوقت نفسه. هل هم توتسيون؟ هوتويون؟ بيمبـــيون؟ ريغايون؟ فوليرويون؟ نانديون؟ أو شييون، كما كان هو؟

"إذا كنـــتم كـــذلك، هل تستطيعون من فضلكم مغادرة الغرفة الآن. حالاً. مباشـــرة. دون ضغائن". أشار بتكلّف إلى النوافذ الفرنسية المفتوحة. "اذهبوا. أتمنى لكـــم يـــوماً طيباً أيها السادة! شكراً لزيارتكم. وأرسلوا لي فاتورة، من فضلكم، لتغطية نفقاتكم".

لم يتحرك أحد سوى الحاج النشيط، الذي جال ببصره، وحدّق بشكل هزلي بزملائه المتناقضين.

"ما الذي يمنعكم يا أصدقائي؟ لا تكونوا خجولين، الآن! طائرتكم الجميلة ما تزال رابضة هناك. ومزوّدة بمحركين يمكن التعويل عليهما. إنها تنتظر لتعيدكم إلى الدانمارك مجاناً. ومن هناك، تستطيعون الذهاب إلى منازلكم، ولن يتفوه أحد بكلمة واحدة".

فجـــأة كـــان هـــناك ابتسامة متألقة، من فئة الخمس نجوم، وأفريقية بامتياز شـــطرت وجهـــه الـــذي يـــشبه أينشتاين إلى نصفين، كان مندوبونا يبتسمون ويـــضحكون معـــه بـــراحة، والحاج أعلاهم صوتاً. كان بير أندريه يعرف كيف يستخدم تلك الخدعة أيضاً: يخمد الحريق عندما لا يتوقع الحشد ذلك، ويجعلك ممتناً له، وتريد أن تصبح صديقه. وحتى ماكسي كان يبتسم. وكذلك فيليب، والدلفين وتابيزي.

"لكـــن مـــن ناحـــية أخرى، إذا كنتم من كيفو، من الشمال أو الجنوب أو الوســـط" – وصلنا الصوت المتضخم بترحاب كريم – "وإذا كنتم من أهل كيفو الذين يخافون الله، ويحبون الكونغو ويرغبون بأن يصبحوا أبطالاً كونغوليين في ظلّ حكـــومة محتـــرمة وفعّالـــة في كينـــشاسا، إذا أردتم إخراج السفّاحين والمستغلين

الرواندیین عبر الحدود بشكل نهائي، ابقوا من فضلكم تماماً حيث تكونون. ابقوا، رجـــاءً، وتكلّموا معي، وليس إلى أي شخص آخر، ودعونا، أيها الإخوة الأعزاء، نحـــدّد هدفنا المشترك، ونقرّر معاً أفضل السبل لتحقيقه. دعونا نطأ *الطريق الوسط* لتحقيق الوحدة والمصالحة والتسوية كما يرغب الله".

توقف، ليفكّر ملياً في كلماته، وتذكّر شيئاً ما، ثم بدأ مجدداً.

"آه، لكـــن ذلك الموانغازا انفصالي خطير، كما أخبروكم. ولديه طموحات شخصية مجنونة، ويرغب بتقسيم عزيزتنا الكونغو، وإطعامها أجزاءً لأبناء آوى عبر الحدود! يا أصدقائي، أنا أكثر ولاءً لعاصمتنا كينشاسا من ولائها لنفسها!" كانت تلك ملاحظة جديرة بالاهتمام، ولكن كان علينا الانتظار أطول ورؤية ما سيقوله. "أنـــا أكثر إخلاصاً من جنود كينشاسا الذين لا يتلقّون رواتبهم، والذين يسلبون بلداتـــنا وقرانا ويغتصبون نساءنا! أنا مخلص لدرجة أنني أريد القيام بعمل كينشاسا أفـــضل مما تفعله هي! أريد جلب السلام، وليس الحرب. وأريد جلب المن وليس الجـــوع! أريد بناء المدارس والطرق والمستشفيات، وإيجاد إدارة ملائمة عوضاً عن الفـــساد الهـــدّام! أريـــد الـــوفاء بكل وعود كينشاسا. وأريد حتى الحفاظ على كينشاسا!"

* * *

إنه يمنحنا الأمل يا سالفو.

إنها تقبّل جفوني، وتمنحني الأمل. وأضع يديّ حول رأسها الرائع.

ألا تستطيع أن تفهم ما يعنيه الأمل لشعب الكونغو الشرقية؟

أحبك.

تلـــك الأرواح الكونغولية المسكينة متعبة من الألم للغاية بحيث لم تعد تؤمن بالشفاء. وإذا استطاع موانغازا تزويدهم بالأمل، سيدعمه الجميع. وإذا لم يستطع، ستستمر الحروب طويلاً، وسيكون أحد القادة السيئين في طريقهم إلى الجحيم.

اقترحت بورع: "إذاً، دعونا نأمل بأن يستطيع نقل رسالته إلى جمهور الناخبين".

الروانديين عبر الحدود بشكل نهائي، ابقوا من فضلكم تماماً حيث تكونون. ابقوا، رجاءً، وتكلّموا معي، وليس إلى أي شخص آخر، ودعونا، أيها الإخوة الأعزاء، نحدّد هدفنا المشترك، ونقرّر معاً أفضل السبل لتحقيقه. دعونا نطأ *الطريق الوسط* لتحقيق الوحدة والمصالحة والتسوية كما يرغب الله".

توقف، ليفكّر ملياً في كلماته، وتذكّر شيئاً ما، ثم بدأ مجدداً.

"آه، لكن ذلك الموانغازا انفصالي خطير، كما أخبروكم. ولديه طموحات شخصية مجنونة، ويرغب بتقسيم عزيزتنا الكونغو، وإطعامها أجزاءً لأبناء آوى عبر الحدود! يا أصدقائي، أنا أكثر ولاءً لعاصمتنا كينشاسا من ولائها لنفسها!" كانت تلك ملاحظة جديرة بالاهتمام، ولكن كان علينا الانتظار أطول ورؤية ما سيقوله. "أنا أكثر إخلاصاً من جنود كينشاسا الذين لا يتلقّون رواتبهم، والذين يسلبون بلداتنا وقرانا ويغتصبون نساءنا! أنا مخلص لدرجة أنني أريد القيام بعمل كينشاسا أفضل مما تفعله هي! أريد جلب السلام، وليس الحرب. وأريد جلب المن وليس الجوع! أريد بناء المدارس والطرق والمستشفيات، وإيجاد إدارة ملائمة عوضاً عن الفساد الهدّام! أريد الوفاء بكل وعود كينشاسا. وأريد حتى الحفاظ على كينشاسا!"

* * *

إنه يمنحنا الأمل يا سالفو.

إنها تقبّل جفوني، وتمنحني الأمل. وأضع يديّ حول رأسها الرائع.

ألا تستطيع أن تفهم ما يعنيه الأمل لشعب الكونغو الشرقية؟

أحبك.

تلك الأرواح الكونغولية المسكينة متعبة من الألم للغاية بحيث لم تعد تؤمن بالشفاء. وإذا استطاع موانغازا تزويدهم بالأمل، سيدعمه الجميع. وإذا لم يستطع، ستستمر الحروب طويلاً، وسيكون أحد القادة السيئين في طريقهم إلى الجحيم.

اقترحت بورع: "إذاً، دعونا نأمل بأن يستطيع نقل رسالته إلى جمهور الناخبين".

الدلالـــة صـــحيحة؟ وبالنـــسبة للحاج، إنها مجرد قطعة تجارية. ما هي المواد التي اســـتخدموها؟ هل تعمل؟ ونستطيع بيعها بأسعار أرخص. ولا يمكن قراءة ردّ فعل ديدون بنفس السهولة. هل ستجلب السلام والمساواة إلى شعبـــي؟ هل سيستفيد قادتنا من قواها؟ وإذا قمنا بحرب لأجلها، هل ستحمينا من فرانكو وعصبته؟

حَـــرَفَ ماكسي وضعية كرسيه نحو الطاولة بحيث يستطيع مدّ قدميه. ومال، وعيـــناه مغلقتان، للخلف مثل رياضي ينتظر دوره، ويداه مشبوكتان خلف عنقه. ووضع منقذي فيليب ذو الشعر الأجعد الأبيض ابتسامة مدير فرقة فنية على وجهه، وأضـــحى يشبه ممثلاً إنكليزياً خالداً، كما قرّرت. يستطيع أن يكون بأي عمر من الخامـــسة والثلاثين حتى الستين، ولن يعرف الجمهور ذلك أبداً. وحتى إذا استمع تابيـــزي والـــدلفين إلى ترجمتي، فهما لم يُظهرا أي إشارة على ذلك. وهما يعرفان خطب موانغازا كما أعرف خطب أندريه. على العكس، حصلت على جمهور غير متوقع في الوفود الثلاثة. ولأن محاضرات موانغازا الرنانة بالسواحيلية، فقد اعتمدوا علـــى ترجمتي الفرنسية الأقل انفعالاً في الاستماع الثاني. واستمع الحاج الأكاديمي بـــشكل يـــنحو للنقد، وديدون بالاستغراق في التفكير بكل كلمة ثمينة. واستمع فرانكو مع تشديد قبضتيه، مستعداً لضرب أول رجل يخالفه.

* * *

توقـــف مـــوانغازا عـــن لعب دور القائد السياسي، وتظاهر بدور المحاضر في الاقتـــصاد. غيّـــرت وجهة مهاراتي في الترجمة وفقاً لذلك. أخبرنا بجفاء أن كيفو تتمّ سرقتها. ويعرف ما تستحقه كيفو، وما لا يتمّ دفعه. ولديه الأرقام في متناول أصابعه المحترفة، وانتظر حتى أسجّلها على دفتر ملاحظاتي. وابتسمت بحذر تعبيراً عن امتناني، ولاحـــظ ابتسامي، وذكر بسرعة أسماء شركات التعدين التي يدعمها الرواندي‌ون والتي تنهب مصادرنا الطبيعية، ونظراً لكون معظمها تحمل أسماء فرنسية، لم أترجمها.

تـــساءل بغـــضب، وقد ارتفع صوته مجدداً: "لماذا ندعهم يفعلون ذلك؟ لماذا نقـــف على الحياد ونشاهد أعداءنا يزدادون ثراءً على حساب ثروتنا المعدنية، فيما كل ما ينبغي علينا القيام به هو إلقاؤهم خارجاً؟"

كانت لديه خريطة لكيفو. وثبّتها الدلفين بمسامير إلى اللوح الأبيض ووقف موانغازا بجانبها، يشير عليها بعصاه السحرية: يدق ويضرب فيما ينتقل عبرها، وانتقلت خلفه من مكاني في طرف الطاولة، ولكن بهدوء، ولطّفت من وقع كلماته، وخفّفت منها قليلاً، مما دفعه بالمقابل للاعتقاد بأنني إذا لم أكن عضواً فعالاً في المقاومة، فلا بد على الأقل أنني شخص ينبغي الفوز بتأييده.

توقف عن الكلام، وكذلك فعلت. حدّق مباشرة نحوي. كانت لديه موهبة الطبيب المشعوذ، عندما يحدّق، في تقطيب عضلات عينه لجعل نفسه شخصاً حالماً ومقنعاً. لم يعد ينظر إلى عينيّ، وإنما إلى جلدي. إنه يدرس وجهي، ثم في حال كان هناك أي تغيير، يديّ: لون متوسط إلى فاتح.

"أيها السيد المترجم!"

"موانغازا".

"تعال إلى هنا يا بني!"

لتلقّي الضرب بالعصا؟ للاعتراف بمواطن ضعفي للحضور؟ وراقبني الجميع، وسرت بجانب الطاولة حتى وقفت أمامه، فقط لأكتشف أنني الأطول من الكتفين وأعلى.

"إذاً، من أنت يا بني؟" – وأشار مداعباً بإصبعه أولاً على ماكسي وفيليب، ثم على المندوبين السود الثلاثة – "هل أنت واحد *منا*، أم واحداً *منهم*؟"

تحت مثل هذا الضغط، ارتقيت إلى مستواه البلاغي الفصيح. وصرخت بالسواحيلية: "موانغازا، أنا واحدٌ من كليكما!"

انفجر ضاحكاً وترجم لي كلماتي إلى الفرنسية. واندلع التصفيق من كلا طرفي الطاولة، لكن صوت موانغازا المدوّي تخطّاه دون جهد.

"أيها السادة. إن هذا الشاب الرائع رمز *للطريق الوسط*! دعونا نتقيد بمثل عمله لصالح الجميع! لا، لا، لا. ابقَ هنا يا بني، ابقَ للحظة أطول، من فضلك".

كان يعني أن ذلك شرف، حتى إذا لم يكن يشعر بذلك. ودعاني بالشاب الرائع، وأوقفني بجانبه عندما جال على الخريطة بعصاه السحرية ومجّد ثروة الكونغو

من المعادن النفيسة، ومن جانبي شبكت يديّ خلف ظهري، وترجمت أقوال الأستاذ دون الاستفادة من دفتر الملاحظات، وهكذا قدّمت للمؤتمر بشكل عارض مثالاً عن قوى ذاكرتي.

"هنا في موينغا، يوجد ذهب يا أصدقائي! وهنا في كاميتوغا: ذهب، ويورانيوم، وفلز القصدير وكلتان و - لا تخبروا أحداً - الماس أيضاً. وهنا في كبامبر، ذهب وكلتان". كان تكراره للكلمات متعمداً. "هنا ذهب وفلز القصدير، وهنا" - وارتفعت العصا، وانحرفت بتردد في اتجاه بحيرة ألبرت - "*نفط* يا أصدقائي، بكميات غير محددة، وربما كميات وفيرة من *النفط* الرخيص. وهل تعرفون أيضاً؟ لدينا أعجوبة صغيرة غير معروفة أبداً، رغم أن الجميع يريدها. ومن النادر جداً أن يكون الماس مثل الحصى في الشارع على سبيل المقارنة. إنها تدعى كاميتوغيت يا أصدقائي، وهي 56.71 بالمئة يورانيوم! حسناً، لماذا يريد أي شخص على وجه الأرض الحصول على *ذلك*، أتساءل؟"

وانتظر الضحكة المتوقعة لتظهر وتختفي.

"لكن من سيستفيد من كل هذه الثروات، أخبروني؟"

توقف مجدداً، وابتسم فيما كنت أطرح السؤال نفسه، ولهذا ابتسمت أيضاً في دوري المُحدَث الجديد كمفضّلٍ لدى الأستاذ.

"ستحصل القطط السمان في كينشاسا على حصتها، بالتأكيد! ولن يتخلّوا عن ثلاثين قطعة من الفضة الرواندية، لا! لكنهم لن ينفقوها على المدارس والطرق والمستشفيات في الكونغو الشرقية، لا! ربما سينفقونها في المحال الفخمة في جوهانسبورغ ونيروبي وكيب تاون. لكن ليس هنا في كيفو. آه، لا!"

توقف مجدداً. ابتسم هذه المرة ليس لي، لكن لمندوبينا. ثم طرح سؤالاً آخر.

"هل يصبح شعب كيفو أكثر ثراءً في كل مرة تعبر بها حمولة شاحنة أخرى من الكلتان الحدود؟"

تحرّكت العصا السحرية بعناد شرقاً عبر بحيرة كيفو.

"عندما يبدأ النفط بالتدفق نحو أوغندا، هل سيكون حال شعب كيفو أفضل؟ يا أصدقائي، عندما يجف النفط سيجدون أنفسهم أكثر فقراً. وبعد، هناك *مناجمنا*،

يا أصدقائي، *نفطنا*، *ثروتنا*، التي منحنا إياها الله لنحاول إنفاقها والاستمتاع بحياتنا! هـــذه ليست الينابيع التي ستمتلئ من جديد بمياه الأمطار. وما يأخذه اللصوص منا اليوم، لن ينمو مجدداً غداً، أو بعد غد".

هزّ رأسه، وتمتم *"آه لا"* عدّة مرات، كما لو أنه يتذكر ظلماً جائراً.

"وأتـــساءل مـــن يبيع هذه البضائع المسروقة لتحقيق تلك الأرباح الفاحشة، والتي لا يعود سنت واحد منها إلى المالكين الحقيقيين؟ الجواب يا أصدقائي معروف لكـــم جميعاً! آكلو السُحت الرواندیون! انتهازيو أوغندا وبوروندي! إنها حكومتنا الفاســـدة مـــن المـــسؤولين الثرثارين في كينشاسا الذين يبيعون حقوقنا المكتسبة للأجانب، ثم يفرضون علينا الضرائب لزيادة مشكلاتنا! شكراً لك يا بني. أحسنت يا سيدي. تستطيع الجلوس الآن".

جلست وفكّرت ملياً بالكلتان، ليس بشكل فعلي لأنني كنت أترجم ما يقوله مونغازا دون توقف، ولكن بالطريقة التي يظهر بها الشريط الأخباري أسفل شاشة التلفاز فيما تستمر الأحداث الحقيقية فوقه. ما هو الكلتان؟ إنه معدن نفيس جداً لا يـــوجد ســـوى في شرق الكونغو حسبما قال زبائني الذين يتعاملون بالسلع. وإذا كنت مستهتراً بما فيه الكفاية لتفكيك هاتفك الخليوي، ستجد قطعة صغيرة أساسية بـــين الأنقاض. وطوال عقود، كانت الولايات المتحدة تحتفظ بمخزونات احتياطية اســـتراتيجية مـــن تلك المادة، وهي حقيقة عرفها زبائني ودفعوا ثمنها عندما عرض البنتاغون أطناناً منها في الأسواق العالمية.

لمـــاذا يحتل الكلتان مكان الشرف في رأسي أيضاً؟ أعود إلى عيد الميلاد في سنة 2000. ولم يكن **بلي ستيشن 2** جهاز الألعاب الإلكتروني الذي لا بد منه لكـــل طفـــل بريطاني غني متوافراً. وكان الأبوان من الطبقة الوسطى يضغطان الـــنفقات، وكتـــبت بينلوب على صدر الصفحة الأولى من صحيفتها الرائعة: "ســـنعلن أسماء ونلصق العار بالجشعين الذين سرقوا عيد ميلادنا!" لكن غضبها ضلّ الهدف. ولم يكن نقص الأجهزة بسبب عدم كفاءة المصنّعين، ولكن بسبب مـــوجة عارمـــة من الإبادة الجماعية التي غمرت الكونغو الشرقية، مما أدّى إلى انقطاع مؤقت في توفير الكلتان.

هـــل كـــنت تعرف أن موانغازا أستاذ التاريخ الكونغولي يا سالفو؟ ويعرف تفاصـــيل كل الكوارث عن ظهر قلب. ويعرف من قتل من، وكم العدد، وفي أي تاريخ، وليس خائفاً من الحقيقة التي لا يجرؤ الكثيرون من الجبناء على البوح بها.

أنـــا أحد الجبناء، ولكن على هذه الطاولة الخضراء المكشوفة التي أجلس إليها لـــيس هناك مكان للاختباء، وأينما كان موانغازا يجرؤ على الذهاب، ينبغي عليَّ الـــذهاب أيـــضاً، منتبهاً لكل كلمة أترجمها. وكان يتكلم قبل دقيقتين عن أرقام الإنتاج. ويتكلم الآن عن الإبادة الجماعية، ويعرف مرة أخرى الأرقام الدقيقة: كم عـــدد القرى التي تمّ تدميرها، كم عدد السكان الذين تمّ صلبهم أو تعذيبهم حتى المـــوت، والسحرة الذين ماتوا حرقاً لمجرد الشبهة، وعمليات الاغتصاب التي قامت بهـــا العصابات، والمذابح المتبادلة في الكونغو الشرقية التي لا نهاية لها والمدعومة من الخـــارج، فيما دخل المجتمع الدولي في حالة خصام، وكنت أقوم بإغلاق التلفاز إذا لم تكن بينلوب قد أغلقته سلفاً. ويستمر الموت حتى عندما يتكلم موانغازا، وأقوم أنـــا بالترجمة. وفي كل شهر يمر، يموت ثمانية وثلاثون ألف كونغولي آخر من آثار تلك الحروب المنسية:

"ألف ومئتا حالة وفاة يومياً، يا أصدقائي، بما فيها أيام السبت والأحد! وهذا يعني اليوم وغداً، وكل يوم في الأسبوع المقبل".

ألقيت نظرة خاطفة على وجوه وفودي. وكانوا مثيرين للشفقة. وربما كانوا لمرة واحدة يبدون مثل الطيار الآلي. ومن كان يستطيع معرفة ما يفكرون به، هذا إذا كانـــوا يفكرون أصلاً؟ إنهم ثلاثة أفارقة آخرون يجلسون إلى جانب الطريق في حـــرارة الظهـــيرة اللاهبة، ولم يكن أحد على وجه الأرض قادراً على سبر ما في رؤوســـهم بما في ذلك ربما هم أنفسهم أيضاً. لكن لماذا يخبرنا موانغازا كل هذا مع أن الوقت ضيق للغاية؟ هل كان ذلك لتحطيمنا؟ لا. لتشجيعنا.

"لهـــذا *نحن مخولون* يا أصدقائي! *نحن مخولون مرتين أو ثلاث*! لم تعانِ أي أمة أخـــرى على وجه الأرض من مثل تلك الكوارث كما عانت حبيبتنا كيفو. وليس هناك أمة أخرى في مثل ذلك الوضع البائس بحاجة إلى الانبعاث من جديد! وليس هناك أمة أخرى تمتلك حقاً أكبر في إحكام السيطرة على ثروتها ووضعها أمام أقدام

مواطنـــيها المفجوعين: "هذا ليس لهم بعد الآن. هذا، يا شعبـــي المسكين - *نحن بؤساء كيفو! - لنا* !"

كــــان صوته المدوّي الآمر قادراً على ملأ فراغ قاعة ألبرت، ولكنّ السؤال في أفئدتـــنا واضح بما فيه الكفاية: إذا وقعت ثروة كيفو في الأيادي الخاطئة، ومكّننا ظلـــم الـــتاريخ من استعادهّا، وأصاب الوهن كينشاسا، وتمّ تصدير كل شيء من كيفو شرقاً بأي حال، ما الذي ينبغي فعله حيال ذلك؟

"ألقوا نظرة متفحّصة يا أصدقائي، على ساسة وحماة أمتنا العظام، ماذا ترون؟ سياســـات جديدة؟ آه، نعم؛ سياسات جديدة *جداً*، أنتم على حق. وسأقول عنها إنها بدائية تماماً. وظهرت معها أحزاب سياسية جديدة، أيضاً. مع أسماء لامعة جداً. وهناك الكثير من الديمقراطية الجديدة في عاصمة العهر كينشاسا بحيث بتُّ أخشى الـــسير في جـــادة 30 حزيران بحذائي القديم هذه الأيام! وتظهر الكثير من البرامج الـــسياسية الجديـــدة، ويتمّ بناؤها من نفس المواد الثمينة أيضاً، وعلى حسابكم وهناك الكثير من بيانات العشرين صفحة والمطبوعة بشكل جميل والتي ستجلب لنا الـــسلام، والمال، والدواء والثقافة العالمية في منتصف ليل الأسبوع القادم على أبعد تقدير. والكثير من قوانين مكافحة الفساد، والتي لا تستطيع سوى أن تسأل نفسك عن الشخص المرتشي الذي وضع مسودهّا".

تعالت الضحكات من الدلفين الهزيل وتابيزي الفظ، وتبعهما كل من فيليب وماكسي. وانتظر المتنور بجفاء حتى تلاشت. أين يقودنا؟ هل يعرف؟ لم يكن هناك جدول أعمال أبداً مع بير أندريه. ومع موانغازا، ورغم أنني كنت بطيئاً جداً لمعرفة ذلك، إلا أن هناك جدول أعمال دائماً.

"لكـــن ألقـــوا نظـــرة معمّقة، من فضلكم، على هذه الأصناف الجديدة من ساســـتنا يا أصدقائي. ارفعوا طرف قبعاهّم من فضلكم. ودعوا الشمس الأفريقية القوية تدخل إلى سياراهّم المرسيدس التي يبلغ ثمنها مئة ألف دولار، وأخبروني ماذا تشاهدون. وجوه جديدة مليئة بالتفاؤل؟ شبان أذكياء خريجو جامعات مستعدون لتقديم مهاراهّم في خدمة جمهوريتنا؟ آه، لا يا أصدقائي، لن تجدوا ذلك. ستجدون نفس الوجوه القديمة جداً لنفس المحتالين القدماء جداً!

ثم طلب أن يعرف ما الذي سبق وحققته كينشاسا لصالح كيفو؟ والجواب لا شـــيء. أين السلام، والازدهار والتناغم الذي بشّروا به؟ أين حبهم الشديد للبلد، والجـــيران والمجـــتمع؟ لقد سافر في كل أنحاء كيفو، شمالاً وجنوباً، وفشل في إيجاد أصـــغر دليل على ذلك. لقد استمع إلى حكايات الشعب عن الويلات: نعم، نريد *الطـــريق الوســـط* يا موانغازا! نغني لها! ونرقص لها! لكن كيف، يا للهول كيف سنحصل عليها؟ كيف بالفعل؟ وقلّد صرختهم التي يُرثى لها. وأقلّد موانغازا: "من ســـيدافع عـــنا عندما يرسل أعداؤنا قواهم ضدنا يا موانغازا؟ أنت رجل سلام يا مـــوانغازا! و لم تعـــد محارباً عظيماً كما كنت من قبل. من سينظّمنا ويقاتل معنا ويعلّمنا كيف نكون أقوياء معاً؟"

هـــل أنا بحق آخر شخص في الغرفة يدرك أن الجواب لدعوات بينلوب كان يتـــسكع على رأس الطاولة مع حذائه الجلدي العالق أمامه؟ من الواضح أنني كنت كـــذلك، لأن كلمـــات مـــوانغازا التالية اهتزّت في مخيلتي مثل حلم يقظة سريع، واستدار الحاج صوبي وحدّق بي بعينيه الهزليتين المتقدتين.

صـــرخ مـــوانغازا علينـــا بسخط: "ألا يوجد اسم يا أصدقائي؟ هذه النقابة الغـــريبة التي جاءت بنا إلى هنا اليوم لا تحمل اسماً؟ آه، هذا سيئ جداً! ماذا كان باستطاعتهم تسميتها؟ هذا الأمر كله مشكوك فيه وغامض! وربما ينبغي علينا وضع نظاراتـــنا، ومـــساعدتهم في البحث عن اسم! ما هو السبب الذي يدفع بأشخاص محتـــرمين لإخفاء أسمائهم؟ ما الذي لديهم ليخفوه؟ لماذا لا يكونون صريحين بشأنها ويقولون من هم وما يريدون؟"

تكـــون الـــبداية صغيرة يا بير أندريه. البداية صغيرة وبطيئة. ويكون أمامك طريق طويل تقطعه. لكنّ موانغازا شخص خبير.

اســـتودعنا سراً، بنبرة حزينة تجعلك ترغب بمساعدته لتجاوز السياج: "حسناً الآن، يا أصدقائي الأعزّاء. لقد تحدّثت مع هؤلاء السادة الذين لا يحملون أسماءً لمدة طويلة، وأريد إخباركم". وأشار إلى فيليب دون أن يلتفت لينظر إليه. "نعم، خضنا العديد من المحادثات الصعبة معاً. وسأقول منذ غروب الشمس إلى شروقها مجدداً. محادثـــات صـــعبة بالفعل، وينبغي أن تكون كذلك. أخبرنا بما تريده يا موانغازا،

هكـــذا قـــال الذين لا يحملون أسماء لي. أخبرنا به دون زخارف أو مراوغة، من فضلك. ثم سنقول لك ما نريد منك. من هذا المنطلق، ينبغي أن نعرف فيما إذا كنا نـــستطيع العمـــل معـــاً، أم ينبغي علينا أن نصافح بعضنا ونقول آسفين والوداع، ستكون نهاية محادثات تجارية عادية. ولهذا كان جوابي من نفس عملتهم" - ووضع يـــده دون اهتمام على ياقة عبوديته الذهبية، وهكذا ذكّرنا بأنه ليس للبيع - "أيها الـــسادة، مـــا أريـــده معروف تماماً. السلام، والازدهار الذي يشمل كل كيفو. انتخابات حرّة، لكن فقط عندما يسود الاستقرار. لكن السلام، أيها السادة، كما هـــو معروف، لا يأتي من تلقاء نفسه، وكذلك الحرية. السلام له أعداء. لذا ينبغي تحقيق السلام بقوة السيف. حتى يكون السلام حقيقة واقعة، ينبغي أن ننسق قوانا، وأن نستحوذ مجدداً على مناجمنا ومدننا، وأن نطرد الغرباء وننصّب حكومة انتقالية لكـــل كـــيفو تقوم بوضع أسس دولة الرفاهية والديمقراطية الثابتة والحقيقة. ولكن كيف يمكننا فعل ذلك لأنفسنا، أيها السادة؟ نحن مقيدون بخلافاتنا، وجيراننا أقوى منا، وأكثر دهاءً".

كـــان يحدّق بفرانكو وديدون، ويرغب بأن يقتربا من بعضهما البعض فيما يستمر في عرض حديثه التجاري مع السادة الذين لا أسماء لهم.

"نحتاج إلى منظمتكم أيها السادة لنصرة قضيتنا. ونحتاج لمعدّاتكم وخبراتكم. ودون ذلـــك، سيكون السلام في حبيبتنا كيفو مجرد وهم". وهذا ما قلته لأولئك الـــذين لا يحملـــون أسماءً. وكانت تلك كلماتي. استمع الذين لا يحملون أسماء لي بحرص، كما تفترضون. وأخيراً تحدث أحدهم نيابة عن الجميع، وينبغي أن لا أقول لكم اسمه حتى اليوم، لكني أؤكّد لكم أنه ليس في هذه الغرفة رغم أنه أثبت حبه لأمتنا. وإلـــيكم ما قاله: "ما تقترحه جيد ومقبول يا موانغازا. ربما نكون رجال أعمال، لكننا لسنا دون مشاعر. المخاطر عالية، وكذلك الكلفة. وإذا دعمنا قضيتكم، كيف يمكننا الـــتأكّد من أنه في نهاية الأمر لن نعود بجيوب فارغة وأنف نازف؟" وأجبنا من طرفنا: "أولئك الذين سيشاركون في مشروعنا، سيشاركون في أرباحه".

انخفـــض صوته أكثر، ولكنه بقي قادراً على العطاء، وكذلك صوتي. كنت أستطيع الهمس بين يديّ، ويستطيعون سماعي.

"للشيطان، حسب علمنا، أسماء كثيرة يا أصدقائي، ويعرف الكونغوليون الآن معظمهـــا. ولكن هذه النقابة لا اسم لها. إنها لا تدعى الإمبراطورية البلجيكية، أو الإمـــبراطورية الإسبانية، أو الإمبراطورية البرتغالية، أو الإمبراطورية البريطانية، أو الإمبراطورية الفرنسية، أو الإمبراطورية الهولندية، أو الإمبراطورية الأميركية أو حتى الإمـــبراطورية الـــصينية. هذه النقابة تدعى *لا شيء*. إنها *لا شيء المتحدة*. وعدم وجـــود *اســـم* يعـــني عدم وجود علم. وسوف تساعد *لا اسم* على جعلنا أثرياء ومـــوحدين، ولكنها لن تملكنا أو تملك شعبنا. ومع *لا اسم*، ستملك كيفو للمرة الأولى نفسها. وعندما يبزغ فجر ذلك اليوم، ينبغي أن نذهب إلى القطط السمان في كينشاسا ونقول لهم: صباح الخير أيها المسؤولين. كيف حالكم اليوم؟ أعتقد أن لديكم عقابيل كالعادة!"

لا ضحكة أو ابتسامة. كان يستحوذ علينا.

"حـــسناً أيها المسؤولين، لدينا أنباء جيدة لكم. لقد حرّرت كيفو نفسها من الغزاة والمستغلين الغرباء. وثار المواطنون الصالحون في كيفو وغوما ضد الاضطهاد، واســـتقبلونا بالتـــرحاب. وقد هربت الجيوش المرتبطة برواندا ومعها أولئك الذين ارتكبوا الإبادات الجماعية. لقد استعادت كيفو مناجمها، وجعلت ملكيتها للشعب حـــيث تنتمـــي أصلاً. وأصبحت وسائل الإنتاج، والتوزيع والتموين في يد جهة واحـــدة هي الشعب. وأصبحنا لا نصدّر كل شيء إلى الشرق. لقد وجدنا قنوات تجاريـــة بديلة. ولكننا وطنيون أيضاً، ونؤمن بوحدة *جمهورية الكونغو الديمقراطية* ضمن الحدود القانونية لدستورنا. لهذا إليكم شروطنا أيها المسؤولين: واحد، اثنان، ثلاثـــة، ويمكـــنكم إما أخذها بعين الاعتبار أو تجاهلها! لأننا لم نأتِ *إليكم*، أيها المسؤولين. *أنتم* قادمون *إلينا*!

جلـــس وأغلق عينيه. كان بير أندريه يفعل الشيء نفسه. جعل ذلك صدى كلماتـــه يـــدوم لوقت أطول. انتهت ترجمتي، وسمحت لنفسي بمراقبة ردود أفعال الوفـــود. يمكـــن للخطب القوية أن تسبب امتعاضاً شديداً. كلما جرفت العاطفة الجمهـــور بعـــيداً، كلما كانت إعادتهم إلى جادة الصواب أصعب. توقف الحاج العـــصبـــي عن التململ، واكتفى بسلسلة من التكشيرات، ووضع ديدون النحيل

العظام رؤوس أصابعه على جبينه، وكان واضحاً أنه شارد الذهن. تشكّلت قطرات من العرق على طرف لحيته. كان فرانكو العجوز الذي يجلس بجانبه يشاهد شيئاً ما على حاسوبه المحمول، واعتقدت أنه صنم وثني.

كسر فيليب الصمت. "حسناً الآن، من سيكون له شرف الحديث أولاً؟" ونظرة سريعة ومليئة بالمعاني إلى ساعة مكتب البريد لأن الوقت ضيق.

كل العيون على فرانكو، أكبر الأعضاء سناً. تقطّب جبينه عبوساً وهو ينظر إلى يديه الكبيرتين. ورفع رأسه.

أكّد بسواحيلية بطيئة: "عندما انهار حكم موبوتو، وقف جنود ماي ماي في الخنادق يحملون الحراب، والسهام والرماح لحماية أرضنا المباركة". وحدّق حول الطاولة خشية أن يقوم أي شخص بتحدّي ما يقوله. ولم يفعل ذلك أحد. واستمر: "لقد شاهد ماي ماي ما جرى. وينبغي أن نرى الآن ما سيأتي. الله سيحمينا".

جاء ديدون تالياً في الترتيب الطبقي.

ثم أعلن: "حتى يبقى البانياموليـنج أحياء، ينبغي أن يكونوا اتحاديين". وتحدّث مباشرة إلى جاره فرانكو: "عندما تأخذون ماشيتنا، نموت. وعندما تقتلون أغنامنا، نموت. وعندما تسبون نساءنا، نموت. وعندما تغتصبون أرضنا، نموت. لماذا لا نستطيع حيازة الجبال التي نعيش، ونكدح، ونصلي عليها؟ لماذا لا نستطيع الحصول على زعمائنا الخاصين بنا؟ لماذا ينبغي أن يدير حياتنا زعماء قبائل بعيدة ينكرون علينا تميّزنا ويبقونا أسرى مشيئتهم؟ وتحوّل إلى موانغازا. "يؤمن البانياموليـنج بالسلام بمقدارك تماماً. لكننا لن نتبرأ من أرضنا أبداً".

بقيت عينا موانغازا مغلقتين، واستدار نحو دلفين ليدلو بدلوه.

قال بلطف: "موانغازا اتحادي أيضاً. ولا يصرّ على الدمج. وبموجب الدستور الذي يقترحه، سيتم الاعتراف بحقوق شعب بانياموليـنج في امتلاك أرضهم واختيار زعمائهم".

"وهل سيتم إعلان جبال موليـنج إقليماً مستقلاً؟"

"سيتم ذلك".

"في الماضي، رفضت كينشاسا منحنا هذا الحق العادل".

أجاب الدلفين الماكر: "موانغازا ليس من الماضي، وإنما من المستقبل. ستحصل على حقك العادل". وأطلق فرانكو العجوز عند ذلك ما يشبه الصوت الساخر، لكن ربما كان يحرّر حنجرته. في نفس اللحظة، دفع الحاج نفسه واقفاً مثل الدمية التي تقفز من الصندوق، وجال على الطاولة بنظرة من عينه الساخطة الجاحظة:

ثم سأل، بفرنسية حادّة متوعّدة لمثقف باريسي: "إذاً هذا انقلاب، صحيح؟ سلام، وازدهار ومساواة. ولكن عندما تتخلصون من هذا الهراء، سنستولي على السلطة. بوكافو اليوم، وغوما غداً، ونخرج الرواندين، ونحصل على دعم الأمم المتحدة، وتستطيع كينشاسا تقبيل قفانا".

أكّدت نظرة خاطفة بشكل خفي حول الطاولة شكوكي أن مؤتمرنا يعاني من صدمة ثقافية. وكان الأمر كما لو أن قادة الكنيسة يعقدون اجتماعاً سرياً مقدّساً عندما اقتحم هذا المنشقّ المدني جلستهم من الشارع، وطالب بمعرفة ما يثرثرون بشأنه.

تساءل الحاج: "أعني، هل نحتاج لكل هذا؟" وفتح راحتي يده بشكل مثير. "غوما لديها مشاكلها، ويمكنكم سؤال والدي. وغوما لديها السلع، فيما الرواندين لديهم المال والعضلات. صلابة. لكن بوكافو ليست غوما. منذ أن تمرّد الجنود السنة الماضية، أبقى الرواندين رؤوسهم منخفضة في بوكافو. يكره مسؤولو بلدنا الرواندين أكثر من أي شخص". وفتح يديه، وجعل راحتيه للأعلى، في إشارة فرنسية إلى فك الارتباط. "أتساءل فقط، هذا كل ما في الأمر".

لكن الحاج لا يسأل موانغازا، وإنما يسألني *أنا*. ربما جالت نظرته الثاقبة حول الطاولة، أو استقرت باحترام على الرجل العظيم، ولكني لم أستطع ترجمة ما يقوله قبل أن يعاود الكلام، ويبقى معي بعد أن تلاشى الصدى الأخير لصوتي في أذنيّ. أتوقع أن يقبل موانغازا التحدّي، أو يواجهه. لكن مرة أخرى، إنه منقذي فيليب الذي يمشي بجانبهم ويبعدهم عن الوقوع في المصيدة.

شرح، مع القدرة على التسامح التي اكتسبها عبر السنين: "إنه اليوم يا حاج. ولــيس *أمس*. وإذا كان التاريخ يعني أي شيء، لن يكون غداً، أليس كذلك؟ هل ينبغي على *الطريق الوسط* انتظار فوضى ما بعد الانتخابات والغارة الرواندية التالية قبل تهيئة ظروف سلام قوي ودائم؟ أم يقوم موانغازا بعمل أفضل في اختيار الزمان والمكان المناسبين، والتي هي وجهة نظر والدك المحترم؟"

هزّ الحاج كتفيه استهجاناً، ومدّ ذراعيه، وابتسم ساخراً، وهزّ رأسه بإنكار. ومنحه فيليب دقيقة ليتكلم، لكن اللحظة انتهت قبل أن يرفع الجرس اليدوي ويهزّه قليلاً، معلناً استراحة قصيرة تراجع فيها وفودنا مواقفها.

9

لم أستطع أن أتخيل أبداً، فيما كنت أنـــزل على درجات القبو، للمرة الأولى أثـــناء تـــأديتي لمهمتي كمترجم تحت خط المياه، أنه سيكون لديَّ شعور الشخص الـــذي يمـــشي في الهواء، ولكن تلك كانت حالتي بالفعل. إذا نحّيت فظاظة الحاج جانـــباً، كـــان كل شيء يسير بأفضل طريقة ممكنة. متى كان مثل صوت المنطق والتحديث هذا يتردد عبر بحيرات وأدغال الكونغو المضطربة؟ ومتى كان اثنان من المحترفين الكفوئين – ماكسي رجل المآثر، وفيليب المفاوض المتّقد الذكاء – يلتقيان معـــاً لبحث قضية شعب مسكين؟ *وأي دفعة للتاريخ تلك!* وحتى سبايدر الخبير، والـــذي بإقرار نفسه لم يفهم كلمة مما كان يسجّله – ولا، كما أعتقد، تعقيدات مغامرتنا – كان منتعشاً بالجو الإيجابي لغاية ذلك الوقت.

أعلن بنبرته الويلزية الرتيبة: "يبدو أنهم يلقون خطباً حقيقية، إذا سألتني رأيي"، فيما كان يضع السمّاعات على أذنيّ، ويتفقّد الميكرفون الذي أضعه، ويثبّتني بشكل عملـــي في المقعـــد المخصص لي. "يضعون رؤوسهم بجانب بعضها البعض، وربما سينتج عن ذلك بعض التعقّل، كما يبدو لي".

لكـــني بالطبع كنت أنتظر سماع سام: سام المنسّق، سام الذي سيخبرني أيّ الميكرفونات ينبغي التركيز عليها، والذي سينقل التعليمات على أسس متواترة. هل التقيت سام؟ هل كان يبدو بمحض الصدفة سارقاً للأصوات، ونـــزيلاً سابقاً آخر في غـــرفة المحادثـــة، والـــذي كان على وشك الخروج من الظلّ وعرض مهاراته الخاصة؟ لذلك كانت دهشتي شديدة عندما تبيّن أن الصوت الذي أعلن عن نفسه في السمّاعات كان لامرأة، وحنوناً أيضاً.

"*هل أنت بخير يا بني بريان؟*"

"على أحسن حال يا سام. وأنتِ؟"

"لقد أبليت حسناً في الأعلى هناك. الجميع يتكلمون عنك".

لاحظـــت مجـــرد أثر للهجة اسكتلندية بين تلك الكلمات الوقورة التي تبعث على الراحة.

ســـألت بانفعـــال: "من أين أنتِ يا سام؟" لأن كل شيء كان ما يزال مثيراً بالنسبة لي مما حدث فوق.

"إذا قلت واندسورث، هل سيصدمك ذلك كثيراً؟"

"يصدمني؟ نحن جيران، بحق الله! أتسوّق نصف حاجياتي في واندسورث!"

صـــمت مطبق. وتذكّرت متأخراً جداً مرة أخرى أنه من المفروض أن يكون عنواني صندوق بريد.

أجابـــت سام بحزم: "إذاً، سنمر أنا وأنت مثل القطارات في الليل أيها العزيز بريان. سنتابع مع كل السبعة إذا لم تمانع. المواضيع قادمة الآن".

الـــسبعة هي جناح الضيوف. كانت العيون على خطة سبايدر السرية عندما كنت ألحق بالوفود نـــزولاً عبر الممر وأنتظر أحدهم ليفتش عن مفتاحه ويفتح باب غـــرفته. اســـتودعهم فيليب الذكي المفاتيح لزيادة شعورهم بالأمان! وجاء لاحقاً نـــيران مدفعية الأقدام على أرضية الغرفة وجريان الماء في دورات المياه والصنابير. *فـــرووم! كـــراش!* إلخ... إنهم الآن في غرفة المعيشة، يسكبون لأنفسهم الشراب، ويـــصيحون مثل الإوز، ويصدرون أصواتاً صاخبة، ويمدّدون أجسامهم ويتثاءبون بعصبية.

جـــناحهم مألوف لي اليوم مثل الجدران الأربعة الموحشة التي تحاصرني حالياً، رغـــم أنني لم ولن أشاهدها أبداً، إضافة إلى أنني لم أشاهد ما بداخل شقق موانغازا الملكية، أو غرفة عمليات سام مع هاتفي الفضائي المشفّر لإجراء الاتصالات الآمنة مع النقابة والأشخاص الآخرين الذين لا نعرف أسماءهم، أو هكذا أخبرني سبايدر في إحـــدى محادثاتـــنا التي جرت بسرعة إطلاق النار، لأن سبايدر مثل الكثير من لـــصوص الصوت كان ثرثاراً، مع لمسة ويلزية. لدى سؤاله عن المهام التي قام بها أثـــناء عمله في غرفة المحادثة، أجاب بأنه لم يكن حشرة *أبو مقص* – يعني مترجماً لغـــوياً – وإنما *شخصاً تافهاً* متواضعاً، كما تقول الدعابة القديمة، ويركّب أجهزة

مخفية تخدم الهدف الأسمى الذي يقوم به السيد أندرسن. لكن أفضل شيء بالنسبة له هو الفوضى:

"لا شيء يماثلها في العالم يا بريان. وأكون في قمة السعادة عندما أستلقي على وجهي في الأوساخ مع قذائف المدفعية تتطاير من كل الاتجاهات، وقطعة جميلة من مدفع هاون عيار ستة عشر ميليمتراً تهدر ورائي".

جـــاء الصوت المسروق عالياً وواضحاً، وسمعنا حتى صوت مكعّبات الثلج في الأقـــداح، وآلـــة تحضير القهوة التي تصدر عنها أصوات حادة أكثر من أوركسترا ســـيمفونية. كان سبايدر، الذي مرّ بكل الأحوال بهذا من قبل عدّة مرات، متوتراً مثلي تماماً، ولكنه لم يقم بأي حركة مفاجئة في اللحظة الأخيرة، ولم ينفجر شيء أو يذوب أو يموت عليه، وعملت كل الأنظمة بشكل طبيعي.

كـــان الأمر مستغرباً لأننا كنا في غرفة معيشة الوفود، ولم يكن أحد يتكلم. ولديـــنا خلفـــية، ولكن لا شيء للأمام. ونخير وزفير، ولكن دون نطق أي كلمة. وأصـــوات تحطيم، وتجشؤ، وصرير. ثم من بعيد صوت شخص يهمس، ولكن من وبـــإذن من، لم يستطع أحد تخمين ذلك. ومع ذلك لا توجد أصوات حقيقية، أو أشياء يمكن سماعها. هل سلبتها فصاحة موانغازا من أفواههم؟

التقطت أنفاسي، وكذلك فعل سبايدر، وكنت أستلقي بركون الفأر في سرير حنا، وأتظاهر بأنني لست موجوداً فيما كانت صديقتها غريس تدفع الباب المغلق، وتـــسألها لماذا لم تظهر لتعليمها كرة المضرب كما هي العادة، وتظاهرت حنا التي تكره الخداع بأن رأسها يؤلمها.

"ربما يتلون صلواتهم يا سام".

"لكن لمن يا بريان؟"

ربمـــا لا تعرف سام أفريقيا، لأن الجواب قد يكون واضحاً: إلى الله، يشتهر البانياموليـــنج الذين كان والدي العزيز الراحل يحبهم كثيراً بالدعاء إلى الله في كل الأوقـــات، مباشرة أو عبر رسلهم. ولم يكن لديَّ شك بأن ديدون سيصلّي وقتما يحين موعد الصلاة. على اعتبار أن ماي ماي يتطلّعون إلى الله لحمايتهم في المعركة وليس لأي شيء آخر، ستركز اهتمامات فرانكو على ما سيفيده من وراء ذلك.

وربمـــا زوّده أحد الأطباء المشعوذين بأوراق من شجرة استوائية، والتي قام بطحنها وفـــركها علـــى جسده بحيث يستطيع الاستفادة من قوتها. ويستطيع أي شخص التخمين لمن يصلّي لأجله الحاج. ربما لوك، والده العليل.

لمـــاذا لا يـــتكلم أحد؟ ولماذا – وسط صرير الأبواب وخلط أوراق اللعب والـــضوضاء الخلفية التي أتوقع سماعها – أشعر بتوتر متزايد في الغرفة، كما لو أن شخصاً يحمل مسدساً يصوبه على رؤوس مندوبينا؟

ليتكلم أحدكم، بحق الله!

كنت أفكّر معهم، وألتمس لهم الأعذار. انظروا. حسناً. فهمت. تشعر لدى العـــودة إلى غـــرفة المؤتمر برهبة، وتصنّع وامتعاض الوجوه البيضاء حول الطاولة. ويـــتحدث مـــوانغازا إلـــيك، ولكن ذلك ما يجيده لأنه رجل الوعظ، وجميعهم متـــشابهون في ذلك. إضافة إلى ذلك، تكون لديك مسؤوليات ينبغي التفكير بها، وأقبل ذلك أيضاً. زوجات، وعشائر، وقبائل، وأرواح، وعرّافة، وأطباء مشعوذون وأشـــياء لا تستطيع معرفة ماهيتها. لكن من فضلكم، وكرمى للاتحاد، وحنا ولنا جميعاً؛ تكلموا!

"بريان؟"

"سام".

"بدأت أتساءل فيما إذا كنا الأشخاص الذين ينبغي عليهم الدعاء".

خطرت لي نفس الفكرة الرهيبة: نحن نتمتم. ووضع أحد مندوبينا – افترضت أنه الحاج – إصبعاً على شفته، ومع يده الأخرى أشار ذلك الحاذق إلى الجدران أو الهاتـــف أو جهاز التلفاز، أو جال بعينيه البارزتين على الثريا. وكان يخبرهم الآتي: "أيهـــا الرفاق، كنت متواجداً هناك، وأعرف العالم الشرير، وصدّقوني أننا نتعرض للمراقبة". وإذا كان الأمر كذلك، سيحدث شيء ما الآن، اعتماداً على ما تكون تلـــك *المواضيع* – أو الأهداف كما قال عنها ماكسي – وفيما إذا كانوا يشعرون بـــأنهم يتعرضون لمؤامرة أو يتآمرون ضد أحد اليوم. ويفترض أفضل سيناريو بأنهم ســـيقولون: "تـــباً لذلك، دعونا نتابع حديثنا بأي حال"، وهو ردّ الفعل المنطقي للـــرجل العـــادي، لأنه ببساطة لا يملك مثل معظمنا الوقت أو الصبر ليكون تحت

المراقبة. ولكن هذا ليس وضعاً عادياً. وما دفعنا كلانا إلى حافة الجنون - أنا وسام – هو أن وفودنا الثلاثة، في حال كان لديهم ذكاء كافٍ لإدراك ذلك، لديهم حلّ جيد في أيديهم، ولهذا السبب أجلس هنا في انتظار أن يستخدموه.

"ألا ترغب بأن تصرخ عليهم وحسب يا بريان؟"

نعم يا سام، أرغب بذلك فعلاً، ولكن خوفاً شديداً يغرس جذوره في ذهني. إنها ليست ميكروفونات سبايدر التي تهمهم: إنه *أنا* سالفو. ومحاولة إنقاذي في الوقت المناسب من قبل فيليب لم تنقذني إطلاقاً. في الوقت الذي أطلق فيه فرانكو خطابه على الرجل الخطأ باللغة الخطأ، كان الحاج يعتبر أن كلامي لا معنى له، وهو ما كانت تحدّق به نظراته الطويلة طوال الوقت. ورآني أفتح فمي الغبي لأجيب، ثم أغلقه وأحاول التخلص من أي انفعال مهما كان.

كنت ما أزال حبيس تلك الأفكار عندما جاء صوت فرانكو العجوز الحاد، مثل رسالة عتق، يتحدث ليس لغة بيمبي، ولكن الكينية - الرواندية التي اكتسبها في السجن. كنت قادراً هذه المرة على فهمه دون الاستماع لحديثه مرة أخرى.

* * *

تكون نتائج استراق السمع، التي لم يحاول السيد أندرسن أبداً تذكير أتباعه بها، بطبيعتها هراء غير مترابط، ومحبطة للآمال دائماً. وصبر المهمة ليس كافياً، حسب رأي السيد أندرسن، لفصل التبر (كتلة من المعدن النفيس) عن بحر من الغثاء (المادة التي يمتزج فيها المعدن) الذي يسبح فيه. وفي هذا السياق، الأحاديث المكشوفة لوفودنا الثلاثة لم تنحرف بأي شكل كان عن المعتاد، وكانت مزيجاً متوقعاً من التعابير البذيئة، ونادراً فقط توقعات مستقبلية عن المعارك القادمة التي سيخوضونها.

فرانكو: (ينطق بمرارة أقوالاً كونغولية مأثورة) الكلمات الطيبة لا تطعم بقرة.

ديدون: (يردّ على قول فرانكو المأثور بقول آخر) الأسنان تبتسم، ولكن ماذا عن القلب؟

الحاج: محض هراء! حذّرني والدي من أن العجوز يتحمّل الكثير، لكن هـــذا شـــيء مختلف. آو، آو، آو. لماذا يتكلم السواحيلية مثل تنـــزاني يجلس على أعلى شجرة بابايا؟ كنت أعتقد أنه من تربية قبيلة شي.

لم يزعج أحد نفسه بالإجابة عليه، وهو ما يحدث في كل مرة تضع فيها ثلاثة رجـــال في غـــرفة معـــاً. وسيطر الفم الأكبر على الأجواء، وأطبق الصمت على الشخصين الآخرين اللذين تريد الاستماع لهما.

الحـــاج: (يـــستمر) من هو حمار الوحش بكل الأحوال؟ (صمت يلفّه الغمـــوض، يماثـــل صـــمتي). الـــشخص المترجم الذي يرتدي السترة القماشية؟ من هو؟

هـــل يدعوني الحاج *بحمار الوحش*؟ لقد حصلت على أسماء كثيرة في حياتي. وكـــنت أدعى في مدرسة البعثة التبشيرية *الخنـــزير الحليق*. وحصلت في الإرسالية على أي اسم من الخنـــزير الأجعد إلى الدمية السوداء. ولكن *حمار الوحش* كانت إهانة جديدة بالنسبة لي، وأستطيع أن أفترض فقط أنها من صنع الحاج شخصياً.

الحـــاج: (يستمر) عرفت شخصاً مثله مرة. ربما كانا قريبين. محاسب. تولّـــى الحسابات لوالدي. وعبث مع كل فتاة في المدينة حتى أطلق عليه زوج غاضـــب الـــنار. *انتهـــى!* لم أكن أنا. لست متزوجاً، ولا أقتل الرجال. لقد قتلنا ما يكفي منا. اللعنة علينا. لن نفعل ذلك مجدداً. لفافة تبغ؟

يمـــتلك الحـــاج علبة لفائف تبغ ذهبية. وفي غرفة المؤتمر، ألقيت عليها نظرة خاطفة من البطانة الحريرية لبدلته من تصميم زيغا. وكنت أسمع صوتها عندما يقوم بفتحها. وأشعل فرانكو له لفافة التبغ، وأصابه سعال حفّار القبور.

ماذا كان ذلك بحق السماء يا بريان؟

إنهم يتحدّثون عن أصلي العرقي.

هل ذلك عادي؟

جداً.

كـــان ديدون أول من رفض ذلك، وتمتم بصوت شخص يؤمن بالقدر: "لَمَ لا؟" وأشعل لفافة أيضاً.

الحاج: هل أنت مريض أو ما شابه؟

ديدون: ما شابه.

هل كانا جالسين أم واقفين؟ ولدى إصغاء السمع، نحصل على صوت حذاء فـــرانكو الأعـــرج غير المنتظم فيما كان الحاج يتبختر على الأرضية الصلبة بحذائه المـــصنوع من جلد تمساح النهر الأخضر. ولدى متابعة إصغاء السمع، نسمع أنيناً مـــن الألم ونفحـــة وســـادة فيما يرتاح ديدون على كرسي دون مسندين. هكذا أصبحنا نحن لصوص الصوت تحت تأثير السيد أندرسن.

الحاج: هل أخبركم بشيء حول ذلك يا أصدقائي؟

ديدون: (قلقاً من التحدّث إليه بمثل تلك الحرارة) ماذا؟

الحـــاج: الناس في كيفو جميعهم مهتمون بالسلام والمصالحة أكثر بكثير مـــن أولـــئك الموجودين في كينشاسا. (*اصطنع صوت الخطيب المفوّه*) اقـــتلوهم. اقلعوا أعين الرواندبين. نحن خلفكم تماماً. مثل ألفي كيلومتر خلفكم، ومعظمها أدغال. (*ينتظر، للحصول على ردّ فعل كما توقعت، لكـــنه لم يحصل على شيء. واستمرت أصوات حذاء جلد التمساح*). ذلـــك العجـــوز يتفوه بكل ذلك الهراء (يقلّد موانغازا، بشكل متقن): دعـــونا نطهّـــر أرضـــنا الخضراء الرائعة من تلك الصراصير الضارّة يا أصـــدقائي. آه، نعم. دعونا نستعيد وطننا ليكون بأيدي المواطنين الذين يحـــبونه! أوافق على ذلك. ألا نوافق جميعنا؟ (*ينتظر. لا جواب*). كان هـــناك حـــركة جماعية. وأقول اطردوهم. اللعنة عليهم! (*لا يوجد رد فعـــل*). فقط دون عنف. (*جلبة حذاء جلد التمساح*). المشكلة هي أين تقفـــون؟ أعني، ماذا عن الأوغاد الفقراء الذين جاءوا سنة 1994؟ هل نطـــردهم أيـــضاً؟ وهـــل نطرد ديدون الموجود هنا؟ ونقول لهم خذوا أولادكم معكم، ولكن اتركوا الأبقار خلفكم؟

كـــان الحاج يتحول ليصبح آلة الهدم التي كنت أخشاها عندما كان في الأعلـــى. وبطريقة عادية ولكنها مدمّرة، استطاع تحويل وجهة الحديث في غـــضون دقائق إلى القضية الخلافية التي كانت أمامنا: الحالة العالقة لشعب البانياموليـنج، وأهلية ديدون كحليف في مشروعنا.

فـــرانكو: (قول مأثور آخر، تلفّظ به بتحدٍّ هذه المرة). ربما يبقى جذع الشجرة عشر سنين في الماء. لكنه لن يصبح تمساحاً *أبدًا*!

(توقف طويل متوتر).

ديدون: *فرانكو!*

دفعـــتني الصرخة التي سمعتها عبر سمّاعاتي إلى القفز تقريباً من مقعدي. ودفع ديـــدون، في ثـــورة غضبه، مقعده عبر الأرضية الحجرية. تخيّلت يديه تطبقان على مسنديّ الكرسي، ورأسه المتصبب عرقاً يرتفع نحو فرانكو بشكل انفعالي.

ديدون: متى سينتهي هذا يا فرانكو؟ أنت ونحن؟ ربما يكون البانياموليـنج توتسي، ولكننا لسنا رواندييـن! (*التقط أنفاسه، لكنه استمر في القتال*). نحـــن كونغولـــيون يـــا فرانكو، كونغوليون تماماً مثل ماي ماي! نعم! (*وصرخ لإسكات سخرية فرانكو*). موانغازا يفهم ذلك، وتفهمه أنت أيـــضاً أحـــياناً! (*وبالفرنـــسية، ليفـــرض ما يقول بالقوة*): *نحن جميعاً زائيريون*! هل تتذكرون ما علّمونا أن نغنيه في المدرسة أيام موبوتو؟ لهذا لماذا لا نستطيع غناءها الآن؟ *نحن جميعاً كونغوليون*!

صـــحّحت لـــه ذهنياً: لا يا ديدون، ليس *جميعنا*. أنا أيضاً تعلمت غناء تلـــك الكلمات في المدرسة بتناغم تام مع زملاء صفي، حتى جاء اليوم الذي أشاروا فيه بأصابعهم إلى الطفل السري وصرخوا: بعداً يا سالفو، بعداً أيها الغريب!

ديدون: (*استمر في خطبته العنيفة*) في عصيان سنة 1964، قاتل والدي البانياموليـــنج إلى جانب والدك السيمبا (*وأصبح صوته خشناً فيما كان يحـــاول التقاط أنفاسه*)، وقاتلت أثناء شبابك إلى جانب كليهما. هل يجعلكـــم ذلك *حلفاء* لنا؟ (حشرجة). *أصدقاءنا*؟ (*حشرجة*). لا، لستم

كـــذلك. (*وتحول بغضب إلى الفرنسية*). *إنه اتحاد ضد الطبيعة!* استمر السيمبا في قتلنا وسرقة *ماشيتنا* لتستخدمها قواهم، تماماً كما يقتلنا ماي ماي ويسرقون ماشيتنا اليوم. وعندما ثأرنا لأنفسنا، أصبحتم تقولون عنا الحـــثالة البانياموليـــنج. وعـــندما كبحـــنا أنفسنا، تقولون عنا الجبناء البانياموليننج (*كظم غيظه آنذاك*). لكن إذا استطعنا الاتحاد معاً تحت هذا - (*حشرجة*) - إيقاف القتل، والكراهية (*حشرجة*)، إيقاف الثأر لموتانا ومـــشوهينا - إذا استطعنا إيقاف *أنفسنا* - والاتحاد - تحت راية هذا القائد أو أي قائد آخر...

توقـــف، وكان يتنفس بصعوبة كبيرة بحيث ذكّرني بجان بيير في المستشفى، ناقـــصاً الأنابـــيب. انتظـــرت على حافة مقعدي سماع ردّ فرانكو، ولكن ينبغي الاستماع مرة أخرى بوهن إلى الحاج.

الحـــاج: حلفـــاء *بمـــاذا*، بحق الله؟ لتحقيق *ماذا*؟ *كيفو موحّدة*؟ شمالاً وجـــنوباً؟ *يـــا أصدقائي. دعونا نحكم سيطرتنا على مصادرنا الطبيعية وهكذا* ستتحكم *بقدرنا. أف أف*. إنها مغتصبة الآن، أيها الأغبياء! من قـــبل زمرة من المجانين الرواندين المسلحين حتى مُقل عيونهم ويغتصبون نـــساءنا في أوقات فراغهم! هؤلاء الأشرار هناك متحصنون جداً، ولا تجرؤ الأمم المتحدة اللعينة الطيران فوقهم دون طلب الإذن منهم أولاً.

ديـــدون: (*ضحكة استخفاف*) الأمم المتحدة؟ إذا انتظرنا حتى تجلب لنا الأمـــم المـــتحدة السلام، ينبغي أن ننتظر حتى يموت أطفالنا، وأحفادنا أيضاً.

فـــرانكو: إذاً ربما ينبغي عليك اصطحاب أطفالك وأحفادك إلى رواندا الآن وتركنا في سلام.

الحـــاج: (*يشفع بسرعة بالفرنسية، ليبرز في الجدال على ما يبدو*) *نحن*؟ سمعـــت *نحـــن*؟ (*موجة سريعة من صوت حذاء جلد التمساح، تبعها صمت مطبق*). هل تعتقد بجدٍّ أن هذا يخصنا *نحن*؟ هذا العجوز لا يريدنا *نحن*، وإنما يريد *السلطة*. يريد مكانه في التاريخ قبل أن يقضي نحبه، وهو

مستعد في سبيل ذلك لأن يبيعنا لهذه النقابة الغريبة، وأن يتسبب بسقوط السقف اللعين على رؤوسنا.

بالكاد انتهيت من ترجمة هذه الهرطقة قبل أن يدعونا جرس فيليب اليدوي إلى الجلسة الثانية.

* * *

هنا ينبغي أن أسرد حادثة تركت في وقت حدوثها أثراً ضئيلاً على ذهني المثقل أصلاً، ولكنها تستحق في ضوء الأحداث اللاحقة إلقاء نظرة متفحصة. عندما قرع جرس فيليب، قمت برفع السمّاعات عن أذنيّ. ووقفت على قدميّ، وغمزت سبايدر استجابة لغمزة منه لي، وارتقيت درج القبو. ولدى وصولي إلى الأعلى، أعطيت الإشارة المتفق عليها من قبل: ثلاث نقرات قصيرة على الباب الحديدي، وشقّ أنطوان الباب قليلاً وأغلقه خلفي، وكانت الضوضاء عالية لسوء الحظ. دون تبادل أي كلمة، قادني أنطوان نحو زاوية المنزل إلى الطرف الشرقي من الممشى المغطّى، وتركني على بعد مسافة قصيرة فقط من غرفة اللعب، وكل ذلك محدداً وفقاً للخطة. ولكن مع فرق واحد: لم يكن أيّ منا مستعداً لأشعة الشمس التي أشرقت مباشرة نحو عيني وجعلتني غير قادر على الرؤية مؤقتاً.

حالما بدأت المشي، مع توجيه عيني للأسفل من أجل تفادي وهج الشمس، سمعت وقع أقدام تقترب وضحكة أفريقية من الوفود تأتي إليّ من الطرف المقابل من الطريق المغطّى. وكنا على وشك مقابلة بعضنا البعض مباشرة. لهذا كان واضحاً أنه ينبغي عليّ تقديم قصة تغطية مقنعة لشرح ظهوري على الجانب الخاطئ في المنزل. هل لمحوا أنطوان يرافقني إلى الزاوية؟ هل سمعوا صفق الباب الحديدي؟

لحسن الحظ، كنت مدرّباً على التفكير من تلقاء نفسي، بفضل *دورات اليوم الواحد* في الحماية الشخصية التي ينبغي على كل الذين يعملون بدوام جزئي حضورها. كيف كنت أقضي دقائق فراغي الثمينة فيما كانت وفودنا تجتمع لإجراء مناقشاتها الخاصة؟ والجواب أنني كنت أفعل ما أقوم به دائماً في فترات الاستراحة بين الجلسات: الاستمتاع بالقليل من السكينة والهدوء في زاوية منعزلة حتى يرنّ

الجـــرس. هكـــذا أصبحت مستعداً ذهنياً، وتابعت التقدّم نحو باب غرفة اللعب. ووصـــلت، وتوقفت. ووصلوا، وتوقفوا. أو بالأحرى توقف الحاج. كان الحاج، الـــسريع البديهة، أول الواقفين خارجاً، فيما كان فرانكو وديدون يتبعانه على بعد خطوات. كانا ما يزالان لم يصلا بعد عندما كلّمني الحاج، الذي لقّبني قبل دقائق قليلة *بحمار الوحش*، بلطف مبالغ فيه:

"إذاً أيهـــا المتـــرجم، هل استعدت نشاطك تماماً؟ هل أنت مستعد لمعركتنا المقبلة؟"

كـــان ســـؤالاً بـــريئاً بما فيه الكفاية، وتمّ طرحه بشكل بريء أيضاً. كانت المشكلة الوحيدة أنه يتكلم بالكينية – الرواندية. وبكل الأحوال، لم أكن بحاجة إلى فيلـــيب هذه المرة ليرسل إشارات تحذير لي. وضعت ابتسامة مرتبكة على وجهي، مع أسف واضح. عندما لم يفِ ذلك بالغرض، هزّزت كتفيّ ورأسي للدلالة على عـــدم فهمي لما يجري. وانتبه الحاج إلى خطئه، أو أنه أظهر ذلك، وأطلق ضحكة تبريـــرية ووضـــع ذراعه عليَّ. هل كان يحاول خداعي؟ لم يكن كذلك. أو أنني أقنعت نفسي بذلك. لقد وقع بالكاد في المصيدة التي ينصبها أي خبير لغات متمكّن مـــن قدراتـــه. بعد التحدّث بالكينية – الرواندية بسرعة فائقة في جناح الضيوف، أهمل تغيير مساره. هذا يحدث لأفضلنا. انسوا ذلك.

10

"أيها السادة. أقدّم لكم السيد العقيد".

ومـــض بريق المعركة في عيني ماكسي الزرقاوين الشاحبتين فيما كان يرتفع فوق اللوح، ويداه على وركيه: كان يكبر *بورودينو* بثلاث سنوات. ألقى بسترته جانباً، ولكنه ترك ربطة العنق في مكانها. وربما كان لا يرتدي واحدةً سوى نادراً ولهـــذا نـــسي أمرها. تضاءلت أعدادنا، وأضحى موانغازا الآن، والذي كان فيما مـــضى محارب متاريس، *رسول سلام*، وانسحب إلى عزلته في شقته الملكية، وأخذ مـــساعده ذا الـــضفيرة معـــه. وتخلّف تابيزي فقط - الذي يتمتع بكتفي الملاكم المندفعـــتين إلى الأمـــام، وعيـــنين واسعتين، وشعرٍ مصبوغٍ بالأسود والذي كان يسترسل خلفه ليخفي صلعاً في رأسه - ليشاهد جولةً عادلة.

لكـــني لم أكن أحدّق بماكسي، أو تابيزي، أو الوفود. وإنما بطفولتي. وعلى خريطة الجيش التفصيلية لبلدة بوكافو، جوهرة أفريقيا الوسطى، والبعض يقول كل أفريقيا، التي تقع على الطرف الجنوبي لأعلى بحيرة في أفريقيا وبالتالي الأكثر برودةً. هذه البحيرة، التي يلفّها الضباب، وتحتضنها التلال، ساحرة، ويمكنكم سؤال والدي العزيز الراحل، وسؤال الصيّاد الذي كان يتحدّث معه إلى جانب الرصيف البحري فـــيما كانـــا يلتقطان *سمبازا* من شبكتهما، ويلقيان بها في دلاء بلاستيكية صفراء، حيث كانت تتحرك دون انقطاع لساعات، على أمل أن يعيدها شخص مثلي إلى المياه. السؤال عن مامبا - موتو، وهو مخلوق نصفه تمساح، ونصفه امرأة؛ والأشرار الـــذين يـــزحفون نحو الشاطئ في الليل، ويقايضون بوسائل العرّافة الأرواح الحية لأصدقاء أبرياء مقابل حظوة في هذا العالم وجزاء في الذي يليه. ولهذا السبب هناك همـــسات بـــأن بحيرة كيفو ملعونة، وأن هناك صيادين يختفون لأن مامبا - موتو يسحبهم للأسفل لأنه يحب أكل أدمغتهم. أو هكذا أكّد الصيادون لوالدي العزيز

الراحل، الذي كان يعرف أنه من الأفضل عدم السخرية من معتقداهم.

تصطف على الجادة الرئيسية منازل كلاسيكية لمستعمرين مع زوايا دائرية ونوافذ مستطيلة تطل عليها أشجار الخزامى، والجكرندا (شجرة استوائية جميلة الأزهار) والجهنّمية (نبات استوائي متسلق له أزهار ثلاثية صغيرة). التلال المحيطة مليئة ببساتين الموز ومزارع الشاي، وتمتد مثل عدد كبير من المفارش الخضراء. وتستطيع من منحدراتها تعداد أشباه جزر البلدة الخمس. تدعى أكثرها فخامة لا بوت، وهي هناك، على خريطة ماكسي: جزمة إيطالية مع منازل فخمة وحدائق مترفة تنحدر حتى حافة البحيرة. المارشال موبوتو نفسه لديه فيلا هناك. في البداية، تندفع الجزمة بجسارة نحو البحيرة، ثم فقط عندما تعتقد أنها تتجه نحو غوما، تنثني بحدة نحو اليمين إلى أن تصل إلى رواندا على الساحل الشرقي.

تدل سهامٌ على أوراق ماكسي عملياً على مواقع استراتيجية. تشير إلى منزل الحاكم، ومحطات الإذاعة والتلفاز، ومقر قيادة الأمم المتحدة، ثكنات الجيش. لكن لا شيء يشير إلى السوق الموجود بجانب الطريق والذي تناولنا فيه سفود الماعز عندما اصطحبني والدي إلى البلدة للاحتفال بعيد ميلادي؛ ولا شيء يشير إلى الكاتدرائية ذات السقف الأخضر، والمبنية مثل سفينتين متقابلتين رأساً على عقب، حيث صلينا من أجل روحي الخالدة. ولا شيء يشير إلى الجامعة الكاثوليكية المتسخة حجارتها، والتي كنت، في حال درست بجد آنذاك، سألتحق بها يوماً ما. ولا شيء إلى بعثة الأخوات البيض اللواتي كن يقدّمن البسكويت المحلّى إلى الطفل السري، ويخبرنه عن اللطف الكبير الذي يتمتع به عمه.

وقف ماكسي وظهره لنا، وجلس فيليب إلى جانبه، وكانت معالمه رشيقة بحيث ينبغي عليك أن تكون سريعاً لالتقاط أي تعبير خاص. وتعتقد أنك رأيت واحداً، ولكن عندما تنظر مجدداً، يكون قد اختفى. جلست وفودنا الثلاثة حيث كانوا من قبل، وفرانكو في وسطهم. أصبح وجه ديدون أقسى، وأضحت عضلات عنق فرانكو مشدودة، وأظهر الحاج ترفّعاً استفزازياً يخصّ جلستنا. ووضع مرفقيه على القماش الأخضر، وظهر أكثر اهتماماً بالنافذة من إقطاعيته الخاصة على خريطة اللوح المحمول. هل يهتم حقاً؟ هل يحب بوكافو كما أحبها في ذاكرتي؟ من الصعب تصديق ذلك.

دخل أنطوان، وهو يحمل عصا بليارد. وأربكني ظهوره. لماذا ليس في الخارج مع حرّاسه حيث ينتمي؟ ثم اتضح لي تدريجياً أنه طالما أن وفودنا في غرفة المؤتمرات، فليس هناك أحد يراقبه، وهو ما أكّد لي أنه عندما يتمّ الإعداد لمؤتمر قمة، تكون الأعصاب مشدودة للغاية وأذنك الثالثة الخاصة بالترجمة في استنفار تام، إلا أنك تبقى عنيداً فيما يخصّ الشعور المشترك.

حذّرني ماكسي متمتماً: "ستسمع القليل من كلام الجنود الآن أيها الشاب. هل أنت مستعد لذلك؟"

مستعد يا سكيبر؟ سألتني، هل أستطيع ترجمة الأمور العسكرية، وأقول لك إنني أستطيع. ومرّر أنطوان عصا البليارد إلى ماكسي ليستخدمها عوضاً عن عصا موانغازا السحرية في حركة تدريبية يقوم بها جندي أمام ضابط. التقطها ماكسي في نقطة توازنها. غدا الصوت واضحاً وموجزاً، وكانت الكلمات بسيطة والتوقفات في مكانها. الآن اسمعوا هذا. وسمعته وترجمته بكل ما لديَّ من مهارة.

"أولاً بأول أيها السادة. لن، أكرّر، لن يكون هناك تدخّل مسلح من قبل قوات غير كونغولية في إقليم كيفو، وكن واثقاً أيها الشاب أنهم فهموا ذلك بوضوح".

رغم أنني كنت متفاجئاً، إلا أنني فعلت ما طلبه مني. أفلتت من الحاج صرخة ابتهاج، وقهقه وهزّ رأسه غير مصدّق، وتحرك وجه فرانكو الكئيب بارتباك، وخفض ديدون عينيه، واستغرق في التفكير.

تابع ماكسي، مسترسلاً: "أي عصيان سيكون نتيجة مناوشات نارية عفوية تندلع بين جماعات قبلية متنافرة تقليدياً. وسيحدث دون، وأكرّر، *دون* تدخّل من القوات غير الكونغولية - أو لن تكون مرئية - سواء في غوما، بوكافو أو أي مكان آخر. تأكّد من أن يفهم الحاج ذلك لأن هذا ما وقّع عليه والده. أخبره ذلك".

فعلت ذلك. وأرجع الحاج نظرته إلى العالم خارج النافذة حيث كانت تستعر معركة هوائية بين أسراب الغربان والنوارس المتنازعة فيما بينها.

تابع ماكسي: "سيتم الإخلال *مؤقتاً* بتوازن قوى *أهلي* حسّاس. ولن تثير أي وكالة خارجية سواء كانت وطنية أو من المرتزقة الانفعالات. وفيما يخصّ المجتمع

الـــدولي، ســـيكون شأناً كونغولياً داخلياً كالعادة. ركّز على ذلك من أجلي أيها الشاب!"

نقلت ذلك إلى سكيبر. كانت غربان الحاج تتراجع لأن النوارس فاقتها عدداً.

أعلن ماكسي بتأكيد متزايد: "سيكون مقر قيادة الأمم المتحدة في بوكافو مكاناً لإطعام الخنازير"، رغم أنني كنت حريصاً على استعمال تعبير أقل انفعالاً. "ســـرية مـــشاة محمولة واحدة مع عربات جند مدرّعة مضادة للألغام، وسرية حراســـة أوروغوانية، ووحدة هندسة صينية، وممثلون عن الرواندين وماي ماي يـــصطدمون ببعضهم البعض في الأروقة، ونصف لواء نيبالي يدير المكان سرعان مـــا سيتقاعد. وعندما تقع أتفه الحوادث، يكونون في مواقعهم يصرخون على مقـــر القـــيادة ليخبرهم بما ينبغي فعله. نعرف ذلك. وكان فيليب يستمع إلى محادثاتهم، صحيح؟"

انحـــنى فيليب استجابة للصخب الذي حدث نتيجة ترجمتي. *مستشار* مستقل يـــسترق الـــسمع على مقر قيادة الأمم المتحدة؟ وأُصبت بالذهول، لكني لم أسمح لذلك بالظهور.

"إذا تمّ اعتبار القتال على أنه كونغوليون ضد كونغوليين، الشيء الوحيد الذي ســـتفعله الأمـــم المتحدة في بوكافو أو غوما أو أي مكان آخر هو تقديم شكوى، وإخـــلاء المدنـــيين، والانسحاب إلى مواقعها، وترك الأمر للمتنازعين للتوصل إلى حل. *لكن* - واجعلها *لكن* كبيرة جداً من فضلك أيها الشاب - إذا عرفت الأمم المتحدة أو أي شخص آخر أننا جئنا من الخارج، ستحل علينا اللعنة".

تمـــتلك السواحيلية مخزوناً غنياً من المترادفات، ولا أفترض التخفيف من لغة ســـكيبر المـــثيرة. ولكن إذا أطلقت ترجمتي المزيد من ضحكات فرانكو، وانتزعت ابتسامة من ديدون، فإن أفضل ما يمكن للحاج إظهاره هو صرخة حرب ساخرة.

قـــال ماكسي من زاوية فمه، كما لو أنني، وليس الحاج، الذي أزعجه: "ما الذي يعنيه بذلك بحق الله؟"

"يحاول رفع المعنويات فقط يا سكيبر".

"أنا أسأله هو، وليس أنت".

مـــرّرت الـــسؤال إلى الحاج، أو بشكل أكثر دقة إلى خلفية سترته من صنع زيغنا.

أجاب باستخفاف: "ربما لا يحب أحد افتعال شغب في ذلك اليوم. ربما يكون يوماً ماطراً".

كان فيليب يمسك بعصا البليادر كالعادة، ونقلها إلى الصدغ.

"كـــل مـــا يتكلم عنه العقيد هنا، أيها الحاج، هو مجموعة من واجهات المحال المحطّمـــة. وأضمن لكم أنه لن يحدث سوى *القليل* من عمليات السلب وإطلاق النار. وإحـــراق سيارة هنا وهناك، ولكن لا أحد يطلب منك إشعال النار ببلدتك. ووالدك مـــصمم على التسبب بأقل قدر ممكن من الدمار في غوما، أنا واثق بأنك تشعر بنفس الـــشيء بالنـــسبة لبوكافو. كل ما نبحث عنه هو ما يكفي من الألعاب النارية – ما يكفـــي من القلاقل عموماً – لإحداث وضع يستطيع فيه قائد شعبـــي يمتلك جاذبية كـــبيرة ولديه رسالة ينقلها للآخرين – في هذه الحالة، رفيق والدك القديم موانغازا – الظهـــور منتـــصراً كصانعٍ للسلام. كان لدى لوك فكرة *جيدة* أخرى، تخصّ غوما، بتنظـــيم مـــسيرة احتجاج تسوء الأمور فيها، وجعل شراب الشعير يقوم بما تبقى من العمل. يمكنك التفكير بأن تحذو حذوه فيما يخصّ بوكافو".

لكـــن لم تـــستطع حتى مهارات فيليب الدبلوماسية وضع حدّ لنوبة غضب الحـــاج. في الحقيقة، كان لها أثر معاكس، وجعلته يلوّح بيديه الكبيرتين فوق رأسه كـــنوعٍ مـــن العزلة الكلية عن كل ما قيل. دفع هذا بالمقابل فيلكس تابيزي ليثور بصوت أجش، ويتحدث بفرنسية متأثرة بالعربية.

انفجر دفعة واحدة، وقال: "سيكون الأمر كالآتي. في اللحظة المناسبة، سيترك مـــوانغازا ومستشاروه موقعه السري خارج حدود البلاد ويصل إلى مطار بوكافو. وســـوف تـــستقبله حشود صاخبة دفع بها والدك وأنت، وتحمله إلى البلدة بفرح وبهجة. فهمت ذلك؟ وفور دخوله إلى بوكافو، سيتوقف كل القتال فوراً. وسيلقي شـــعبك السلاح، ويتوقف عن القيام بعمليات السلب وإطلاق النار، وسيحتفلون. وســـتتم مكافأة أولئك الذين ساعدوا موانغازا في قضيته الكبرى، بدءاً من والدك. أولئك الذين لم يساندوه، لن يحالفهم الحظ. من المؤسف أنه ليس هنا اليوم، وآمل

أن يتحـــسن قريباً، إنه يحب موانغازا، وطوال عشرين سنة، كانا يدينان لبعضهما البعض. الآن سوف يجنيان ثمار ذلك. وأنت أيضاً".

تخلّـــى الحـــاج عن النظر إلى النافذة واتكأ على الطاولة، مما سمح ببروز أزرار قميص ذهبية كبيرة.

قال أخيراً: "إذاً، إنها حرب صغيرة".

احـــتج فيليب قائلاً: "هيا يا حاج. ستكون بالكاد حرباً. والحرب اسم فقط. والسلام عند المنعطف".

اقترح كما لو أنه يقبل بداية المنطق في جدال فيليب: "حيث ينبغي أن يكون دائماً. من قال أي شيء حول حرب *صغيرة* بكل حال؟" وتابع كلامه بالفرنسية. "أعني، هل هو موت صغير؟ لا شيء. مثل امرأة حامل نوعاً ما". في إصرار على ما يقـــوله، قام أمامنا بتأدية أصوات الحرب التي تشبه تلك التي تحمّلتها عندما كنت تحـــت خـــط المـــياه: *أف!* – حـــشرجة*!* – ثم جلس صامتاً إلى الطاولة وذراعاه مفتوحتان، قبل أن يثب مجدداً، ويترك الجميع في حيرة من أمرهم.

* * *

سيـــستولي ماكـــسي على مطار بوكافو، ويرسل إلى الجحيم كل من يحاول إيقافه. تقع كافومو، كما تدعى، على بعد خمس وثلاثين كيلومتراً إلى شمال المدينة وهي مفتاح نجاحنا. ظهرت صورة جوية لها على اللوح. هل كان في بوكافو مطار قبل عشرين سنة مضت؟ ليس في ذاكرتي شيء سوى حقل أعشاب وعر التضاريس تـــرعاه الماعز، وطائرة ذات جناحين عليها خطوط فضية يقودها قس بولندي ملتحٍ يدعى الأب جان.

نقلـــت عـــصا البليارد الرسالة: "قم بالاستيلاء على المطار، وستحصل على جنوب كيفو على طبق من فضة. ألفا كيلومتر من المهابط المعبّدة. وتستطيع جلب *ما* تريد، *ومن* تريد، *وقتما* تريد. سوف تغلق المطار الوحيد الذي تستطيع كينشاسا إنـــزال تعزيـــزات كبيرة فيه، وتستطيع الانتقال من كافومو *شرقاً* إلى نيروبي – ضربة بالعصا – *جنوباً* إلى جوهانسبورغ – ضربة بالعصا – *شمالاً* إلى القاهرة وما

بعدها. أو تستطيع نسيان الصحارى الأفريقية كلها، والانطلاق مباشرة إلى أسواق أوروبـــا. تستطيع بوينغ 767 حمل أربعين طناً والطيران دون توقف. وتستطيع رفع إصبعين للرونديين، والتنـــزانيين والأوغنديين. فكّر بذلك".

تـــرجمت، وفكّـــرنا بـــذلك، وخصوصاً الحاج الذي وضع رأسه بين يديه الطويلـــتين، وتركّـــزت نظـــرته الحادة على ماكسي، وكان توأم ديدون في عدم الإدراك، والذي رقد بجانبه في موقف مشابه.

أكّد لنا ماكسي، وكذلك أنا: "لا وسطاء، ولا قطّاع طرق، ولا مال حماية، ولا جمارك أو قوات ينبغي الدفع لها. وتقوم بخدمة مناجمك من القاعدة، ونقل التبر مباشـــرة إلى المـــشتري، دون مـــنح قطعة من الكعكة لكينشاسا. ترجم ذلك لهم بوضوح أيها الشاب".

ترجمت لهم ذلك، وكانوا معجبين تماماً. ما عدا الحاج، الذي قفز مع اعتراض جنوني آخر.

أصرّ قائلاً: "مهبط غوما أطول".

ردّ ماكـــسي، فيما كانت عصا البليارد تنقر على وشم لمجموعة من البراكين: "وأحد أطرافه مغلّف بالحمم".

"لديه طرفان، أليس كذلك؟ إنه مهبط".

أطلـــق فرانكو ضحكة كالعويل، وسمح ديدون لنفسه بابتسامة نادرة. التقط ماكسي أنفاسه، وكذلك أنا. كنت أتمنّى لو كانت لديَّ خمس دقائق لوحدي مع الحـــاج لأتكلم معه بلغته الشي، رجلاً لرجل. عندها ربما أستطيع أن أشرح له كم هو قريب من إفساد العملية باعتراضاته.

استمر ماكسي بتصميم: "سنلتزم بكافومو. لفترة من الوقت". سحب قبضته بخـــشونة فـــوق فمه وحدّق مجدداً. كنت أخشى أن ينهض الحاج له. "أريد سماع ذلـــك منهم، واحداً تلو الآخر. هل الجميع مشتركون، أم لا؟ هل نبدأ بالاستيلاء علـــى كافومو، أم ندور في حلقة مفرغة، ونسمح للمنافسة بدخول اللعبة، ونخسر أفـــضل فرصـــة لتحقيق تقدم حقيقي حصلت عليها الكونغو الشرقية في السنوات الدامية؟ البداية مع فرانكو".

بدأت مع فرانكو. وكالعادة، أخذ وقته. نظرات عليَّ، وعلى الخريطة، ثم على ماكسي. لكنه احتفظ بالنظرة الأطول لديدون الجالس إلى جانبه.

صرّ أسنانه: "إن قرار جنرالي أن السيد العقيد يتكلم بمنطق".

"أريـــد ذلك بشكل مباشر. وتحدّث إليهم جميعاً. هل نستولي على المطار – مطار كافومو – قبل التقدم نحو المدن والمناجم؟ إنه سؤال واضح، ويحتاج إلى إجابة واضحة. اسألهم مجدداً".

فعلـــت ذلك. وفتح فرانكو قبضته، وحدّق على شيء في راحة يده. "جنرالي مصمم. سنستولي أولاً على المطار، وبعد ذلك على المناجم والمدن".

أصـــرّ ماكسي: "كاتحاد؟ إلى جانب البانياموليِنج؟ كرفاق سلاح، متجاهلين خلافاتكم التقليدية؟"

حـــدّقت في قـــارورة برير الخاصة بي، إدراكاً مني لنظرة الحاج المهووسة التي تنتقل من رجل إلى آخر، ثم تستقر عليَّ.

قال فرانكو بترنّم: "اتفقنا".

وبدا ديدون غير قادر على تصديق ما يسمعه.

ثم سأل بلطف: "معنا *نحن*؟ هل تقبل البانياموليِنج *كشركاء متساوين* في هذا المشروع؟"

"إن كان لا بدّ من ذلك، سنقبل".

"وبعد ذلك، عندما نفوز؟ هل سنحافظ على السلام سوياً؟ هل ذلك حقاً ما تمّ الاتفاق عليه هنا؟"

هـــذر فـــرانكو: "يقول جنرالي معكم، إذاً معكم". ولحسم الأمور، تفوّه بقـــول مأثور آخر من مخزونه الذي يبدو أنه لا ينضب. "أصدقاء أصدقائي هم أصدقائي".

إنـــه دور ديدون. نظر فقط إلى فرانكو فيما كان يبحث عن أنفاس يلتقطها أثناء لهاثه بصعوبة. ونطق: "إذا حافظ جنرالك على كلمته. وحافظت أنت على كلمتك. وحافظ موانغازا على كلمته. عندها سيتعاون البانياموليِنج في هذا المشروع".

تحولت كل العيون إلى الحاج، بما فيها عيناي. ولدى إدراكه أنه أضحى مركز الاهـتمام، أدخـل يده في بطانة سترته الحريرية من صنع زيغنا وسحب منها علبة لفائـف التـبغ الذهبية جزئياً. وعندما شاهد لافتة ممنوع التدخين، تقطّب جبينه، وأعادهـا إلى جيبه وهزّ كتفيه استهجاناً. وبالنسبة لماكسي، كان غير مبالٍ بالأمر لغاية الآن.

"هل تمانع بأن تخبر الحاج شيئاً من أجلي أيها الشاب؟"

"في خدمتك يا سكيبر".

"لـست مغرماً بهذا الهراء الذي يتناول من جانب ومن جانب آخر. نحن هنا لتـشكيل اتحـاد، وليس للجلوس وبناء جدار حول أنفسنا. وإذا كان ينوب عن والـده، لماذا لا يقدّم ما لديه عوضاً عن افتعال المشاكل؟ هل تعتقد أنك تستطيع إيصال ذلك له دون أن يبدو مهيناً له؟"

هـناك حدود لما قد يستطيع أكثر المترجمين مهارة فعله في مثل هذا الوضع، خـصوصاً عـندما يـصدر عن زبون في مثل صراحة ماكسي. وقمت بأفضل ما أسـتطيع القيام به، وكنت آنذاك مُلماً بخطي المياه الأعلى والأسفل لثورات غضب الحـاج غـير المنضبطة، وجهّزت نفسي للانقضاض القادم بالتأكيد. لهذا تخيّلت دهشتي عندما وجدت نفسي أترجم المناقشات المنطقية تقريباً لخريج لامع من كلية إدارة الأعمال في السوربون. ولا بد أن حديثه استغرق حوالى خمس دقائق، ورغم ذلك لا أتذكّر لحظة تردد أو تكرار واحدة. إنه تحدٍّ، وخالٍ من العاطفة. ولم يكن حديثه يتضمن أي إشارة إلى أنه يناقش مصير مسقط رأسه، ورأسي أيضاً. وما تبع ذلك كان مفهوماً:

لا يمكن استغلال المناجم دون إذعان السكان المحليين.

القوة العسكرية ليست كافية لوحدها. ما نحتاج إليه على كل حال هو وقت طويل، فترة من الوقت دون حرب، أو ما يُعرف على نطاق واسع بالسلام.

لهـذا فإن القضية أمام الوفود ليست فيما إذا كانت خطة العقيد تقدّم أفضل الـسبل في اسـتخراج ونقل التبر، ولكن فيما إذا كان موانغازا و*الطريق الوسط* يستطيعان الوفاء بوعدهما لتحقيق إجماع شعبـي على ذلك.

الوصـــول. وكـــان الحاج يشير ليس فقط إلى الوصول الفيزيائي إلى المناجم، ولكن الوصول القانوني. من الواضح أن الحكومة المقترحة الجديدة في كيفو برئاسة مـــوانغازا ستـــضمن للنقابة كل الامتيازات، والحقوق والتراخيص الضرورية وفقاً للقانون المحلي.

لكـــن مـــاذا عـــن القانون الكونغولي؟ صحيح أن كينشاسا على بعد ألفي كيلومتـــر، ولكـــنها ما تزال العاصمة. وعلى المستوى الدولي، فإنها تمثّل جمهورية الكونغـ و الديمقراطية بأكملها، وسلطتها على المناطق الشرقية مضمونة بالدستور. وعلى المدى الطويل، تبقى كينشاسا المفتاح.

حوّل الحاج نظرته الجاحظة نحو فيليب:

"إذاً ســـؤالي هـــو، مـــزي فيليب، كيف تقترح نقابتك التحايل على سلطة كينـــشاسا؟ وموانغازا يتكلم عن كينشاسا بازدراء. يخبرنا العقيد أن كينشاسا لن تحـــصل علـــى عـــوائد ماديـــة من الانقلاب. ولكن عندما تهدأ الأمور، سيكون لكينشاسا، وليس لموانغازا، الكلمة الأخيرة".

اســـتمع فيليب بتركيز إلى كلمة الحاج الطويلة، وإذا كانت ابتسامة إعجابه تعني أي شيء فهي استيساغ ما قاله. ومرّر يده فوق شعره الأبيض الأجعد، وتدبّر عدم لمسه.

شرح عبر ابتسامته: "سيتطلب الأمر أعصاباً قوية ورجالاً أشدّاء أيها الحاج. موانغازا من جانب، ووالدك المحترم من جانب آخر. ستأخذ العملية بعض الوقت، وينبغـــي لها ذلك. هناك مراحل في عملية التفاوض لا نستطيع التعامل معها سوى عندما نصل إليها. أقترح أن تكون هذه إحدى تلك المراحل".

اصطنع الحاج الذهول. ومما رأيته، كان مذهولاً تماماً، ولكن لماذا؟

"هـــل تعني دون اتفاقات جانبية مع المسؤولين في كينشاسا مقدّماً؟ هل أنت متأكد من ذلك؟"

"قطعاً".

"هل تفكّر في شرائهم الآن فيما أسعارهم رخيصة؟"

"بالتأكيد لا!" وضحك ضحكة قوية.

"أنـــت مجـــنون يـــا رجل. إذا انتظرت حتى أصبحت في حاجة لهم، سوف يعصرونك".

لكـــن فيليب كان حازماً، ولهذا أعجبني: "أخشى أن لا محادثات مسبقة مع كينـــشاسا أياً كانت أيها الحاج، ولا صفقات جانبية، ولا وسطاء، ولا قطعة من الكعكة. وربما تزيد الكلفة علينا، لكن ذلك سيكون متعارضاً مع كل ما نمّثله".

وثـــب ماكـــسي على قدميه كما لو أنه استعاد نشاطه، واستقر رأس عصا البليارد التي يحملها أولاً على غوما، ثم تبع الطريق جنوباً إلى الساحل الغربي لبحيرة كيفو.

"مـــزي فرانكو. لقد سمعت من وقت لآخر أن جماعات من المليشيا الشهيرة التابعة لك تنصب كمائن على طول هذا الطريق".

أجاب فرانكو بحذر: "هكذا يقال".

"بـــدءاً مـــن أول ضوء في اليوم المتفق عليه، نطلب تكثيف تلك الهجمات، وإغلاق الطريق أمام النقل بالاتجاهين".

أطلق الحاج صرخة احتجاج. "هل تعني شاحنات والدي؟ شاحناتنا التي تحمل شراب الشعير، وتتجه شمالاً؟"

ردّ ماكـــسي: "ســـيعاني زبائـــنك من العطش ليومين". وتحوّل إلى فرانكو: "وسمعـــت أيضاً أن جنرالك الموقّر على اتصال مع جماعات مؤثرة في ميليشيا ماي ماي التي تتمركز *هنا؛* بين فيزي وباراكا".

أقرّ فرانكو بإذعان: "ما سمعته محتمل".

"وفي الشمال حول واليكيل، ماي ماي أقوياء أيضاً".

"هذه أسرار عسكرية".

"في الـــيوم المتفق عليه، أطلب أن يتجه ماي ماي نحو بوكافو. ولديكم أيضاً مجموعات من الرجال حول أوريفا. وينبغي أن يقدّموا الدعم".

مرة أخرى، قاطعه الحاج. هل كان ينوي إيقاف كلام ماكسي، أم أنها مجرد صدفة؟ أخشى أنها الأولى.

"أودّ أن أعرف من فضلكم، خطط العقيد التفصيلية للاستيلاء على مطار كيفو. حسناً، الجنود في حالة يرثى لها. وهم غير سعداء، ولا يتلقون رواتبهم. ولكن لديهم أسلحة، ويحبون إطلاق النار على الناس".

أجاب ماكسي بملاحظة واحدة، دون تغيير في الصوت: "وضعت خطة لتقوم فصيلة صغيرة من المرتزقة الممتازين الذين يتمتعون بما يكفي من الخبرة والانضباط بشق طريقها دون إطلاق رصاصة واحدة. هل ذلك مقبول لغاية الآن؟"

هزّ ناصية رأسه، ووضع يده على ذقنه، وانحنى للأمام في وضعية اهتمام مبالغ بها.

"إما أن يدخلوا مع عمّال الصيانة في الصباح الباكر، أو سيظهرون مساء الأحد مثل فريق كرة قدم يبحث عن مكان يلعب فيه. وهناك ملعبان لكرة القدم، وسيتم توزيع شراب الشعير مجاناً، وستأتي الفتيات من القرى، ولهذا سيكون الجو احتفالياً للغاية. هل ما زلت معي؟"

إيماءة أخرى من الرأس.

"حالما يصبحون في الداخل، لن يركضوا وإنما سيمشون على الأقدام. وسيبقون هادئين، وستكون أسلحتهم مخفية عن الأنظار، سيبتسمون ويلوّحون بأياديهم، وفي غضون عشر دقائق، سنسيطر على برج المراقبة، والمهبط ومخازن الذخيرة، وسنوزّع لفائف التبغ، وشراب الشعير، والمال؛ ونجامل الجميع ونتحدث إلى الوجهاء، ونعقد صفقة معهم. وكل ما سنفعله، بالنسبة لهم، هو أننا سنستأجر المطار بشكل غير رسمي لنقل بضع حمولات من معدّات المناجم دون إعلام الجمارك".

أصبحت نغمة الحاج ذليلة بشكل غير طبيعي. "مع فائق الاحترام لمنزلة العقيد العسكرية، ما هي التركيبة الدقيقة لهذه الفصيلة من المرتزقة الممتازين؟"

"محترفون من الطراز الأول. من جنوب أفريقيا، وتلقّوا تدريب القوات الخاصة، ومنتقون بعناية".

"سود، يا سيادة العقيد؟ إذا كان مسموحاً لي بالسؤال".

"أفراد قبائل الزولو والأوفامبوس من أنغولا. محاربون محنّكون، لا يخرجون عن عرف الجماعة. أفضل المقاتلين في العالم".

"كم عددهم من فضلك يا سيادة العقيد؟"

"لــن يكونــوا أكثــر من خمسين، ولا أقل من أربعين حسب التقديرات الحالية".

"ومن سيقود هؤلاء الرجال الرائعين في المعركة، من فضلك؟"

"أنــا، شخــصياً، بنفــسي، من تعتقد؟" - وأصبحت جمله أقصر وأقصر - "إضافة إلى أنطوان هنا. وسأختار اثنين من رفاق السلاح المقرّبين لي".

"ولكن اعذرني. السيد العقيد/*بيض*".

طــوى ماكسي كمّه الأيمن، واعتقدت للحظة فعلاً أن لدينا موقفاً ما، ولكنه كان فقط يتفحص الجانب السفلي من ساعده. وهتف "اللعنة عليَّ، وكذلك أنا!" في صرخة راحة صاخبة حول الطاولة والتي اشترك بها الحاج نفسه.

"وزمــلاؤك يا سيادة العقيد؟ هل هم بيض أيضاً؟". عندها تلاشت الضحكة تماماً.

"مثل الثلج".

"إذاً هــل تستطيع أن تشرح لنا، كيف تستطيع مجموعة صغيرة من الغرباء، البــيض مــثل الثلج، القيام بهجوم مفاجئ على مطار بوكافو دون أن يلفتوا انتباه أولئك غير المحظوظين؟"

لم يــضحك أحــد هذه المرة. وكل ما سمعناه هذه المرة هو أصوات الغربان، والنوارس، وحفيف الرياح الدافئة التي تداعب الأعشاب.

"سهل جداً. في اليوم المتفق عليه" - تعبير ماكسي، كما عرفنا لاحقاً، عن الــيوم الذي سيتم فيه الانقلاب - "ستقوم شركة تصنيع سويسرية متخصصة بأنظمة حركة المرور الجوية بمسح على أرض الواقع لمرافق المطار للتقدّم بعرض مناقصة".

ثم ساد الصمت الذي لم تكسره سوى ترجمتي.

"طائرتهم العارضة، التي ستنقل معدّات تقنية ذات طبيعة غير محددة" - تأكيد كــبير كنت حريصاً على إعادته - "ستربض قريباً من برج المراقبة. سيكون تقنيو

الـــشركة السويسرية أوروبيين. وسأكون بينهم، إضافة إلى أنطوان هنا وبيني الذي قابلتموه منذ فترة قصيرة. بناءً على إشارة مني، ستصعد عصبتي المنتقاة من المرتزقة، الـــتي ســـتكون آنـــذاك قد دخلت المطار عبر البوابة الرئيسية، على متن الطائرة. سيجدون داخلها رشاشات ثقيلة، ومنصات إطلاق صواريخ على الكتف، وقنابل يدوية، وأجهزة إنارة، ومؤن، والكثير من إمدادات الذخيرة. إذا أطلق أحد ما النار عليهم، سيردّون بأقل ما يمكن من القوة".

كـــنت أفهم تماماً لماذا قام فيليب بما قام به لاحقاً. إلى جانب من كان الحاج بأي حال؟ وإلى متى علينا أن نتحمّل انتقاداته؟ و لم يكن الرجل ضيفاً مدعواً حتى! لقـــد كان منتدباً من أبيه، وهبط علينا في اللحظة الأخيرة. وحان وقت وضع حدٍّ له، وإرغامه على العودة إلى جادة الصواب.

بـــدأ فيليب: "السيد الحاج"، مقلّداً بمهارة عبارة الحاج الخاصة *السيد العقيد*، "أيهـــا الحـــاج. مع فائق الاحترام لوالدك العزيز، الذي افتقدناه بيننا للأسف. كنا جمـــيعاً مـــتحفظين جداً، وربما متحفظين للغاية، حول الدور الحيوي الذي ستلعبه شخصياً لدعم حملة موانغازا. كيف تستعد للتغيير الكبير؟ في بوكافو خصوصاً، التي هـــي ضيعتك كما كانت دائماً؟ وتساءلت فيما إذا كانت هذه لحظة مناسبة لك لتنويرنا".

بدايةً، بدا الحاج كما لو أنه لم يسمع سؤال فيليب، أو ترجمتي. ثم همس ببضع كلمـــات بلغـــة شي، والتي كانت، رغم فظاظتها، شبيهة بتلك التي نطق بها سيد صـــغير في المطعم الإيطالي في باترسي. *منحني الله القوة لأخاطب هؤلاء الأغبياء، إلخ*... وبالطـــبع لم تصدر عني أي إيماءة مهما كانت أنني فهمت ذلك، وفضّلت رسم خطوط عشوائية بريئة على دفتر ملاحظاتي.

واصل كلامه بعد ذلك، وقفز على قدميه، ودار على عقبيه، وطقطق أصابعه وفتل رأسه. وبدأ شيئاً فشيئاً في تشكيل رد فعل متوازن على سؤال فيليب. وعلى اعتبار أن الكلمات هي الموسيقى الوحيدة بالنسبة لي، وأنني جاهل تماماً فيما يخصّ الجماعات الكونغولية المختلفة، لا أستطيع إخباركم لغاية اليوم أي راقص متميز، أو عصبة أو نوع موسيقى كان يقلّدها.

لكـــن كـــل شـــخص آخر في الغرفة كان يعرف. لأن الجميع ما عداي وماكسي، الذي أعرف بالتمازج أنه يشبهني في الجهل بتقدير الموسيقى، كانوا يعـــرفون أنـــه أداء بـــارع يمكن تمييزه فوراً ومسلياً جداً. كان ديدون المتزمت يضحك ملء قلبه، ويصفق بيديه بتناغم وبهجة. كان فرانكو الضخم يهتز طرباً أيـــضاً، فيما استمر المترجم المحترف، المدرّب للعمل في كل ظروف الطقس، في تـــرجمته مـــرة إلى الفرنسية، ومرة - بناءً على نظرة قاسية من ماكسي - إلى الإنكليـــزية، والـــذي يعتبر الآتي نسخة منقحة عنها، وفقاً لكتابتي المسعورة في ذلك الوقت:

سوف *نشتري* الجنود

سوف *نشتري* المدرسين والأطباء

سوف *نشتري* قائد حامية بلدة بوكافو

وقائد الشرطة

ونائب قائد الشرطة

وسوف نكسر باب السجن، ونضع حمولة شاحنة من شراب الشعير في زاويـــة كل شارع لعين في *البلدة*، ورطلين من السيمتكس لتحويله إلى *أنقاض*

وســـوف نجـــول على كل الكونغوليين المناهضين للرونديين ونسلمهم أسلحة جديدة رائعة من شاحناتنا

وأي شخص ليس لديه سلاح، ما عليه سوى المشي على هذا *الطريق*!

وكل المتشردين والمجانين والرجال الذين يطلقون النار عليك لأنهم رأوا الشيطان فيك نوعاً ما

سوف نمنحهم الشراب والأسلحة *أيضاً*

كل الكاثوليك الرومان الصالحين في بوكافو، وكل القساوسة والرهبان، الذين يحبون المسيح (عليه السلام) ولا يريدون التورط في المشاكل، ولن يتسببوا بأي منها لأنهم يعرفون أنهم مسيحيون صالحون ورعون.

كـــان فيليب يضحك آنذاك أيضاً، ويهزّ رأسه بتعجب فيما كان يرنّ الجرس اليدوي معلناً استراحة أخرى. ولكن تابيزي هو الذي لفت انتباهي المكتوم. كان وجهـــه قـــناعاً من الغضب المغطّى بالألم، وصوّب عينيه الشديدتي السواد، اللتين تنظـــران من خلف رموش طويلة، مثل ماسورة بندقية مزدوجة على جبين الحاج، وذكّـــرني أن هـــناك صـــنفاً من... يضمر احتقاراً مؤكداً لإخوتهم في الصحارى الأفريقية.

11

أين هم بحق الله يا سام؟ وحصلت على صمت مدوٍ.

أتفقّد يا عزيزي. كن صبوراً.

حاولت أن أكون صبوراً. وكان هناك تشويش غامض فيما كان صوت سام يسأل أنطوان، ثم فيليب.

لقد وجدنا فرانكو.

أين؟

في الشقة الملكية. يعقد اجتماعاً مع موانغازا.

سألت بلهفة كبيرة: هل ذهب إلى هناك؟

لا داعي للشكر يا بريان. سيكونان بخير بدونك.

التقطت عبر سمّاعاتي وقع حذاء الحاج على الممشى، ويرافقه زوج ثانٍ من خطوات الأقدام التي نسبتها مؤقتاً إلى ديدون. أكّدت سام مباشرة التحديد: أبلغنا الحرّاس أن الحاج تأبّط ديدون من مرفقه، ويقوده بالمعنى الحرفي للكلمة إلى ممر الحديقة. الأفضل من ذلك أن الحاج وضع إصبعاً على شفتيه طلباً لصمت ديدون حتى يبتعدا عن المنزل، ازداد نشاطي. ليس هناك موسيقى أفضل لأذن لص الأصوات الذي يعمل بدوام جزئي من: "دعنا نذهب إلى مكان لا يمكن أن يسمعونا فيه"، أو "انتظر حيث أنت، فيما أستخدم هاتفاً عاماً".

حتى في حالة الإثارة التي كنت عليها، شعرت بموجة تعاطف مع ديدون، الذي كان منساقاً باتجاه واحد نتيجة مخطط ماكسي المهيب، وينساق الآن بالاتجاه الآخر مع الحاج المتمرد.

وصل الرجلان إلى درجات البرج، وبدأا الصعود. وفيما كانا يتسلقان، بدأ

الحاج بالرقص. وأثناء الرقص، بدأ يتحدّث بغضب: طرقٌ بالحذاء، وانتقادٌ بالكلام. إن لصوص الكلام يسمعون مثل الكفيف، لكنهم أحياناً يشاهدون أيضاً مثل الكفيف، وهذا ما كنت أفعله آنذاك: سطوع ووضوح مثل النهار في عيني رجل كفيف. رأيت حذاء الحاج من جلد التمساح الأخضر يسحج على الدرجات الحجرية، ويصدر عنه صوتٌ مدوٍّ، ورأيت جبينه الساطع يتقطّب عبوساً، وجسده النحيل يتقوس للخلف، ويداه تهبطان مثل وشاح حريري مقابل سماء زرقاء صافية فيما أبقى صوته تحت مستوى ضجيج حذائه المصنوع من جلد التمساح. إذا كان جسده يدل على شخص همجي، فإن صوته يدل على شخص متوازن، وكلما تكلّم بصوت أهدأ، كلما ارتفعت الضوضاء الصادرة عن قدميه، وكلما فتل رأسه أكثر في سياق قول جملة واحدة كما لو أنه يغذّي الميكروفونات، وأصدر نوعاً من التشويش مع كل حركة صغيرة من حنجرته.

ما هي اللغة التي يتحدث بها؟ لغته الأصلية الشي التي صدف أن ديدون يتقنها أيضاً. إذاً، ماذا يفعل - أو يعتقد أنه يفعل - مع شيء من الارتجال، والقليل من الفرنسية عندما يحتاجها - إنه يستخدم لغة لا يستطيع أي شخص يسمعها صدفةً أن يفهمها ببساطة - ما عدا أنني أفهمها.

لهذا كنت في أثره. كنت معهما هناك. كنت أجدّ في أثره لدرجة أنني عندما أدفع بعينيّ لأغلقهما بإحكام أستطيع رؤيته بعيني الافتراضية. عندما انصرف الحاج خلسة، واجتهد ديدون في السير خلفه، يكظم سعاله، كان سالفو المترجم المحترف هناك بجانبهما مع سمّاعاته ودفتر ملاحظاته. عندما انسلّ الحاج عائداً، توقف ديدون دون حراك؛ وكذلك فعلت أنا. ارتقى الحاج درجة أخرى، ووثب نحو العشب، وكذلك فعلت أنا. يعرف الحاج أنني هناك، وأعرف أنه يعرف. ويلعب *خطوات الجدة* معي، وألعبها معه. إنه يقود *حمار الوحش* في رقصة مناسبة، ويرد *حمار الوحش* الجميل، صعوداً وهبوطاً بالخطوات وفي كل مكان.

ما لا يستطيع معرفته هو مدى بدائية نظامنا الصوتي. إنه رجل عصري، ولا أمانع الرهان على أنه شخص بارع في عقد الصفقات. إنه يعتقد أن لدينا كل أدوات غرفة المحادثة الحديثة الطراز: اللاقط، الليزر، القمر الصنعي، وكل ما تقوله

ولا يمكننا تسميته. هذه ليست غرفة المحادثة أيها الحاج، وميكروفونات سبايدر تشوّش الصوت، حتى إذا لم نكن أنت وأنا وديدون نفعل ذلك. إن نظام سبايدر عبارة عن كبل مغلق من الطراز القديم دون إضافات، و*حمار الوحش* هذا يحب ذلك.

إنه واحد مقابل واحد. إنه الحاج ضد سالفو، رجل لرجل، مع كون ديدون المتفرج البريء. إنها لغة الحاج الشي، ورقصة الحاج النقرية، وضحكة الحاج ومراوغته مقابل أذني سالفو السارقتين. إن حذاء الحاج المصنوع من جلد التمساح يضرب مثل القبقاب على الحصى. إنه يدور على قدم واحدة، ويعلو صوته وينخفض طوال الوقت، ويستخدم قليلاً من الشي، وقليلاً من الكينية - الرواندية، ثم قليلاً من الفرنسية برطانة (بلغة غريبة) لتعقيد الخليط اللغوي. إنني أسرق الصوت من ثلاثة ميكروفونات منفصلة وثلاث لغات مختلفة في جملة واحدة، ويكون استقبالي لها مضطرباً تماماً مثل الرجل. إنني أرقص أيضاً، حتى لو كان ذلك في ذهني فقط. إنني هناك على الدرجات الحجرية أبارز الحاج سيفاً بسيف، في كل مرة يسمح لي بها بالتقاط أنفاسي، أمرّر ترجماتي المركّزة بسرعة عبر السلك إلى سام فيما تثبت يدي اليسرى دفتر ملاحظاتي، وينزلق قلم الرصاص في يدي اليمنى عبر الصفحة وفقاً لنبرة صوت الحاج.

لا حاجة للصراخ يا عزيزي بريان. نسمعك بكل وضوح.

استغرق الأمر تسع دقائق، وهي فترة تعادل ثلثي فترة الاستراحة. ولن يسرق *حمار الوحش* صوتاً أفضل من ذلك في حياته.

* * *

الحاج: كم أنت مريض؟ (ضربات حذاء جلدي متقطّعة، يصعد درجتين، وينزل ثلاث، ثم يتوقف. صمت مفاجئ) مريض جداً؟ (لا جواب. ضربات متقطّعة أخرى. يعود) زوجات أيضاً؟ أطفال؟ (هل يومئ ديدون برأسه؟ من الواضح أنه يفعل ذلك) محض هراء. كم مرّ عليك من زمن؟ (لا جواب). هل تعرف من أين التقطته؟

ديدون: من فتاة. ماذا تعتقد؟

الحاج: متى؟

ديدون: ثمانية وتسعين.

الحاج: حرب ثمانية وتسعين؟

ديدون: ماذا غيرها؟

الحاج: هل كنت تقاتل ضد *الرواندين*؟ (من الواضح أن هناك إيماءة أخرى). *كنت تقاتل الرواندين*، واللعنة على جمهورية الكونغو الديمقراطية الحقيقية؟ يا إلهي! هل قدّم أحد لك الشكر لغاية الآن؟

ديدون: للإصابة بالوباء؟

الحاج: للقتال في حرب أخرى عديمة الجدوى أيها الرجل. (ارتقى وهبط الدرجات). اللعنة. (المزيد من كلمات الحشو). هذه النقابة التي لا تحمل اسماً تريد قفاك، هل تعرف ذلك؟ (تشويش). لدى البانيامولينج أفضل المحاربين، والانضباط، والحوافز والموارد الطبيعية... الذهب والكلتان على النجد... ولا تنقبون عنها حتى، وتحبون أبقاركم اللعينة كثيراً!...

ديدون: (عبر سعاله، وهادئاً جداً) إذاً، ينبغي أن نملي الشروط. ينبغي أن نذهب إلى موانغازا ونقول: أولاً، ينبغي أن تمنحنا كل ما وعدتنا به، وإلا لن نقاتل من أجلك. سنقاتل ضدك. سنقول ذلك.

الحاج: *موانغازا*؟ هل تعتقد أن موانغازا يدير هذا الشيء؟ يا *له* من بطل! يا له - من - متنور - عالمي الطراز!... يا له من صديق *للفقراء* يؤثر الآخرين على نفسه! ذلك الرجل يملك أرخص فيلا ثمنها عشرة ملايين دولار سبق أن رأيتها في إسبانيا. اسألوا والدي... شاشات تلفاز بلازما في كل دورة مياه... *(ضربات عنيفة من الحذاء الجلدي، وحديث مشوّش للغاية، ثم أصبح واضحاً. وبهدوء، مقارنة بالصخب الذي سبقه)* ديدون. انتبه لي. أنت رجل طيب. وأحبّك.

ديدون: (كلام غير مفهوم).

الحـــاج: لن تموت. لا أريدك أن تموت، مفهوم؟ اتفقنا؟ ليس أنت، ولا البانياموليـــنج. ليس مجدداً. ليس بسبب الحرب، وليس بسبب الجوع، وليس بعد الحرب، وليس من الوباء. وإذا كان عليك أن تموت بالنهاية، مُت من شراب الشعير. وعد؟

ديدون: (ضحكة كئيبة) شراب الشعير ومضادات الفيروس.

الحـــاج: أعني، لا أريد أن يموت أي شخص في *أي مكان* في الكونغو لفتـــرة طـــويلة جداً، ما عدا أولئك الذين يموتون بهدوء وسكينة، من *شراب الشعير*. أنت تتعرّق مثل غانية. اجلس.

تحـــسّن الاســـتقبال. وأبلغنا أنطوان عبر سام أن ديدون استقر على مصطبة حجرية تحت شجرة زان أسفل البرج. وكان الحاج يدور حوله في مجال يتراوح بين ثمانية إلى عشرة أقدام. لكنني هناك بجانبهما.

الحـــاج: ... الرواندیون أقوى منا، هل تعرف ذلك؟... أقوى من... البانياموليـــنج، وأقـــوى مـــن محاربي ماي ماي الأشدّاء (قلّد أصوات القرد)... أقوى من كل... كيفو معاً... مفهوم؟ اعترف بذلك.

ديدون: هذا محتمل.

الحـــاج: إنـــه يقـــين محقق وتعرف ذلك. أصغِ إليّ (*يعود إلى ديدون ويتحدّث بقرب شديد إلى أذنه - عشرين - المستقبل عشرين، على ما يـــبدو مـــن الميكرفون على أغصان شجرة الزان*)... أحب والدي. أنا أفريقي. أحترمهم. هل ما زال والدك حياً؟... حسناً، إذاً هذا يعني أنك تحتـــرم روحـــه. وتـــتكلم إلى روحه، وتطيع روحه التي ترشدك سواء الـــسبيل. والـــدي حي، حسناً؟ ثلاث زوجات، وكل الغانيات اللواتي يستطيع الحصول عليهن. ويمتلك حصة في غوما وواحداً وخمسين بالمئة مني، والروانديون يسرقون عمله، أو يعتقد أنهم يفعلون ذلك.

أبلغـــنا أنطـــوان عبر سام أن الحاج يختفي دائماً خلف شجرة الزان ويعاود الظهور مجدداً. وهذا التسجيل يؤكد ذلك في النهاية:

الحاج: استدعاني قبل شهرين، حسناً؟... مناسبة دينية، *أف، أف*... في المكتب، وليس المنزل... لم يكن يريد... أن تستمع زوجاته إلى الحديث... أخبرني حول هذه *الصفقة الجديدة* الرائعة حول كيفو التي اشترك بها، وما سيفعله صديقه القديم موانغازا قبيل الانتخابات التي تمهّد لحرب أهلية، وترمي بكل من لا يحبه خارجاً وتجعل كل من يحبه ثرياً، والشعب ثري أيضاً، لأن لديه تلك النقابة الخيرية الرائعة خلفه، ولديهم أموال طائلة، ونوايا حسنة، والأسلحة، والذخيرة. وأخبرته أن الأمر يبدو رائعاً. ويبدو مثل الملك ليوبلد عندما *جاء* إلى الكونغو. وكان شديد الحماس للفكرة. ولهذا انتظرت حتى هدأ، أي في اليوم التالي... (*توقف، عاد*)... شيء سيئ أثناء ذلك. سيئ فعلاً... استشرت بعض الأشرار الذين أعرفهم... في كينشاسا... أشخاص سيقتلني والدي لمجرد معرفتهم، وهم أشخاص تدفع لهم ليكونوا مهذبين إذا لم تكن تريد الاستيقاظ ميتاً في الصباح... (*تشويش كبير الآن*)... وما الذي أخبرني به هؤلاء الأشخاص؟... تحت غطاء من السرية المطلقة التي لا أتمتع بها الآن؟ أن كينشاسا جزء من الصفقة. ولدى كينشاسا دور تلعبه... أسوأ دور على الإطلاق...

صوت ممتاز. نقلت سام أن الحاج وديدون يجلسان جنباً إلى جنب على المصطبة والميكروفون على ارتفاع ستة أقدام فوقهما، ولا توجد نسمة تعكّر صفوه.

الحاج: لهذا عدت إلى والدي، وقلت له: أبي، أحبك وممتن لأنك دفعت لتنمية دماغي، وأحترم دوافعك الطيبة بما يخصّ موانغازا وشرق الكونغو. ولهذا اسمح لي أن أخبرك أنه بناءً على خبرتي العملية في حل المشاكل، فإنك تواجه مشكلة جدّية لاعتبارين اثنين. وبتقديري بعت وموانغازا نفسيكما بسعر بخس لهذه النقابة غير المعروفة بنسبة تصل إلى ألف بالمئة. والشيء الثاني، وسامحني على وقاحتي، لكن من يحتاج حرباً أخرى؟ أنت وأنا نعتمد كلياً على رواندا في تجارتنا. وهم يرسلون سلعنا إلى العالم من أجلنا. إلى الجميع ما عدا الكونغوليين، وهذا سيكون

أســاس شــراكة تجاريــة مجزية وودودة. ولن يكون ذلك سبباً لذبح زوجات وأطفال بعضنا، أو تنصيب قائد عجوز غير محنّك، والذي رغم محبــتك الكبيرة له، يتعهد بطرد كل من له علاقة برواندا من الكونغو.
هــل أخــبرته حول أصدقائي الأشرار في كينشاسا؟ هل أجرؤ. لكني أخبرته حول صديقي الطيب ماريوس، وهو رجل هولندي بدين صدف أنني درست معه في باريس.

توقــف الاســتقبال مؤقتاً. وأبلغنا فريق سام أن الثنائي يسيران الهوينى فوق العشب على الجانب الآخر من البرج. وكان الاستقبال ضعيفاً جداً.

الحــاج: ... أربعــون سنة... (*تشويش لثانيتين*)... جبال من الأموال الثابتة... أفارقة[؟]... نائب الرئيس في... (*تشويش لسبع ثوان*)... لهذا أخــبرت والدي... (*تشويش لأربع ثواني*)... أصغِ إليّ... أخبرني أنني أكبر فشل في حياته... عارٌ على أسلافنا... ثم سألني أين يستطيع إيجاد هذا الماريوس بحيث يمكنه... القول له كيف أن إغلاق الحدود الرواندية مع الكونغو سيكون الحل المنطقي الوحيد لمشاكل العالم، وهي الطريقة التي يتحدث بها والدي عندما لا يرغب أن تعرف بأنه غيّر رأيه.

صوت معدن، تنهيدة لطيفة صغيرة، وعاد الوضوح. وأبلغتنا سام أن الرجلين يجلسان في ملجأ محصن ضد الرياح ينظران إلى البحر. وهناك إلحاح وطيش تقريباً في صوت الحاج.

الحــاج: هكذا استقل والدي طائرته وذهب لرؤية ماريوس في نيروبي. لــوك يحــب نيروبي، ويعرف غانيات رائعات هناك، وأحب ماريوس، ودخّــن ســيكارين معه. كما أن ماريوس أحب لوك، وأخبره كم هو مغفّــل. "فــيك كل ما قاله ابنك عنك. رجل حكيم رائع. وتريد مع مــوانغازا طــرد الروانديين خارج كيفو بحيث لا يستطيعون بعد ذلك استغلالكم، وهي فكرة رائعة ما عدا شيء واحد فقط. هل تعتقد فعلاً أنهــم لــن يأتوا *ويقضوا* عليكم جميعاً، وتعيدون مع الفائدة ما أخذتموه مــنهم؟ أليس هذا ما يفعلونه في كل مرة؟ إذاً، لماذا لا تكون ذكياً *فعلاً*

وتفعل ما لا يخطر على بال أحد لمرة واحدة في حياتك؟ وعوضاً عن طرد الرواندين، انظر إلى نفسك في المرآة، وضع أكبر ابتسامة لديك، وتصرف كما لو أنك تحبهم؟ أنت تعمل معهم سواء أحببت ذلك أو لا، ولهذا حاول أن تحب ذلك. ثم إن شركتي ربما تتعامل أو تشتري منك، وسيكون لديك شباب لامعون مثل ابنك الذكي في مجلس الإدارة، وتكون العلاقة جيدة مع كينشاسا، وعوضاً عن موت ثلاثة ملايين شخص، سنحظى بالسلام والعيش المشترك".

ديدون: (*بعد تفكير مطوّل!*) هل والدك متحالف مع هذا الرجل؟

الحاج: إنه لوك، بحق السماء. أفضل لاعب بوكر في غوما. لكن هل تعرف شيئاً؟ اللعين الهولندي البدين كان محقاً. لأنه عندما يعود الروانديون فعلاً، ماذا سيجلبون معهم؟ الكارثة الكاملة. مثل المرة الماضية، ولكن أسوأ. سيجلبون الأنغوليين، والزيمبابويين وأي أحد آخر يكرهنا بشدة ويريد ما لدينا. وعندما يحدث ذلك، انسوا عملية السلام، وانسوا الضغط الدولي، وانسوا الانتخابات، لأن الأوغاد البانياموليج الفقراء سيموتون مثل الذباب، وهذا ما يجيدون فعله. ولكن ليس أنا. سأكون قد عدت إلى باريس، والضحكة تملأ وجهي.

ابقَ حيث أنت أيها العزيز بريان. المساعدة في طريقها إليك الآن.

* * *

"هل أنت عامل مناجم أيها الشاب؟ تبدو لي مثل الأسلاك الشائكة".

كان ماكسي ينحني فوقي، مثل الغول، ويداه على مسنديّ مقعدي فيما كان يحدّق على ما يحب السيد أندرسن أن يدعوه *حروفي البابلية*. واختفى سبايدر، الذي أرسله ماكسي لحزم الحقائب. ارتدى فيليب قميصاً وردياً وحمّالة بنطال حمراء، ووقف في البوابة التي تقود إلى الممر. شعرت بالاتساخ دون أن أعرف السبب، وكان الأمر كما لو أنني تبادلت الحب مع بينلوب بعد عودتها من إحدى مؤتمراتها في عطلة نهاية الأسبوع.

أجــبت: "منـــتج منـــــزلي يا سكيبر. قليل من الكتابة السريعة، وقليل من الاختزال، وقطعة كبيرة مني". هذا ما أقوله لكل زبائني، لأنه إذا كان يوجد شيء واحد تعلّمته، فهو عدم السماح لهم بأن يعتقدوا أن دفتر ملاحظاتي وثيقة تسجيل وإلا سينتهي بي الأمر في المحكمة أو أسوأ".

"اقرأ لنا ذلك مجدداً، أيها الشاب، هل تفعل؟"

قــرأته لهم مجدداً كما طلب. بالإنكليزية، من ملاحظاتي كما في السابق، و لم أحــذف أي تفصيل مهما كان صغيراً، إلخ... وكان ماكسي وفيليب يزعجانني، رغـــم أنني كنت حريصاً على عدم إظهار ذلك. أخبرهم مسبقاً أنه بدون أدوات السيد أندرسن المتطورة لتنقية الصوت، قد يستغرق الأمر الليل بطوله، ولكن ذلك لم يمنعهم، آه لا. كانوا يريدون الاستماع إلى الصوت الحقيقي على سمّاعاتي، وهو مـــا اعتبرته غير منطقي، لأنه ما من أحد منهم يتحدث كلمة من لغاتي تحت خط المـــياه. وكانت الفقرة التي استحوذت على اهتمامهم هي التشويش لمدة سبع ثواني بعـــد أول إشارة إلى الهولندي الذي يدخن السيكار الكبير، وإذا كنت لا أستطيع فهم شيء منه، لماذا يفترضون أنهم يستطيعون ذلك؟

ســـلّمت فيلـــيب سمّاعاتي، معتقداً أنه قد يستخدم إحداها على أذنه، ولكنه وضعها على كلتيهما. وسمعها مرة، وسمعها ثلاث مرات. وفي كل مرة سمعها، كان يومئ برأسه موافقاً إلى ماكسي. ثم سلّم ماكسي السمّاعات، وأمرني بإعادة المقطع مجــدداً وأخيراً أومأ ماكسي برأسه موافقاً أيضاً مما يؤكد فقط ما كنت أشك به: إنهمـــا يعرفان ما يستمعان إليه، و لم يخبراني. ولا شيء يجعل المترجم المحترف يبدو أكثـــر سخفاً، وأقل فائدة، من عدم معرفته بكل ما لدى صاحب عمله. وعلاوة علـــى ذلك، إنه شريطي، وليس شريطهم. إنه تذكاري. وكنت أنا من انتزعه من قبضة الحاج، وليس هم. لقد قاتلت الحاج للحصول عليه، وكانت تلك مبارزتنا.

أكّد لي ماكسي: "عمل رائع، أيها الشاب".

أجبت: "بكل سرور يا سكيبر"، وكان تعبيراً مهذّباً مني فقط. ولكن ما كنت أفكّر فيه هو: لا تربت على كتفي، شكراً لك، ولا أحتاج لذلك، ليس حتى منك.

قال فيليب سعيداً: "عمل رائع للغاية".

ثم ذهبا كلاهما، وهكذا لم أسمع سوى وقع زوجٍ من خطوات الأقدام ترتقي درجـــات القبو لأن فيليب مستشار صامت، ولن أكون متفاجئاً إذا لم يكن له ظل أيضاً.

* * *

خلال ما بدا أنه وقت طويل بعد مغادرتهما، لم أفعل شيئاً. ونـــزعت سماعتيّ الـــرأس، ومـــسحت وجهي بمنديلي، وأعدت وضع سماعتيّ على رأسي، وبعد أن جلـــست واضعاً ذقني في راحة يدي لبعض الوقت، استمعت إلى فترة الثواني السبع لآخـــر مـــرة. ما الذي سمعه ماكسي وفيليب ولم أكن موضع ثقة لأعرفه؟ أدرت الـــشريط بالحركة البطيئة، وسرّعته للأمام، ولم أحصل على شيء: ثلاث أو أربع كلمات تنتهي بنفس الحرف، وكلمات من ثلاثة أو أربعة مقاطع، وكنت أستطيع التفكير بعشرات الكلمات التي تتناسب نهايتها مع ذلك: فرقة، فيلق، جيش والكثير غيرها. وبعدها، كلمة مثل هجوم.

نـــــزعت سماعـــاتي ثانـــية، ودفنت وجهي في يديّ وهمست في الظلام. لم تسعفني كلماتي الحقيقية في هذا اليوم. والقول بأن لديَّ مشاعر خيانة حقيقة سابق لأوانه. أقصى ما أستطيع الاعتراف به هو الشعور بالفزع الذي سرى في جسدي، والـــذي كـــنت مصمماً على عدم امتحان أصوله. وفي الآثار الناتجة عن معركتي الوحيدة مع الحاج، تمّ محوي وإلقاء ما تبقى مني على الأرض. وتساءلت حتى فيما إذا كانـــت مبارزتنا مجرد وهم اخترعته في مخيلتي، حتى تذكّرت كيف كان الحاج قلقـــاً من المراقبة منذ لحظة وصوله إلى جناح الضيوف. ولم أكن، بكل الأحوال - على عكس كل ما قد تعتقده صديقة بينلوب الحميمة بولا - في حالة إنكار. ولم أبـــدأ حتى بالعمل على ما كنت أنكره. وإذا كان لديَّ شعور بضرورة التخلي عن شـــخص ما، فلا بد أنه تحول إلى عقلي الباطن. لقد خذلت نفسي، وهي الطريقة التي وصفت بها حالتي عبر الأثير إلى حنا، فيما أعتبره الآن بالنقطة الدنيا في الرسم البياني لذلك اليوم المشهود.

سام؟ هذا أنا. بريان. ما الذي يجري؟

لا شيء. سام ليست في موقعها. وكنت أعتمد على بعض التعاطف النسائي، لكـــن كـــل ما كنت أسمعه عبر سماعيّ الرأس هو حديث رجال في الخلفية. ولم تكلّف نفسها عناء إغلاق ميكروفونها، وهو ما اعتبرته عدم اهتمام نوعاً ما وعملاً غـــير آمن. نظرت إلى ساعة العمة إيملدا. كانت الاستراحة تتجه نحو وقت إضافي. ظهر عدم اعتماد الحاج بشكل حاسم على الاتفاق الذي عقده والده مع منافسه، ورتّـــب له وغد هولندي بدين يدخّن السيكار، كما لو أنه وضع القط بين الحمَام بنجاح. وربما هذا ما دفعه ليدعوني بحمار الوحش. لم يكن سبايدر قد عاد بعد من المكان الذي ذهب إليه. هناك الكثير من التفاصيل في هذا المنـــزل التي لم يخبرني بها أحـــد. مـــثل موقع غرفة العمليات، أو أين يقيم أعضاء فريق مراقبة أنطوان. وأين يختفي جاسبر، وأين بيني. لكني لم أكن بحاجة لأعرف ذلك، أليس كذلك؟ لست سوى مجرد مترجم. ينبغي أن يعرف الجميع ما عداي.

ألقـــيت نظـــرة علـــى الخطة السرية. وكان الحاج وديدون قد انفصلا عن بعـــضهما. بقي المسكين ديدون وحيداً في غرفة الضيوف. وربما كان يؤدي صلاة ســـريعة. وعـــاد الحاج إلى البرج، مسرح انتصاره المفترض. فقط لو كان يعرف! وتخيّلـــته يحدّق بالبحر بعينيه الجاحظتين، ويهنئ نفسه على إفساد خطة موانغازا. كـــان ضوء غرفة فرانكو مطفأ. ويبدو أنه ما زال في خلوة مع موانغازا في الشقق الملكية. خارج الحدود. لأغراض التوثيق فقط.

أحـــتاج إلى صـــوت. ولا أحب أصوات الاتهامات التي بدأت ترتفع داخل رأســـي، وصوت حنا أولها. ولست هنا لأكون عُرضة للنقد. لقد بذلت قصارى جهـــدي لصالح صاحب عملي. ما المفترض بي فعله؟ أن أتظاهر أنني لم أسمع الحاج يقول ما قاله؟ أن أحتفظ به لنفسي؟ أنا هنا للقيام بعمل والحصول على مال مقابل ذلـــك. نقداً. حتى إذا كان ضئيلاً مقارنة بما يدفعونه إلى جاسبر. أنا مترجم، هم يتحدثون، وأنا أترجم. لا أتوقف عن الترجمة للآخرين عندما يقولون أشياء خاطئة. ولا أراقب، وأحرّر، وأعدّل أو أستنبط، ليس بالطريقة التي يقوم بها بعض الزملاء. أقوم بعملي بشكل مباشر، وإذا لم أفعل ذلك، لن أكون الابن المفضل لدى السيد أندرســـن. لن أكون عبقرياً في مجالي. قانوني أو تجاري، مدني أو عسكري: أترجم

عن الجميع على حدٍّ سواء ودون تحيّز، بغضّ النظر عن اللون، والعرق والعقيدة. أنا الجسر، آمين وأخرج.

حاولـــت مع سام مجدداً. ما تزال بعيدة عن موقعها. توقفت الثرثرة الذكورية في غـــرفة العملية. عوضاً عن ذلك، بفضل لا مبالاة سام، سمعت فيليب. وعلاوة على ذلك، كان يتحدث بوضوح بحيث أستطيع سماع ما يقوله، ويستطيع أيٌّ كان تخمـــين الشخص الذي يتحدث إليه، كان صوته يتجاوز جداراً واحداً على الأقل قـــبل أن يصل إلى ميكروفون سام، لكن ذلك لم يؤثر على سمعي. كنت في حالة اســـتنفار بعد مبارزتي مع الحاج بحيث إذا عطست ذبابة في سماعتيّ رأسي أستطيع معرفة عمرها وجنسها. المفاجأة أن صوت فيليب مختلف جداً عما ألفته بحيث كان صعباً عليَّ معرفته من المقاطع الأولى لكلامه. كان يتحدث إلى مارك، ومن الحكم على نبرة فيليب المهيبة، كان مارك مرؤوساً له:

فيلـــيب: أريـــد معرفة طبيبه، وتشخيص حالته، والعلاج الذي يتلقاه المريض، ومتى يتوقعون إخراجه من المستشفى إذا كانوا سيفعلون ذلك، ومـــن يلتقي على سرير مرضه، ومن معه إلى جانب زوجاته، وعشيقاته وحرّاسه الشخصيين... لا، لا أعرف المستشفى اللعين الذي يوجد فيه يا مارك، وتلك هي مهمتك، وهذا ما تتلقى أجراً عليه لأنك موجود في المكـــان المنـــشود. حسناً، كم عدد مستشفيات القلب في كيب تاون، كرمى لله؟

نهاية المكالمة الهاتفية. المستشارون المستقلون البارزون أكثر أهمية من أن يقولوا إلى اللقـــاء. يحتاج فيليب للحديث مع بات. طلب رقماً جديداً، وسأل عن بات عندما تمّ الاتصال.

فيلـــيب: الاسم ماريوس، وهو هولندي، بدين، في الأربعين من العمر، ويدخن السيكار. كان مؤخراً في نيروبي، وكل ما أعرفه أنه هناك الآن. إنه يدرس إدارة الأعمال في باريس، ويمثّل صديقنا القديم *اتحاد شركات الـــتعدين الكـــبرى*. ومن هو بطبيعة الحال؟ (*تسعون ثانية يقول خلالها فيلـــيب نعم إنه يستمع ويسجل ملاحظات، مثلي تماماً. أخيراً*) شكراً

جزيلاً لك يا بات. ما خشيته تماماً، وأسوأ. ما لم نكن نرغب بمعرفته. أنا ممتن للغاية. الوداع.

إذاً نحن نعرف الآن. و لم يكن الأمر يخصّ *فرقة، وفيلقاً* وجيشاً. كان التعدين، ولـــيس الهجوم. كان الحاج يتكلم حول اتحاد شركات التعدين التي كان الهولندي الـــبدين الممـــثل الأفريقـــي لها. لمحت سبايدر واقفاً على الجانب الآخر من شبكة مـــيكانو، يتفقّد التجهيزات، ويبدّل الأشرطة ويضع علامات على الجديدة. رفعت سماعة وابتسمت في محاولة لأبدو اجتماعياً.

قال سبايدر، بلهجة ويلزية غامضة: "يبدو أننا سنحظى بفترة غداء حافلة إذاً يـــا بريان، بفضلك. لقد تمّ وضع الخطط للكثير من النشاطات، بطريقة أو بأخرى".

"ما نوع هذه النشاطات؟"

"حسناً، سيكون ذلك شديد الأثر، أليس كذلك؟ لا تفشِ سراً أبداً. هذا ما نصح به السيد أندرسن، هل تتذكر؟ ستحصل دائماً على خلاصة الصفقة".

اســـتبدلت سماعيّ، وألقيت نظرة متفحّصة على المخطط السري. ضوء غرفة مـــوانغازا البنفـــسجي الخافت يغريني مثل دعوة ماخور. *تعال يا سالفو. ما الذي يمنعك؟ قواعد المدرسة؟* خارج الحدود إلا إذا قال لك فيليب شيئاً مخالفاً. للأرشيف فقـــط، ولـــيس للعملـــيات. نسجّل، لكن لا نستمع. ليس إذا كنا مترجمين *حميراً* وحشية. لهذا، إذا لم أكن مخولاً بالاستماع، من إذاً؟ السيد أندرسن الذي لا ينطق بكلمـــة حول أي شيء سوى بإنكليزية أهل شمال البلاد؟ وماذا عن النقابة التي لا تحمل اسماً، كما دعاها الحاج: هل يستمعون *حقاً*؟ عبر وصلة مثلاً.

كـــنت أفكّر فعلاً بتلك الطريقة؟ هل تغلغل تحريض الحاج تحت جلدي دون أن ألاحظ؟ هل قلبـــي الأفريقي يخفق بصوت أعلى مما هو مسموح له؟ هل يخفق قلب حنا؟ وإذا كان الجواب لا، لماذا تتحرك يدي اليمنى بنفس التأنّي الذي ألقت بـــه بعشاء بينلوب *الكوك* - *او* - *فين* في وحدة التخلص من الفضلات؟ تردّدت، لكـــن ليس بسبب وخز الضمير في اللحظات الأخيرة. وإذا ضغطت على المفتاح، هل ستدوّي صفارات الإنذار في كل المنـــزل؟ هل سيصدر عن الضوء البنفسجي

الخافت على المخطط السري إشارة خطر؟ هل سيندفع حرّاس أنطوان بسرعة نزولاً على درجات القبو للنيل مني؟

ضغطت عليه بأي حال، ودخلت غرفة الرسم في الشقق الملكية المحظورة. وكان فرانكو يتحدث السواحيلية. الاستقبال رائع، دون صدى أو ضوضاء. تخيّلت سجاجيد سميكة، وستائر، وأثاثاً جميلاً. فرانكو مسترخياً. ربما أعطوه شراباً. لماذا فكرت بالشراب؟ فرانكو رجل شراب. والمحادثة بين فرانكو والدلفين. لم يكن هناك دليل مؤكد بعد على حضور موانغازا، رغم أن شيئاً ما في أصواتهم أخبرني أنه ليس بعيداً.

فرانكو: سمعنا أنه في هذه الحرب سيتم استعمال الكثير من الطائرات.

دلفين: ذلك صحيح.

فرانكو: لديَّ شقيق. لديَّ عدّة أشقاء.

دلفين: أنت محظوظ.

فرانكو: الشقيق المفضّل لديَّ مقاتل جيد، لكن المخزي في الأمر أن ليس لديه سوى بنات. أربع زوجات، وخمس بنات.

دلفين: (*قول مأثور*) مهما طال الدجى، لا بد أن ينجلي الصباح.

فرانكو: وبين تلك البنات، لدى البكر كيس على عنقها يعوق فرصها في الزواج. (*أصوات إجهاد أربكتني حتى أدركت أن فرانكو وصل إلى نفس البقعة بجسده الأعرج*) إذا أرسل موانغازا ابنة أخي إلى جوهانسبرغ للعلاج سراً، سيكون لدى أخي مشاعر طيبة تجاه الطريق الوسط.

دلفين: المتنور زوج مخلص وأب لعدّة أطفال. سيتم ترتيب السفر.

وصادق رنين الأقداح على الوعد. وتعابير احترام متبادلة.

فرانكو: هذا الشقيق رجل بارع، ومحبوب بين رجاله. وعندما يصبح موانغازا *حاكم جنوب كيفو*، نصيحتنا له أن يختار شقيقي قائداً للشرطة لكامل المنطقة.

دلفين: في الديمقراطية الجديدة، كل التعيينات ستكون نتيجة استشارات شفافة.

فـــرانكو: سيدفع شقيقي مئة بقرة وخمسين ألف دولار نقداً لفترة تعيين تمتد ثلاث سنوات.

دلفين: ستتم دراسة العرض ديمقراطياً.

مـــن الجانـــب الآخـــر لشبكة ميكانو، كان سبايدر يحدّق بي، وقد تقطّب حاجباه. ورفعت السمّاعة.

سألت: "هل هناك شيء؟"

"ليس على حدّ علمي أيها الشاب".

"إذاً، لماذا تحدّق بي؟"

"رنّ الجرس. هذا هو السبب. كنت مشغولاً للغاية و لم تسمعه".

12

"ثلاث قواعد أيها السادة! ولكل قاعدة مجال مفتوح، وسيتم استغلال الموارد الطبيعية بالحدّ الأدنى، وستكون مفتاحاً حيوياً لازدهار كيفو".

حاضـر بـنا ماكسي مرة أخرى، وعصا البليارد في يده، من رأس الطاولة. المطـار لـنا، وسيتم تنصيب موانغازا. وسرعان ما ستُحكم النقابة سيطرتها على مناجم جنوب كيفو في الوقت الذي سيكون فيه هنا ثلاث قواعد ننطلق منها. إنها نائية، وليس هناك مالكون لحقوق امتياز ينبغي التعامل معهم. ولدى دخولي غرفة المؤتمـر مجـدداً، انـتابني شعور أن هناك تحوّلاً ظاهرياً طرأ على الموجودين فيها. ويتـصرف الحاج وديدون، اللذان كانا قبل دقائق فقط يشتركان في محادثة لإثارة الفتـنة، كمـا لو أنهما لم ينظرا إلى بعضهما قط. الحاج يهمهم بكلام غير مفهوم لنفسه ويبتسم بتكلّف. ويهذّب ديدون بتأمل لحيته بأصابعه النحيلة. جلس بينهما فـرانكو، ووضع على وجهه المليء بالبثور قناع الصلاح. من كان يتخيل أنه كان قـبل دقائق قليلة يحاول رشوة الدلفين الملاك؟ ومن المؤكد أن فيليب لم ولن يصدر أوامر معينة حاسمة تخصّ ما قاله على الهاتف؟ يداه الممتلئتان متشابكتان عبر مقدمة قميـصه بـسكون ناسك. هل مشّط شعره الأبيض الأجعد بين الجلسات؟ وهل حـاول تسوية الجعدات الصغيرة خلف أذنيه؟ ويبدو تابيزي لوحده غير قادر على إخفاء الأفكار الجموحة التي تغلي بداخله. وربما يستطيع السيطرة على ما تبقى من جسده، ولكن وميض الثأر الذي يلمع في عينيه الحور لا يمكن إخماده.

كانـت الخـريطة التي يعمل عليها ماكسي كبيرة جداً بحيث اضطر أنطوان لفتحها مثل اللحاف على إحدى نهايتي الطاولة. ومثل سكيبر، نـزع سترته عنه. وكانـت ذراعاه العاريتان ممتلئتين بالوشوم من مرفقيه إلى معصميه: رأس جاموس، نـسر برأسـين يمسك بالكرة الأرضية وجمجمة على نجمة تخليداً لذكرى فصائل

المظليين في نيكاراغوا. ويحمل طبقاً من الدمى البلاستيكية الصغيرة: مروحيات مع شـــفرات دوّارة، طائـــرات ذات محـــركين دون شفرات، مدافع تقطرها عربات الذخيرة، جنود مشاة مزوّدون بحراب ثابتة.

مـــشى ماكـــسي إلى جانـــب الطاولة، وعصا البليارد على أهبة الاستعداد. وحاولت تفادي عيني الحاج. وكلما أشار ماكسي بعصاه، رفعت نظري عن دفتر ملاحظـــاتي لأرى أن الحاج يحدجني بنظرة متفحصة. ما الذي يحاول أن يقوله لي؟ أنني خنته؟ أننا لم نتبارز مع بعضنا أبداً؟ أننا أصدقاء حميمون؟

أخـــبر ماكسي فرانكو: "مكان صغير يدعى لولينغو"، فيما كان رأس عصا البلـــيارد يـــستقر للدلالة عليه. "في قلب أراضي ماي ماي. *لب ماي ماي، تمام؟ اتفقـــنا؟* رجل طيب". دار على عقبيه نحوي: "افترض أنني طلبت منه وضع ثلاثمئة من أفضل رجاله هناك، هل سيفعل ذلك من أجلي؟"

فيما كان فرانكو يفكّر في عرضي، استدار ماكسي إلى ديدون. هل هو على وشك تقديم نصيحة له بابتلاع علبة من الأسبرين؟ وعدم التسكع في مؤخرة الحشد الآن لأن الوقت انتهى؟

"منطقتك، صحيح؟ شعبك. مراعيك. ماشيتك. نجدك".

اتجهت العصا نـــزولاً على طول الشواطئ الجنوبية لبحيرة تنجنيقا، وتوقفت في منتصف المسافة، وانحرفت يساراً وتوقفت مجدداً.

أقرّ ديدون: "إنها منطقتنا".

"هل تستطيع إنشاء قاعدة محصّنة لي، هنا؟"

تجهّم وجه ديدون: "لك؟"

"لأجل البانيامولينج. لأجل كيفو موحّدة. لأجل السلام، والمساواة والازدهار لكل الشعب". الكلمات التي استخدمها موانغازا تعود بالتأكيد لماكسي.

"من سيزوّدنا بالإمدادات؟"

"نحن. من الجو. سنقوم بإنـــزال كل ما تحتاجون إليه طالما كنتم بحاجة إليه".

رفـــع ديدون بصره إلى الحاج كما لو أنه يلتمس شيئاً منه، ثم دفن وجهه بين يديـــه الطويلتين النحيلتين وأبقاه هناك، والتحقت به لجزء من الثانية في ظلمته. هل

أقـــنعه الحاج؟ إذا كان الأمر كذلك، هل أقنعني؟ وارتفع رأس ديدون. وكان يبدو عاقد العزم، ولكن لا أحد يستطيع التخمين على ماذا. وبدأ التفكير عالياً باستخدام جمل قصيرة وحاسمة فيما كان يحدّق بعيداً.

"قامـــوا بدعوتـــنا للانـــضمام إلى جيش كينشاسا. لكن فقط للقضاء علينا. وقدّمـــوا لنا مناصب توحي بوهم السلطة. ولكنها في الحقيقة لم تكن تساوي شيئاً يذكر. وإذا حدثت الانتخابات، سترسم كينشاسا حدوداً لا تسمح بظهور صوت البانياموليـــنج في البرلمان. وإذا تمّ ذبحنا، لن تحرّك كينشاسا ساكناً لإنقاذنا. ولكن، الروانديون سيأتون لحمايتنا. وستكون تلك كارثة أخرى تحل بالكونغو". أعلن عن اســتنتاجه مـــن بـــين أصابعه المفلطحة. "لا يستطيع شعبـــي احتمال رفض هذه الفرصة. سنقاتل مع موانغازا".

اتـــسعت عينا الحاج عندما حدّق به، وأطلق ضحكة صبيانية غير مصدقٍ لما يسمعه. ودقّ ماكسي طرف عصاه على سفوح التلال جنوب غرب بوكافو.

"وهذا المنجم الرائع يعود *لك*، يا حاج؟ هل هذا صحيح؟ أنت ولوك؟"

أقرّ الحاج باستهجان: "اسمياً؟"

"حـــسناً، إذا لم يكن لك، لمن هو؟" مداعباً ومتحدياً في الوقت نفسه، وهو شيء لم أحاول التخفيف من وقعه.

"قامت شركتنا بتلزيمه".

"لصالح من؟"

ردّ الحـــاج بـــسرعة: "بعض رجال الأعمال الذين يعرفهم والدي شخصياً"، وتساءلت عمّن يكون قد سمع أيضاً نبرة التمرد في صوته.

"الروانديون؟"

"روانديون يحبون الكونغو. مثل هؤلاء الناس موجودون".

"وأفترض أنهم موالون له؟"

"موالـــون له في ظروف عديدة. وفي ظروف أخرى، موالون لأنفسهم، وهذا شيء طبيعي".

"إذا ضاعفنا إنتاج المنجم ثلاث مرات ودفعنا لهم حصة ثابتة، هل سيكونون موالين *لنا*؟"

"لنا؟"

"النقابة. على افتراض أنهم مسلحون جيداً ولديهم إمدادات لصد أي هجوم. قال والدك إنهم سيقاتلون معنا حتى آخر رجل".

"إذا كان ذلك ما قاله والدي، إذاً ما يقوله والدي صحيح".

في إحباطه، تحوّل ماكسي نحو فيليب. "فهمت أن كل هذا متفق عليه مسبقاً".

أجاب فيليب بهدوء: "لكن *بالطبع* متفق عليه يا ماكسي. إنه اتفاق منجز، ومختوم وموزّع. ووقع لوك عليه منذ وقت *طويل*".

بدأ الجدال بالإنكليزية واتخذ منحى شخصياً، واخترت عدم ترجمته، ولكن ذلك لم يمنع الحاج من لفّ رأسه حوله والتكشير مثل معتوه، وصبّ جام غضبه الصامت على فليكس تابيزي.

تابع ماكسي كلامه: "ثلاثة قادة، وثلاثة جيوب مستقلة"، مخاطباً المؤتمر ككل. "الكل منها مهبطها الخاص، غير المستخدم أو المستعمل كلياً أو جزئياً. وستشهد كل منها حركة جوية كثيفة خارج بوكافو. وسيتم حل كل مشاكل الهبوط، والإقلاع والنقل دُفعة واحدة. ولا يمكن كشفها وهي - في غياب قوة جوية معادية — منيعة".

قوة جوية معادية؟ من هو *العدو* بالتحديد؟ هل كان هذا ما يتساءل عنه الحاج، أم أنا؟

أصرّ ماكسي: "لا يمكنك في كل عملية عسكرية أن تدفع لرجالك مما تجود به الأرض التي تخيّم عليها، كرمى لله"، بنبرة رجل تغلّب على المعارضة. "وتشعر بالارتياح لمعرفة أنك قدّمت خدمة لبلادك فيما أنت قائم عليها. أخبرهم بذلك أيضاً، أيها الشاب. وتطرّق إلى الفوائد الاجتماعية، وأن كل زعيم سيحصل على الكثير من المال، ولا يوجد سبب يمنع ذلك على اعتبار أنه سيمرّره إلى قبيلته أو عشيرته؟ ولا يوجد سبب على الأرض، على المدى الطويل، يمنع القواعد من إنشاء

مجتمعات مزدهرة تدير نفسها بنفسها. مدارس، ومحال، وطرق، ومراكز صحية، وكل ما يخطر بالبال".

دار لغط عندما وضع أنطوان مجسّم طائرة بلاستيكي على قاعدة فرانكو في الأدغال، واستحوذ على انتباه الجميع. وشرح ماكسي أنها أنتونوف - 12. تحمل شحنة من آلات الحفر، والقلابات، والرافعات والمهندسين. يمكن لمهبط الطائرات أن يستوعبها بسهولة. وكل ما يحتاجه أحد، تستطيع أنتونوف نقله بسرعة. ولكن مرة أخرى، يعترض الحاج طريقه، وهذه المرة برفع يده في الهواء وإبقائها هناك مثل طالب مطيع ينتظر دوره.

"سيد فيليب!"

"حاج".

"هل أكون على صواب عندما أفترض أنه بموجب الاتفاقية المقترحة ينبغي على الميليشيا البقاء في قواعدها لفترة ستة شهور على الأقل؟"

"أنت على صواب فعلاً".

"وبعد الستة شهور؟"

"بعد ستة شهور سيتم تنصيب موانغازا بانتخاب شعبي، وستكون عملية إنشاء كيفو للجميع تأخذ مجراها".

"ولكن خلال تلك الشهور الستة - قبل أن تعود المناجم إلى أيدي الشعب - من سيسيطر عليها؟"

"النقابة، من غيرها؟"

"النقابة ستنقّب عن التبر؟"

"آمل ذلك بالتأكيد". ضحك.

"وتقوم بشحنه؟"

"طبيعي. لقد شرحنا كل ذلك للوك".

"هل ستقوم النقابة أيضاً ببيع التبر؟"

"تسويقه، إذا كان ذلك ما تعنيه".

"قلت بيعه".

كــرّر فيلــيب: "وقلت تسويقه"، مع ابتسامة إلى الرجل الذي يتمتع بنشاط كبير.

"والاحتفاظ بكل الأرباح لها حصرياً؟"

علــى الجانب الآخر من الطاولة، كان تابيزي على وشك الانفجار، ولكن فيليب الفطن سبقه مرة أخرى.

"الأربــاح أيها الحاج - العائدات كلمة ألطف - كما قلت ضمناً، ستذهب خــلال الشهور الستة الأولى لتغطية نفقات استثمار النقابة. ويتضمن هذا بالطبع التكاليف العالية لدعم إيصال موانغازا إلى السلطة".

فكّــر الحــاج ملياً بهذا، وراقبه كل الموجودين في الغرفة. واستأنف حديثه: "وهذه المناجم، وهذه القواعد الثلاث التي اختارتها النقابة - واحدة لكل منا -".

"ماذا عنها؟"

"حسناً، إنها ليست مجرد مناجم قديمة، منتقاة عشوائياً، أليس كذلك؟ وربما لا تبدو مهمة، ولكنها مواقع وفيرة الإنتاج".

"أخشى أنني أضيع معك يا حاج. لست رجلاً تقنياً على الإطلاق".

"فيها ذهب وماس، صحيح؟"

"آه، آمل ذلك بالتأكيد! وإلا سنكون قد ارتكبنا خطأً فظيعاً".

"هذه المناجم مليئة أيضاً".

"آه، حقاً؟"

"نعــم، حقــاً. هناك تلال حولها من تبر الكلتان. والتبر مستخرج، ومكدّس ومهجور فيما نحن مشغولون جداً بالموت لدرجة أنه ليس لدينا الوقت لنقله. وكل ما عليكم فعله هو تكرير الخام في مواقعه لتخفيف الوزن، وشحنه وتحصلون عندها على ثروة. لستم بحاجة حتى لستة شهور. شهران سيفيان بالغرض".

علــى حافة الحاجز أمامي، كان تابيزي يستشعر برفق البثور على فكه بأنامل أصابعه التي تحمل الجواهر، ولكن بالنسبة لي كان يفكر في فك الحاج.

أجاب فيليب بلطف شديد: "حسناً، شكراً على تلك المعلومات يا حاج. لا يمكنني أن أتخيل أن خبراءنا غافلون عمّا قلته لنا، لكنني سأضمن تمرير هذه المعلومات لهم. و لم يعد الكلتان المادة العجيبة كما كان من قبل، للأسف، لكنني متأكد من أنك تعرف ذلك".

* * *

"متغيرة يا سكيبر؟"

ارتفعت يدي لأطلب توضيحاً. وقدّمه ماكسي بنزق. حسناً. كيف يُفترض بي أن أعرف أن أجهزة اللاسلكي تتحول بسرعة من موجة إلى أخرى بحيث لا يستطيع جهاز استماع في كل أفريقيا، ما عدا الموجود في بوكافو، رصدها؟

"مرزق، يا سكيبر؟"

"مرتزقة يا رجل! اللعنة. ماذا كنت تعتقد أنها تعني؟ سيارات؟ اعتقدت أنك تفهم المصطلحات العسكرية".

"و ش. ع. خ. يا سكيبر؟" بعد أقل من دقيقتين.

"شركة عسكرية خاصة؛ يا إلهي يا سنكلير، أين كنت طوال حياتك؟"

أعتذر، وهو شيء ينبغي على المترجم المحترف عدم القيام به أبداً.

"*كوردون* (نطاق). هل تفهم ذلك أيها الشاب؟ إنها كلمة فرنسية، وينبغي أن تكون مألوفة لك. وحالما يتمّ تأمين القاعدة، نضرب نطاقاً حولها. ضمن دائرة شعاعها خمسة عشر ميلاً، ولا يستطيع أحد الدخول أو الخروج دون موافقتنا. ويتمّ نقل كل التجهيزات بالمروحية. مروحيتنا، وطيارنا، ولكن قاعدتك".

وضع أنطوان دمية لمروحية على كل قاعدة. وعندما تحركت لتفادي نظرة الحاج، اكتشفت أن فيليب قد اتخذ وضعية مركزية.

"وهذه المروحيات أيها السادة – لم يكن فيليب خجولاً من أداء دور المخرج، وانتظر حتى ساد الصمت المطبق، وعندها بدأ مجدداً – سيتم طلاء هذه المروحيات،

الحيوية كثيراً لعمليتنا، باللون *الأبيض* بهدف تمييزها. ولسهولة المرور، نقترح احترازياً وضع علامات الأمم المتحدة عليها"، وأضاف ذلك بلغة الكرّاسات التي عملت جاهداً لمضاهاتها فيما تسمّرت عيناي على قارورة بيرير، وأغلقت أذنيّ عن صرخات ازدراء حنا العالية.

وعاد ماكسي. وعرض علينا مدفع الهاون من عيار ستين ميليمتراً، الضروري لإحداث الفوضى التي يحبها سبايدر. وكان لديه كلمة طيبة أو اثنتان حول الصواريخ الذاتية الدفع التي يصل مداها إلى تسعمئة ياردة ثم تنفجر ذاتياً، وتقضي على فصيلة جنود، لكن مدافع الستين ميليمتراً هي التي تستحوذ على قلبه. وترجمت كلامه، وكان الوضع شبيهاً بالدخول في نفق طويل، وسماع صوتي القادم إليّ من الظلام:

- أولاً، ننقل الوقود ثم الذخيرة.

- سيحصل كل رجل على كلاشينكوف تشيكي الصنع. لا يمكن إيجاد أفضل منه في العالم.

- ستتلقى كل قاعدة ثلاثة مدافع رشاشة روسية من عيار 7.62، وعشرة آلاف رصاصة من الذخيرة، ومروحية بيضاء واحدة لنقل الشحن والجنود.

- وستكون كل مروحية بيضاء مزوّدة بمدفع رشاش طراز غاتلنغ في قمرتها الأمامية، والقادر على إطلاق أربعة آلاف رصاصة من عيار 12.7 في الدقيقة الواحدة.

- سيكون لديكم متسع من الوقت للتدريب. ولم أعرف إطلاقاً وحدةً تلقت تدريباً أفضل.

أخبرهم بذلك أيها الشاب.

فعلت ذلك.

لم يرنّ الجرس، ولكن ساعة مكتب البريد أشارت إلى الوقت المحدد، وتمسّكنا نحن الجنود بشكليات الوقت. وانفتح كلا بابي المكتبة على مصراعيهما. ووقفت نساؤنا المنسيات، اللواتي يرتدين مآزر من القماش القطني المخطط، أمام مائدة

ملكـــية مفتوحة. وفي حالتي اللا شعورية، لاحظت كركند على الكثير من الجليد، وسلمون مزيّن بالخيار، ووجبات باردة من اللحم، وأطباق من الجبن تتضمن نوع بـــري الطـــري الذي فرّ من آلة معالجة الفضلات، وشراب أبيض في قوارير فضية بـــاردة كالـــثلج، وهرم من الفواكه الطازجة، ومثل جوهرة التاج، كعكة بطبقتين تعلـــوها رايـــات كـــيفو وجمهورية الكونغو الديمقراطية. وعبر النوافذ الفرنسية، وبتوقـــيت ممـــتاز، دخـــل بالترتيب كل من موانغازا، وأمين سرّه الورع الدلفين، وأنطوان في المؤخرة.

نـــادى فيليب بمداعبة فيما وقفنا احتراماً: "استراحة الغداء أيها السادة! رجاءً تسببوا بكل الأضرار التي تستطيعون بها!"

بقـــيت أردّد لنفسي، مروحيات بيضاء تحمل علامات الأمم المتحدة. مدافع رشاشة من طراز غاتلنغ في قمراتها الأمامية تستطيع إطلاق أربعة آلاف رصاصة في الدقيقة الواحدة في سبيل السلام، والمساواة والازدهار لكل كيفو.

* * *

سأقول لمرة واحدة أنه خلال كل السنوات التي عملت فيها مترجماً، لم يسبق لي أن تعرضـــت لموقف لم يصرّ فيه زبائني بقوة على حضوري الشخصي لأي شكل من أشكال الضيافة التي يقدّمونها، وأن أتصرف على راحتي في مأدبة رسمية تكتمل بشرب الأنخـــاب، أو حفلة كوكتيل تكريمية في نهاية اليوم إضافة إلى الطعام الساخن والبارد. لكـــن أوامر سكيبر كانت واضحة. علاوة على ذلك، فقد أبعدت الهواجس الغامضة الـــتي كانت تجول في خاطري آنذاك كل تفكير عن التغذية، ومع ذلك أغراني العرض الـــسخي بالحـــصول علـــى الـــشطائر، التي كان ماكسي يتحدث عنها أثناء تناوله البسكويت على متن الطائرة التي أقلّتنا إلى هنا، أثناء عودتي إلى غرفة المرجل.

أخبرني سبايدر: "سنبقى في الأسفل أيها الشاب"، وهو يحشو قطعة كبيرة من الجبن والخيار المخلل في فمه فيما كان يضبط بيده الأخرى الموجة على مسجلاته. "تفقّـــد ما يدور حول الطاولة بين الفينة والأخرى، واسترخِ في مقعدك حتى تتلقى أوامر أخرى".

"من قال ذلك؟"

"فيليب".

فـــشل إعجاب سبايدر في جلب الراحة لذهني، التي كانت بعيدة جداً. ومع نفس الابتسامة المتكلّفة المعروفة التي أخبرني عبرها سابقاً أنه ستكون لدينا فترة غداء حافلة، كان يخبرني آنذاك أنه ينبغي علينا الهدوء. ووضعت السمّاعات على رأسي فقـــط لأكتـــشف أنني متصل بالخواء. ولم تنسَ سام هذه المرة إطفاء ميكروفونها. وكـــان ســـبايدر يتصفّح مجلة عسكرية بالية ويلوك علكة بنشاط، لكن ربما كان يراقبني. انتقيت مكتبة على جهازي، وسمعت كما توقعت أصوات صحون وأدوات مائـــدة تدل على بدء المأدبة. وسمعت غلاديس - أم أنها كانت جانيت؟ - تسأل: "هـــل أقـــدّم لك قطعة يا سيدي؟" بسواحيلية جيدة بشكل مفاجئ. وكان لديَّ صـــورة ذهنية عن مخطط المكتبة التي تحوّلت إلى غرفة طعام. وكان الترتيب يساعد الخدمـــة الذاتـــية والطاولات المنفصلة، ولكل طاولة، وفقاً لجهازي، أداة تنصت منفصلة. وتمّ فتح النوافذ الفرنسية لأولئك الذين يرغبون باستنشاق الهواء. وكانت طـــاولات الحديقـــة، المراقبة أيضاً، تنتظر سعادتهم. ولعب فيليب دور رئيس خدم الفندق.

"سيد ديدون، لماذا ليس *هنا*؟ مزي فرانكو، أين تكون قدمك مرتاحة أكثر؟"

مـــا الـــذي أستمع له؟ لماذا أجد نفسي متأهباً جداً؟ واخترت طاولة وسمعت فـــرانكو يـــتحدث مـــع موانغازا والدلفين. كان يصف حلماً رآه. كطفل سري ومستمع قيّده من قبل خدم الإرسالية، استمعت إلى الكثير من الأحلام الأفريقية في زمـــاني، ولهـــذا لم يكـــن ما قاله فرانكو مفاجئاً لي، وكذلك الترجمة الخاطئة التي قدّمها.

"دخلـــت فـــناء جيراني ورأيت شخصاً مستلقياً ووجهه للأسفل في الوحل. وقلبته، ورأيت عينيّ تنظران إليّ. ولهذا عرفت أن الوقت حان لاحترام أوامر جنرالي والحصول على شروط جيدة للماي ماي في هذه المعركة الكبيرة".

تصنّع الدلفين الموافقة. ولم يكن موانغازا في موقع الالتزام. لكن، لديَّ أذنان فقط لما لا أسمعه: وقع خطى حذاء جلد التمساح الأخضر على الأرضية الصخرية،

وضـــحكة ساخرة. وتحوّلت إلى الطاولة الأولى الصغيرة، وسمعت فيليب وديدون يناقـــشان تدريبات ميدانية بمزيج من السواحيلية والفرنسية. تحوّلت إلى الثانية، و لم أحـــصل علـــى شيء. أين ماكسي؟ أين تابيزي؟ لكني لست مسؤولاً عنهما. أنا مسؤول عن الحاج، أين هو؟ وعدت إلى الطاولة الكبيرة على أمل بسيط أن يحتفظ بأفكـــاره لنفسه مراعاة لصداقة الرجل العظيم مع والده. عوضاً عن ذلك، سمعت خـــبطاً وزفـــرات، ولكن لم أسمع أصواتاً، ولا حتى صوت موانغازا. وشيئاً فشيئاً، بـــدأت أســـتوعب ما يحدث. أخرج فرانكو محفظته من جيب سترته البنية الكبيرة وعرض محتوياتها على قائده الجديد: مفصل إصبع قرد، وعلبة مرهم كانت مرةً من ممتلكات جدّه، وقطعة من البازلت من مدينة أدغال مندثرة. كان موانغازا والدلفين مهذبين في إبداء إعجابهما. وإذا كان تابيزي موجوداً، لم يكن ليزعج نفسه بإظهار ذلك. ولا يزال الحاج غير ظاهر رغم أنني أصغيت السمع جيداً.

عـــدت إلى فيلـــيب وديـــدون، واكتـــشفت أن ماكسي قد أقحم نفسه في حديـــثهما، ويعرض فرنسيته المريعة على تدريبات البانياموليـنج الميدانية. وفعلت ما كـــان ينبغي عليَّ فعله قبل خمس دقائق. وتحوّلت إلى غرفة رسم موانغازا، وسمعت الحاج يصرخ.

* * *

حـــسناً، كان إسناد الصوت لصاحبه في مراحله الأولى. و لم تتضمن الصرخة أيـــاً من الأصوات الواسعة المدى التي سمعتها لغاية ذلك الوقت من الحاج، والعديد مـــن الأصـــوات الـــتي لم أسمعها، مثل الرعب، والألم المبرّح والتضرّع المخزي، وتـــضاءلت تدريجـــياً إلى نشيج من الكلمات التي يمكن تمييزها، ورغم أنها كانت خافـــتة، إلا أنـــني اســـتطعت تحديدها. وكنت أستطيع معرفة تلك الكلمات بشكل تقريـــبي، ولكن ليس حرفياً. ولمرة واحدة في حياتي، فشل قلم الرصاص الخاص بي، رغم حدّته، في إجراء اتصال مع دفتر ملاحظاتي أسفله. ولكن الكلمات بكل الأحوال عادية، مثل *من فضلك* أو *كرمى لله* أو *لا مزيد*. وناشدت تلك الأصوات مريم، رغم أنه لم يكن واضحاً فيما إذا كان الحاج يتوسل إلى العذراء أو خليلته أو أمه.

صدمتني الصرخة من الاستماع الأول لها أيضاً لأنها كانت عالية جداً، رغم أنني كنت مجبراً لاحقاً على تخفيفها. وكان لها تأثير السلك الذي يربط بين سمّاعتي الرأس ويمر عبر دماغي، ويصبح لونه أحمر من الحرارة. لقد كان عالياً جداً، ولا أعتقد أن سبايدر لم يسمعه أيضاً. ورغم ذلك، جازفت بإلقاء نظرة خفية عليه، و لم يكن سلوكه يبعث على القلق. وكان جالساً في الموقع نفسه، يلوك نفس القطعة من الخبز، والجبن والخيار المخلل، ويقرأ أو لا يقرأ نفس المجلة العسكرية، وينضح نفس هواء الرضا المطلق الذي تغلغل إلى أعصابي سابقاً.

تحوّلت عائداً بسرعة إلى المكتبة فيما كنت أستعيد حواسي. كان موانغازا مستقراً إلى طاولة غدائه، ويقترح نشر مجموعة من أفكاره حول الديمقراطية الأفريقية. وعلى طاولة أخرى، كان فيليب، وماكسي وديدون يبحثون مسائل تتعلق بسقاية الأراضي. خلال ثواني تشويش معدودة، حاولت إقناع نفسي أن الصرخة مجرد وهم، لكني لم أستطع ذلك، لأنني قبل أن أتبين ماهيتها، عادت لتتردد في غرفة رسم موانغازا.

سمحت لنفسي حينها باسترجاع أفضلية الإدراك لأن المزيد من الصرخات الأخرى تتابع قبل أن أستطيع تحديد *شخصيات المسرحية*. مثلاً: استحوذت عليَّ تلك الصرخة بشكل مبكّر رغم الدلائل على وجود أصوات أقدام أخرى - زوجان من النعال المطاطية النشيطة جداً على أرضية صلبة، وزوج من الجلد الخفيف التي نسبتها مباشرة إلى تابيزي الشبيه بالقط - لم يكن هناك وقع حذاء جلد التمساح، وهذا ما قادني إلى نتيجة مفادها أن الحاج إما يرتفع عن الأرض بطريقة ما، أو يمشي حافياً، أو كلتا الحالتين. لكن تطلّب الأمر تعاقب الأحاديث بين الحاج ومعذّبيه قبل أن أشعر بأنني قادر على افتراض أنه مقيّد، وأنه عارٍ من الخصر وحتى الأسفل على الأقل.

كانت الصرخات التي سمعتها، رغم قربها من الميكروفون، ألطف وأكثر رقةً مما ظننته للوهلة الأولى، وربما كان الحاج ملفوفاً بمنشفة أو ما شابه، والتي يتم نزعها عنه إذا كان لديه ما يستحق القول، وتعود لتضغط عليه إذا كان الأمر خلاف ذلك. وكان واضحاً أيضاً أنه يستفيد، برأي معذّبيه، من هذه الإشارة

كـــثيراً: وهكذا كنت قادراً على تمييز بيني أولاً: "حاول ذلك مرة أخرى، وسوف أقـــضي عليك". ومباشرة بعده أنطوان، الذي كان يعد الحاج: "رحلة ذهاب دون إياب مع *هذا*".

إذاً، ما هو *هذا*؟

سمعـــنا كثيراً حول التعذيب هذه الأيام، والجدال فيما إذا كانت تلك الأفعال مـــثل تغطـــية الرأس، والحرمان الصوتي، وغمر الجسد بالماء لا تُبقي شيئاً للخيال. وكان *هذا* يعمل كهربائياً: اتضح الكثير بسرعة. هناك تهديد أنطوان بزيادة مقدار الطاقـــة، وهـــناك لحظـــة وجّه فيها بيني توبيخاً عنيفاً إلى تابيزي لأنه تعثّر بسلك الكهـــرباء. هل كان *هذا* منخس ماشية، إذاً؟ زوج من الأقطاب الكهربائية؟ وإذا كـــان الأمر صحيحاً، السؤال الذي يلي: كيف جاءوا *بهذا*؟ هل اشتروا *هذا* معهم كجـــزء أساســـي من المعدّات تحسباً فقط؛ مثلما قد يحمل شخص آخر مظلة إلى العمل في يوم غائم؟ أم أنهم استنبطوا *هذا* في موقع العمل من أشياء موجودة سلفاً. جـــزء مـــن كبل هنا، ومحوّل هناك، ومفتاح التحكم بالشدة الكهربائية، وقضيب قديم، وهكذا بمنتهى السهولة؟

إذا كـــان لـــديهم هـــذا، إلى من سيلجأون للحصول على المساعدة التقنية والمعـــرفة المطلـــوبة؟ ولهذا السبب، وحتى في وسط اضطرابي، وجدت وقتاً لأزور ابتـــسامة فيليب ثانيةً. وكان هناك أكثر من اقتراح في ذهن المبتكر حوله. هل كان ذلك ما يسعى إليه عندما تمّ استدعاؤه من موقعه؟ ووضعا معاً منخس ماشية بديل مـــن صـــندوق أدواته؟ هل قام بواحدة من أفعاله الشهيرة التي تضمن الفوز بقلب وعقـــل أكثـــر السجناء عناداً؟ وإذا كان الأمر كذلك، لم تفسد المهمة شهيته لأنه كان يأكل بشراهة.

لـــن أحـــاول هنا تقديم أي شيء عدا الطريقة الواضحة لاستجواب تابيزي، وإنكـــار الحـــاج عديم الجدوى والذي تحوّل بسرعة كبيرة إلى اعتراف. وسأترك للخـــيال التهديدات والشتائم بصوت أجش من جانب، والصرخات، والتنهيدات والتوسلات من جانب آخر. وكان واضحاً أن تابيزي معتاد على التعذيب. وكان وعيده المقتضب، وتكلّفه في الكلام ونوبات غضبه تلائم خبرة طويلة. ولم يستطع

الحاج، بعد تمرده الظاهر، احتمال الألم. ولم أرَه يصمد طويلاً أمام التعذيب.

المهم أيضاً ملاحظة أن تابيزي لم يبذل جهداً لحماية مصدره: أنا. وحصل على معلوماته مباشرة من المبارزة على درج البرج، ولم يطبّق أياً من الإجراءات المعتادة لتمويه مصدرها. ولم تكن هناك عبارات مثل "تقارير إخبارية موثوقة" أو "وفقاً لمعلومات تلقيناها" والتي كان موظفو السيد أندرسن يحاولون بها التمويه على موقع أدوات التجسس التي يستخدمها. ووحده المحقق الذي لن يرى ضحاياه أبداً ضوء النهار مجدداً سيكون غير مبالٍ. وسأل تابيزي الحاج أولاً، بفرنسيته الركيكة، عن صحة والده لوك.

سيئة. سيئة فعلاً. إنه يحتضر.

أين؟

المستشفى.

أين هذا المستشفى؟

كيب تاون.

أيها؟

تحدّث الحاج بحذر، وكان لديه سبب وجيه لذلك. إنه يكذب. وأذاقوه طعم منخس الماشية، ولكن ليس أقسى ما لديهم. وسأل تابيزي مجدداً عن المستشفى في كيب تاون. ولم يعرف حذاؤه الراحة من الخطو. ولديَّ صورة له يدور حول الحاج فيما ينفث أسئلته عليه، وربما يقدم العون بنفسه أحياناً، ولكن في الغالب يترك الأمور لمساعديه.

> تابيزي: لم يذهب لوك إلى أي مستشفى لعين، أليس كذلك؟... هل فعل؟... هل فعل؟... حسناً. إذاً، إنها كذبة... كذبة من؟ لوك؟... كذبتك اللعينة؟... إذاً، أين لوك الآن؟... أين هو؟... أين لوك؟... قلت، أين لوك؟... في كيب تاون، صحيح. سهّل الأمور على نفسك في المرة القادمة. لوك في كيب تاون، ولكنه ليس في المستشفى. إذاً، ما الذي يفعله؟ تكلم!... غولف... أحبه. من يلعب معه الغولف؟ السيد الهولندي البدين؟... إنه يلعب الغولف مع *شقيقه!*... شقيق الهولندي

البدين أم شقيقه هو؟... شقيقه هو... لطيف... وما اسم هذا الشقيق؟... *إيتان*... عمك إيتان... أكبر أم أصغر؟... أصغر... حسناً الآن، ما اسم الهولندي؟... قلت الهولندي... قلت الهولندي البدين... قلت الهولندي البدين الذي تحدثنا عنه تواً... الهولندي الذي لا يلعب والدك الغولف معه اليوم... الهولندي البدين الذي درست معه في باريس ويدخن السيكار... هل تتذكره؟... هل تتذكره؟... الهولندي البدين الذي قابله والدك في نيروبي، بفضل جهودك الطيبة، أيها الوغد الصغير... هل تريد المزيد من ذلك؟... هل تريد من الشباب زيادة الجرعة بحيث تشعر فعلاً بذلك؟... ماريوس... اسمه ماريوس... السيد ماريوس، ماريوس من؟... امنحه دقيقة راحة... دعه يتكلّم... حسناً، لا تجعله يرتاح، أعطِه كل... فان تونغ... اسمه ماريوس فان تونغ. وماذا يعمل ماريوس فان تونغ؟... رأسمالي مضارب... أحد خمسة شركاء... نتكلم بلطف الآن، لهذا دعنا نستمر على هذا المنوال، ولا تجعلني أغضب وسنخفف الحرارة قليلاً... ليس كثيراً، وإلا ستنسى لماذا تتكلم... إذاً أرسلك ماريوس هذا للتجسس علينا... أنت تتجسس لصالح ماريوس... أنت تتجسس لصالح الوغد الهولندي، ويدفع لك أموالاً طائلة لتخبره بكل ما نتحدث حوله... نعم؟... نعم؟... نعم؟ لا! إنها لا! أفترض أنها لا... لا تتجسس لصالح ماريوس، وإنما تتجسس لصالح لوك، كيف ذلك؟ أنت جاسوس لوك وحالما تعود إلى المنزل ستقول كل شيء لبابا الذي سيعود إلى ماريوس ويحصل على صفقة أفضل... ليس صحيحاً... ليس صحيحاً... ليس صحيحاً... ما زال غير صحيح؟... ما زال غير صحيح... لا تنم عليَّ... لن يسمح لك أي شخص بالنوم هنا... افتح عينيك... إذا لم تفتح عينيك في غضون خمس عشرة ثانية، سنوقظك بطريقة لم تستيقظ بها من قبل أبداً... أفضل... هذا أفضل بكثير... حسناً، جئت إلى هنا بمحض إرادتك الحرّة... أنت مستقل... وافق والدك على التظاهر بالمرض بحيث

تستطيع المجيء إلى هنا بمحض إرادتك الحرّة... لست بحاجة لسبب؟...*حرب!*... لا تريد حرباً أخرى... تؤمن بالتسوية مع رواندا... *تريد اتفاقية تجارية* مع رواندا... متى؟ في الألفية القادمة؟ (*ضحكة*)... تريد سوقاً مشتركة بين كل شعوب البحيرات الكبرى... وماريوس هو الوسيط في ذلك... ذلك ما تعتقده بصدق... حسناً، ثمانينا. (*بالإنكليزية*) امنحه بعض الماء... أخبرنا الآن المزيد عن هؤلاء الأصدقاء الأشرار في كينشاسا الذين أخبروك قصصاً خادعة حول موانغازا. ليس *لديك* أي أصدقاء أشرار... ليس لديك أصدقاء في كينشاسا... لم يتحدث أحد في كينشاسا معك... أشخاص يستطيعون جعلك تستيقظ ميتاً... حسناً، استيقظ الآن، أيها الصغير... (بإنكليزية ركيكة مجدداً): قم بذلك يا بيني، بكامل القوة... أكره هذا الزنجي... *أكرهه... أكرهه*...

كانت ردود الحاج لغاية الآن مسموعة بصعوبة، ولهذا كان تابيزي يكرّرها بصوت عالٍ، وأفترض أنه يفعل ذلك ليكون مسموعاً عبر ميكروفونات تحسباً لطوارئ لا أعرف بها، ولأي شخص آخر ربما يستمع عبر وصلة منفصلة؛ أفكر بفيليب على وجه الخصوص. ولكن مع ذكر *كينشاسا*، تبدّل المزاج في غرفة المعيشة بشكل جوهري، وتغير مزاج الحاج أيضاً. لقد انتعش. وفيما تحوّل ألمه وخزيه إلى غضب، اكتسب صوته قوةً، وأضحى أسلوب كلامه أوضح، وظهر الحاج القديم الجريء مجدداً بشكل يشبه المعجزة. ولم تعد هناك اعترافات يرافقها نشيج ويتم الحصول عليها تحت التعذيب بالنسبة له. وعوضاً عن ذلك، أصبح لدينا اتهام جارف وغاضب، وذم وقدح.

الحاج: تريد أن تعرف من هم، هؤلاء الحكماء الذين تحدّثت إليهم في كينشاسا؟ أصدقاؤك الأوغاد! أصدقاء موانغازا الأوغاد! المسؤولون الذين لا يستطيع فعل أي شيء بدونهم لتحقيق السلام في كيفو! هل تعرف ماذا يدعون أنفسهم، هذه العُصبة من الموظفين المدنيين التي تؤثر على نفسها عندما تحتسي شراب الشعير وتستمتع بالغانيات وتقرر نوع

المرسيدس الذي ستشتريه؟ *نادي الثلاثين بالمئة*. ما هي الثلاثون بالمئة؟ الثلاثون بالمئة هي حصة الشعب التي يفترضون الحصول عليها لأنفسهم مقابل الخدمات التي سيقدّمونها إلى *الطريق الوسط*. إنها الجزء من هذه العملية الرديئة الذي أقنع أوغاداً مثل والدي بإمكانية بناء المدارس والطرق والمستشفيات، والإثراء غير المشروع. ما الذي ينبغي على أولئك المسؤولين فعله ليكسبوا لأنفسهم حصة الشعب؟ ما الذي يحبون فعله كثيراً: لا شيء. وانظروا إلى الجانب الآخر. سيطلبون من جنودهم البقاء في ثكناتهم وإيقاف سلب الناس لبضعة أيام.

تبنّى الحاج نبرة تاجر الشوارع الماكر. وإذا كان قادراً على الإشارة برأسه، سيكون أسعد:

الحاج: لا مشكلة، يا مزي موانغازا! تريد تنظيم شغب في بوكافو وغوما، والاستيلاء على المكان قبيل الانتخابات، وطرد الرواندين والبدء بحرب صغيرة؟ لا مشكلة! تريد الاستيلاء على مطار كافومو، والدخول في لعبة المصادر الطبيعية، وسرقة المخزونات، ونقلها إلى أوروبا والمساهمة في كساد السوق العالمي بإغراقه بالمنتجات؟ افعل ذلك! يبقى تفصيل صغير. نحن سنوزع حصة الشعب، وليس أنت. والطريقة التي سنوزّعه بها تخصنا وحدنا. وتريد يا موانغازا أن تصبح حاكماً على جنوب كيفو؟ لديك دعمنا الكامل وغير المشروط. لأن كل عقد بناء لعين توقّعه، وكل طريق تعتقد أنك ستبنيه وكل زهرة تزرعها على طول جادة باتريس لومومبا، سنحصل على ثلثه. وإذا خدعتنا، سنرمي بحقوقك الدستورية جانباً، ونطردك خارج البلاد بملابسك الداخلية. شكراً على وقتك.

قاطع كلام الحاج الطويل، من بين كل الأشياء، رنين الهاتف، والذي أفزعني مرتين لأن الهاتف الوحيد الذي كنت على علم بوجوده هو ذلك الفضائي في غرفة العمليات. وتلقّى أنطوان المكالمة، وقال، "هنا"، وسلّم الهاتف إلى تابيزي، الذي استمع، ثم احتجّ بعنف بإنكليزية ركيكة:

"لقد حطّمت الوغد للتو. لديَّ حق!"

لكن من الواضح أن احتجاجاته كانت عديمة الفائدة حالما أنهى مكالمته الهاتفية، وألقى على الحاج تحية وداع بالفرنسية: "حسناً. ينبغي أن أذهب الآن. لكن إذا رأيتك مجدداً، سأقتلك شخصياً. ليس لمرة واحدة. أولاً، سأقتل نساءك، وأطفالك، وشقيقاتك وأشقاءك ووالدك اللعين وكل من يعتقد أنه يحبك. ثم سأقتلك. سيتطلب الأمر أياماً. وأسابيع، إذا حالفني الحظ. لتقطيعك إرباً".

وعندما غادر أغلق الباب بعنف. وأضحى صوت أنطوان رقيقاً ولطيفاً.

"هل أنت بخير يا بني؟ ينبغي أن نفعل ما يطلبون منا فعله في الحياة، أليس كذلك يا بيني؟ نحن مجرد جنود".

كان صوت بيني ودوداً بنفس القدر. "هيا، دعنا ننظفك قليلاً. لا مشاعر ضغينة، صحيح يا زميل؟ حاول أن تكون إلى نفس الجانب في المرة القادمة".

أنبأني حدسي أن أتحول إلى المكتبة، لكني لم أستطع التحرك بعد سماع ألم الحاج. كتفاي متيبستان، والعرق يتصبب من ظهري، وهناك علامات حمراء في راحتي يديّ حيث ضغطت أظفاري على لحمي. وتفقّدت سبايدر: يلتهم فطيرة جبن بالليمون بملعقة بلاستيكية فيما يقرأ مجلته العسكرية، أو يتظاهر بذلك. هل سيقدم له أنطوان وبيني تقريراً عملياً: منخس ماشية صغير رائع يا سبايدر، وجعلناه يقول كل ما لديه في وقت قصير جداً؟

سمعت صوت مياه هادرة بعيدة من حمام الشقة الملكية، وتحوّلت من غرفة الرسم إلى الحمام في الوقت المناسب لسماع أغنية ثنائية فاجرة من بيني وأنطوان فيما كانا ينظفان ضحيتهما بالإسفنج. وبدأت أتساءل فيما إذا كان ينبغي عليَّ تركه على مضض ليسترد عافيته لوحده عندما سمعت صوتاً مكتوماً مزدوجاً مثل باب بعيد يُفتح ويُغلق. وأعرف، نتيجة عدم سماعي لوقع خطوات، أن فيليب النحيل قد وصل ليتولى الأمور من تابيزي المتحمس كثيراً.

فيليب: شكراً لكم يا شباب.

لم يكن يشكرهم، وإنما يطلب منهم الانصراف. وفُتح نفس الباب ثم أُغلق، وبقي فيليب لوحده. وسمعت رنين كؤوس في المحيط. وحمل فيليب صينية شراب

ووضـــعها في مكـــان يناسبه أكثر. وحاول الجلوس على الأريكة أو أحد الكرسي المـــريحة، وانـــتقل إلى آخر. وحالما فعل ذلك، سمعت وقع أقدام بطيئة لحذاء جلد التمساح الأخضر على الأرضية الصلبة.

فيليب: هل تستطيع الجلوس؟

جلس الحاج على الأريكة أو أحد الكراسي المريحة، وكان يشتم.

فيليب: لم تظهر على الغداء. أحضرت لك بعض صلصة الطون. لا؟ للأسف. إنها جيدة فعلاً. ما رأيك بكأس شراب؟ (*سكب واحداً بكل الأحوال: الكثير من الشراب، وقطعتا ثلج*).

نبرته غير مبالية. لا علاقة له بما حدث الآن.

فيليب: بما يخصّ ماريوس. صديقك وزميلك الذكي من أيام باريس. نعم؟ إنه أحـــد الشركاء الشباب اللامعين في شركة رأسمالية متعددة الجنسيات تدعى *اتحاد مـــناجم الـــبحيرات الكبرى*. رقمها اثنان في جوهانسبورغ. ليس أقل من ذلك، ولديها اهتمام خاص بشرق الكونغو.

صرير أوراق يتمّ فتحها.

الحاج: (*بالإنكليزية، ربما إحدى العبارات القليلة التي يعرفها*) اللعنة عليك.

فيلـــيب: *اتحاد مناجم البحيرات الكبرى* هيئة متعددة الجنسيات يمتلكها بالكامل تكتّل هولندي مسجّل في أنتيلز. معي لغاية الآن؟ أنت كذلك. والتكتّل يدعى – نعم؟

الحاج: (همهمة غير واضحة) هوغن[؟]

فيليب: وسياستهم؟

الحاج: إدارة الأعمال، وليس الحرب.

فيلـــيب: لكـــن من يملك هوغن؟ لم تستفسر. مؤسسة في ليشتنشتاين تملك هـــوغن، وبأي معايير طبيعية، ينبغي أن لا يترك ذلك أثراً. ولكننا نستطيع بضربة حظ تزويدك بلائحة أسماء.

لم تكـــن الأسماء التي قرأها تعني شيئاً لي، ولا – حسب ما أعتقد – للحاج. وفقط عندما بدأ فيليب بسرد مهامهم الوظيفية، بدأت معدتي تتهيج.

فيليب: سمسار في وول ستريت ومساعد رئاسي سابق... مدير تنفيذي لهيئة نفـــط بان - أتلانتيك في دنفر، كولورادو... عضو سابق في مجلس الأمن القومي، ونائـــب رئـــيس هيئة أميرمان للذهب والصيرفة في دالاس، تكساس... مستشار رئيـــسي للبنتاغون لتأمين وتخزين المعادن الطبيعية الأساسية... نائب رئيس شركة غرايسون - هاليبورتن للاتصالات.

كـــان هـــناك تسعة أسماء على دفتر ملاحظاتي في الوقت الذي انتهى فيه من الكـــلام: وإجمـــالاً، إذا كان كلام فيليب صحيحاً، كانت تلك شركات وقوى سياسية أميركية لا يمكن فصلها عن الحكومة، وهي حقيقة كان سعيداً لتوضيحها.

فيليب: مفكّرون شجعان وبارزون، كل واحدٍ منهم. قائمة بمحافظين جدد، وسياســـيين على نطاق واسع. وهم من أولئك الأشخاص الذين يلتقون أثناء التزلج وفي المنتجعات ويقررون مصير الأمم. وليست هذه هي المرة الأولى التي تتجه فيها أفكـــارهم نحـــو شرق الكونغو، ماذا وجدوا؟ انتخابات تلوح في الأفق، والنتيجة فوضـــى شاملة. والصينيون يفتشون عن الموارد الطبيعية، ويتربصون عند الأبواب. إذاً، مـــا هـــي الطـــريقة التي ينبغي سلوكها؟ الكونغوليون لا يحبون الأميركيين، والعواطـــف متـــبادلة. والرواندويون يحتقرون الكونغوليين، وفي صراع دائم معهم. وأفـــضل ما في الأمر أنهم جميعاً فاعلون. ولهذا يقوم المخطط الأميركي على تقوية الـــتجارة الرواندية، والحضور الاقتصادي في شرق الكونغو إلى مرحلة يصبح فيها حقـــيقة لا يمكـــن إلغاؤهـــا. إنهم يتطلعون في الواقع نحو إلحاق دون سفك دماء، ويعـــتمدون على مساعدة وكالة الاستخبارات المركزية. وهنا يأتي دور صديقك ماريوس.

إذا كـــان دماغـــي يدور بسرعة كبيرة، فلا بد أن الحاج فقد السيطرة على نفسه.

فيلـــيب: حسناً، أضمن لك أن موانغازا عقد صفقة قذرة مع كينشاسا. ولن يكـــون أول سياسي كونغولي يعمل على تغطية مؤخرته، أليس كذلك؟ (*ضحكة خافـــتة*) لكنه رهان أفضل من استيلاء الرواندويين على السلطة، وهذا شيء مؤكد. (*توقـــف ليـــسمح بما كنت أخشى أن يكون إيماءة قبول*). وعلى الأقل فإنه يعمل

لتكون كيفو مستقلة، وليس مستعمرة أميركية. وإذا حصلت كينشاسا على مالها، لماذا ستتدخل؟ وستبقى كيفو ضمن العائلة الاتحادية حيث تنتمي. (*أصوات سكب ووضع قطع ثلج لأنه على ما يبدو قد ملأ كأس الحاج مجدداً*). لهذا ينبغي أن يفهم الـــرجل العجوز هذا الأمر جيداً عندما تنقله إليه. أعتقد أنه ينبغي عليك أن تكون قاسياً معه بعض الشيء يا حاج، بصراحة. إنه ساذج، ولكن تلك هي حال معظم المثاليين. وهو ينوي فعلاً فعل أشياء جيدة، حتى إذا لم يكن قادراً على تحقيقها أبداً. (*تغير غير متوقع في نبرة صوته*). ما الذي تحاول أن تقوله لي؟ ماذا تعني؟ سترتك. إلـــيك سترتك. تشعر بالبرد. لا تستطيع الكلام. لديك قلم. ما الذي تريده أيضاً؟ ورق. إليك ورقة. (*تمزيق صفحة من شيء ما*).

مـــا الذي حدث بحق السماء للسان الحاج السليط؟ هل لعبت الخمرة برأسه؟ هـــل كان منخس الماشية؟ صرير وخربشة فيما كان يكتب بسرعة باستخدام أحد أقلامـــه الباركـــر. لمـــن يكتب؟ حول ماذا؟ إنها مبارزة أخرى. وعدنا إلى جناح الـــضيوف ووضـــع الحاج إصبعه على شفتيه محذّراً. أصبحنا على درجات البرج، ويحـــاول الحاج إعاقة الميكروفون وأنا. لكنه هذه المرة يدفع بملاحظات مكتوبة إلى فيليب.

فيليب: هل هذه دعابة سيئة؟

الحاج: (*صوت منخفض جداً*) دعابة جيدة.

فيليب: ليس بالنسبة لي.

الحاج: (*ما زال صوته منخفضاً*) بالنسبة لي ولوالدي، جيدة.

فيليب: أنت مجنون.

الحاج: قم بذلك وحسب، اتفقنا؟ لا أريد الخوض في ذلك.

أمامـــي *أنـــا*؟ لم يكـــن يرغب بالحديث *وأنا أستمع*؟ هل ذلك ما يقوله إلى فيلـــيب؟ خلـــيط من الأوراق ينتقل من يد إلى أخرى. وتجمّد صوت فيليب وهو يقول:

أســـتطيع أن أرى بوضوح لماذا لا تريد التكلم بالأمر. هل تعتقد جدّياً أنك تستطيع انتزاع ثلاثة ملايين دولار أخرى منا فقط بتنظيم فاتورة على عجل؟

الحاج: (*صيحة مفاجئة*) هذا ثمننا، أيها الوغد! نقداً، هل تسمعني؟

فيليب: في اليوم الذي ستنصّب فيه كينشاسا موانغازا حاكماً على جنوب كيفو، هذا واضح.

الحاج: لا! *الآن*! هذا اليوم بالتحديد!

فيليب: السبت.

الحاج: بحلول مساء الاثنين! وإلا لن يكون هناك اتفاق لعين! إلى حساب والدي المصرفي في بلغاريا، أو أي حساب آخر! هل تسمعني؟

انهار صوته. وحلّت لهجة خريج السوربون المريرة محل الكونغولية الساخطة.

الحاج: باع والدي الصفقة بأقل مما تستحق. وتجاهل زيادة نفوذه، واقترحت تصحيح الخلل. الثمن المعدّل هو ثلاثة ملايين دولار إضافية، وإلا ليس هناك اتفاق. مليون من أجل بوكافو، ومليون من أجل غوما، ومليون لمعاملتي مثل قرد لعين وتعذيبي. لهذا اتصل هاتفياً بنقابتك التي لا تحمل اسماً الآن، واطلب الرجل الذي يقول نعم.

ساوم فيليب فيما كان يكافح لاستعادة كرامته: وفي حال لم توافق النقابة على عرض الحاج، ما رأيك بنصف مليون مقدّماً، والبقية عند انتهاء المهمة؟ وللمرة الثانية، يقول الحاج لفيليب بأن يذهب إلى الجحيم. وكذلك أمه، إذا كان لديه واحدة.

آسفة لتجاهلك أيها العزيز بريان. كيف الأوضاع لديك؟

جاء تطفّل سام من عالم آخر، لكني استجبت له بهدوء.

لا شيء يستحق الذكر، أساساً، يا سام. الكثير من الطعام، والقليل من الكلام. هل نحن على وشك الصعود إلى فوق؟

في أي لحظة يا عزيزي. فيليب يستجيب لنداء الطبيعة.

أُغلق الباب، وبقي الحاج وحيداً يتجول في الغرفة. ما الذي يفعله؟ يحدّق بنفسه في المرآة، ويشاهد كيف يبدو الآن بعد أن باع نفسه مقابل ثلاثة ملايين دولار بحلول يوم الاثنين، إذا فعل ذلك؟ وبدأ يدندن. أنا لا أفعل ذلك. لست

موسيقياً. دندنتي تحرجني حتى عندما أكون وحيداً. لكن الحاج موسيقي، ويدندن لإدخـــال البهجة إلى نفسه. وربما لإدخال البهجة إلى كلينا. إنه يمشي متثاقلاً عبر الغـــرفة متناغماً مع صوت دندنته؛ وصفعة، صفعة وصفعة. إنه يدندن تخفيفاً عن الخزي الذي يشعر وأشعر به كذلك. وكانت نغمة صوته، والتي لا تشبه أي شيء سمعـــته يغنيه أو يدندن به من قبل، تناسب صخب كنيسة الإرسالية، واستحضرت في ذهـــني الساعات الكئيبة التي قضيتها في مدرسة الأحد. فلقد كنا نقف في صف نـــرتدي بدلاتنا الزرقاء الموحّدة. ونصفق بأيدينا ونضرب الأرض بأقدامنا، بووم - بـــووم، ونحكـــي لأنفـــسنا قصة ترفع المعنويات. وكانت إحداها عن فتاة صغيرة وعدت الله بأنها ستحافظ على عفّتها ضد كل الوافدين، بووم. وبالمقابل، ساعدها الله. وفي كـــل مـــرة كانت تتعرض فيها للإغراء، كان يعيدها إلى جادة الصواب، بـــووم. وعندما اختارت الموت عوضاً عن الخضوع لعمها الشرير، أرسل... جوقةً من... لتحيتها عند أبواب... بووم، بووم.

رنّ جرس فيليب اليدوي معلناً بداية الجلسة التالية. وسمعه الحاج. وسمعته من بعـــيد عـــبر الميكروفونات، لكني لم أكشف ذلك لسبايدر. وبقيت في مقعدي مع السماعات على رأسي، أخربش على دفتر ملاحظاتي وأبدو بريئاً. واندفع الحاج إلى الـــباب، وفـــتحه بعنف وانطلق نحو أشعة الشمس. وعلى طول الطريق المغطّى إلى جناح الضيوف، كانت الميكروفونات تلتقط لحنه العذب حول انتصار الفضيلة.

13

لغايـــة الـــيوم، من الصعب أن أصف المشاعر العديدة المتناقضة التي اجتاحتني عـــندما انبـــثقت من مكان احتجازي تحت الأرض وجلست في مكاني بين الحفنة الـــصغيرة من المؤمنين الذين دخلوا غرفة اللعب لحضور الجلسة الأخيرة في المؤتمر. وعندما كنت هناك في القبو، لم أرَ أملاً للبشرية، ورغم ذلك حاولت إقناع نفسي عـــندما كـــنت أقطـــع الممشى المغطّى أنني أحظى بنعمة إلهية. ونظرت إلى العالم واستنتجت أنه أثناء غيابي غسلت عاصفة صيفية الجو، وساهمت في تألق أوراق كل النـــباتات والحـــشائش. وفي أشعة شمس بعد الظهيرة، كان البرج يبدو مثل معبد إغريقي. وتخيّلت أنني أحتفل بالنجاة المعجزة: حياة الحاج، وحياتي.

كـــان الوهم الثاني الذي انتابني، والذي يستحق الثناء مثل الأول، أن ملكاتي العقلـــية، والتي أفسدها الغطس المستمر تحت خط المياه، قد اتجهت نحو الخيال: إن تعاقـــب الأحـــداث بكاملها، بدءاً من صرخة الحاج وانتهاءً بأغنيته الرديئة، كان هلوســـة نفسية سبّبها الإجهاد؛ وكانت مبارزتنا الصوتية على الدرجات الحجرية سبباً آخر، والشيء ذاته ينطبق على أي أوهام شريرة أخرى حول ملاحظات جرى تمريرها أو رشى تمّ التفاوض حولها.

على أمل التحقّق من هذه النظرية المناسبة، ولدى استعادتي لمقعدي إلى طاولة اللعـــب المغطّـــاة بقمـــاش أخضر، شرعت في إجراء مسح سريع للشخصيات في مـــسرحيتي الخادعة، بدأت بأنطون الذي سلّح نفسه بكومة من الملفات الصفراء، وكـــان يـــضع كلاً منها في المكان المخصص له بطريقة الانضباط العسكري الذي كـــان عزيـــزاً عليه. ولم تحمل ملابسه ولا مظهره الشخصي علامات على نشاط جسدي قريب. وكانت مفاصل أصابعه حمراء قليلاً، ولا علامات أخرى غير ذلك. وكانت القطعة المعدنية في مقدمة حذائه تتلألأ، وثنية بنطاله حادةً مثل الشفرة. ولم

يكن بيني قد ظهر بعد، مما دفعني للاعتقاد بأنه أمضى فترة الغداء يراقب جاسبر.

لم يكن فيليب أو الحاج معنا بعد، وحوّلت انتباهي إلى تابيزي الذي بدا شارد الذهن، بالتأكيد، ولكن ينبغي أن يكون كذلك، على اعتبار أن ساعة مكتب البريد وقفت عند الرابعة وعشرين دقيقة، وكان علينا تقدير الوقت. جلس إلى جانبه سيده موانغازا. ومع وميض أشعة الشمس على ياقة عبوديته وتسببها بهالة حول شعره الأبيض، كان المتنور تجسيداً لأحلام حنا. هل يكون نفس الرجل الذي قايض في أحلامي حصة الشعب بالتغاضي الضمني من قبل مسؤولي كينشاسا؟ وإلى الجانب الآخر من موانغازا، كان يجلس الدلفين الدمث، مع ابتسامته البشوشة. وفيما يخصّ ماكسي، شاهدته مستلقياً بجانب مقعد فيليب الفارغ وقدماه مبسوطتان أمامه، وكان ذلك كافياً لإقناعي أنني غير منسجم معهم، وأن كل من حولي كان يدّعي أنه هو.

كما لو أن الأمر مقصود بعد تعزيز هذه النقطة، ولج مخلّصي فيليب من الباب الداخلي. وألقى تحية على ديدون وفرانكو. ولدى مروره بجانب تابيزي، توقف ليهمس شيئاً في أذنه. واستجاب تابيزي بإيماءة لا معنى لها. ولدى وصوله إلى المكان المحجوز للحاج، سحب مغلّفاً مختوماً من جيب سترته ووضعه في الملف الأصفر الذي ينتظر وصول مندوبنا الغائب. عندها فقط، جلس على مقعده في الطرف الآخر من الطاولة، في الوقت الذي كنت فيه، كما كانت باولا ستقول، خارجاً من حالة الإنكار. وكنت أعرف أن فيليب قد تحدّث إلى لندن وطلب الرجل الذي يقول نعم. وعرفت من عبوس تابيزي أن الحاج حدّد بشكل صحيح نقطة ضعف موقف النقابة: تحديداً أن استعداداهم متقدمة للغاية، وأن الغنيمة أكبر بالنسبة لهم من الاستسلام عند هذه المرحلة، وأنهم استثمروا الكثير لغاية الآن، وأنهم على استعداد لدفع المزيد، وأنهم إذا انسحبوا الآن، لن يحصلوا على فرصة مثل هذه إلا بعد جيل.

في نفس ضوء الحقيقة الكئيب، ألقيت نظرة ثانية على موانغازا. هل اختفت الهالة من حوله؟ هل دفعوا بقضيب النار في مؤخرته؟ هل هو ميت الآن، ومربوط

إلى سرجه مثل *إل سيد*؟ كانت حنا تراه في الضباب الوردي لمثاليتها، لكني أصبحت قادراً الآن على النظر إليه بوضوح، وكان المسار الحزين لحياته مكتوباً على جبينه الأجعد. يمثّل المتنور حالة فشل إنساني. لقد كان شجاعاً؛ انظروا إلى سجله. كان ذكياً، ومجتهداً، ووفياً وواسع الحيلة طوال حياته. وفعل كل شيء بطريقة صحيحة، لكن التاج ذهب دائماً إلى الرجل الذي بجانبه أو الرجل الأدنى منه. وسبب ذلك أنه لم يكن قاسياً بما فيه الكفاية، أو فاسداً بما فيه الكفاية، أو ذا وجهين بما فيه الكفاية. حسناً، سيكون كذلك الآن. سيدخل لعبتهم، وهو شيء أقسم أنه لن يفعله مطلقاً. التاج في متناول يده، ما عدا أنه ليس كذلك. لأنه إذا استطاع حقاً وضعه على رأسه، سيكون مُلكاً للناس الذين باع نفسه إليهم في طريق صعوده. وسيخضع أي حلم كان لديه لرهان أكبر من قيمته بعشرة أضعاف. ويتضمن ذلك حلمه بأنه إذا استلم السلطة مرة، لن يكون مضطراً لدفع ديونه.

لم يكن الحاج متأخراً على موعده سوى دقيقتين، ولكنه أبقاني أنتظر في رأسي ردحاً من الزمن. وفتح كل شخص حول الطاولة ملفّه الأصفر، ولهذا فعلت نفس الشيء. وكانت الوثائق في الداخل تبدو مألوفة، كما ينبغي. كنت قد ترجمتها في وقت سابق من الفرنسية إلى السواحيلية. وكانت كلتا النسختين موجودتين. كذلك اثنتا عشرة صفحة من الأشكال والأرقام التي تبدو مثيرة، وجميعها - كما رأيت - تسلّط الضوء على المستقبل البعيد: نسب الاستخراج المتوقعة، وتكاليف النقل، والمستودعات، ومجمل المبيعات، ومجمل الأرباح ومجمل الخداع.

ارتفع رأس فيليب الأبيض. ورأيته على قمة إطار الملف الذي كنت أقلّب أوراقه. كان يبتسم لشخص خلفي، وكانت ابتسامة ثقة دافئة كما تبدو. وسمعت وقع حذاء جلد التمساح يقترب على الأرضية الحجرية، وشعرت بالإقياء. كان تواتر المشي أقل من السرعة المعتادة. ودخل الحاج الهوينى، وفتح سترته، ولمعت البطانة الصفراء اللون، وكانت أقلام الباركر في مكانها، وقد استعاد لمعان جبينه إلى حدٍّ ما. في الإرسالية، عندما تنضم إلى أندادك بعد القتال، تتطلب الأخلاق منك الظهور مرتاح البال. وكان نفس المبدأ يوجّه الحاج. كان يدفع بيديه في جيبي

سترته حيث يحبهما أن تكونا، ويهزّ وركيه. وكنت أعرف أن كل حركة تسبب لــه ألماً مبرحاً. وتوقف في منتصف الطريق إلى مقعده، والتقط نظرتي وابتسم لي. كان ملفي أمامي وقد فتحته، لهذا كنت أستطيع نظرياً الابتسام بغموض وأن أعود إلى قراءتي. لكني لم أفعل. وقابلت تحديقه بفعل مماثل.

تسمّرت عيوننا، وبقيت هكذا فيما كنا نحدّق ببعضنا البعض. ولم تكن لديَّ فكرة حول المدة التي بقيت عليها نظراتنا معلّقة ببعضنا. ولا أتخيل أن مؤشر الثواني على ساعة مكتب البريد قد تحرّك أكثر من ثانية أو اثنتين. لكن الفترة كانت طويلة بما فيه الكفاية بالنسبة له ليعرف أنني أعرف، في حال خامر الشك أياً منا. وطويلة بمــا يكفي بالنسبة لي لأعرف أنه يعرف أنني أعرف، وهكذا جيئة وذهاباً. وطويلة بمــا فيه الكفاية لأي طرف ثالث صدف أنه راقبنا ليعرف أننا إما زوج من الشواذ نرســل إشارات تعارف لبعضنا، أو رجلان نشترك بجزء كبير من المعرفة المحظورة، وكــيف كان حال ذلك؟ ولم يكن هناك وميض في عينيه الجاحظتين، لكن بعد ما مــررنا به، لماذا قد يكون هناك شيء من هذا؟ هل كان يخبرني، "أيها الوغد، لقد خنتني؟ وهل كنت أعاتبه *لأنه* خان نفسه، والكونغو؟ واليوم، بعد مرور أيام وليالٍ أكثــر ممــا أحتاج لاستعادة تلك اللحظة، أراها مثل اعتراف حذر متبادل. وكانَ كلانا هجيناً: أنا بمولدي، وهو بتعليمه. وقطع كلانا الكثير من الخطوات بعيداً عن البلاد التي أتعبتنا بحيث أصبحنا نستطيع الانتماء إلى أي مكان بسهولة.

جلــس في مكانــه، فزعاً، ولاحظ المغلّف الأبيض الظاهر جزئياً من ملفه. والتقطه بطرف السبابة والإبهام، واشتمّه، وفتحه على أمل إيجاد ما كان يتطلّع إليه. وفــتح ورقة بحجم البطاقة البريدية، مطبوعة بطريقة ما، وقرأ بسرعة النص المكون مــن ســطرين، والــذي اعتقدت أنني أعرف ما فيه، بلغة محمية بشكل مناسب، الصفقة التي فاوض على إنجازها لنفسه ولوالده. واعتقدت أنه ربما يومئ إلى فيليب، لكــنه لم يزعج نفسه بذلك. ولفّ الورقة على شكل كرة وقذف بها، بدقة متناهية نظراً لحالته، نحو جرّة خزفية تقف في زاوية الغرفة.

هــتف بالفرنــسية، "إصابة مباشرة!" وأدار يديه فوق رأسه، وانتزع لنفسه ضحكة تسامح من حول الطاولة.

سأنقل المفاوضات المجهدة، والأمور الكثيرة التافهة التي استخدمها كل وفد لإقناع أنفسهم بأنهم ماهرون ويعملون على حماية مصالح شركتهم أو قبيلتهم، وأنهم أذكى من أولئك الذين يجلسون جانبهم. ووضعت نفسي مكان الطيار الآلي، واستفدت من الوقت للسيطرة على مشاعري وما يدور بذهني، وكل ما يستجد - مثل إظهار لا مبالاة كاملة نحو أي شيء يقوله الحاج - وتبديد الفكرة التي تقول إننا بطريقة ما - باستخدام عبارة مفضّلة لدى المحاضرين في دورات اليوم الواحد - لدينا إدراك مشترك. وكنت شخصياً أصارع فكرة أن الحاج يعاني من ضرر داخلي، مثل النزيف، لكني شعرت بالاطمئنان عندما تمّت إثارة مسألة تعويضات موانغازا الرسمية.

اعترض الحاج، برفع يده في الهواء بالطريقة القديمة: "لكن يا مزي. مع كل الاحترام. انتظر دقيقة! - بفرنسية، والتي بسبب إتقان الحاج لها، ترجمتها بسهولة إلى قارورة بيرير - هذه الأرقام سخيفة بصراحة. أعني، اللعنة. - كان يتطلع بشغف نحو زميليه للدعم - هل تستطيع تخيّل *منقذنا* يعيش بهذا المستوى؟ أعني، كيف *ستأكل*، يا مزي؟ من سيدفع فواتير إيجارك، ووقودك، وسفرك وترفيهك؟ ينبغي أن تأتي كل تلك المصاريف الضرورية من الخزانة العامة، وليس من حسابك المصرفي في سويسرا".

إذا كان الحاج قلقاً، فلا بد أن ذلك لم يكن واضحاً لأحد. وتحوّل وجه تابيزي إلى حجر، رغم أنه كان حجرياً سلفاً. ولم تختفِ ابتسامة فيليب، وكذلك ابتسامة الدلفين، الذي كان يجيب نيابة عن رئيسه، وكانت إجابته لطيفة.

"طالما أن موانغازا المحبوب هو خيار الشعب، سيعيش كما عاش دائماً، أي من راتبه كمدرس بسيط ودخله المتواضع من كتبه. ويشكرك على سؤالك الجيد".

كان فيلكس تابيزي يمشي حافياً حول الطاولة مثل غول تحوّل إلى عضو في جوقة المرتّلين. لكنه لم يكن يوزّع ورقة ترانيم، وإنما ما كان يدعوه *إنعاشاً صغيراً للذاكرة*. وتمّ وضع طاولة صغيرة لحمل الأوراق لراحة واستيعاب قرّائنا، وكان عليها تعابير جذلة مفهومة في العالم الحقيقي مثل *مجرفة، ومسطرين، ومعول، وعربات يد خفيفة وثقيلة*، وأشياء مماثلة. وحيث إن المعلومات بالسواحلية

والفرنـــسية أيضاً، كنت أستطيع البقاء صامتاً مثل كل الآخرين في الغرفة فيما يتم عقد مقارنات فلسفية بين الكلمات ومعانيها.

لغاية هذا اليوم، لا أستطيع أن أقول لكم كيف ولماذا. وجاءت أفضل *عربات الـــسيد الخفـــيفة* مـــن بلغاريا، لكن لماذا سيستخدمونها؟ وصواريخ يتمّ وضعها في القمـــرات الأمامية للمروحيات البيضاء؟ وإذا سألتموني اليوم عمّا كان *منجلاً*، أو *جـــراراً*، أو *حـــصّادة*، ستصيبني الحيرة. هل مرّت عبر ذهني لحظة كنت فيها على وشك القفز على قدميّ والصراخ: حمقى؟ وأتصرف مثل السيد الصغير الشجاع في المطعم الإيطالي؟ وأطوي ملفي الأصفر، وأضربه على الطاولة: *سأتكلم، أدين بذلك لنفـــسي. ولهـــذا ينبغي عليَّ هذا*؟ وإذا كان الأمر كذلك، كنت ما أزال في حالة جدال مع نفسي عندما فُتح الباب الداخلي ليظهر كاتب العدل البارز السيد جاسبر ألبين، يصحبه بيني؛ ضميره الحي.

كان جاسبر قد اكتسب صفة اعتبارية. و لم يكن لديه ذلك في وقت باكر من اليوم عندما كان يبدو فخوراً بأن ليس لديه ما يقدّمه عدا قابليته للرشوة. وأتذكّر شعوري بالدهشة من أن شركة جريئة جداً وفاحشة الثراء وضعت أمورها القانونية بين يديه. ورغم ذلك، كان جاسبر هنا على قدر المسؤولية، حتى إذا كان ما حدث بعد ذلك جزءاً من مسرحية؛ أو بدقة أكبر تهريجاً، لأنني فقدت الكثير من أصوات تلك اللحظة التاريخية من ذاكرتي. واستمرت شمس بعد الظهر بالتغلغل عبر النوافذ الفرنـــسية. وطافت ذرات من الغبار أو الندى المسائي في أشعتها، وسحب جاسبر مـــن حقيبـــته اليدوية المتخمة ملفين جلديين فخمين، منقوش على الغلاف كلمة واحـــدة **عقـــد**. وباستخدام أنامله فقط، فتح الملفين تباعاً، ثم جلس، مما سمح لنا بالنظر إلى الأصل، وهو الوثيقة الوحيدة غير الملزمة والملفوفة بشريط زينة، وكانت نسخة بلغة جاسبر الفرنسية والأخرى بلغتي السواحيلية.

مـــن حقيبـــته السحرية، أخرج قطعة معدنية رمادية منقوشة، والتي اعتقدت بحالتي اللاشعورية بأنها عصّارة العمة إيملدا. وتبعتها صفحة واحدة قياسية من الورق الـــذي لا يسمح بنفاذ الحبر، والتي تكدّست عليها ثماني نجوم حمراء سوفيتية الطراز مع سنابل إضافية. ووقفت بناءً على إشارة من فيليب على قدميّ ووضعت نفسي

إلى جانب جاسبر فيما كان يخاطب الوفود. ولم يكن خطابه مثيراً. وأخبرنا أنه تلقّى نصيحة بأن أطراف العقد متفقون. وحيث إنه لم يكن مطّلعاً على مناقشاتنا، ومسائل الزراعة المعقّدة خارج اختصاصه الاحترافي، لا بد أنه اعتبر نفسه في حلٍّ من المسؤولية عن الصياغة التقنية للعقد، وأنه في حال الخلاف سيتم تحويل الأمر إلى المحكمة لتفصل فيه. وطوال ترجمتي كلها، كنت أتفادى عين الحاج.

دعا فيليب كل الموقّعين للنهوض. ومثل المشاركين في القدّاس، شكّلوا صفاً يرأسه فرانكو. وتخلّف موانغازا، الذي لم يقف في الصف نظراً لأهميته، بل إلى الجانب، وأحاط به مساعدوه. وقف الحاج، الذي استمرّيت في تجاهله، في المؤخرة. انحنى فرانكو فوق نسختي باللغة السواحيلية، وبدأ التوقيع، وتراجع للخلف. هل اكتشف إهانة ما، أو لاحظ فأل سوء؟ وإذا لم يكن الأمر كذلك، لماذا فاضت عيناه بالدموع؟ ومشى متثاقلاً، يجر قدمه المعطوبة خلفه، حتى أصبح وجهاً لوجه مع ديدون عدوه السابق، ورفيق سلاحه الآن لفترة طويلة. وارتفعت قبضته الضخمة إلى مستوى الكتف. هل هو على وشك تمزيق صديقه الجديد إرباً إرباً؟

صرخ بالفرنسية: "*كيف حالك؟*" هل تريد فعل ذلك؟

أجاب ديدون بخجل: "*أنا بخير يا فرانكو*"، وعندها ضمّ الرجلان ذراعيّ بعضهما في عناق شديد بحيث خشيت على قفصه الصدري. وتبع ذلك مزاح سمج. ووقّع فرانكو الذي فاضت عيناه. ودفع به ديدون جانباً وحاول التوقيع، لكن فرانكو أمسكه من ذراعه: ينبغي أن يتعانقا مرة أخرى. ووقّع ديدون أخيراً. رفض الحاج قلم الحبر الذي عُرض عليه، وسحب برشاقة قلماً من جيب سترة زيغنا. ودون أن يتظاهر بالقراءة، وضع توقيعه على عجل مرتين، مرة على نسخة اللغة السواحيلية، وأخرى على نسخة الفرنسية. وبدأ التصفيق مع فيليب وانتشر إلى معسكر موانغازا.

ظهرت نساؤنا مع صواني الشراب. وتلامست الأقداح، وتكلّم فيليب بضع كلمات منتقاة بعناية نيابة عن النقابة، واستجاب موانغازا بوقار، وترجمت كلامهما بحيوية شديدة. وشكرني الجميع دون إسراف. وتوقف جيب في الساحة الأمامية.

وقـــاد المـــساعدون مـــوانغازا بعيداً. كان فرانكو وديدون عند الباب، ويمسكان أياديهمـــا بطريقة أفريقية، ويمزحان مع بعضهما البعض فيما حاول فيليب دفعهما باتجاه الجيب. وقدّم الحاج لي يده لأصافحه. وأمسكتها بحذر لأنني لم أشأ إيذاءها، أو أنني أعرف ماذا كانت تعني تلك الإيماءة.

سألني: "هل لديك بطاقة؟ أفكر في فتح مكتب في لندن. ربما أوظّفك".

فتّشت في جيوب سترتي هاريس تويد المبللة بالعرق، وأخرجت بطاقة: بريان ســـنكلير، متـــرجم معـــتمد، وعنوانه صندوق بريد في بركستون. وتفحّصها، ثم تفحّصني. وضحك، ولكن برقة، وليس ضحكة الضبع التي اعتدنا عليها. أدركت، متأخـــراً جداً، أنه يخاطبني بلغة شي التي استخدمها في حديثه مع ديدون على درج البرج.

أضـــاف دونما اهتمام: "إذا فكرت يوماً في المجيء إلى بوكافو، أرسل لي بريداً إلكتـــرونياً"، وبالفرنسية هذه المرة، وأخرج علبة بطاقات عمل بلاتينية من جيب سترة زيغنا الداخلي.

وكـــأن الـــبطاقة أمامـــي فأبعادها ثلاثة إنشات بإنشين، مع حواف مطلية بالـــذهب. وتعـــرض حاشية أخرى داخل الحافة المطلية بالذهب حيوانات كيفو الرشـــيقة في الماضي والحاضر: غوريلا، وأسد، وفهد، وفيل، وجيش من الأفاعي مـــشغولة برقـــصة سعيدة، لكن لا وجود لحمير وحشية. في الخلفية، لدينا جبال قرمزية مع سماء وردية فوقها، وعلى الجانب الآخر، صورة ظلّية لفتاة كورال تقفز عالـــياً مع كأس شراب في يدها. وهناك اسم الحاج ومؤهلاته في بيان ملكي، أولاً بالفرنسية، ثم بالإنكليزية، وبعدها السواحيلية. وتحتها يأتي عمله وعناوين منازله في باريس وبوكافو، وبعدها مجموعة من أرقام الهواتف. وعلى الجانب المقابل، بجانب فتاة الكورال، عنوان بريد إلكتروني مكتوب بسرعة بقلم حبر.

* * *

لـــدى عـــودتي عبر الطريق المألوف على طول الممشى المغطّى، كنت سعيداً بملاحظـــة أنـــه في تقلـــيد ثابـــت للحظات الختامية لكل المؤتمرات، كان سبايدر

ومساعدوه قد انتشروا في المكان يفككون المعدّات. كان سبايدر يضع قبعة، ويلتحف سترة، ويقف مباعداً بين قدميه على درجات الحاج الحجرية، ويلف سلكاً كهربائياً فيما يصفّر. وفي البرج، كان هناك حارسان يصعدان السلالم. وكان ثالث يجثو على ركبتيه أمام المصطبة الحجرية. وفي غرفة المرجل، كان المخطط السري مسنوداً إلى الجدار، والأسلاك ملتفّة ومربوطة. وتمّ وضع تجهيزات التسجيل في علبها السوداء.

وقفت حقيبة إتلاف مستندات بنية، وقد فغرت فاهها وامتلأت حتى منتصفها، على طاولة سبايدر. وتمّ فتح الأدراج الخاوية بأفضل تقاليد غرفة المحادثة. وسيلتزم أي شخص يمرّ عبر يدي السيد أندرسن بقواعده في *الأمن الشخصي*، والتي تتراوح من "ما قلته أو ما لم تقله للآخر المهم" بعدم وضع نويات التفاح في حقيبتك الخاصة خشية أن يستفيدوا من رماد حريق الفضلات السرية، ولم يكن سبايدر استثناءً. وتمّ تزويد شرائط تسجيله الرقمية ببطاقات وأرقام ووضعها في صناديق. ويوجد إلى جانبها الدفتر الذي يحتفظ فيه بملاحظاته. وكانت الأشرطة التي لم يتمّ استخدامها ما تزال في صناديقها المكدّسة على رفٍّ فوقها.

من ضمن خياراتي العديدة، انتقيت سجل الأداء. وتدل القائمة المكتوبة بخط السيد في الأمام على الأشرطة المعروفة بالنسبة لي: جناح الضيوف، والشقة الملكية، الخ... واخترت الرقم خمسة. لكن ما هي القائمة في الخلف، والمكتوبة أيضاً بخط السيد؟ ومن أو ماذا يعني "إس"؟ ولماذا، في الموضع الذي ينبغي أن يكون فيه الميكروفون، لدينا عوضاً عن ذلك الحرف "إس"؟ هل "إس" يشير إلى سبايدر؟ أم إلى اسم النقابة؟ أو سنكلير؟ أو ماذا عن - إليكم هذه الفكرة - "إس" تعني س*تلايت* (القمر الصنعي)؟ هل يعقل أن فيليب أو ماكسي أو سام أو اللورد برنكلي، أو أحد شركائه الغامضين - أو جميعهم - قد قرّر لأسباب تتعلق بالحماية الشخصية، وللسجلات، والأرشيف أن يتجسس على محادثاهم الهاتفية؟ وقرّرت أن الأمر كذلك. وكان هناك ثلاثة أشرطة عليها الحرف "إس" بقلم حبر جاف. والتقطت ثلاثة أشرطة فارغة، وكتبت نفس الحرف "إس" عليها من الخلف، واختلست الأصلية.

كانت مهمتي التالية إخفاء الأشرطة حول جسدي. وللمرة الثانية منذ تمّ إجباري على ارتدائها، كنت ممتناً لسترة هاريس تويد. ومع جيوبها الداخلية الضخمة، لا بد أن الخيّاط صنعها خصيصاً لهذا الغرض. وكان حزام قميصي الصوفي الرمادي مناسباً أيضاً، ولكنّ دفتر ملاحظاتي كان ثابتاً لا يتزحزح من مكانه. وكنت أفكّر في ما ينبغي أن أفعل بشأنه عندما سمعت صوت فيليب المعسول الذي اعتاد على استخدامه.

"بريان، أيها العزيز. أنت *هنا*. كنت متلهفاً لتهنئتك. وأستطيع ذلك الآن".

كان واقفاً عند المدخل، ويضع إحدى ذراعيه على إطار الباب، ووقف مرتاحاً وقد تقاطع حذاءيه. وأخبرني حدسي أن أكون حذراً، لكني تذكرت في اللحظة الأخيرة أنه، بعد الأداء الرائع الذي قدّمته، ينبغي أن أبدو كمن زال العبء عن كتفيه.

وقلت: "سعيد لأنه أعجبك".

"هل ترتب المكان؟"

"هذا صحيح".

لإثبات ذلك، دفعت بأحد دفاتر ملاحظاتي إلى الحقيبة البنية، وتحوّلت لأجد فيليب يقف أمامي مباشرة. هل لاحظ الانتفاخات حول خصري؟ ورفع يديه، واعتقدت أنه سيمسك بها، ولكن عوضاً عن ذلك تجاوزني واستعاد دفتر الملاحظات من الحقيبة البنية.

أبدى إعجابه، ولعق إصبعه وقلّب صفحاتي المكتوبة بقلم رصاص: "حسناً، ينبغي أن أقول. لا توجد شكوى. تبدو إغريقية بالنسبة لي، أليس كذلك؟ ولن يستطيع الإغريق فهم شيء منها أيضاً".

قلت: "السيد أندورسن يدعوها الخط البابلي".

"وهذه النقاط العبثية على الهامش، ماذا تعني؟"

"ملاحظات لي".

"وماذا تقول *لك*؟"

"نقاط الأسلوب. تلميحات. أشياء أستفيد منها عندما أقوم بالترجمة".

"مثل ماذا؟"

"بيانات مثل الأسئلة. عندما يقول شخص ما دعابة وهي ليست كذلك. سخرية. لا تستطيع فعل الكثير مع السخرية، وخصوصاً عندما تقوم بالترجمة. لا يمكن ترجمتها".

"يا له من عمل رائع. وتحتفظ بكل ذلك في رأسك".

"ليس تماماً. لهذا السبب أقوم بكتابتها".

إنه ضابط الجمارك في مطار هيثرو الذي يسحبك من صف الوصول لأنك حمار وحشي. ولا يسألك أين أخفيت الممنوعات، أو فيما إذا التحقت بدورة تدريبية لدى القاعدة. إنه يريد سماع أين قضيت عطلتك، وهل كان الفندق مريحاً، فيما يقرأ لغة جسدك ومعدّل رمش عينيك، وينتظر أي تغيير يطرأ على مستوى صوتك.

قال وهو يعيد دفتر الملاحظات إلى الحقيبة البنية: "حسناً، لقد تأثرت تماماً. قمت بعمل جيد. الطابق الأعلى، والطابق الأسفل وكل مكان. وأنت متزوج، من صحفية شهيرة، حسبما فهمت".

"هذا صحيح".

"وهي جميلة، كما قالوا لي".

"هكذا يقول الناس".

"لا بد أنكما تشكلان ثنائياً رائعاً".

"نعم".

"حسناً، تذكّر أن الأحاديث الطائشة على الوسادة تكلف الحياة".

ثم ذهب. وللتأكد من ذهابه، صعدت على أطراف أصابع قدميّ إلى أعلى درج القبو، ووصلت في الوقت المناسب لأراه يختفي حول زاوية المبنى. وعلى السفح، كان سبايدر ورجاله لا يزالون يجدّون في العمل. وعدت إلى غرفة المرجل، واستعدت دفتر الملاحظات من الحقيبة البنية وجمعت الثلاثة الأخرى. وأخذت أربع

دفاتـــر جديـــدة، ومزّقت أغلفتها، ورقّمتها بنفس الطريقة التي رقمت بها الدفاتر المستخدمة ورميت بها في الحقيبة البنية عوضاً عنها. كانت جيوبي وحزامي ممتلئة إلى آخرها. ومع وجود دفترين على مؤخرتي وواحد في كل جيب، صعدت درجات القبو بصعوبة ومشيت عائداً عبر الممشى المغطّى إلى غرفة نومي الآمنة نسبياً.

* * *

نحـــن عائدون أخيراً! ونطير على ارتفاع ثلاثة آلاف قدم فوق سطح البحر، وتغمرنا البهجة، ولم لا؟ لقد استعدنا أنفسنا مجدداً، ونحن نفس العصبة من الإخوة الـــتي غادرت لوتون على نفس الطائرة التي لا تحمل اسماً قبل أربع وعشرين ساعة، ونعـــود للمنـــزل على أعقابنا وعقد في جيوبنا، وكل ما جئنا لأجله والكأس في قبـــضتنا! وفيليب ليس بيننا. ولا أعرف أو أهتم إلى أين ذهب. ربما إلى *الشيطان*، ودعونا نأمل ذلك. وأول من تبختر على ممر الطائرة كان سبايدر الذي وضع قبعة طـــاه مـــرتجلة، ومـــرّر لنا الأطباق، والأقداح، والسكاكين والشُوَك البلاستيكية. وهرولَ خلفه أنطوان مع منشفة يدوية وضعها مثل المئزر حول خصره، يحمل سلّة متـــبرعنا الغـــامض من *السادة فورتنوم وماسون في بيكاديلي*. وتبعه مباشرة بيني الـــضخم، عملاقنا الدمث مع قارورة كبيرة من الشراب التي كانت بالكاد باردة. ولم يـــستطع، حتى المحامي العظيم جاسبر، المنعزل في المقعد الأخير الذي شغله في رحلة العودة، مقاومة المزاج الاحتفالي. وصحيح أنه أظهر ميلاً لرفض كل شيء في الـــبداية، ولكـــن بعـــد كلمة حادّة من بيني ونظرة على لصاقة القارورة، شمّر عن ســـاعديه بـــرغبة، وكذلك فعلت أنا، لأنه ينبغي على المترجم المحترف الذي أدّى دوره علـــى أفـــضل ما يرام أن لا يُفسد البهجة. وسكنت حقيبتي الزائفة فوقي في الشبكة التي تعلو الرؤوس.

سأل ماكسي: "ماذا فعلت بهم أيها الشاب؟" بعدما أسقط نفسه بطريقة ت. إي. لورنس بجانبـــي، والقدح في يده. كان لطيفاً فعلاً رؤية سكيبر يتناول شراباً مناســـباً كنوعٍ من التغيير، وليس مياه مالفرن فقط. كان لطيفاً رؤيته يتدفق نضارةً ويزهو بالنجاح.

سألت بحصافة: "الوفود يا سكيبر؟ ماذا *فعلت* بهم؟"

"هـــل كنت تعتقد أنهم سيتفقون؟ كان الحاج متردداً قليلاً، على ما أعتقد. وبـــدا الآخـــران صلبين تماماً. لكن هل سينفذون ما اتفقوا عليه بعد أسبوعين من الآن؟"

وضـــعت السؤال المتعلق بتردد الحاج جانباً، واستفدت من ذخيرة والدي من الأقوال المأثورة. "سأقول لك بصراحة يا سكيبر. الشيء المهم مع الكونغوليين هو معـــرفة مقـــدار ما لا تعرفه. ولم أكن أستطيع قول ذلك من قبل، ولكني سأقوله الآن".

"لم تجب على سؤالي".

أجـــبت، غير قادر على المواربة في ضرورة أن أكون مفيداً له: "يا سكيبر، في اعتقادي الراسخ أنه بعد أسبوعين من الآن، سيكونون إلى جانبك كما وعدوا".

صرخ ماكسي عبر الممر: "يا رجال! أريد سماع ذلك من أجل سنكلير. لقد أنهكناه، ولم يرف له جفن".

هـــتف الجميع مبتهجاً، ورفعوا أقداحهم. واجتاحتني موجة من العواطف التي تجمـــع بين الشعور بالذنب، والكبرياء، والزهو والامتنان. وعندما اتضحت الرؤية أمامـــي، كـــان ماكسي يقدّم لي مغلّفاً شبيهاً بذلك الذي سحبه الحاج من مغلفه الجلدي الأصفر.

"خمسة آلاف دولار أميركي، أيها الشاب. هذا ما قاله لك أندرسن؟"

واعترفت بأنه كذلك.

"لقـــد رفعـــتها إلى سبعة. ليست كافية بنظري، ولكنها أفضل ما استطعت فعله".

بدأت بشكره ولكن رأسي كان نحو الأرض، ولهذا لست واثقاً من أنه سمعني. وربـــتت اليد القوية على كتفي للمرة الأخيرة، وعندما رفعت نظري كان ماكسي في الطرف الآخر من الطائرة، وبيني يصرخ علينا لنستعد للهبوط. وامتثلت للأمر، والـــتقطت حقيبتي وجهّزت نفسي للهبوط، ولكن بعد فوات الأوان لأننا كنا قد هبطنا فعلاً.

لم أرَهم مجدداً أبداً. وربما لم أرغب بذلك. ما الذي تبقّى لنقوله؟ ولديَّ صورة مشوشة عنهم مع حقائبهم تتدلّى على أكتافهم، وصفير العقيد بوغي عندما خرجوا من الأبواب الخلفية للحظيرة الخضراء، وصعدوا إلى حافلة لا تحمل أي اسم.

اصطحبتني حارسة أمن عبر ممرات المطار. وكانت حقيبتي تقفز على وركي. ووقفت أمام رجل بدين يجلس خلف طاولة مكتب. وكانت الحقيبة على الأرض بجانبي. وعلى الطاولة، حقيبة رياضية من النايلون الأحمر.

قال الرجل البدين، دون أن ينظر إليّ: "ينبغي أن نفتش محتويات حقيبتك، وأن تصرّح عمّا تحمله".

فتحت زمام الحقيبة الرياضية وصرّحت عمّا أحمله: سترة رسمية واحدة، حمراء قانية مع بنطال متطابق، وقميص واحد أبيض، وحزام عريض، حريري، وكلها ملتفة بشكل كرة صلبة حول حذائي الجلدي اللامع. ومغلّف يحتوي على جواز سفر، ومحفظة يدوية، ومفكّرة، وأشياء شخصية متنوعة. وجواربي الجريرية السوداء محشوة داخل حذائي الجلدي الأيسر. وسحبتها وكشفت هاتفي الخليوي.

جلست في مؤخرة فولفو صالون إما سوداء أو زرقاء داكنة في طريقي إلى الهدف. وكان سائقي نفس الحارسة الأمنية. ارتدت قبعة على رأسها، ورأيت أنفها الأفطس في المرآة الداخلية، وضغطت على حقيبتي بين ركبتيّ، وحقيبة النايلون الرياضية على المقعد بجانبي. وهاتفي الخليوي مقابل قلبي.

كان الغسق يهبط. ومررنا بجانب ثُلة من الحظائر، والورشات الميكانيكية والمكاتب الآجرية. وظهرت أمامنا بوابات حديدية تغمرها أضواء ساطعة ومزوّدة بأسلاك شائكة. خرج علينا أفراد شرطة مسلحون يضعون قبعات الفرسان. ووضعت سائقتي مقدمة السيارة أمام البوابات المغلقة مباشرة، وزادت سرعة المحرك. تفرّقوا. وعبرنا بحيرة من الإسفلت، وتوقفنا بجانب جزيرة مرورية تغطيها الأزهار الحمراء والصفراء.

فتحت أبواب الفولفو من تلقاء نفسها. وأصبحت حراً أخيراً. والساعة في قاعة وصول المسافرين تشير إلى التاسعة وعشرين دقيقة من مساء يوم أحد حار.

لقد عدت إلى إنكلترا التي لم أغادرها قط، وأحتاج لتبديل بعض الدولارات.

حيـــيت الـــسائقة: "أتمنى لك عطلة نهاية أسبوع رائعة"، ولدى تفسيرها تعني شكراً لك لمساعدتي في تهريب الأشرطة ودفاتر الملاحظات خارج مطار لوتون.

كانت الحافلات إلى محطة فكتوريا فارغة، وقد حلّ الظلام. وكان السائقون يدخـــنون ويتبادلون الأحاديث بجانبها. واختار السجين الهارب زاوية في الخلف، ووضـــع حقيبته الخاصة بين قدميه، ورفع الحقيبة الرياضية الحمراء بإجهاد ليضعها على الرف فوق رأسه. وضغط على زر التشغيل في هاتفه الخليوي. وأضاء الهاتف، وبـــدأ يهتـــز. وضغط على 121 ثم الزر الأخضر. وحذّرته امرأة متجهمة أن لديه خمس رسائل جديدة.

بيـــنلوب، الجمعـــة، الساعة 19:15: سالفو. أيها الوغد المجنون. أين أنت بحق السماء؟ لقد بحثنا عنك في *كل مكان*؟ لقد حضرت متأخراً، ورآك *عدّة* شهود تتسلل من باب جانبـــي إلى خارج الحفلة. لماذا؟ حاول فيرغس إيجادك في المرحاض والبارات في الأســـفل، وأرسل أشخاصاً يجوبون الشوارع وينادون عليك - (*كظمت غيظها: "نعـــم يا عزيزي، أعرف*") - نحن في السيارة يا سالفو، وفي طريقنا إلى منـــزل السير ماثيو لتناول العشاء. لدى فيرغس العنوان في حال أضعته. يا *إلهي*، سالفو!

ثورن البوق، الجمعة، الساعة 19:20: (*بلهجة اسكتلندية ممزوجة بنبرة لندنية*) سالفو، استمع، نحن قلقون كثيراً عليك أيها العجوز. وإذا لم ترسل لنا ما يفيد أنك مـــا تـــزال على أرض الأحياء في غضون ساعة، سأطلب ممن أعرفهم أن يفتشوا الأنهار. والآن، هل لديك قلم رصاص في متناول يدك؟ وورقة؟ ماذا؟ - (*تشويش، قهقهة فظّة*) - تقول بينلوب إنك كتبت أشياء على ذراعك! ما الذي لم تكتبه بعد يا رجل؟ (*وجاء عنوان بعد ذلك. نهاية الرسالة*).

بينلوب، الجمعة، الساعة 20:30: أنا في قصر السير ماثيو يا سالفو. إنه قصر جمـــيل جداً. لقد استلمت رسالتك، شكراً لك. لا آبه بتلك الشركة التي تعد من أقـــدم وأفضل زبائنك. ليس لديك حق بإذلالي على هذا الشكل. لحظة واحدة يا فيرغـــس. ربما لا تعرف هذا يا سالفو، لكن صدف أن السير ماثيو متطّير للغاية. وبفـــضلك، عددنا *ثلاثة* عشر *شخصاً* على طاولة يوم *الجمعة*. إذاً ما يحدث حتى

عندما أتحدث إليك هو أن فيرغس يستعمل الهاتف يائساً من أجل - آه، لقد وجد شخصاً! - من وجدت يا فيرغس؟ - (*ثم وضع يد على الهاتف*) - لقد وجد جيليكو. سيسد جيلي الثغرة. وليس لديه سترة رسمية، لكن فيرغس طلب منه أن يصحو ويأتي كما هو. لهذا لا *تظهر* هنا، مهما كان الذي تفعله يا سالفو. تابع ما تقوم به مهما كان. طاولة السير ماثيو لا تستوعب خمسة عشر شخصاً، وقد عانيت ما فيه الكفاية من الإحراج لليلة واحدة!

بينلوب، السبت، الساعة 9:50: إنها أنا يا عزيزي. آسفة لأنني كنت لئيمة الليلة الماضية. كنت قلقة كثيراً عليك. ولا أقول إنني لم أعد غاضبة، ولكن عندما ستخبرني بكل شيء، ربما سأتفهم الوضع. كانت حفلة العشاء ممتعة حقاً، كما هي الحفلات الراقية. لم يكن جيلي يشعر بأي ألم، لكن فيرغس تأكّد من عدم إحراجه لنفسه. وستضحك عندما أخبرك ما حدث أيضاً. لم أستطع الدخول إلى شقتنا. لقد غيّرت حقيبتي في المكتب، وخلّفت المفاتيح ورائي، وافترضت عوضاً عن ذلك أن حبي الخالد سيكون موجوداً ليأخذني إلى البيت ويعتني بي. كانت باولا مسافرة للخارج، مما عنى أنني لا أستطيع استخدام *مفتاحها*، لهذا كنت مضطرة للبقاء في فندق براون تلك الليلة؛ على حساب الصحيفة كما آمل! *واليوم* - لديَّ واجب مزعج، لكني أعتقد أنه من الأفضل القيام بذلك - وافقت على لعب دور المستكشف الطبيب والذهاب مع فيرغس لأستمع إليه وهو يخاطب مجموعة من المعلنين المهمين في منزل ريفي أنيق في سوسيكس. وستكون هناك حفلة بعد ذلك، سيحضرها بعض الأسماء الكبيرة في الصناعة، لهذا فكّرت أن ذلك قد يفيدني قليلاً. أعني أن ألتقي بهم بشكل غير رسمي. السير مات قادم، لهذا سأكون مع رفقة مناسبة. بكل الأحوال، أنا في طريقي إلى المكتب الآن. لأخذ أشيائي. والقيام بعمل طارئ. أراك قريباً يا عزيزي. غداً إذا لم يكن الليلة. لا زلت غاضبة منك كثيراً، وهذا طبيعي. لهذا سيكون عليك مصالحتي بشكل رائع. ورجاءً لا تلم نفسك حول الليلة الماضية: أنا أتفهم حقاً. حتى إذا تظاهرت بخلاف ذلك. آه، سأكون خارج التغطية عندما أصبح هناك؛ لا هواتف خليوية، بكل وضوح. لهذا إذا كان هناك مشكلة، اتصل بباولا. إلى اللقاء.

حنا، الأحد، الساعة 10:14: سالفو؟ سالفو؟ (واضح ضعف شحن المدّخرة) لمــاذا لم... (تتلاشــى قــوة المدّخــرة فيما تتحوّل من الإنكليزية إلى السواحيلية اليائسة)... وعدت يا سالفو!... آه، يا إلهي... آه، لا! (اختفى شحن المدّخرة).

إذا كنت في غرفة المحادثة أو في غرفة المرجل، كنت سأقول إنه إما الميكروفون أصــابه خلل أو أن شيئاً دفع عمداً صوتها تحت الرادار. لكن الخط بقي مفتوحاً. وهناك ضوضاء في الخلفية، وقليل من التشويش، وخطوات تمر، وأصوات تصادم في الممــر خارج غرفتها، لكن ليس صوتها. ولهذا استنتجت أن حنا تركت يدها التي تحمــل الهاتــف الخليوي تسقط إلى جانبها فيما كانت تنشج من قلبها مدّة ثلاثة وخمــسين ثانــية إضــافية حتى تذكّرت إغلاقه. وطلبت رقمها ليرد عليَّ بريدها الصوتي. وطلبت المستشفى. وأخبرني صوت غير مألوف أنه ليس مسموحاً لكادر المستــشفى تلقّي مكالمات هاتفية خلال النوبة الليلة. وامتلأت الحافلة، ونظرت إليّ امــرأتان، ثم إلى الحقيبة الرياضية الحمراء فوقي على الرفّ. قرّرتا الجلوس في الأمام لأن المكان هناك آمن أكثر.

14

مـــراعاةً لجيراني النائمين، صعدت السلالم المشتركة بهدوء، حاملاً الحقيبة الرياضية من النايلون الأحمر مثلما تحمل الأم وليدها على صدرها حتى لا تدخل بـــين أعمدة الدرابزين بالخطأ. وكان أحد أيام آحاد منتصف الصيف في شارع *أمـــير ويلز*، ولكن لا أحد يعرف ما يحدث. وتكون بعض الليالي صاخبة جداً حـــتى ساعات الصباح الأولى، وإذا كانت بينلوب موجودة فإنها تطلب الشرطة على الهاتف وتهدد بنشر قصة في صحيفتها حول رجال الشرطة الذين لا يؤدون واجـــبهم. وفي لـــيالٍ أخرى، مع عطلة المدارس ورعب القنابل وامتلاك الجميع لمنـــزل ثانٍ هذه الأيام، كل ما تسمعه عندما تقترب من مدخل شقق نورفولك هـــو وقـــعٌ خطوات قدميك على الرصيف، إضافة إلى نعيق البوق الذي يشبه صـــرخات الأباتشي في منتزه باترسي. في هذه اللحظة، بكل الأحوال، لم يكن هـــناك سوى صوت واحد يهمني، وهو صوت حنا الكسيرة الفؤاد الذي يغص بالاتهامات.

كمـــا هـــي العـــادة، رفضني الباب الأمامي والذي اعتبرته الليلة أمراً رمزياً. وكالعـــادة، كـــان عليَّ إخراج المفتاح، وتفحّصه والمحاولة مجدداً. وحالما أصبحت داخـــل الـــبهو، شعرت وكأنني شبحي. ولم يتغير شيء منذ متُّ. كانت الأضواء مـــشتعلة، حسناً، ينبغي أن تكون. لقد تركتها مشتعلة عندما عرجت على البيت لارتـــداء سترتي الرسمية. ولم تعد بينلوب منذ ذلك الوقت. خلعت الحذاء الكريه، وألقـــيت نظـــرة علـــى رسم محفور لقلعة تنتاجل والذي بقي مهملاً طوال خمس ســـنوات في زاوية مظلمة. لقد أهدتنا إياه شقيقة بينلوب في حفل زفافنا. وكانت الشقيقتان تكرهان بعضهما. ولم يكن لأي منهما علاقة مع تنتاجل. ولم يسبق أن ذهبنا إلى هناك إطلاقاً، ولم ترغبا بذلك. بعض الهدايا تحمل كل المعاني.

في غرفة النوم الزوجية، نـــزعت ملابس السجين عني، ورميت بها بمزيج من الـــشعور بالـــنفور والحرية في سلة الغسيل. ولسبب وجيه ألقيت بسترتي الرسمية المكـــوّرة بعدها. ربما سيعتقد ثورن البوق أنها تستحق اتباع حمية. وجلبت أدوات حلاقتي من الحمّام، وتأكّدت بارتياح أن كيس الحمام الأزرق مع دمية الدب الذي تحـــتفظ فـــيه بينلوب بما تدعوه مجازاً *دلو الصحافة* ما زالا مفقودين من الرفّ: ما تحـــتاج إلـــيه أي فـــتاة في عطلة نهاية الأسبوع مع حشد من المعلنين المهمين في سوسيكس.

عـــدت إلى غـــرفة الـــنوم، وأفرغت المسروقات على السرير، والتي أعني بها الأشرطة ودفاتر الملاحظات، واستحوذت عليَّ ضرورة ترتيب الغرفة، وقلقت حول كيفية التخلّص من حقيبة السيد أندرسن البلاستيكية حتى تذكّرت سلّة المهملات في المطـــبخ. كـــنت على وشك التخلص من بطاقات عمل بريان سنكلير، لكني قرّرت دونما سبب ظاهر الاحتفاظ بها لما كانت تدعوه العمة إيملدا يوماً ماطراً. ثم ارتديت ملابس رجل حر: بنطال جينـــز، وقميص وسترة جلدية سبق أن اشتريتها قـــبل أن ألتقي بينلوب في ذكرى تخرّجي الأولى. وتتويجاً لكل ذلك، أضفت قبعتي الصوفية الزرقاء التي كانت تحظرها لأنها أفريقية للغاية.

اســـتعدت تلـــك الأحداث بترتيبها الزمني لأنني عندما أنجزتها كنت مدركاً للطقوس الواجب إتباعها. وكانت كل حركة قمت بها خطوة أخرى نحو حنا على أمـــل أن تحصل عليَّ، وهو ما اعتبرته أمراً مفتوحاً على التساؤلات. كان كل ما اختـــرته يدوياً من أدراج ملابسي جزءاً من خزانتي المتنقلة التي سترافقني إلى حياتي الجديـــدة. أتيت من البهو بحقيبة مزودة بدواليب من القياس الوسط مع قفل رقمي مـــدمج ومقبض سحب معدّل، والتي كانت مرة إحدى المقتنيات الثمينة التي تزيّن وجوداً غير ذي معنى. ودخل إليها أولاً الأشرطة ودفاتر الملاحظات التي لففتها في قمـــيص قديم قبل وضعها في حجيرة داخلية. وتحرّكت بشكل منهجي في الشقة، وقطعت عند المصدر كل ما يشدّني إليها، وانتزعت حاسوبـــي المحمول وملحقاته، ولكن دون الطابعة نظراً لعدم وجود مساحة لها، ووضعت المسجلتين، الأولى بحجم الجـــيب، والثانـــية بحجـــم المكتب، في صندوقين قويين، إضافة إلى مجموعتين من

سمّاعات الأذن ومذياع صغير. وأضفت إليها كتاب القدّاس الذي رافق والدي طيلة حـــياته، ورسائل الأخ مايكل التحفيزية من سرير موته، وقلادة ذهبية تحتوي على حفـــنة من شعر العمة إيملدا الأبيض، وملفاً من المراسلات الشخصية التي تتضمن رســـالة اللورد برنكلي لي وبطاقاته في أعياد الميلاد، وحقيبة الكتف القماشية المتينة التي حملت إلى البيت محتويات وجبة *كوك – او – فين*.

مـــن رفّ النافذة البارزة سحبت مغلّفاً مختوماً بالشمع وقد كتب عليه *نسخة بـــرونو* ويحـــتوي على اتفاقية ما قبل الزواج التي نظمها والد بينلوب البعيد النظر لتـــتعامل تحديـــداً مع هذه اللحظة. لطالما اعتبرت أن لديه رؤية واقعية عن زواجنا أكثـــر مما لديَّ أنا. وبكل الوقار الذي سينتابني إذا وضعت إكليلاً من الزهر على ضريح الجندي المجهول، وضعت الاتفاقية الموقعة من الطرفين على وسادة بينلوب، ونـــزعت خاتم الزواج من بنصر يدي اليسرى ووضعته في المركز تماماً. ودون هذا الخـــاتم أصبحت عازباً. وإذا شعرت بأي شيء، فإنه لم يكن مرارة أو غضباً وإنما إنجـــازاً. إنها يقظة بدأت قبل وقت طويل من انفجار ذلك السيد الصغير في المطعم الإيطـــالي ووصلت إلى نهايتها المنطقية الوحيدة. لقد تزوجت بينلوب لأنها كانت الـــشخص الـــذي لم أستطع أن أحظى به يوماً: بطل مقدام في صحافتنا البريطانية الـــرائعة، وحبـــي المخلص والثابت الذي نبذ كل الآخرين، ومعلمتي في أسلوب الحياة وأم أطفالي المستقبليين، وفي لحظات انكساري، أمي البديلة البيضاء. تزوجت بينلوب من جانبها الجانب الغريب في شخصيتي، فقط لتكتشف أنني ملتزم، وهو ما شكّل لها بلا شك خيبة أمل كبيرة. ويمكنها في هذا السياق الحصول على تعاطفي القلبـــي. ولم أترك أي ملاحظة؟

أغلقـــت زمـــام حقيبتي، ورفضت إلقاء نظرة أخيرة، ومشيت عبر الممر نحو الباب الأمامي والحرية. وحالما فعلت ذلك سمعت القفل يدور دون الإعاقة المعتادة، ودخـــل زوج من الأقدام الخفيفة الوزن إلى البهو. وكان الخوف رد فعلي المباشر. ليس من بينلوب شخصياً، لأن ذلك كان قد انتهى. الخوف من اضطراري للكلام عمّا فعلته سلفاً. الخوف من التأخير، وفقدان الدافع، والوقت الثمين الذي ضاع في الجـــدال. الخوف من فشل مهمة بينلوب مع ثورن وأنها عائدة للمنـــزل بحثاً عن

عزاء لها، وأنها إذا لم تجده ستعاني من رفض مذلٍ آخر، وستكون تلك محطة تعتبرها غير قادرة على المقاومة: أنا. ولهذا كنت مرتاحاً عندما لم أواجه بينلوب واقفة أمامي مع يديها على وركها، ولكن جارتنا والمستشارة النفسية باولا، التي ترتدي معطفاً مضاداً للمطر، وحسب ما تأكّدت منه لا شيء آخر.

قالت: "*سمعك* هانيبعل يا سالفو".

صوت باولا أطلسي رتيب، وكئيب دائماً نوعاً ما. وهانيبعل كلبها.

تابعت بكآبة: "عندما يتسلل الشباب في الجوار ويحاولون أن يكونوا هادئين، يسمعهم هانيبعل. أين أنت ذاهب، بحق الله؟ تبدو غريباً".

قلت: "إلى العمل. مكالمة متأخرة. الأمر عاجل، آسف يا باولا. ينبغي أن أذهب".

"في هذه الملابس؟ قل غير ذلك. تحتاج إلى شراب. هل لديك قارورة؟"

"حسناً، ليس عليَّ الشرب، إذا كنت تعرفين ما أعنيه". دعابة.

"ربما يكون لديَّ لمرة واحدة. ولديَّ سرير أيضاً، إذا كان ذلك ما تبحث عنه. لم تعتقد أبداً أنني أعبث، أليس كذلك؟ كنت تعتقد أنني أحصل على الدفء من نيرانك. بينلوب لم تعد تعيش هنا يا سالفو. الشخص الذي يعيش هنا هي بينلوب الرمز".

"بولا، رجاءً، ينبغي أن أذهب".

"بينلوب الحقيقية غير مستقرة، وشريرة وتغالي في ردود أفعالها التي تقوم بها لمجرد الشك. وهي أيضاً مضطربة عقلياً وتتملكها الأوهام وهي أعز صديقاتي. لماذا لا تنضم إلى مجموعتي حول *تجارب الجسد الداخلي*؟ نتكلم كثيراً حول النساء مثل بينلوب. وتستطيع الارتقاء إلى مستوى عالٍ من الأفكار. ما هي المهمة؟"

"مستشفى".

"مع الحقيبة؟ أين هذا المستشفى؛ هونغ كونغ؟"

"رجاء يا باولا. أنا في عجلة من أمري".

"ما رأيك *بالجماع* أولاً، ثم الذهاب إلى المستشفى".

"لا. آسف".

"المستـــشفى ثم الجمـــاع؟" ما يزال الأمل يحدوها. "تقول بينلوب إنك تقوم بعمل رائع".

"شكراً، لكن لا".

تـــنحّت جانباً، وتجاوزتها بامتنان نـــزولاً على الدرج المشترك. وفي أي وقت آخر، كنت سأستغرب أن الجارة التي اعتادت تزويدنا بحقائق عن الحياة واستلمت مـــني عدداً لا يُحصى من قوارير ريغا قد تجاوزت دون أي جهد يذكر الخط من المرشد الروحي إلى الشبق الجنسي النسائي، ولكن ليس الليلة.

* * *

جلـــست على مقعد خشبـــي في المنتزه المقابل للأبواب الرئيسية للمستشفى بحلـــول الساعة 7:00 تقريباً حسب ساعة العمة إيملدا، وكنت قلقاً من معلومات الاســـتقبال المكـــتومة بأن النوبة الليلة لا تنهي عملها قبل الساعة 8:30 على أقل تقدير. وكان هناك تمثال حديث على مستوى نظري، مما سمح لي بأن أراقب دون أن يلاحظني أحد. ووقف إلى جانبـــي البوابة الزجاجية ممثلان عن ميليشيا بريطانية خاصـــة يـــرتديان لباساً موحداً. وسمعت ماكسي يقول بفخر: *زولو وأوفمبوس. أفـــضل المحـــاربين في العالم.* وفي مرآب للسيارات تحت الأرض، أفرغ موكب من عـــربات الإسعاف البيضاء جرحاه. وإلى جانبـــي على المقعد الخشبـــي استلقت الحقيـــبة القماشية التي نقلت إليها أشرطتي ودفاتر ملاحظاتي. وإدراكاً مني لتعلّقي الهش بالحياة، قمت بتثبيت حزام الكتف حول خصري.

كـــنت مستيقظاً تماماً ونصف نائم. وإيجاد سرير في منتصف الليل في موسم الـــتفجيرات عندما تكون حماراً وحشياً وتجر حقيبة كبيرة ليس مهمة سهلة. ولهذا اعتـــبرت نفسي محظوظاً فعلاً عندما دلّني ضابط شرطة ودود، كان قد عرج نحوي لإلقاء نظرة عن كثب، إلى نـــزل في شارع كيلبورن هاي والذي كان – بكلمات مالكـــه الـــسيد حكيم المحب للكريكيت – مفتوحاً لكل الأعراق على مدار اليوم بطوله. ومقابل المال النقدي – دولارات ماكسي تحوّلت إلى إسترليني – أصبحت

مباشرة نــزيلاً في الجناح الخاص، ويتألف من غرفة نوم فسيحة مزدوجة في مؤخرة النـــزل إضافة إلى مطبخ صغير ونافذة واسعة تطل على حديقة خضراوات بالغة الصغر.

كانـت الساعة آنذاك قد تجاوزت الثالثة صباحاً لكن النوم لم يأتِ طبيعياً إلى رجـل مصمم على الارتباط بامرأة حياته. وأغلقت زوجة السيد حكيم الضخمة الباب عليَّ بشق الأنفس عندما كنت أطوف في الغرفة مع السمّاعات على رأسي، والمسجلة في يدي. و"إس" لم تعنِ "ستالايت" فعلاً. وقد استفاد فيليب كثيراً منها. لقـد تحدّث إلى الصوت الذي كان مفوضاً بقول نعم. والصوت الذي قال نعم، وتـسبب بتكديـري، يعـود إلى بطلي منذ وقت طويل ومنتقد صحيفة بينلوب العظـيمة، اللورد برنكلي ساندس، رغم أن نبرة سخطه الأخلاقي منحتني أرضية للأمل. ومال إلى الشك في البداية:

"فيلـيب، لا أسمعك ببساطة. ولو لم أكن أعرفك جيداً، كنت سأقول إنك تقوم بتنفيذ إحدى حيل تابي".

عندما نصحه فيليب بأن الصفقة لن تتم بخلاف ذلك:

"إنه أكثر شيء لا أخلاقي سبق وسمعت به في حياتي. لماذا المصافحة، بحق الله؟ وتقـول إنه لن يقبل بجزء الآن، والبقية فيما بعد؟ حسناً، يجب عليه ذلك. تفاوض معه".

عـندما أصـرّ فيليب أنه استخدم كل ما يستطيع التفكير به، أصبحت نبرة برنكلي، لراحتي، مثالاً للبراءة المجروحة:

"فقـد الفـتى عقلـه. ينبغي أن أتحدث إلى والده. حسناً جداً، امنحه ما يطلـب. وستكون حتماً على حساب الأرباح المستقبلية، وينبغي أن نفتش عن طـرق لاستعادتها منذ اليوم الأول. أخبره ذلك يا فيليب من فضلك. لقد خاب ظني فيك بصراحة. وفيه. ولو لم أكن أعرفك بشكل أفضل، لكنت تساءلت من فعل ماذا لمن".

* * *

في الدقيقة السابعة عشرة بعد الثامنة، ظهر شاب يرتدي ثوباً أبيض على درج المستشفى. وتبعته راهبتان في ملابس رمادية. وفي الدقيقة العشرين، ظهر حشد من الممرضات، ذكوراً وإناثاً، ومعظمهم سود. ولكني بطريقة ما عرفت أن حنا، رغم أنها اجتماعية، لن تكون جزءاً من أي مجموعة اليوم. وعند الساعة الثامنة وثلاث وثلاثين دقيقة، خرجت مجموعة أخرى. وكانت المجموعة مؤلفة من حشد سعيد، ولا بد أن حنا كانت ستندمج جيداً معهم. لكن ليس اليوم. وفي الثامنة وأربعين دقيقة، خرجت لوحدها، تسير بطريقة صاخبة يمكنها أن تشوش على أولئك الذين يستعملون الهاتف الخليوي. وكانت ترتدي البدلة الرسمية، ولكن دون قبعة الممرضة. وحتى اليوم، لم أرَها سوى بالبدلة الرسمية أو عارية. وكانت عابسة بنفس الطريقة الجدّية التي كانت عليها عندما قاست نبض جان بيير، أو تبادلت معي الحب. وعندما وصلت إلى الدرجة الأخيرة، توقفت فجأة، متجاهلة أولئك الذين كانوا مجبرين على الالتفاف حولها في طريقهم صعوداً أو نزولاً، والذي قد يكون مفاجئاً بالنسبة لامرأة تراعي الآخرين كثيراً، ولكن ليس بالنسبة لي.

وقفت دون حراك، تحدّق بتأنيب بهاتفها الخليوي. وتوقعت تقريباً أن تهزّه بعنف أو ترميه بعيداً باشمئزاز. ووضعته أخيراً على أذنها، ومال عنقها الطويل للالتقاء به، وكنت أعرف أنها تستمع إلى رسائلي الثمانية الأخيرة التي أرسلتها عبر ساعات اليوم القصيرة. وحالما ارتفع رأسها، هبطت اليد التي تحمل الهاتف الخليوي إلى جانبها، واعتقدت أنها نسيت مرة أخرى إغلاقه. وفي الوقت الذي وصلت فيه إليها كانت قد بدأت تضحك، لكن حالما أمسكت بها تحوّلت الضحكة إلى دموع. في سيارة الأجرة، بكت قليلاً ثم بعض الضحك، وهو ما كنت أفعله أيضاً، طوال الطريق إلى نزل السيد حكيم. ولكن هناك، كما هي حالة العاشقين الحقيقيين، تملكنا تحفّظ مشترك، وأجبرنا على إطلاق سراح بعضنا، والمشي منفصلين عبر الساحة الأمامية المفروشة بالحصى. وكنا نعرف كلانا أننا ندين لبعضنا بتفسيرات، وأن رحلتنا إلى ذراعي بعضنا البعض ينبغي أن تكون محسوبة بدقة. ولهذا، وبكل كياسة، فتحت باب غرفة النوم وتنحّيت جانباً، ودعوتها لتدخل وفقاً لإرادتها الحرّة وليس بناءً على أمر مني، وهو ما فعلته بعد تردد يسير. وتبعتها وأغلقت الرتاج،

ولكـــن عـــندما رأيـــت أن ذراعيها ما تزالان إلى جانبها بثبات، قاومت الرغبة باحتضانها.

سأضـــيف - بكل الأحوال - أن عينيها لم تفارقاني للحظة واحدة. و لم يكن هـــناك شـــيء من الاتهام أو العدائية فيهما. لقد كانت تشبه نظرة تفحّص مطوّلة، والتي جعلتني أتساءل عن مقدار الاضطراب الذي رأته مدفوناً في عينيّ، لأنها كانت امـــرأة أمـــضت أيامها تشاهد رجالاً في مواقف عصيبة، ولهذا تعرف كيف تقرأ وجوهـــنا. وانتهى تفحّصها لي، وأخذت بيدي وقادتني في جولة في الغرفة، والتي كـــان الهـــدف المعلن لها إطلاعي على ممتلكاتي: قلادة العمة إيملدا، كتاب قدّاس والـــدي، الخ... و - لأن الممرضة المجازة لا تفوتها ملاحظة تهم مريضها - والأثر الشاغر الأبيض تقريباً على إصبعي الثالثة في يدي اليسرى. وبعد ذلك - واستدلالاً كمـــا يـــبدو لي - التقطت أحد دفاتر ملاحظاتي الأربعة - الثالث، كما صدف، المخصص لخطة ماكسي الحربية - و، كما فعل فيليب قبل ست عشرة ساعة فقط، طلـــبت تفـــسيرات كنت متردداً في تقديمها، على اعتبار أن استراتيجيتي لتلقينها تتطلب تحضيرات معقّدة، انسجاماً مع أفضل مبادئ المهنة.

أصـــرّت قائلـــة: "*وهذا*؟" في إشارة مباشرة إلى إحدى كتاباتي الهيروغليفية المعقّدة.

"كيفو".

"كنت تتحدث حول كيفو؟"

"طوال عطلة نهاية الأسبوع. حسناً، زبائني كانوا يتحدثون عنها. بطريقة ما".

"إيجابياً؟"

"حسناً، إبداعاً، بطريقة ما".

كـــنت قد زرعت البذور، ولو بشكل غير ملائم. بعد فترة صمت، ابتسمت بحـــزن. "من قد يكون مبدعاً بخصوص كيفو هذه الأيام؟ ربما لا أحد. لكن وفقاً لبابتيست، بدأت الجراح تندمل. وإذا استطعنا المضي قدماً بهذا، ربما سيكون لدى الكونغو يوماً ما أطفال لا يعرفون الحرب. وحتى كينشاسا تتكلم بجدّية حول إجراء انتخابات، على الأقل".

"بابتيست؟"

ظهرت في البداية كأنها لم تسمعني، فقد كانت منهمكة جداً بحروفي البابلية. وأضـافت، "بابتيـست هـو ممثل غير رسمي لموانغازا في لندن"، وأعادت لي دفتر الملاحظات.

كنت ما أزال أفكّر في وجود بابتيست في حياتها عندما أطلقت صرخة تنبيه، وكانـت الأولى والأخـيرة التي أسمعها منها على الإطلاق. وكانت تحمل مغلّف ماكسي الذي يحتوي على ستة آلاف دولار لم أكن قد حوّلتها بعد إلى الإسترليني، وكان من السهل رؤية الاتهام في وجهها.

"حنا، إنها ليست مسروقة. إنها مكتسبة. بعرق جبيني. بصدق".

"بصدق؟"

"حسناً، قانونياً بكل الأحوال. إنه مال حصلت عليه من – كنت على وشك قول *الحكومة البريطانية*، لكني غيرت رأيي من أجل السيد أندرسن – الزبائن الذين كنت أعمل لصالحهم خلال عطلة نهاية الأسبوع". وإذا كنت قد بدّدت شكوكها، فلا بد أنها كانت ستثور مجدداً لرؤية بطاقات عمل بريان سنكلير والتي تركتها على رفّ المـوقد. وأكّـدت لهـا بمكر: "بريان صديق لي. إنه شخص نعرفه كلانا في الحقيقة. سأخبركِ كل شيء عنه فيما بعد".

رأيـت بلمحة خاطفة أنني كنت أفشل في إقناعها، وكنت على وشك سرد كامـل القـصة لهـا – السيد أندرسن، والجزيرة، وفيليب، وماكسي، والحاج، وأنطـوان، وبـيني، وسبايدر عشرات المرات – لكن الإعياء أدركها، كما لو أنها سمعت مني كل ما تستطيع سماعه في جلسة واحدة. ولهذا عوضاً عن إمطاري بوابلٍ مـن الأسئلة، استلقت الممرضة الليلية المرهقة بكامل ملابسها على أحد جانبـي الـسرير، وأدركتها غفوة كانت أكثر دهشة مع الابتسامة التي رفضت أن تفارق وجههـا. قـرّرت أن أحذو حذوها، وأغلقت عينيّ أيضاً، متسائلاً كيف سيكون ممكـناً أن أشـرح لهـا أنني كنت الشريك المكره في انقلاب مسلح ضد بلدها. وكـرّرت لنفسي بابتيست. ولم يخطر ببالي أن إعجابها بموانغازا قد يمتد إلى أعضاء في منظمته. ورغم حالتي المشحونة، إلا أن *الطبيعة* كانت إلى جانبـي، لأنني عندما

استيقظت، كنت ما أزال أرتدي الجينز والقميص، وكانت حنا مستلقية عارية بين ذراعيّ.

* * *

لست مناصراً للوضوح، ولا الأخ مايكل في هذا المضمار. وأفعال الحب - في رأيه - أمور خاصة تماماً مثل أفعال العبادة، وينبغي أن تبقى كذلك. ولهذا يجب أن لا أستكين لنشوة لم الشمل الجسدي، والتي حصلت بكل وضوح في أشعة شمس الصباح التي تسللت عبر النافذة البارزة نحو غطاء سرير السيدة حكيم المتعدد الألوان. حنا تستمع لك. ولم أكن معتاداً على الناس الذين يفعلون ذلك. وفي حدسي المرهف، خفت أن يكون كلامها لاذعاً أو حتى أن يخامرها الشك. لكن تلك كانت بينلوب، وليس حنا. وبين الفينة والأخرى، من الصحيح - مثلاً عندما كنت مجبراً على تبديد أوهامها حول موانغازا - أن بضع دموع انسكبت على وجنتيها وسبّبت بقعاً على غطاء وسادة السيدة حكيم الأزرق الفاتح، ولكن لم يفارقها لمرة واحدة تعاطفها أو قلقها حول مأزقي. وقبل يومين، كنت معجباً برقتها التي أخبرت بها رجلاً أنه يحتضر، وكنت مصمماً على محاكاتها، لكني افتقدت كلاً من المهارة والذخيرة السابقة. وحالما بدأت، أفسحت المجال لحاجتي في إخبارها كل شيء دفعة واحدة. وقد أذهلها البوح، حتى بجزءٍ فقط مما حدث، أنني كنت أعمل مع *الاستخبارات السرية البريطانية* البالغة القوة.

"وأنت مخلص حقاً لهؤلاء الناس يا سالفو؟"

كنت أتكلم الإنكليزية، ولهذا تكلمت بها أيضاً.

أجبت: "حنا، لطالما حاولت أن أكون مخلصاً. وسأبذل قصارى جهدي للبقاء مخلصاً"، وبدا حتى أنها تفهم ذلك.

تكوّرت حولي مثل طفل نعسان، وارتعشت لسماع قصة رحلتي السحرية من الشقة العلوية في شارع جنوب أودلي إلى القصر المترف في ساحة بركلي، وركوب المروحية ورحلة الطيران الغامضة إلى جزيرة لا تحمل اسماً في الشمال. وعرّفتها على أمراء الحرب، وراقبت وجهها يمر عبر ثلاثة فصول في دقائق قليلة: غضب متّقد من

فــرانكو الوضيع مع قدمه العرجاء وحبه للمعارك، وتبعه حزن على ديدون المبتلى بالإيــدز. وفقط عندما قدّمت وصفاً أولياً عن الحاج العنيف، فتى بوكافو الفرنسي الثقافة، ومالك النادي الليلي، شاهدت فتاة بعثة العنصرة الدينية، التي كانت منصفة بشكل ملائم.

"مالكــو النوادي الليلية محتالون يا سالفو. ولن يكون الحاج مختلفاً. إنه يبيع شــراب الشعير والمعادن، ولهذا ربما يبيع الممنوعات والنساء أيضاً. إنها الطريقة التي تتصرف بها نخبة كيفو الشابة اليوم. إنهم يضعون نظارات داكنة ويقودون سيارات دفــع رباعي ويشاهدون أفلام خلاعية مع أصدقائهم. ولا مانع لديَّ من القول إن والده لوك يتمتع بسمعة بالغة السوء في غوما. إنه رجل مهم يعمل بالسياسة ليحقق مكاســب شخصية، وليس لصالح الشعب إطلاقاً". لكن تقطّب جبينها بعد ذلك عــندما كانت تحوّر بتردد حكمها. "بكل الأحوال، ينبغي أن يقبل المرء أيضاً أنه لــيس ممكناً جني النقود في الكونغو اليوم دون أن تكون محتالاً. وينبغي على المرء الإعجاب بفطنته على الأقل".

عــندما لاحظت تعبير وجهي، تراجعت، واستغرقت في تأملي. وعندما تفعل حــنا ذلك، لا يكون من السهل على المرء المحافظة على *أمنه الشخصي*. "تتحدث بنبرة خاصة عن هذا الحاج. هل تكن له مشاعر خاصة أيضاً؟"

أجبت بمراوغة: "لديَّ مشاعر خاصة تجاههم جميعاً".

"إذاً، لماذا هذا الحاج مختلف؟ لأنه يعيش بأسلوب غربي؟"

"لقد خذلته".

"كيف يا سالفو؟ لا أصدّقك. ربما خذلت نفسك. والأمر مختلف".

"لقد عذّبوه".

"الحاج؟"

"باستخدام منخس كهربائي. وصرخ. ثم أخبرهم كل شيء يريدون معرفته. ثم باع نفسه".

أغلقت عينيها وفتحتهما. "وأنت استمعت؟"

"لم أكن أقصد ذلك. حدث ذلك مصادفة".

"وهل سجّلت ما حدث؟"

"هم سجلوا ما حدث".

"عندما تعرّض للتعذيب؟"

"كان شريطاً للأرشيف. تسجيلياً وليس عملياتياً".

"وهو بحوزتنا؟" وقفزت من السرير وأسرعت إلى الطاولة بجانب النافذة. "هذا الشريط؟"

"لا".

"هـــذا الـــشريط؟" ولدى النظر إلى وجهي، أعادت الشريط إلى مكانه على الطاولـــة، وعادت إلى السرير وجلست بجانبـــي. "نحتاج إلى طعام. وعندما ننتهي من الأكل، سنشاهد الشريط. اتفقنا؟"

قلت إنني موافق.

ولكـــن قبل الطعام، كانت تحتاج إلى ملابس عادية، والتي كان ينبغي عليها جلـــبها من بيتها، لهذا استلقيت وحيداً مع أفكاري لمدة ساعة. لن تعود أبداً. لقد قرّرت أنني مجنون، وهي محقة. لقد ذهبت إلى بابتيست. وتلك الخطوات التي تصعد السلالم ليست لحنا، وإنما للسيدة حكيم. لكن السيدة حكيم ثقيلة الوزن، فيما حنا رشيقة.

* * *

إنها تحدّثني حول ابنها نوح. وتأكل البيتزا بيد، وتحتضنني بالأخرى فيما تتحدّث إليّ بالسواحيلية عن نوح. وفي المرة الأولى التي كنا فيها معاً كانت تتحدث عنه بحياء. والآن، ينبغـــي أن تخبرني بكل شيء، وكيف ولد وماذا يعني لها. ونوح طفلها المحبوب رغم أنه، "وصدّقني يا سالفو، لم يكن هناك حب، على الإطلاق".

"عـــندما أرسلني والدي من كيفو إلى أوغندا لأصبح ممرضة، أقمت علاقة مـــع طالب طب. وعندما حملت منه، أخبرني أنه متزوج. وأخبر فتاة أخرى نام معها أنه شاذ".

كانت في السادسة عشرة من عمرها، وعوضاً عن ازدياد حجم بطنها، خسرت رطلاً من وزنها قبل أن تستجمع شجاعتها لإجراء اختبار *إتش آي في*. وكانت النتيجة سلبية. واليوم إذا أرادت فعل شيء كريه، تفعله مباشرة لتقلل من وقت الانتظار. ووضعت الطفل، وساعدتها عمتها في العناية به فيما أنهت تدريبها. وأراد كل طلاب الطب والأطباء الشباب النوم معها، لكنها لم تنم مع رجل آخر حتى الآن.

انفجرت بالضحك. "وانظر إليك يا سالفو! أنت متزوج أيضاً!"

وقلت إنني لم أعد كذلك.

ضحكت وهزّت رأسها وارتشفت من شراب النزل الأحمر والذي كان – كما اتفقنا سابقاً – أسوأ شراب تذوّقناه في حياتنا؛ أسوأ من الأشياء التي أرغمونا على شربها في حفل المستشفى السنوي الراقص، كما قالت، والذي يعتبر شيئاً بالغ السوء، صدّقني يا سالفو. وكان ردّي أنه ليس بسوء شراب إيطالي حادّ والذي يصنعه جيانكارلو، واستغرقني الأمر بعض الوقت لأخبرها حول السيد الصغير الشجاع في المطعم الإيطالي في شارع المنتزه، باترسي.

بعد سنتين من ولادة نوح، أنهت حنا تدريبها. وارتقت إلى ممرضة متمرسة، وتعلمت بنفسها الإنكليزية، وكانت تذهب إلى الكنيسة ثلاث مرات أسبوعياً. هل ما زلت تفعلين ذلك يا حنا؟ قليلاً. الأطباء الشباب يقولون إن... ليس متوافقاً مع العلم، وقد رأت في أجنحة المستشفى، إذا كانت صريحة، علامة صغيرة عنه. لكن ذلك لم يمنعها من الصلاة لأجل نوح، ولأجل عائلتها وكيفو، أو مساعدة أطفالها في مدرسة الأحد الدينية، كما تدعوهم، في الكنيسة شمال لندن حيث تذهب، مع ما تبقى من إيمان فيها، للعبادة.

حنا فخورة بكونها مربية، ولديها كل الحق بأن تكون كذلك لأنه يتمّ الاحتفال بالمربيات لتفانيهن. وأخبرتني ونحن نشرب القهوة وكأساً آخر من الشراب الأحمر السيئ أنها جاءت إلى إنكلترا عبر وكالة عندما كانت في الثالثة والعشرين من عمرها. وكانت قد أخبرتني بذلك من قبل، ولكن في سياق لعبتنا، إذا أغفلت شيئاً، تعود من البداية. ولم يكن الإنكليز سيئين معها، ولكن الوكالة

عاملتها بازدراء، وكانت تلك أول مرة أسمعها فيها تقول كلمة سيئة. وتركت نوح في أوغندا مع عمّتها، مما فطر فؤادها، ولكن بمساعدة عرّاف في عينتاب، استطاعت تحديـــد قـــدر عائلتها، والذي يقتضي زيادة معرفتها بالأساليب والتقنيات الطبية الغـــربية وإرسال المال إلى نوح في وطنها. وعندما تتعلّم بما فيه الكفاية وتنقذ حياة الكثيرين، ستعود معه إلى كيفو.

كانـــت تحلم في بداية وصولها إلى إنكلترا بنوح كل ليلة. وكان الاتصال به هاتفياً يزعجها حتى عوّدت نفسها على مرة واحدة أسبوعياً في فترة التخفيض (أي المخابـــرات المنخفـــضة الكلفـــة). ولم تخبرها الوكالة قط أنه ينبغي عليها حضور مدرســـة لمعادلة شهادتها والتي استهلكت كل مدّخراتها، أو ينبغي عليها تسلّق سلم التمـــريض مجـــدداً من الأسفل للأعلى. وفشلت النيجريات اللواتي كانت تسكن معهـــن في دفع الإيجار، حتى ألقى بهن المالك جميعاً يوماً ما إلى الشارع، بمن فيهن حـــنا. وللحصول على ترقية في المستشفى، كان عليها أن تكون أفضل بكثير من منافساتها ذوات البشرة البيضاء، وأن تعمل بجهد مضاعف. ولكن بعون الله، وبقوة جهـــودها الذاتـــية الخارقة، حققت المراد. وحضرت مرتين أسبوعياً دورة دراسية حول التداخلات الجراحية البسيطة في البلدان الفقيرة. وكان ينبغي أن تكون هناك اللـــيلة، لكـــنها ستعوض ذلك فيما بعد. إنها مهارة وعدت نفسها باكتسابها قبل استرداد نوح.

تـــركت أكثـــر الأجزاء أهمية حتى النهاية. لقد أقنعت رئيسة الممرضات بأن تمنحها أسبوع إجازة إضافي غير مدفوع، مما يسمح لها أيضاً باصطحاب أطفالها في مدرسة الأحد الدينية في رحلتهم التي تستغرق يومين إلى شاطئ البحر.

سألتها وأنا يحدوني الأمل: "هل طلبت الإجازة من أجل أطفال مدرسة الأحد فقط؟"

ســـخرت من الفكرة نفسها. الحصول على إجازة لمدة أسبوع على أمل أن يحافظ مترجم عرفته صدفة على وعده؟ سخف.

انتهيـــنا مـــن القهـــوة ودفعنا الفاتورة من دولارات ماكسي التي تحوّلت إلى إســـترليني. وفي غـــضون لحظة سيحين وقت الذهاب إلى الغرفة في نـــزل السيد

حكيم. وأمسكت حنا إحدى يديّ وفحصت راحتها، واستغرقت في تعقّب خطوطها بظفر إصبعها.

سألت: "هل سأعيش إلى الأبد؟"

هزّت رأسها سلباً وتابعت تفحّص راحة يدي المقيّدة. وتمتمت بالسواحيلية أنه يوجد خمسة منهن. لسن بنات الأخ بالتأكيد. بنات عم. لكنها تفكّر فيهن كبنات أخيها الآن. ولدن لنفس العمة التي اعتنت بها في أوغندا، وتعتني حالياً بنوح. وكنّ كل ما لدى العمة من أطفال. لا يوجد صبيان. وكانت أعمارهن تتراوح بين السادسة والسادسة عشرة. وسردت أسماءهن، وكانت جميعها من الإنجيل. وانخفضت عيناها وكانت ما تزال تتكلم إلى يدي وقد تحوّل صوتها إلى نغمة واحدة. وكن يمشين إلى المنزل على طول الطريق. عمها والفتيات، يرتدون أفضل ملابسهم. وكانوا يتجهون إلى الكنيسة، ورؤوسهم مليئة بالدعاء. ولم تكن عمتي بخير، ولزمت الفراش. واعترض طريقهم بعض الفتيان. تسللوا عبر الحدود من رواندا، وقد ذهبت الممنوعات بعقولهم وجعلتهم يبحثون عن المتعة. واتهموا عمي بأنه جاسوس توتسي، وقطعوا أوتار الفتيات، واغتصبوهن، وألقوا بهن إلى النهر وهم يصرخون *زبدة! زبدة!* فيما كن يغرقن. وكانت تلك طريقتهم في قول إنهم سيحولون كل التوتسي إلى زبدة.

سألتها فيما كانت تتفادى النظر إليّ: "ماذا فعلوا بعمك؟"

ربطوه إلى شجرة. وجعلوه يشاهد. وأبقوا على حياته ليخبر أبناء القرية.

في نوع من التبادل، أخبرتها عن والدي والجلد بالسوط الذي كنت أتلقاه. ولم يسبق أن أخبرت أحداً قط بذلك حتى الآن عدا الأخ مايكل. ومشينا إلى النزل واستمعنا إلى الحاج يتعرض للتعذيب.

* * *

جلست باستقامة في الغرفة، بعيدة عني قدر استطاعتها. وارتسم على محياها وجه الممرضة الرسمي، وكان تعبيره جامداً، ومهما صرخ الحاج، ووبّخه وعنّفه تابيزي، وقام بيني وأنطوان بأسوأ ما يستطيعانه باستخدام ما زوّده بهم سبايدر من

صـــندوق عدّته، لم يظهر على حنا أي شعور مثل قاضٍ لا ينظر إلى أحد، أو على الأقـــل إليّ. وعـــندما توسّل الحاج طلباً للرحمة، أظهرتْ جَلَداً كبيراً. عندما صبّ لعـــناته علـــى تابيزي وموانغازا لعقدهما تلك الصفقة القذرة مع كينشاسا، بالكاد تداعت. وعندما غسله أنطوان وبيني في الحمام، صدرت عنها علامة اشمئزاز، لكنها لم تجـــد طـــريقها بأي وسيلة كانت إلى وجهها. وعندما ظهر فيليب على مسرح الأحداث وبدأ بالتحدّث مع الحاج بكلام منطقي، أدركت أنها شعرت بكل لحظة من ألم الحاج، كما لو أنها كانت موجودة بجانبه. وعندما طلب الحاج ثلاثة ملايين دولار ليبيـــع بـــلاده، توقعتها أن تكون على أقل تقدير ساخطة، لكنها أخفضت عينيها بالكاد، وهزّت رأسها بتعاطف.

تمتمت: "ذلك الفتى المتباهي المسكين. لقد قتلوا روحه المعنوية".

عـــند تلـــك النقطة، ورغبة مني في تجنيبها المهزلة النهائية، كنت على وشك إغلاق الشريط، لكنها أوقفت يدي.

شرحت بلطف: "إنه مجرد غناء من هذه النقطة. والحاج يحاول التخفيف عن نفسه. ولكنه لا يستطيع".

رغم ذلك، وبناءً على إصرارها، شغّلت الشريط حتى النهاية، بدايةً من جولة الحاج في غرفة رسم موانغازا، ونهايةً بوقع حذائه المصنوع من جلد التمساح عندما كان يمشي على طول الممشى المغطّى إلى جناح الضيوف.

أمرت: "مجدداً".

هكذا شغّلته مجدداً، وجلست بعد ذلك لفترة طويلة دون حراك.

"إنه يمشي بصعوبة بالغة، هل سمعت ذلك؟ ربما تسببوا بأضرار لقلبه؟"

لا يـــا حـــنا، لم ألاحظ أنه يمشي بصعوبة. وأوقفت الشريط لكنها لم تحرّك ساكناً.

سألتني: "هل تعرف تلك الأغنية؟"

"إنها مثل كل الأغاني التي نغنيها؟"

"إذاً، لماذا يغنّيها؟"

"ليجعل نفسه سعيداً، على ما أعتقد".

"ربما يريدك أن تكون سعيداً".

أذعنت قائلاً: "ربما الأمر كذلك".

*　*　*

حنا شخص عملي. وعندما تواجه مشكلة ينبغي التعامل معها، تفتش عن جذورها وتعمل عليها من هناك. ومثلما كان لديَّ الأخ مايكل، كان لديها أختها إيموجين. وعلّمتها إيموجين في مدرسة الإرسالية كل ما تعرفه. وعندما كانت حاملاً في أوغندا، أرسلت لها إيموجين رسائل تطيّب خاطرها. ويقول *قانون* إيموجين، الذي ينبغي عدم نسيانه إطلاقاً برأي حنا، إن المشكلة لا تنشأ من فراغ، ولهذا يجب علينا أولاً تحليلها إلى عناصرها الأساسية، ثم التعامل مع كل عنصر بدوره. وفقط عندما نقوم بذلك على أكمل وجه - وليس قبل ذلك - سيدلّنا الله على طريق الصواب. وعلى اعتبار أن ذلك كان بمثابة منهج عمل لحنا، في كلٍ من عملها وحياتها على نطاق واسع، لم أستطع الاعتراض على الاستجواب البسيط نوعاً ما الذي أخضعتني له آنذاك، بكل رقّة ولطف، باستخدام الفرنسية باعتبارها لغة البوح لدينا.

"كيف ومتى سرقت الأشرطة ودفاتر الملاحظات يا سالفو؟"

وصفت لها نزولي الأخير إلى غرفة المرجل، وظهور فيليب المفاجئ، ونجاتي بشقّ الأنفس.

"خلال رحلة العودة إلى لوتون، هل نظر إليك أحد نظرة شك أو سألك عمّا تحمله في حقيبتك؟"

"لا أحد".

"هل أنت واثق؟"

"واثق قدر ما أستطيع".

"من يعرف الآن أنك سرقت الأشرطة؟"

ترددت. إذا قرّر فيليب العودة إلى غرفة المرجل بعد مغادرة الفريق وإلقاء نظرة ثانية إلى داخل الحقيبة التي ينبغي التخلّص منها، سيعرفون. وإذا تفقّد سبايدر،

لدى وصوله إلى إنكلترا، الأشرطة قبل تسليمها ليتم حفظها في الأرشيف، سيعرفون. أو إذا قرّر الشخص الذي سلّمه إياها تفقّدها لأي سبب ما، سيعرفون. ولا أدري لماذا تبنيت نبرة مصطنعة عند تلك النقطة، لكنها ربما كانت في سبيل الدفاع عن النفس.

قلت بإصرار، متخذاً أسلوب المحامين الطويلي النفس والذين كنت مجبراً أحياناً على ترجمة كلامهم: "بكل الأحوال، سواء عرفوا أم لا، ليس هناك سوى القليل من الشك بأني *تقنياً* خرقت جدّياً *قانون السرية الرسمي*. أم أنني خرقته؟ أعني ما مدى *خطورة* هذه الأسرار؟ وإذا كان وجودي غير معترف به أصلاً، أعتقد أن الأسرار ستكون كذلك. وكيف يمكن اتهام مترجم غير موجود أصلاً بسرقة أسرار غير موجودة عندما يعمل لصالح نقابة لا تحمل اسماً، والتي تصّر بنفسها أن لا وجود لها؟"

لكن حنا، كما توقعت ربما، أقل تأثراً مني بفصاحتي القانونية.

"سالفو. لقد سرقت من صاحب عمل قوي شيئاً ثميناً جداً بالنسبة له. والسؤال فيما إذا كانوا سيكتشفون ذلك، وإذا أمسكوك، ماذا سيفعلون بك؟ وقلت إنهم سيهاجمون بوكافو بعد أسبوعين. كيف تعرف هذا؟"

"ماكسي أخبرني بذلك. على متن الطائرة في طريق عودتنا. إنها حول الاستيلاء على المطار. خلال مباراة كرة القدم يوم الأحد. سيصل المرتزقة البيض بطائرة سويسرية، وسيتظاهر المرتزقة السود بأنهم فريق كرة قدم زائر".

"إذاً، ليس لدينا الآن أسبوعان وإنما ثلاثة عشر يوماً".

"نعم".

"وليس مؤكداً ولكن من المحتمل أنك رجل مطلوب".

"أعتقد أنني كذلك".

"إذاً ينبغي أن نذهب إلى بابتيست".

احتضنتني بذراعيها، ونسينا لبعض الوقت كل شيء عدا أننا مع بعضنا البعض.

* * *

استلقينا على ظهرينا، ونحن نحدّق بالسقف، وهي تخبرني عن بابتيست. إنه من الجنسية الكونغولية المتحمّس لكيفو موحّدة، وعاد مؤخراً من واشنطن حيث كان يحضر منتدى بحثي حول الوعي الأفريقي. أرسل الرواندييون سفاحيهم عدّة مرات لتعقّبه وقتله، ولكنه بارع جداً ويفوقهم ذكاءً دائماً. ويعرف كل المجموعات الكونغولية بما فيها السيئة، في أوروبا، وأميركا وفي كينشاسا.

اقترحت: "كينشاسا حيث توجد القطط السمان ".

"نعم يا سالفو. حيث توجد القطط السمان. والكثير من الناس الطيبين والوقورين أيضاً مثل بابتيست الذي يهتم لشأن شرق الكونغو ومستعد لتحمّل المخاطر لحمايتنا من أعدائنا وأولئك الذين يريدون استغلالنا".

أردت الموافقة دون شروط على كل ما تقوله. وأردت أن أكون كونغولياً بقدر ما هي عليه. ولكن فأر الغيرة، كما كان يسميه الأخ مايكل، قضم أحشائي.

قلت: "إذاً، حتى إذا كنا نعرف بأن موانغازا عقد صفقة قذرة مع كينشاسا، أو أن تابيزي فعل ذلك، أو قومه، لا زلتِ تعتقدين أنه من الأفضل أن نذهب إلى ممثل موانغازا هنا في لندن، وكشف القصة له بأكملها؟ أنت تثقين به إلى هذا الحدّ".

أدارت نفسها إلى جانبها، وحدّقت بي.

"نعم يا سالفو. أثق به إلى هذا الحدّ. وإذا سمع بابتيست ما سمعناه وعرف أن موانغازا فاسد، وهو ما لا أصدقه حتى الآن، عندها سيعرف بابتيست - لأنه شريف ويحلم بالسلام لكل كيفو كما نفعل نحن - من سيحذّر وكيف يمنع الكارثة الوشيكة".

استقرت مجدداً على ظهرها وتابعنا دراستنا لسقف السيدة حكيم. وطرحت السؤال الذي لا مفر منه: "كيف التقيت به؟"

"لقد نظّمت مجموعته رحلة بالحافلة إلى برمنغهام. وهو شي مثل موانغازا، لهذا كان طبيعياً أن يعتبر موانغازا القائد المستقبلي. لكن ذلك لم يمنعه من رؤية نقاط ضعف موانغازا".

أكّدت لها أن بالطبع لا.

"وفي اللحظة الأخيرة، تماماً قبل مغادرة الحافلة، قفز على متنها بشكل غير متوقع أبداً، وألقى محاضرة مؤثّرة حول احتمالات السلام والمساواة لكل كيفو".

وسألت: "لك بشكل شخصي؟"

"نعم يا سالفو. لي شخصياً. لم يتحدث سوى معي من بين ستة وثلاثين شخصاً في الحافلة. وكنت عارية تماماً".

* * *

كانت أولى اعتراضاتها على بطلي المفضّل، اللورد برنكلي، مطلقة بحيث أوحت لي بتعصّب الأخت إيموجين.

"لكن يا سالفو. إذا استطاع الأشرار جرّنا إلى الحرب وسرقوا مصادرنا الطبيعية، هل تكون هناك درجات للإثم بينهم؟ بالتأكيد أن كل واحد منهم شرير مثل الآخر، لأنهم جميعاً مشتركون في نفس الفعل؟"

أجبت بصبر: "لكن برنكلي ليس مثل الآخرين. إنه زعيم مثل موانغازا. إنه من صنف الرجال الذي يمشي الآخرون خلفه عندما يريدون القيام بعمل ما".

"إنه أيضاً الرجل الذي كان قادراً على قول نعم".

"هذا صحيح. وهو الرجل الذي عبّر عن صدمته وغضبه الأخلاقي، إذا كنتِ تتذكرين. واتهم فيليب بالنفاق عملياً عندما كان على وشك القيام بذلك". ولحسم الأمر: "إذا كان الرجل الذي يستطيع رفع سمّاعة الهاتف وقول نعم، يستطيع أيضاً رفعها وقول لا".

لاستكشاف القضية بشكل أفضل، استندت إلى خبرتي الواسعة في عالم الأعمال. وتساءلت كيف أنني لم ألاحظ من قبل أن الرجال في سُدة القيادة لم يكونوا يبالون بما يجري باسمهم، وأنهم كانوا مشغولين للغاية بزيادة رأسمالهم ومراقبة السوق؟ وبدأت تدريجياً تهز رأسها موافقة، لعلمها أنه بالمحصلة هناك مناحٍ في الحياة تتجاوز معرفتي بها استيعابها. ولزيادة مدى الجدال، ذكّرتها أنني تبادلت الحديث مع برنكلي في منزل ميدان بيركلي. وأنهيت كلامي قائلاً: "وماذا حدث عندما

ذكـــرت اسم السيد أندرسن أمامه؟ لم يسبق أن سمع به!" وانتظرت رد فعلها بعد ذلـــك، والذي كنت آمل بصدق أن لا يتضمن أي دفاع عن بابتيست. وأطلعتها أخـــيراً على رسالتي، التي يشكرني فيها على دعمي: *العزيز برونو، بتوقيع المخلص جاك*. وحتى عندها لم تستسلم تماماً:

"إذا كانت النقابة سيئة السمعة إلى هذا الحدّ، كيف يمكنهم استخدام برنكلي كمدير لها؟" ولأنه لم يكن لديَّ جواب جيد جاهز: "إذا كان ينبغي عليك الذهاب إلى أحد تعرفه، اذهب على الأقل إلى السيد أندرسن الذي تثق به. أخبره بقصتك، وضع نفسك تحت رحمته".

لكـــني كنت قادراً مرة أخرى على التفوق عليها في المناورة، وهذه المرة مع معـــرفتي بالعالم السري. "غسل أندرسن يديه مني قبل حتى أن أغادر شقته الآمنة. ولم يكن للعملية وجود، وكذلك *أنا*. هل تعتقدين أنه سيتعرّف عليَّ عندما أدخل إليه وأخبره بأن كل شيء لم يكن سوى احتيال؟"

شـــرعنا في العمـــل، جنباً إلى جنب، على حاسوبـــي المحمول. وكان موقع اللـــورد برنكلـــي على الإنترنت كتوماً حول مقر سكنه. وأولئك الذين يرغبون بالكـــتابة إلـــيه، ينبغـــي أن يوجهوا رسائلهم إلى مجلس اللوردات. ويقوم المكتب الـــصحفي لدى السيد برنكلي بالتعامل مع تلك الرسائل. وكان جاك متزوجاً من اللـــيدي كـــيتي، وريـــثة ثروة أرستقراطية وناشطة في الأعمال الخيرية التي تخصّ المعـــوزين في بريطانيا، وهو ما زكّاها طبيعياً لدى حنا. ولدى الليدي كيتي موقع علـــى إنترنت فيه قائمة بالجمعيات الخيرية التي تتمتع برعايتها، إضافة إلى عناوين يستطيع المانحون إرسال شيكاتهم إليها، وملاحظة حول الحفل الخيري الذي تنظّمه يوم الخميس *في منـــزلها* والذي يدعى إليه المحسنون بناءً على ترتيبات مسبقة فقط. وكان منـــزلها في كينغزبريدج، قلب مثلث لندن الذهبـــي.

* * *

كـــنت متأخـــراً ساعة. واستلقيت مستيقظاً، وذهني صافٍ. ولم تحرّك حنا، المدربة على النوم في أي مكان تستطيع فيه ذلك، ساكناً. ارتديت بصمت قميصي

وبنطالي، وأخذت هاتفي الخليوي ونــزلت إلى بهو الضيوف حيث كانت السيدة حكــيم تــرفع مــا تبقى من الإفطار. وبعد التحيات الإلزامية المعتادة، هربت إلى الحديقة الصغيرة التي تقع في إفجيج (وادٍ ضيق عميق) بين مباني بنية طويلة. وانتابني قلــق عابــر مما كان مدربيّ اليوم الواحد يدعونه برأي بينلوب *طرق تجارية*. وبعد قضاء عطلة نهاية أسبوع متّقدة مع ثورن، ستعرّج على شقق نورفولك في الصباح لتجّهــز نفسها مجدداً قبل أن تباشر أعمالها القاسية طوال الأسبوع. وتقوم بإجراء اتصالاتها الهاتفية التي تدفع صحيفتها قيمتها. ومثل كل الصحفيين الجيدين، فكّرت ملياً بخطّها المفتوح.

اللعــنة عليك يا عزيزي سالفو! لو كنت انتظرت أسبوعاً آخر، لكنت وفّرت عليك الإزعاج! ولن أسألك أين قضيت عطلتك بعد أن عرّضتني للــسخرية أمــام المالك. آمل فقط أنها تستحق ذلك يا سالفو. أو ربما ينبغي أن أقول هو؟ يقول فيرغس إنه يخشى الذهاب إلى نفس المرحاض معك...

عــدت إلى غرفة النوم. وكانت حنا مستلقية كما تركتها. وفي قيظ الصيف، كانت ملاءة السرير منثنية مثل حمار رسّام فوق أحد نهديها وبين فخذيها.

"أين كنت؟"

"في الحديقة. أحصل على الطلاق".

15

أقنعتني حنا بطريقتها الحازمة أنه ينبغي أن لا آخذ الأشرطة ودفاتر الملاحظات معي إلى منزل برنكلي. وحيث إنها صممت أيضاً على اصطحابي إلى الباب الأمامي والانتظار خارجاً حتى أظهر مجدداً، توصلنا إلى تسوية تجلس بموجبها مع الأشياء المسروقة في مقهى قريب عند الزاوية، وسوف أكلمها من هاتفي الخليوي عندما تحين اللحظة المناسبة، ومن ثم ستترك المسروقات دون أن يلاحظها أحد عند الباب الأمامي وتعود إلى المقهى وتنتظرني.

كانت الساعة الخامسة من مساء الاثنين عندما خرجنا من مركز السيد حكيم التجاري، واستقلينا باحتراس الحافلة إلى محطة أنفاق شارع فنشلي. كانت الساعة السادسة قبل أن نتمكن من رؤية حديقة نايتزبريدج المغطّاة من الرصيف عبر الشارع، ومرت عشرون دقيقة قبل أن أجعل حنا تجلس إلى طاولة بالقرب من النافذة في المقهى. عانت حنا من فقدان الثقة في رحلة الحافلة، بخلاف مزاجي الذي كان مستبشراً بالخير.

أكّدت لها: "ستنتهي متاعبنا بعد ساعتين من الآن"، ودلّكت كتفيها في محاولة لجعلها تسترخي، لكن رد فعلها الوحيد كان القول بأنها ستدعو من أجلي.

لدى اقترابي من المنزل الهدف، كان لديَّ الخيار إما بالنزول إلى قبو عليه لافتة تجاري، أو صعود الدرج إلى مدخل تحدّه الأعمدة من كلا الجانبين، ويحمل جرساً عتيق الطراز. اخترت الخيار الأخير. وفتحت الباب امرأة لاتينية ممتلئة الوجه ترتدي زياً أسود، المتكامل مع ياقة ومئزر أبيضين.

قلت "أوّد التحدّث إلى اللورد برنكلي من فضلك"، مستحضراً النبرة المهيبة لزبائني ذوي الشأن الرفيع.

"إنه في المكتب".

سألت "ماذا عن الليدي كيتي؟" وكانت إحدى يديّ على الباب والأخرى تحمل بطاقة بريان سنكلير. وكتبت إلى الأسفل من اسمي المستعار برونو سلفادور. وفي الخلف، الكلمتين **مترجم النقابة**.

قالت الخادمة: "لا دخول"، ونجحت هذه المرة في إغلاق الباب بوجهي، فقط لتفتحه الليدي كيتي بنفسها بعد ثوانٍ معدودة.

كانت تبدو شابة كما هي حال سيدات المجتمع الراقي، وترتدي تنورة قصيرة، وتضع حزام غوتشي وشعرها أشقر رمادي مسترسل. ومن بين حلقات المجوهرات الرائعة على معصميها، عرفت ساعة كارتيه صغيرة مع مؤشرين من الذهب. وانتعلت في قدميها البيضاوين مثل الحرير حذاء إيطالياً بديع الأناقة. ويبدو أن عينيها الزرقاوين فزعتان بشكل دائم كما لو أنها شاهدت منظراً مرعباً.

قالت لي: "تريد برنكلي"، ونظرتها المتفحّصة تنتقل بعصبية بيني وبين بطاقتي ووجهي كما لو أنها ترسم لي صورة.

شرحت لها "كنت أقوم ببعض الأعمال الهامة له في عطلة نهاية هذا الأسبوع"، ثم توقفت، غير متأكد من أنها استوعبت ما قلته.

"عطلة نهاية هذا الأسبوع".

"ينبغي أن أتحدّث إليه. إنها مسألة شخصية".

سألتني "ألم تستطع الاتصال أولاً؟" وعيناها أكثر تحديقاً من ذي قبل.

"أخشى أنني لم أستطع". وتذكّرت *قانون السرية الرسمي*. وشرحت لها تلميحاً: "لم يكن ذلك حصيفاً؛ آمناً. ليس على الهاتف. لم يكن مسموحاً لنا".

"لنا؟"

"الأشخاص الذين يعملون لصالح اللورد برنكلي".

صعدنا إلى غرفة ضيوف طويلة جدرانها حمراء عالية، وفيها مرايا أطرها مطلية بالذهب، وعبقت رائحة الجدول الذي تحدّه أشجار الصفصاف لدى العمة إيملدا: مزيج من أوراق الورد المجففة والعسل.

أعلنت وهي تقودني إلى غرفة أصغر مطابقة للأولى: "سأتركك هنا. ينبغي أن

يـــأتي الآن إلى المنـــزل. هل أستطيع أن أقدّم لك شراباً؟ *أنت* بخير. إذاً، اقرأ هذه الصحيفة أو شيئاً ما".

بعـــد أن تـــركتني وحدي، قمت باستكشاف بصري خفي لما حولي. طاولة أثـــرية واحـــدة، درجها مغلق. صور لطلاب جامعة إيتن وقادة أفريقيا الوسطى. المارشا موبوتو المتألق بزيّه الرسمي: التقطها جاك سنة 1980، وفُتح الباب، ودخلت اللـــيدي كيتي بخطى ثقيلة نحو خزانة أدوات المائدة وسحبت منها خلاط كوكتيل مثلج فضي وكأساً واحدة.

تذمّـــرت مقلّـــدة لهجـــة الطبقة العاملة: "أمينة السر العام تلك. جاك في اجـــتماع يا كيتي. يا *إلهي*، أكرههم. ما فائدة أن تكون شريفاً إذا كان الجميع يدعـــونك جاك؟ ولا تستطيع قول شيء لهم وإلا قاضوك أمام المحكمة". عدّلت مـــن وقفتها بحرص على مسند الأريكة، وشبكت قدميها. "قلت لي إنها أزمة. أليس كذلك؟"

أجبتها مواسياً: "ليس إذا استطعنا حلّها في الوقت المناسب".

"آه، سنحلّها. إن برنكلي جيد للغاية في هذا النوع من الأمور. يتعامل مع أي شيء في أي وقت. من ماكسي؟"

هـــناك أوقات في حياة العميل السري الذي يعمل بدوام جزئي لا يفي معها بالغرض سوى الكذب بشكل مباشر.

"لم أسمع بماكسي من قبل أبداً".

"بالطبع سمعت به، وإلا لما تقطّب جبينك بهذا الشكل السخيف. حسناً، لقد حصلت على قميصي منه، سواء سمعت به أم لا". ونظرت بتمعّن نحو صدر ثوبها. "كما هو تماماً، شيء رديء. هل أنت متزوج يا برونو؟"

هـــل أدخل في حالة إنكار مباشرة أخرى؟ أو أبقى قريباً من الحقيقة بقدر ما تسمح به الظروف الأمنية؟

"أنا متزوج فعلاً". من حنا، وليس بينلوب.

"وهل لديكما عدد كبير من الأطفال الرائعين؟"

"أخشى أن أقول ليس بعد"؛ عدا نوح.

"لكنكما سترزقان بأطفال. في الوقت المناسب. أنتما تحاولان ليلاً ونهاراً. هل الزوجة *تعمل*؟"

"إنها تعمل بالتأكيد".

"وهل عملها صعب؟"

"جداً".

"مسكينة. هل استطاعت الذهاب معك في عطلة هذا الأسبوع، فيما كنت تعمل لصالح برنكلي؟"

أجبت: "لم نكن نستمتع حقاً بهذا النوع من عطلات نهاية الأسبوع"، محاولاً إبعاد صور عن حنا وهي تجلس عارية بجانبي في غرفة المرجل.

"هل كان فيليب هناك؟"

"فيليب؟"

"نعم، فيليب. لا تكن ماكراً".

"أخشى أنني لا أعرف فيليب".

"بالطبع تعرفه. إنه السيد الكبير. برنكلي يفعل ما يريده".

فكّرت أن تلك هي بالضبط مشكلة برنكلي، ممتناً لتأكيد توقّعاتي.

"وفيليب لا يترك رسائل هاتفية *أبداً*. لا يوجد منكم من يفعل ذلك. [قولي فقط إن فيليب اتصل]، كما لو أنه لا يوجد سوى فيليب واحد في العالم كله. *والآن* تقول لي إنك لا تعرف فيليب".

"قلت سلفاً إنني لا أعرفه".

"أنت تعرفه وتحمرّ خجلاً، وهذا شيء لطيف. وربما تحرّش بك. برنكلي يدعوه الملكة الأفريقية. ما هي اللغات التي تترجمها؟"

"أخشى أنني غير مخّول بالخوض في ذلك".

استقرت نظرتها على حقيبة الكتف التي وضعتها بجانبي على الأرض.

"ما الذي تحمله هناك، بكل الأحوال؟ لقد طلب منا برنكلي تفتيش كل شخص يدخل إلى المنزل. لديه آلة تصوير للمراقبة فوق الباب الأمامي، ويجلب

نساءه عبر الباب الخلفي حتى لا يأخذه أحد على حين غرّة".

قلت: "إنها مجرد أشرطة تسجيل"، وأخرجتها لتراها.

"حول ماذا؟"

"في حال لم يكن لديكم منها".

"نحن هنا يا عزيزي!"

وكانـــت قد سمعت زوجها قبل أن أسمعه أنا. ووثبت على قدميها، وأعادت كأســـها والخلاط إلى طاولة أدوات المائدة، وأغلقت بابها، وبخّت شيئاً في فمها من جهـــاز في جيب ثوبها، ومثل طالبة مذنبة، هرعت إلى باب غرفة الضيوف الكبيرة بخطوتين واسعتين.

صـــرخت بمـــرح نحو خطوات الأقدام المقتربة: "اسمه برونو. يعرف ماكسي وفيلـــيب، ويتظاهر بخلاف ذلك، ومتزوج من امرأة كادحة، ويريد أطفالاً، ولكن ليس لديه أطفال بعد، ولديه شريط مسجّل في حال لم يكن لدينا".

* * *

كانـــت لحظة الحقيقة وشيكة. واختفت الليدي كيتي، ووقف زوجها أمامي، يتـــزين بـــبدلة سترتها مزدوجة الصدرية مخططة بالأزرق وتعود إلى موضة أواخر الثلاثينـــيات. وعلـــى بعـــد لا يزيد عن المئة ياردة، كانت حنا تنتظر استدعاءها. وكـــنت قد وضعت رقم هاتفها الخليوي سلفاً في هاتفي. وفي غضون دقائق، إذا سارت الأمور حسب الخطة، سأقدّم إلى جاك برنكلي الدليل الذي يثبت، بعكس كل ما يعتقد به، بأنه على وشك إلغاء كل الأعمال الجيدة التي قدّمها لأفريقيا عبر السنين. ونظر إليّ أولاً، ثم بحرص حول الغرفة، ثم إليّ مجدداً.

"هـــذه لـــك؟" كان يحمل بطاقة عملي من إحدى زواياها كما لو أنها مبللة بالماء.

"نعم يا سيدي".

"أنت السيد من بالتحديد؟"

"سنكلير يا سيدي. لكن ليس رسمياً. سنكلير اسمي المستعار خلال عطلة نهاية الأسبوع. ستعرفني بشكل أفضل من خلال اسمي الحقيقي، برونو سلفادور. لقد تبادلنا الرسائل".

قرّرت عدم ذكر بطاقة الميلاد لأنها لم تكن شخصية، لكني عرفت أنه سيتذكّر رسالة دعمي له، وقد تذكّرها بوضوح، لأن رأسه ارتفع، وعلى اعتبار أنه رجل طويل، فقد فعل ما يفعله القضاة على القوس:

حدّق بي من فوق إطار نظاراته البلاستيكي ليرى ما قد يحصل عليه.

اقترح قائلاً: "حسناً إذاً، دعنا ننتهي من ذلك الشيء أولاً، هلا فعلنا ذلك يا سلفادور؟ وكان قد أخذ مسجلتي مني وتأكد من عدم وجود شريط فيها، وقام بإعادتها لي، وكنا آنذاك حسبما أذكر أقرب ما نكون إلى المصافحة.

فتح درج طاولته وجلس بجانبها. وكان يتفحّص رسالته لي - والحرفين "بي إس" المكتوبين باليد - والتي تقول إنه يأمل كثيراً بأن نلتقي يوماً ما و - على اعتبار أنه كان آنذاك عضواً في البرلمان - أنه من المؤسف أنني لا أعيش في دائرته الانتخابية، مع علامتي تعجّب، واللتين لطالما جعلتاني ابتسم. ومن الطريقة المرحة التي قرأ بها الرسالة، ربما كان قد كتبها بنفسه إلى شخص كان سعيداً بتلقّيها. وعندما انتهى من قراءتها، لم يتوقف عن الابتسام، ووضعها أمامه على الطاولة، مما يدل على أنه ربما سيتصفّحها في وقت لاحق.

"إذاً ما هي مشكلتك بالتحديد يا سلفادور؟"

"حسناً، إنها مشكلتك يا سيدي، في الواقع، إذا سمحت لي. لم أكن سوى المترجم".

"آه حقاً؟ تترجم ماذا؟"

"حسناً، كل ما يقوله الجميع يا سيدي. ماكسي كما هو واضح. إنه لا يتكلم أي لغة. حسناً، الإنكليزية. فيليب لا يجيد السواحيلية. وهكذا وجدت نفسي عالقاً في مرمى النيران إذا صح القول. أتولى الأمور كافة. فوق وتحت خط المياه".

ابتسمت لنفسي مستهجناً، لأنني كنت آمل أن يكون قد تلقّى بحلول ذلك الوقت بعض الكلمات حول إنجازاتي، والتي تكتسب أهمية قصوى عندما تضعها

جنباً إلى جنب، سواء انتهيت إلى الجانب الخاطئ من السياج أم لا، وهو ما كنت أريد أن أشرحه له كجزء من إعادة تقييمي لنفسي في عينيه.

"*خط المياه؟* أي خط مياه؟"

"كانت تلك عبارة ماكسي، في الواقع يا سيدي. ليست عبارتي. لأنني عندما كنت في غرفة المرجل. استمع إلى محادثات الوفود أثناء الاستراحات. وكان هناك رجل يعمل مع ماكسي ويدعى سبايدر". وتريّثت في حال أصاب الاسم وتراً حساساً، لكن من الواضح أنه لم يفعل. "كان سبايدر مسترق السمع المحترف. وكان لديه الكثير من المعدّات القديمة التي وصلها معاً في اللحظة الأخيرة. نوع من أدوات التسجيل. لكني لم أتوقع أن تكون مهتماً بذلك أيضاً".

"مهتماً *بماذا* بالضبط؟"

بدأت مجدداً. و لم تكن هناك فائدة من التراجع. وكان الأمر أسوأ مما خشيت. لم يخبره فيليب حتى بجزء من القصة.

"كانت الجزيرة مليئة بأجهزة التنصّت يا سيدي. حتى البرج على سفح التل كان مزروعاً بالأجهزة. وكلما شعر فيليب بأننا وصلنا إلى لحظة حاسمة في المفاوضات، كان يدعو إلى استراحة، وكنت أغوص في غرفة المرجل وأستمع إليهم، وأنقل ما يحدث إلى سام في الطابق الأعلى بحيث يكون لدى فيليب وماكسي معلومات مسبقة في المرة التالية التي نجتمع بها. كانوا يطلبون النصيحة من النقابة وأصدقاء فيليب عبر الهاتف الفضائي عندما يحتاجون إليها. وهكذا ركّزنا على الحاج. هو. فيليب. حسناً، بمساعدة تابيزي، على ما أعتقد. وكنت أنا الأداة دون قصد مني".

"ومن يكون *الحاج*، إذا سمحت لي بالسؤال؟"

كان ذلك مروّعاً لكنّه حقيقي. تماماً كما توقعت، و لم يكن لدى اللورد برنكلي أي فكرة حول ما كان يحدث تحت رعايته؛ ليس حتى دوره باعتباره الرجل الوحيد الذي يستطيع قول *نعم*.

قلت بنبرة ألطف: "كان الحاج أحد المندوبين يا سيدي. كان هناك ثلاثة. زعيما ميليشيا - أميرا حرب، إذا أحببت - والحاج". وذكّرته "إنه الشخص الذي

ابتزّك مقابل ثلاثة ملايين دولار إضافية"، مع ابتسامة كئيبة بدا أنه يشترك بها: وينبغي عليه ذلك، مع الأخذ بعين الاعتبار الغضب الأخلاقي الذي عبّر عنه بكل وضوح عبر الهاتف الفضائي.

استفسر، وكان لا زال محتاراً: "ومن يكون الزعيمان الآخران؟"

"فرانكو رجل ماي ماي، وديدون من المونيامولينج. وليس لدى الحاج ميليشيا مثلهم، لكنه يستطيع دائماً تشكيل واحدة في أي وقت، إضافة إلى أنه يملك مناجم معادن في بوكافو، ومعمل لشراب الشعير، ومجموعة من الفنادق والنوادي الليلة، ووالده لوك شخص مهم في غوما. حسناً، تعرف هذا، أليس كذلك؟"

كان يهزّ رأسه، ويبتسم بطريقة تخبرني بأننا نتواصل. وفي أي موقف عادي - كما أعتقد - كان سيضغط مفتاحاً على طاولته ويطلب الموظف السيئ الطالع المسؤول عن هذا الفشل، ولكن نظراً لعدم ظهور أي علامة على قيامه بذلك، وأنه على العكس تماماً طوى يديه معاً تحت ذقنه بطريقة شخص يتهيأ لسماع قصة جيدة طويلة، قرّرت المضي قدماً بسردها بطريقة مغايرة لما فعلت مع حنا، وبشكل مختصر جداً مع تركيز أقل على مشاعر جمهوري المميز، وربما أقل بكثير، لأنني بدأت أخشى الاقتراب من لحظة الحقيقة الحاسمة التي تتعلق بسوء معاملة الحاج.

سأل، مع نفس الابتسامة الواثقة: "إذاً، أين يقودنا كل هذا برأيك؟ ما هو قصدك هنا يا سلفادور؟ هل نُحيل الأمر برمته إلى رئيس الوزراء؟ رئيس الولايات المتحدة؟ الاتحاد الأفريقي؟ أو جميعهم معاً؟"

سمحت لنفسي بإطلاق ضحكة مواساة. "آه، لا أعتقد أن ذلك ضروري يا سيدي. لا أعتقد أننا نحتاج لإيصال الأمر إلى ذلك المستوى، بصراحة".

"أنا مرتاح".

"أعتقد أنها مجرد الدعوة إلى وقف العملية فوراً، والتأكّد من إيقافها تماماً. لدينا اثنا عشر يوماً كاملة لنتحرك ضمنها، لهذا هناك الكثير من الوقت. إيقاف خطة الحرب، وتنحية موانغازا جانباً حتى يستطيع إيجاد داعمين أخلاقيين مناسبين - حسناً، مثلك يا سيدي - تمزيق العقد".

"هناك *عقد*، أليس كذلك؟"

"آه، نعم هناك بالفعل! عقد مشبوه حقاً، إذا استطعت قول ذلك يا سيدي. وقد وضع مسودته السيد جاسبر ألبين من بيزانكون - الذي استفدت من خدماته سابقاً، والذي قرّر رجالك كما يبدو استخدامها مجدداً - وترجمتها بنفسي المتواضعة إلى السواحيلية".

كنت قد بدأت أقلق قليلاً آنذاك. وأعتقد بأن فكرة انعتاقي وحنا في أي لحظة من الظل وعيش حياة طبيعية كانت تجول في ذهني.

"هل لديك نسخة من هذا العقد؟"

"لا، لكني رأيته، بكل وضوح. واحتفظت بأجزاء كبيرة منه في ذاكرتي، والتي أصبحت معي؛ حسناً، آلية بشكل كبير، حتى أكون صريحاً".

"وما الذي يجعلك تعتقد أنه مشبوه؟"

"إنه مزيّف. اسمع، لقد رأيت عقوداً من قبل. إنه افتراضي. وهناك ادعاء بأنه حول الزراعة، ولكنه فعلاً حول تقديم أسلحة *ومواد* لإشعال حرب صغيرة. لكن من سمع سابقاً بحرب صغيرة في الكونغو؟" وتجرأت على قول ذلك، مقتبساً كلمات الحاج، وتشجّعت بابتسامة العارف بالأمور من مضيفي. وتابعت قائلاً: "والأرباح - أعني من المعادن - وحصة الشعب، كما يدعونها ليست سوى خداع مباشر. احتيال، بصراحة. لن يكون هناك شيء للشعب على الإطلاق. ولا توجد حصة للشعب، ولا أرباح لأحد عدا نقابتك، وموانغازا وتابعيه".

تمتم اللورد برنكلي: "مروّع"، وهزّ رأسه بإشفاق.

"أعني، لا تفهمني خطأً يا سيدي. موانغازا رجل عظيم في مناحٍ عديدة. لكنه عجوز. حسناً، عجوز على المهمة، اغفر لي. إنه يبدو مثل دمية. وقد عرّض نفسه للكثير من الشبهات، وبتّ لا أستطيع رؤية احتمال إطلاقه للحريات. أنا آسف فعلاً، لكن هذه هي الحقيقة يا سيدي".

"أقدم قصة في اللعبة".

تبادلنا الحديث عن بعض أمثلة من القادة الأفريقيين الذين أظهروا علامات على العَظَمة المبكّرة، وصولاً إلى السيّئين منهم قبل عدّة سنوات، رغم أنني ارتبت

بشكل خاص فيما إذا كان موبوتو، الذي توجد له صورة على طاولة خلفه، مؤهلاً ليكون من تلك الطبقة. وخطر ببالي، بكل الأحوال، أنه إذا فكّر اللورد برنكلي بمكافأتي على تدخّلي الصائب، وأبقاني بشكل طارئ جانباً أثناء محاولته التعامل مع الأمر، ربما سيكون العمل في منظمته الجواب لكلينا، لأنهم، يا إلهي، سيكونون بحاجة لشخص يحافظ على ذلك التوازن!

ولهذا صدمني سؤاله التالي إلى حدٍّ بعيد.

"وأنت متأكد تماماً من أنك رأيتني في تلك الليلة؟"

"أي ليلة يا سيدي؟"

"عندما قلت إن ذلك حدث. مساء الجمعة، هل أنا على حق؟ لقد فقدت رأس الخيط للحظة. لقد رأيتني مساء الجمعة في ميدان بيركلي. في منزل".

"نعم".

"هل تتذكر ماذا كنت أرتدي؟"

"ملابس عادية مريحة. بنطال فضفاض يميل لونه للأصفر، وسترة من الجلد الناعم، وخف خفيف".

"هل تتذكر أي شيء حول المنزل، عدا الرقم الذي لم تره، أو نسيته؟"

"نعم. أتذكّر. كل شيء".

"صفه لي، هلا فعلت؟ بكلماتك الخاصة".

بدأت ذلك، لكن رأسي كان يلف، وكنت أواجه صعوبة في انتقاء الميزات البارزة عند طلبها. "هناك ذلك البهو الكبير مع سلالم مقسومة...".

"مقسومة؟"

"... ونسور فوق الأبواب".

"نسور حيّة؟"

"كان هناك أشخاص كثيرون إلى جانبك. رجاءً، لا تتظاهر بأنك لم تكن هناك يا سيدي. لقد تحدّثت إليك. وشكرتك لموقفك من أفريقيا!"

"هل تستطيع تسمية بعض الأشخاص؟"

وذكرت أسماءهم، حتى إذا لم يكن ذلك بالثقة المعتادة. وكنت قد بدأت أدوخ، وعندما أدوخ، أفقط السيطرة على نفسي. المضارب المالي المعروف باسم الأدميرال نلسون مع بقعة على عينه: تعرّفت عليه. النجم التلفزيوني الشهير من عالم البوب: تعرّفت عليه أيضاً. الشريف الشاب الذي يملك معظم الساحل الغربي. وزير المالية الأفريقي السابق المنفي. ملياردير الملابس الهندي. أسطورة الأسواق المركزية الذي اشترى مؤخراً إحدى صحفنا القومية المهمة *كهواية*. وكنت على وشك الانهيار، لكني تابعت المحاولة.

صرخت: "الرجل الذي دعوته مارسيل يا سيدي! الرجل الأفريقي الذي أردته إلى جانبك عندما تعقد مؤتمرك الصحفي...".

"هل كانت الملكة هناك؟"

"تعني فيليب؟ الرجل الذي تدعوه الملكة الأفريقية؟ لا، لم يكن هناك! لكن ماكسي كان موجوداً. لم يظهر فيليب حتى وصلنا إلى الجزيرة".

لم أكن أنوي رفع صوتي، لكني فعلت، وكان رد فعل اللورد برنكلي بأن خفض صوته بالمقابل.

تذمّر: "إنك تتابع الحديث حول *فيليب وماكسي* كما لو أنهما صديقان لي. وأنا لم ألتقِ بهما مطلقاً. ولم أسمع بهما مطلقاً. ولا أعرف هؤلاء الذين تتكلم عنهم".

"إذاً لماذا لا تسأل زوجتك اللعينة عنهما؟"

فقدت رشدي. ولا تستطيع وصف الغضب الأعمى ما لم يكن الشخص الذي تتحدث إليه قد اختبره شخصياً. وهناك أعراض جسدية. دبابيس وإبر في الشفتين، ودُوار، واضطراب الرؤية المؤقت، والغثيان، وعدم القدرة على تمييز الألوان والأشياء في الجوار القريب. إضافة إلى ذلك، ينبغي أن أقول، والشك المتعلّق بما قلته فعلاً وهل يتناسب بما يغلي في فمك ولكنك فشلت في نفثه.

فتح الباب على مصراعيه، وكان يصرخ: "كيتي! لديَّ شيء أريد أن أسأل زوجتي اللعينة بشأنه. هل تمانعين بالانضمام إلينا لدقيقة؟"

* * *

وقفـــت الليدي كيتي صامتة مثل الخفير. وحدّقت بعينيها الزرقاوين، الخاليتين من التألق، مباشرة إلى عيني زوجها.

"عزيـــزتي كيتي. سؤالان سريعان. اسمان. سأقولهما لك وأريدك أن تجيبـــي مباشرة، غريزياً، قبل أن تفكّري. *ماكسي*".

"لم أسمـــع به من قبل. مطلقاً. آخر ماكسي عرفته مات منذ فترة طويلة جداً. والأشخاص الوحيدون الذين عرفوه بماكسي كانوا رجال القبائل".

"*فيلـــيب*. صديقنا هنا يقول إنني أدعوه الملكة الأفريقية، وهو ما أجده مهيناً لكلينا، بصراحة".

تقطّـــب جبيـــنها، ووضعت سبابتها على شفتها. "آسفة. لا أستطيع تذكّر فيليب أيضاً. هناك فيليبا بيري أونسلو، لكنها فتاة، أو تقول إنها كذلك".

"وبيـــنما أنـــت هنا يا عزيزتي. مساء الجمعة الماضية - ما هو الوقت الذي أشرت إليه؟"

أجبت: "الآن".

"إذاً، مـــنذ اثنتين وسبعين ساعة مضت إذا أردنا أن نكون دقيقين - الجمعة، تذكّـــري، عندما نذهب عادة إلى الريف، لكن لحظة انسي ذلك، لأنني لا أحاول وضـــع أي أفكار في رأسك -*أين كنا*؟" وألقى ظاهرياً نظرة خاطفة على ساعته. "السابعة وعشر دقائق مساءً. فكّري جيداً من فضلك".

"في طريقنا إلى مارلبوروغ، بالطبع".

"من أجل ماذا؟"

"لقضاء عطلة نهاية الأسبوع. ماذا تعتقد؟"

"وهـــل ستقسمين على ذلك في المحكمة إذا كان ذلك ضرورياً؟" لأنه لدينا شـــاب هـــنا - موهوب جداً، وسيم جداً، ونيته طيبة، أنا واثق - لديه سوء فهم جدّي، وخطير جداً علينا جميعاً.

"بالطبع سأفعل يا عزيزي. لا تكن سخيفاً".

"وكيف ذهبنا إلى مارلبوروغ يا عزيزتي؟ بأي *وسيلة*؟"

"بالسيارة، طبعاً. برنكلي، ما الذي ترمي إليه؟"

"هل قاد هنري؟"

"أنت قدت. كان هنري في إجازة".

"وفي أي وقت غادرنا، هل تتذكرين؟"

"آه يـــا عزيـــزي. تعرف ذلك جيداً. كنت قد حزمت كل شيء ومستعدة بحلـــول الساعة الثالثة، لكنك تأخرت على الغداء كما هي العادة، لهذا انطلقنا في *أســـوأ* ساعة؛ في ذروة حركة السير في العالم، ولم نصل هناك حتى التاسعة وكان طعام العشاء قد فسد".

"ومن أمضى عطلة نهاية الأسبوع معنا؟"

شـــرحت، بعد أن تحولت صوبي كما لو أنني سأفهم ما تقول: "غس وتارا، بالطـــبع. مجاناً كالعادة. واصطحبانا في آخر لحظة إلى ويلتون. وكانا يقولان *دائماً* إنهما سيأخذاننا إلى هناك، لكنهما لم يفعلا ذلك *أبداً* من قبل".

كنت أحتفظ بهدوء أعصابي حتى ذلك الوقت، لكن رؤية نظرتها التي لا تحمل أي معنى كان كافياً لإشعال النيران ثانية.

انفجرت عليه: "كنت *هناك!*" وتحوّلت نحو زوجته: "صافحت يده اللعينة، يد زوجـــك. وكان ماكسي هناك أيضاً! ويعتقد أنه يستطيع فعل شيء جيد لكيفو، لكـــنه لا يـــستطيع. إنه ليس مخططاً، وإنما جندي. وكانوا على الجزيرة وخطّطوا لحـــرب بالإنابة بحيث تستطيع النقابة السيطرة على سوق الكلتان وبيعه كما تريد، وقـــد عذّبـــوا الحاج! باستخدام منخس ماشية جهّزه سبايدر لهم. وأستطيع إثبات ذلك".

كـــنت سأقول ما عندي، ولم أستطع التوقف عن الكلام، لكني تحليت أخيراً بالحكمة كي أتوقف.

استفسر برنكلي: "كيف ستثبت ذلك؟"

"باستخدام ملاحظاتي".

"أي ملاحظات".

تــراجعت. وكــنت أتذكّر حنا. وكذبت: "حالما عدت من الجزيرة، كتبت ملاحظــات. لــديَّ ذاكــرة رائعة. على المدى القصير. وإذا كنت سريعاً بما فيه الكفايــة، واستجمعت ما حصل حرفياً في ذهني، أستطيع كتابة كل شيء، كلمة بكلمة. وهذا ما فعلته".

"أين؟"

"عندما عدت إلى المنــزل. مباشرة".

"أيــن هــذا المنــزل؟" وهبطت نظرته المتفحّصة إلى الرسالة التي أمامه على طاولــته: *العزيز برونو*. "المنــزل في باترسي. جلست، وكتبت كل شيء تتذكّره، كلمة بكلمة. رائع".

"كل شيء".

"ابتداءً من متى؟"

"من السيد أندرسن ولاحقاً".

"لاحقاً إلى أين؟"

"ميدان بيركلي. محطة طاقة باترسي. مطار لوتون. الجزيرة. والعودة".

"إذاً هــذا تسجيلك *أنت*، لما رأيته وسمعته *أنت* على الجزيرة، والذي تذكّرته بهدوء في منــزلك في باترسي، بعد ساعات من حدوثه".

"نعم".

"أنــا واثــق من أنك ذكي جداً لكن ذلك ليس، كما أخشى، ما قد ندعوه *إثباتاً* أو *دليلاً*. لقد كنت محامياً. هل تحمل الملاحظات معك؟"

"لا".

"ربما تركتها في المنــزل".

"ربما فعلت ذلك".

تــنهّد، مــثل رجل طيب توصل إلى نتيجة حزينة: "ربما. لكنك تستطيع الحــصول علــيها، بالطبع، إذا كنت تنوي استخدامها لابتزازي أو بيع قصتك الــسخيفة إلى الصحافة. حسناً، لقد انتهى كل شي، أليس كذلك؟ آسف جداً

مــن أجلــك. أنت مقتنع، وأنا واثق بأنك تصدّق كل كلمة قلتها. لكني أريد تحذيــرك قبل أن تكرّر اتهاماتك خارج هذه الجدران الأربعة. لن يكون الجميع متــساهلين كما كنا نحن. وإما أنك مجرم خبير من نوع ما، أو تحتاج لمساعدة طبية. كلاهما ربما".

قالت الليدي كيتي بلطف: "إنه متزوج يا عزيزي".

"هل أخبرت زوجتك؟"

"أعتقد أنني قلت لا".

"اسأله لماذا أحضر مسجلة؟"

"لماذا فعلت ذلك؟"

"أحمل واحدة دائماً. أشخاص آخرون يحملون الحواسب. أنا مترجم محترف، لهذا أحمل مسجلة".

ذكّرتنا الليدي كيتي: "دون أي شريط".

وقلت: "وضعت أشرطتي في مكان آخر".

كـــان هناك لحظة اعتقدت فيها أن برنكلي قد يطلب مني إفراغ ما في جيوبي على الطاولة، وعندها لن أكون مسؤولاً عن تصرفاتي، لكني أعتقد الآن أنه لم يكن يجرؤ على ذلك. وخرجت من منـــزل الليدي كيتي، وكنت سعيداً لأنني استدرت يميناً عوضاً عن اليسار، أو أنني نتيجة لما حدث لم ألقِ بنفسي تحت عجلات مركبة ملائمة مقتربة عوضاً عن الاعتراف بمدى حماقتي، وغضبـــي وإذلالي لحبيبتي حنا، لكنّ قدميّ لحسن الحظ كانتا تعرفان الطريق أفضل مني. وكنت على وشك دخول المقهى، ولكنها رأتني قادماً والتقت بي عند البوابة. وحتى من بعيد، لا بد أن وجهي أخـــبرها كـــل ما كانت بحاجة لمعرفته. واسترجعت الأشرطة ودفاتر الملاحظات. وأمـــسكت ذراعي بكلتا يديها وقادتني على الرصيف بنفس الطريقة التي تقود بها مصاباً بعيداً عن مكان الحادث.

* * *

اشترينا من سوق في مكان ما لازانيا وفطيرة سمك لتسخينها في مايكروويف آل حكـــيم، إضافة إلى السلطة، والفاكهة، والخبز، والجبن، والحليب، وست علب مـــن السردين، والشاي وقارورتي ريغا. وعندما كنا نطلب سيارة أجرة، استطعت تذكّـــر عـــنوان نـــزل السيد حكيم، وزوّدت السائق برقم الشارع الذي يحوي عـــشرين منـــزلاً في طريقنا. و لم أكن قلقاً على نفسي، وإنما على حنا. وفي إيماءة شهامة خاطئة، مضيت بعيداً في اقتراح أن تنام في منـــزلها.

"فكـــرة جـــيدة يـــا سالفو. سأتعرف إلى طبيب شاب وسيم وأتركك تنقذ كيفو".

لكـــن في الوقت الذي جلسنا فيه معاً لتناول أول وجبة مطبوخة في المنـــزل، كانت قد استعادت روحها المعنوية العالية.

"هل تعرف شيئاً؟"

"أشك بذلك".

قالت: "ذلك اللورد برنكلي الذي تعرفه. أعتقد أنه ربما انحدر من قبيلة شريرة للغاية"، وهزّت رأسها وضحكت حتى لم يعد لديَّ خيار سوى فعل الشيء ذاته.

* * *

كانـــت ساعة العمة إيملدا تشير إلى الدقيقة الخامسة عشرة بعد الرابعة عندما أيقظتني لتخبرني أن هاتفي الخليوي يرنّ على الطاولة الزجاجية بالقرب من النافذة البارزة. وكنت قد شغّلته أثناء مقابلتي مع اللورد برنكلي، وتجاهلت إغلاقه عندما عـــدت إلى المنـــزل. وفي اللحظة التي وصلت فيها إليه، اكتشفت أن المتصل ترك رسالة لي.

> بيـــنلوب: شـــقتي اللعينة يا سالفو؟ الشقة التي هجرتها *أنت*، وليس أنا. ولديك الوقاحة، والجرأة... هل تعلم ما الذي سأفعله؟ سأجعل شركة تنظـــيف تهتم بالأمر على حسابك. خزائني. طاولة والدي – *طاولتك* اللعيـــنة – الطاولة التي منحها لك – أقفالها مكسورة – أوراقك منثورة في كـــل أرجـــاء الغرفة – (*تلتقط أنفاسها*) – ملابسي، أيها المنحرف

اللعــين، منثورة فوق أرضية غرفة النوم - (*تلتقط أنفاسها*) - حسناً. فيرغس في طريقه إلى هنا *الآن*. لهذا انتبه. إنه ليس صانعاً للأقفال، لكن سيضمن عدم دخولك إلى هذا المنــزل، *أبداً*، *أبداً*، من جديد باستخدام *مفتاحي*. وعندما ينتهي من ذلك، سيبحث عنك حتى يجدك. وإذا كنت مكانــك، سأهرب إلى الجحيم. لأن فيرغس يعرف أشخاصاً يا سالفو، وليسوا جميعهم لطيفين. وإذا كنت تفكّر، للحظة واحدة فقط...

اســتلقينا على السرير، نفكّر في الأمر ملياً. لقد غادرت منــزل برنكلي عند الساعة السابعة وعشرين دقيقة. واتصل في السابعة وعشرين دقيقة ونصف أو نحوها هاتفياً بفيليب أو مهما يكن الشخص. وبحلول السابعة وثلاثين دقيقة، عرف فيليب أو سواه أن بينلوب ستتناول العشاء في حفلة الكوكتيل المسائية. واكتشفوا لاحقاً، إذا لم يكونوا يعرفون سلفاً، أن هناك دفاتر ملاحظات بيضاء في حقيبة سبايدر التي خصصها لي، والأشرطة الفارغة ضمن مجموعته الأرشيفية من الأصوات المسروقة. وأي مكان أفضل للبحث فيه من المنــزل الزوجي؟

* * *

"سالفو؟"

مرّت ساعة من شبه النوم دون أن ينطق أيٌّ منا.

"لمــاذا يغني رجل تعرّض للتعذيب أغنية أطفال؟ مرضاي لا ينشدون الأغاني عندما يتألمون".

أجاب سالفو الكاثوليكي الورع: "ربما هو سعيد للاعتراف بمكنونات نفسه".

كنت غير قادر على النوم، ومشيت على أطراف أصابعي إلى الحمام مع جهاز المــذياع الــصغير واستمعت عبر السمّاعات إلى أخبار *هيئة الإذاعة البريطانية* على القــناة 4. تفجيرات سيارات في العراق. متمردون يقتلون العشرات. لكن لا شيء بعد حول مترجم محترف وعميل بدوام جزئي للاستخبارات السرية.

16

قلـــت محتجّاً: "طوال فترة بعد الظهر لإيجاد رجل واحد؟" ممثلاً دور الزوج الغيور لتأخير مغادرتها. "ما الذي ستفعلينه معه عندما تجدينه؟"

"سالفو، أنت تصبح سخيفاً مجدداً. بابتيست ليس شخصاً تستطيع لقاءه وقتما تـــشاء. الـــرواندیون ماكـــرون جـــداً. ينبغي عليه أخذ الحيطة والحذر، حتى من مناصـــريه. دعني أذهب الآن، من فضلك. ينبغي أن أكون في الكنيسة في غضون أربعين دقيقة".

إنها كنيسة العنصرة في بيثاني في مكان ما أقصى شمال لندن.

"من ستلتقين هناك؟"

"تعـــرف ذلـــك جيداً. صديقتي غريس والمحسنات اللواتي يدفعن لقاء تدريبنا وإيجاد مأوى لأطفال مدرسة الأحد الدينية. دعني أذهب الآن، رجاءً".

كانـــت ترتدي قبعة صغيرة جميلة مع ثوب أزرق تنورته طويلة التنورة وسترة قصيرة من الحرير. وعرفت قصتها دون أن تخبرني إياها. ومن أجل يوم مميز مثل يوم المـــيلاد أو ذكرى ميلادها، وبعد أن تكون قد دفعت الإيجار وأرسلت إلى عمتها الدفعـــة الشهرية المخصصة لنوح، لا بد أنها متّعت نفسها بثوب جديد. ولا بد أنها غسلته وكوته مئات المرات، وهو الآن في الرمق الأخير.

سألت بحزم: "والقس الشاب الوسيم؟"

"إنـــه في الخامـــسة والخمسين من العمر ومتزوج من سيدة لا تجعله يفارق ناظريها أبداً".

انتـــزعت قبلة أخيرة، والتمست الصفح منها وأخذت قبلة أخرى. وخرجت مـــن المنـــزل بعد ثوانٍ معدودة، وأسرعت بالمشي على الرصيف وتنورتها تتأرجح

فيما كنت أحدّق بها من النافذة. وعقدنا طوال الليلة الماضية مجالس الحب ومجالس الحـــرب. وكلي ثقة أن أي ثنائي آخر لا يختبر في حياته الإجهاد الذي تعرضت له علاقتـــنا خلال أربعة أيام قصيرة. و لم تلقَ محاولاتي معها لجعلها تهرب فيما لا زال هناك متسع من الوقت، ولتخلّص نفسها من الإحراج الذي قد أسببه لها، ولأجلها وأجـــل نـــوح، وأجـــل مهنتها... الخ، آذاناً صاغية. كان قدرها مرتبطاً بي. إنه مكتوب. من الله، عن طريق عرّاف في عينتاب، ونوح.

كرّرت ضاحكاً: "من نوح؟"

"لقد أخبرته أنني التقيت والده الجديد وهو سعيد جداً".

أكـــون أحـــياناً إنكليزياً أكثر من اللازم لها، وغير مباشر ومتحفّظ. وتكون أحـــياناً بعـــيدة المـــنال، ومجـــرد امرأة أفريقية منفية ضائعة في ذكرياتها. وكانت استراتيجيتي المفضّلة التي أعقبت دخولي شقق نورفولك تغيير مكان اختبائنا حالاً، والخروج من هناك، والبدء مجدداً في جزء آخر من المدينة. لم توافق حنا، وجادلت بأنـــه إذا رآنـــا أحد، سيلفت التغيير المفاجئ في ترتيباتنا الانتباه لنا. وقالت إنه من الأفـــضل الـــبقاء هادئين والتصرف بشكل طبيعي. وامتثلت لحكمها، واستمتعنا بتمهّل بإفطار مع النـــزلاء الآخرين عوضاً عن التواري عن الأنظار مثل المطاردين في غرفتنا. وعندما انتهينا من ذلك، دفعتني باتجاه السلالم، وأصرّت على أنها بحاجة لإجـــراء حديث خاص مع السيد حكيم، الرجل المشرق المزهو بنفسه، والضعيف أمام سحر الأنثى.

سألتها عندما عادت ضاحكة: "ماذا قلت له؟"

"الحقيقة يا سالفو. لا شيء عدا الحقيقة. ولكن ليس كلها".

طلبت اعترافاً كاملاً. بالإنكليزية.

"أخـــبرته أنـــنا عاشـــقان هاربان. وأن أقرباءنا الغاضبين يطاردوننا ويبثون الأكاذيب عنا. وأننا نعتمد على حمايته، أو سنجد نـــزلاً آخر".

"وماذا قال؟"

"يمكننا البقاء شهراً آخر على الأقل، وسيحمينا مع زوجته".

"وهل سيفعل؟"

"مقابـــل خمسين جنيهاً إضافياً في الأسبوع من أموال يهوذا، سيكون شجاعاً مثل أسد. ثم جاءت زوجته إلى الباب، وقالت إنها ستحمينا دون مقابل. وقالت لو أن أحداً وفّر لها الحماية عندما كانت شابة، لما كانت تزوّجت السيد حكيم أبداً. ووجد كلاهما ذلك مضحكاً جداً".

ناقشنا مسألة الاتصالات المخادعة، والتي كنت أعرف من غرفة المحادثة أنها نقطة ضـــعف عامـــل المقسم الخفي. ولم يكن هناك هاتف عمومي في مركز السيد حكيم الـــتجاري. وكـــان الهاتف المنـــزلي الوحيد في المطبخ. وكان هاتفي الخليوي مصيدة قاتلة، كما شرحت لحنا، بناءً على معرفتي العميقة. ومع التقانة هذه الأيام، يمكن لهاتف خليوي أن يكشف مكان تواجدي في أي بقعة من كوكب الأرض في غضون دقائق. لقد رأيت ذلك يا حنا، وجنيت مكاسب منها، وينبغي أن تسمعي ما سمعته في دورات اليوم الواحد. وفيما يخصّ موضوعي، سمحت لنفسي استطراداً بالغوص في فنون وضع قطعة قاتلة في هاتفي الخليوي، مما أدّى إلى فصل اشتراكي نهائياً.

ردّت بسرعة: "حسناً، هاتفي الخليوي لن ينسفك"، وأخرجت جهازاً بألوان قوس قزح من حقيبتها الشاملة.

في لحظـــة واحدة، تمّ إنشاء خطنا السري. وأصبحت أحمل هاتفها الخليوي، وســـوف تقتـــرض هاتف غريس. وإذا احتجت للاتصال بحنا في الكنيسة، يمكنني الوصول إليها عبر غريس.

أصـــرّيت: "*وبعد* الكنيسة؟ عندما تخرجين بحثاً عن بابتيست، كيف سأتصل بك؟"

عـــرفت مـــن وجهها القريب أنني أواجه مجدداً الاختلاف الثقافي. وربما حنا ليـــست ضليعة بفنون غرفة المحادثة المظلمة، لكن ما الذي يعرفه سالفو عن المجتمع الكونغولي في لندن، أو كيف تتحرك قياداته على الأرض؟

"عـــاد بابتيست من الولايات المتحدة منذ أسبوع. وانتقل إلى عنوان جديد، وربما يكون لديه اسم جديد أيضاً. سأتكلم مع لويس أولاً".

شـــرحت أن لويس نائب بابتيست ومدير مكتب *الطريق الوسط* في أوروبا. وهو صديق مقرّب من سالومي، الذي كان بدوره صديق روز أخت بابتيست في

بروكسل. لكن لويس مختبئ حالياً، ولهذا يتوقف الأمر كله على فيما إذا عادت روز من حفل زفاف ابن أخيها في كينشاسا. وإذا لم تكن قد عادت، فمن الممكن التحدّث مع بيان - آيمي الذي كان حبيب روز، لكن ليس إذا كانت زوجة بيان - آيمي في البلدة.

وقبلت الهزيمة.

* * *

أصبحت وحيداً، ومحروماً حتى الليل. ويتطلب تشغيل هاتفي الخليوي، بموجب القوانين الصارمة التي وضعتها لنفسي بعد خروجي من شقق نورفولك، المشي مسافة ميل من منزل السيد حكيم عبر شارع تحيط به الأشجار إلى محطة حافلات شاغرة. ومشيت المسافة ببطء، وتفحّصتها بعناية. وجلست على مقعد خشبي وحيداً، وضغطت الزر الأخضر و121 والزر الأخضر مجدداً. وكانت رسالتي الوحيدة من باربي، مساعد السيد أندرسن المتوهج ودون جوان (زير نساء) غرفة المحادثة. ومن عش النسر على شرفته، يستطيع باربي أن يرى كل مقصورة هاتفية، وكل بلوزة قصيرة ترتديها أي أنثى. وكان اتصاله روتينياً. وستكون مفاجأة أن لا يتصل بي، ولكنه فعل. واستمعت إلى رسالته مرتين.

مرحباً يا سالف: أين أنت بحق الله؟ حاولت الاتصال بك في باترسي، واستمعت إلى توبيخ من بينلوب. لدينا الغثاء (dross) المعتاد لك. لا شيء يهدد الحياة، لكن اتصل بنا حالما تصلك هذه الرسالة، ودعنا نعرف متى تريد أن تعرّج علينا. إلى اللقاء.

أثار باربي أعمق الشكوك بداخلي مع هذه الرسالة التي تبدو بريئة. ولطالما كان هادئاً، ولكنه هذا الصباح أكثر هدوءاً من ذي قبل، ولهذا لا أثق بكلمة مما يقول. *حالما تصلك هذه الرسالة*. لماذا هو في عجلة من أمره إذا كنا سنتحدث عن الغثاء المعتاد؟ أم أنه، كما أشك، ينفذ أوامر لجذبي إلى غرفة المحادثة حيث ينتظرني فيليب وعصبته لأتلقى نفس معاملة الحاج؟

مـــشيت مجـــدداً، لكن بطريقة أكثر نشاطاً. وكانت الرغبة باستعادة ألواني واستطراداً احترام حنا بعد تلك الكارثة مع برنكلي حادّة. وظهر من الإذلال شعاع غير متوقع من الإلهام.

هل كانت نصيحة حنا لي بعدم الذهاب إلى أندرسن إشارة إلى مقامه الرفيع؟ حـــسناً، ســـأذهب الآن! لكن بشروطي، وليس بشروط أندرسن أو بارني. أنا، وليـــسوا هـــم، من سيختار الزمان، والجادة، والسلاح. وعندما يكون كل شيء جاهزاً، وليس قبل ذلك، سأعترف لحنا بخطتي!

الأشـــياء العملية أولاً. اشتريت من سوق صغير نسخة من صحيفة غارديان للحصول على بعض التغيير البسيط. ومشيت حتى لاح لي كشك هاتف منـــزو. وكـــان مصنوعاً من الزجاج المقوّى، ويتيح للمتصل مراقبة الجوار بأكمله، ويقبل القطـــع النقدية. ووضعت حقيبة كتفي بين قدميّ. وتنحنحت، وحرّكت كتفيّ، وأجبت على مكالمة بارني كما هو مطلوب.

"ســـالفو! هـــل وصلتك رسالتي؟ رجل طيب! ماذا عن مناوبة هذا المساء ثم الذهاب لتناول شراب الشعير بعد ذلك؟"

لم يعرض بارني الشراب على أحد من قبل، لكني مرّرت ذلك. وكنت هادئاً مثله تماماً.

"أنا مشغول قليلاً اليوم في الحقيقة يا بارنـــز. مواد قانونية ثقيلة. إنهم مملون، لكنهم يدفعون جيداً. ربما نستطيع فعل ذلك غداً، إذا كان ذلك ممكناً. ويستحسن أن يكون في المساء، ربما بين الرابعة والثامنة".

كـــنت أنـــاور، وهو ما تتطلبه خطتي البارعة. كان بارني يناور، وأنا أناور. الفـــرق هـــو أنه لا يعرف أنني أناور. وكان بطيئاً قليلاً هذه المرة في الإجابة. ربما يقف شخص ما بجانبه.

ســـألني: "اسمع، لماذا ليس الآن، بحق الله؟" متخلياً عن طريقته الرقيقة وهو مـــا لم يكن أسلوبه في معظم الأوقات. "تخلّى عن هؤلاء الأوغاد. ساعتان لن تشكلا أي فرق بالنسبة لهم. لقد دفعنا لك جيداً، أليس كذلك؟ أين أنت، بكل الأحوال؟"

كـــان يعرف حق المعرفة أين أنا. وكان ذلك واضحاً على شاشته، ولهذا لماذا يسأل؟ هل يكسب الوقت حتى تأتيه تعليمات أخرى؟

تذمّرت بمرح: "في كشك هاتف. هاتفي الخليوي معطّل".

انتظرنا مجدداً. وهذا هو بارني بالحركة البطيئة.

"حسناً، اركب سيارة أجرة. ضع الكلفة على حسابنا. يريد المدير أن يضمك إلى صـــدره. يدّعـــي أنك أنقذت الأمة خلال عطلة نهاية الأسبوع، لكنه لا يقول كيف".

خفـــق قلبـــي بقوة مرتين. لقد وقع بارني بين يديّ! لكني بقيت هادئاً. و لم أتهور. سيكون السيد أندرسن فخوراً بي.

قلـــت بهدوء: "أبكر ما أستطيعه هو غداً مساءً يا بارني. ويستطيع المدير أن يضمني إلى صدره عندها".

لم يكن هناك تأخير في ردّ الفعل هذه المرة.

"هل أنت مجنون؟ إنه يوم *الأربعاء*. الليلة المباركة!"

اضطرب خفقان قلبـــي، لكني لم أسمح لنغمة الانتصار بأن تظهر في صوتي".

"إذاً إمـــا الخميس أو لا شيء إطلاقاً يا بارنـــز. وهذا أفضل ما أستطيع فعله لأجلـــك ما لم تطلبني لأمر عاجل جداً، ولكنك لا تقول ذلك. آسف، لكن الأمر سيكون كما قلت".

أنهـــيت الاتصال. آسف على لا شيء. وغداً ستكون الليلة المباركة، وتقول الأسطورة إن السيد أندرسن لم يفوّت ليلة مباركة خلال عشرين سنة. وربما يكون فيليب ورجاله يدقون على بابه ليقولوا له إن دفاتر ملاحظات حيوية قد هربت من الحريق، وأن أشرطة تسجيل صوتية مفقودة. لكن ليلة الأربعاء ليلة مباركة والسيد أندرسن يغني الأوبرا في جمعية كورال سيفناوكس.

تجاوزت نصف المسافة تقريباً. وكبحت الرغبة للاتصال بحنا فوراً عبر هاتف غريس وإخبارها بخطتي العبقرية، وطلبت دليل الهاتف، واستطعت في غضون ثوانٍ الاتصال بجمعية سيفناوكس. وشرحت لهم بدهاء أن لديَّ عماً، وأنه مغنٍّ رئيسي

في جمعـــية الكورال المحلية. وبأن ذكرى ميلاده ستصادف غداً. ثم سألت الفتاة إن كانـــت تستطيع أن تخبرني أين، وفي أي وقت، ستجتمع جمعية كورال السنديانات السبع مساء الأربعاء؟

آه. حسناً. تستطيع ولا تستطيع. هل لديّ *أدنى* فكرة فيما إذا كان عمي *مجاز* أو غير *مجاز*؟

اعترفت أنني لا أعرف ذلك.

أسعدها ذلك. وشرحت أنه في كورال السنديانات السبع ليسوا معتادين على وجـــود حفلين لجمعيتي كورال في الوقت ذاته. وأن جمعية سينغ - فيست في قاعة ألـــبرت مـــتوقفة عن العمل منذ ثلاثة أسابيع. وكلتا الجمعيتين تتحضران للعمل، وتسعيان لنيل الجائزة.

اقترحت أنها ربما تستطيع شرح الفرق بين الاثنتين.

تـــستطيع، ولكني لا أقتبس منها. المجاز له علاقة بكنيسة محترمة، ويفضّل أن تكـــون معروفة لكن لا يشترط ذلك. وتعني وجود مدرسين وقادة فرقة *خبيرين*، لكن ليسوا *محترفين* لأنهم لا يحصلون على المال لقاء ذلك. وتعني استخدام المهارات المحلية *فقط*، و*عدم* استضافة مغنين من الخارج.

وغير المجاز؟

غير المجاز، مع عدم الاقتباس منها مجدداً، يعني *عدم* وجود كنيسة، أو أي شيء ممـــا سبق لأحدنا أن سمع به، ويعني أموالاً *جديدة*، ويعني شراء، واستعارة أو سرقة كـــل ما تستطيع وضع يدك عليه من الخارج بغضّ النظر عن *تكلفته*، ويعني *عدم* وجـــود مهـــارات مقيمة، ويتعاملون عملياً مع جوقة المرتلين مثل فريق كرة قدم محترف. هل أوضحت ما تقول؟

لقد أوضحته بالفعل. ولم يفعل السيد أندرسن شيئاً غير مجاز في حياته.

لدى عودتي إلى نـــزل السيد حكيم لوضع الخطوات التكتيكية كما سيقول عـــنها ماكسي، لم أضع وقتاً واتصلت بحنا بكل تصميم لإطلاعها على ما حققته لغاية ذلك الوقت. وتلقت مكالمتي غريس التي كان لديها أنباء مزعجة.

"حـــنا محـــبطة للغاية يا سالفو. أناس التبرعات هؤلاء، إنهم يثيرون الكثير من المشاكل، ويتساءل المرء من أين يحصلون على تبرعاتهم".

وبالكاد تعرّفت على حنا عندما تحدّثت إليّ. وكانت تتكلم بالإنكليزية.

"لو كنا أقل سواداً *بقليل* يا سالفو. ولو كان لدينا مبرر أبيض في مكان ما من دمائنا. ليس أنت، لأنه لا بأس بك. لكننا *مصدومون*. نحن سود - سود. ولا مجال لدينا". وتلعثم صوتها ثم استعاد عافيته. "هناك ثلاثة أطفال يقيمون مع السيدة ليمون. وهم لم يلتقوا بالسيدة ليمون اللطيفة أبداً، لكنهم يحبونها، حسناً؟"

"حسناً".

"ليلتان في منزلها على شاطئ البحر تشكلان حلماً بالنسبة لهم".

"بالطبع هما كذلك".

توقف آخر عن الكلام فيما استجمعت نفسها. "السيدة ليمون مسيحية، ولهذا لن تكلفهم شيئاً. وأميلدا إحدى الأطفال الذين أرعاهم في مدرسة الأحد الدينية. لقد رسمت أميلدا لوحة للشمس تشرق على البحر، وكانت الشمس ليمونة كبيرة تبتسم، حسناً؟"

"حسناً".

"حسناً، السيدة ليمون تشعر بتوعك الآن". وارتفع صوتها غاضباً كما لو أنها تقلّد صوت السيدة ليمون. "إنه قلبي يا عزيزتي. ينبغي أن لا أنزعج. ولم أكن أعرف ذلك من قبل، وكنت أعتقد أن الأطفال محرومون".

استعادت غريس هاتفها، وكان صوتها مريراً مثل صوت حنا. "هناك مقهى أنيق في منتصف الطريق المؤدي إلى بوغنور يستقبل الحافلات. وقد أبرمت مع حنا اتفاقاً ودياً مع هذا المقهى الأنيق. ثلاثون قطعة دجاج، ووجبات مجانية للمشرفين والسائق. وشراب واحد غير كحولي لكل شخص. مئة جنيه. هل هذه صفقة عادلة؟"

"عادلة جداً يا غريس. معقولة جداً، كما يبدو منها".

"لم يأخذ السائق مجموعات إلى ذلك المقهى الأنيق منذ حوالى خمس عشرة سنة. أطفال مدارس، وكل أشكال الأطفال. ما عدا إذا كانوا بيضاً. وعندما أدرك المالك أن أطفالنا سيكونون سوداً، تذكّر أن لديه سياسة جديدة. وأخبرنا: "إنهم المتقاعدون. إنهم يأتون للاستمتاع بالهدوء. لهذا لا نستقبل الأطفال هنا عدا البيض منهم".

عادت حنا، بمزاج قتالي هذه المرة: "هل تعرف شيئاً يا سالفو؟"

"ما الذي أعرفه يا حبـــي؟"

"ربما ينبغي على الكونغو أن تغزو بونغور".

ضحكنا سويةً. هل ينبغي أن أخبرها عن خطتي اللامعة والخطر الموجود فيها، وأسبب لها المزيد من القلق، أم أترك ذلك لوقت لاحق؟ وقلت لنفسي أن أتركها. ومع القلق حول بابتيست، كان لديها ما يكفي من المشاكل سلفاً.

تتطلب خطتي اللامعة أعمالاً ورقية.

ولمـــدة خمس ساعات، مع عدم وجود شيء يسندني سوى لازانيا باردة، تابعـــت العمل على حاسوبـــي المحمول. وبمساعدة مقاطع من أشرطتي ودفاتر ملاحظـــاتي تـــرجمتها عند الضرورة إلى الإنكليزية، إضافة إلى مجموعة من جمل فيليب كما قالها حرفياً عبر الهاتف الفضائي، وجمّعت عرضاً للخطة التي أكّد لي الـــسيد أندرســـن أنها في صلب اهتمامات بلدنا. وتجاهلت الافتتاحية التقليدية *عزيـــزي الـــسيد أندرســـن*، وبدأت هجومي مع: *عرفتك دائماً رجل شرف واستقامة*. وكنت أعرف أيضاً أنه يقرأ ببطء ويدقق في كل كلمة، ومع التركيز على الإنكليزية البسيطة، ألزمت نفسي بعشرين صفحة بلغة منتقاة بعناية، والتي تتـــضمن كملحق إشارة إلى الدخول غير القانوني في شقق نورفولك. وفي إيماءة نهائـــية، عنونت قطعتي الكاملة "أنا أتهم!" تيمناً بدفاع إيميل زولا الحماسي عن العقيد دريفوس، في القصة البطولية الحافلة بالمآثر الأخلاقية التي كان يحبها الأخ مايكـــل. ووضعت نسخة على القرص المرن، ونـــزلت الدرج على عجل إلى مطبخ السيدة حكيم. ومع عودة الأشرطة ودفاتر الملاحظات المسروقة إلى مخبئها خلـــف خـــزانتنا المهلهلـــة، ونسختي من "أنا أتهم" معها، وبعد أن هشّمت - لأســـباب أمنـــية - القرص المرن بحذر واستودعته سلة مهملات مطبخ السيدة حكـــيم، تحـــوّلت إلى أخبار الساعة السادسة، وكنت سعيداً لعدم رؤية تقارير حول مطاردة *حمار* وحشي مطلوب.

* * *

لم أكن منبهراً بالترتيبات العملية للقائنا مع بابتيست، لكن عندها لم أتوقع أن أكون كذلك. وحيث إنه رفض الكشف عن عنوانه الحالي، فقد اتفق مع حنا دون معـــرفتي بـــأن تقوم بإحضاري إلى ردهة مقهى ريكو في شارع فليت عند الساعة العاشرة والنصف من تلك الليلة. ومن هناك، سيقودنا أحد رفاق السلاح المجهولي الاسم إلى نقطة اللقاء المجهولة. وكانت أفكاري الأولى منصبّة على أشرطتي ودفاتر ملاحظـــاتي. هل آخذها معي أم أتركها في مخبئها؟ ولم أستطع تخيّل نفسي أسلّمها إلى بابتيست في اللقاء الأول، لكني عرفت نتيجة إخلاصي لحنا أنه ينبغي أن آخذها معي.

نظـــراً لتأخرها صباحاً والإجهاد الذي تتعرض له في فترة بعد الظهر، توقعت أن أجـــدها في مـــزاج كئيب، لكنها لم تكن على تلك الحالة مما بعث الراحة في نفـــسي. كان نوح السبب المباشر في معنوياتها العالية، فلقد تحدّثت إليه مطولاً قبل ســـاعة فقط. وكما هي العادة، تحدّثت أولاً إلى عمتها في حال كانت هناك أنباء مزعجة، لكن عمتها قالت: "دعيه يخبرك بنفسه يا حنا"، ووضعته على الخط.

شـــرحت، مـــتّقدة كلها: "إنه الثالث على صفه يا سالفو، تخيّل. لقد تحدثنا بالإنكليزية معاً، وإنكليزيته تتقدم فعلاً، وقد كنت مذهولة. وفاز فريق كرة القدم في مدرسته أمس بمسابقة كمبالا للاعبين الذين لا تتجاوز أعمارهم العشر سنوات، وكاد نوح أن يسجل هدفاً".

كـــنت أشـــاركها الشعور بالنشاط عندما سمعنا أصوات مكابح *بي أم دبليو* بنفسجية، مع موسيقى الراب تصدح من كل نافذة مفتوحة فيها، فوق الشارع في الخـــارج. كان السائق يضع نظارات داكنة، وله لحية مدببة مثل ديدون. وذكّرني الرجل الأفريقي الضخم الذي يجلس بجانبه بفرانكو. وقفزنا داخل السيارة، وداس الـــسائق بقدمه على دواسة الوقود. وانطلقنا مسرعين جنوباً بمناورات غريبة دون اعتـــبار لإشارات السير أو خطوط سير الحافلات. واجتزنا أرضاً صناعية مهجورة تملـــؤها الإطارات المهترئة، وانحرفنا لتفادي ثلاثي من الأطفال تكدّس على كرسي مدولب والذي جاء منطلقاً من الجانب وأذرعهم خارجه مثل البلهوانيين. وتوقفت الـــسيارة، وصـــرخ الـــسائق "الآن". واستدارت *البي أم دبليو* وانطلقت مبتعدة،

وتركتنا واقفين في زقاق مرصوف بالحصى تفوح منه روائح كريهة. وفوق المداخن الفيكتورية، حدّقت بنا روافع ضخمة مثل الزرافات من سماء الليل البرتقالية. ومشى رجـــلان أفريقيان الهوينى نحونا. كان الأطول يرتدي سترة حريرية تصل إلى الركبة والكثير من الذهب.

سأل حنا بسواحيلية كونغولية: "هل هذا هو الرجل الذي لا يحمل اسماً؟"

كانـــت قـــد حذّرتني: لا تتحدث سوى الإنكليزية يا سالفو. وأي شخص يـــتحدث لغاتنا سيكون مثيراً للاهتمام كثيراً. وبالمقابل، انتزعت اتفاقية منها أننا، فيما يخصّ مقابلتنا تلك، معارف ولسنا عاشقين. وأن اشتراكها في هذه الأحداث بناءً على رغبتي الخاصة. كنت مصمماً على إبقائها بعيداً عنهم ما دام ذلك ممكناً.

سأل الرجل الأقصر، بالسواحيلية أيضاً: "ماذا في الحقيبة؟"

ردّت حنا بسرعة: "شيء خاص لبابتيست".

تقـــدّم الرجل الطويل مني، واختبر بأصابع نحيلة وزن ومحتويات حقيبتي، لكنه لم يفـــتحها. ومشى زميله في المؤخرة، ولحقنا به على درج حجري إلى المنـــزل، ليقابلـــنا المزيد من موسيقى الراب. وفي مقهى تضيئه مصابيح النيون، كان شيوخ أفـــريقيون يعتمرون القبعات يشاهدون فرقة كونغولية تعزف الموسيقى عبر شاشة تلفـــاز بلازمـــا كبيرة. وكان الرجال والنساء يحتسون العصير. وهناك فتيان على طـــاولات منفصلة يرتدون القلنسوات ويتحدّثون. وصعدنا سلالم ودخلنا إلى قاعة فـــيها أرائـــك قماشية، ويغطيها ورق جدران وبُسط من جلد النمر. ويوجد على الجـــدار صـــورة لعائلة أفريقية بأفضل ملابسهم. ويقف الأب والأم في المنتصف، وأطفالهم السبعة بأحجامهم المتدرجة من الجانبين. وجلسنا، حنا على الأريكة، وأنا علـــى المقعد المواجه لها. ووقف الرجل الطويل عند الباب، ونقر بقدمه على وقع الموسيقى من المقهى في الأسفل.

"هل تريد شراباً غير كحولي، أو شيئاً ما؟ ممنوعات أو شيئاً ما؟"

وهززت رأسي نفياً.

"وهي؟"

كان هناك سيارة تتوقف بهدوء في الشارع خارج المكان. وسمعنا صوت فتح وإغلاق بابها الغالي الثمن، وأصوات أقدام تصعد السلالم. وكان بابتيست يشبه الحاج دون عبوس الوجه. وكان نحيلاً وطويل الأطراف. وكان يرتدي بدلة أنيقة ويضع نظارات ري - بان، ومعطفاً من جلد الغزال (الشاموا)، وقلادة ذهبية وحذاء تيكسان المتكامل مع قبعة رعاة البقر. وكان لديَّ شعور بأن هناك شيئاً مصطنعاً حوله، ليس بالملابس فقط وإنما بالجسد الذي بداخلها كما لو أنه اشتراه حديثاً. وكان يضع ساعة رولكس ذهبية على معصمه الأيمن. وعندما لمحته حنا، وثبت على قدميها بفرح وصرخت باسمه. وخلع سترته دون أن يجيبها، ووضعها على كرسي، وتمتم "اذهب" لدليلنا الذي اختفى أسفل السلالم. وجعل جسده مقوساً للأمام، وكانت قدماه منفرجتين وفتح ذراعيه داعياً حنا لاحتضانه. وهو ما فعلته بعد لحظة حيرة، ثم انفصلت عنه ضاحكة.

احتجّت، بالإنكليزية كما اتفقنا: "ما الذي فعلته لك أميركا يا بابتيست؟ أنت..."، وبحثت عن الكلمة "غني جداً فجأة!"

قام بتقبيلها، دون أن ينطق بكلمة لغاية ذلك الوقت، فيما اعتبرته طريقة متكلّفة للغاية، من خدّها الأيسر، والأيمن ثم خدّها الأيسر مرة ثانية فيما كان ينظر إليّ.

* * *

عادت حنا إلى مكانها على الأريكة. وجلست قبالتها، وحقيبتي إلى جانبي. وألقى بابتيست، المرتاح أكثر من أي منا، بنفسه على كرسي قماشي وركبتاه صوب حنا، كما لو أنه يقترح وضعها بينهما.

سأل: "إذاً، ما هي المشكلة؟" واضعاً إبهامي يديه بأسلوب بلير - بوش في حزامه من نوع غوتشي.

باشرت الكلام بحذر، منتبهاً تماماً إلى أن مهمتي الأولى ستكون تجهيزه لتلقّي الصدمة التي كنت على وشك تسديدها له. وبمنتهى اللطف الذي استطعته - وفي إدراك متأخر مني، اعترفت، بكلام فيه الكثير من الحشو ويشبه أسلوب أندرسن -

نصحته بأن ما سأقوله له سيثير غضب بعض الموالين له، وسيقلب بعض التوقعات التي تخصّ شخصية سياسية محترمة على المشهد الكونغولي.

"هل تتكلم عن موانغازا؟"

وافقت بحزن: "أخشى أن الأمر كذلك".

قلت إنني لست مسروراً بإيصال أنباء سيئة له، ولكني قطعت وعداً لشخص لا أستطيع ذكر اسمه، وينبغي عليّ الإيفاء به الآن. وكانت تلك الشخصية التي اتفقت عليها مع حنا بعد الكثير من الجدال. وسأضيف أنه لا توجد أشياء كثيرة أستمتع بها أقل من الحديث مع نظارات داكنة. وفي بعض الحالات التي تجاوزت المألوف، معروف عني أني طلبت من زبائني رفعها على أرضية أنهم يخففون من قوى اتصالاتي. لكني قررت لأجل حنا أن ابتسم وأتحمل ذلك.

سأل: "شخصية ذكر؟ شخصية أنثى؟ من هي تلك الشخصية؟"

أجبت بسرعة: "أخشى أن ذلك شيء لست مستعداً لكشفه"، ممتناً لهذه الفرصة المبكّرة لوضع علامتي على ما سيأتي لاحقاً. وأضفت بعد أن خطرت لي الفكرة "دعنا ندعوها هو بغرض التبسيط. *وصديقي* هذا، الجدير بالثقة والشريف تماماً برأيي، مشترك في عمل حكومي بالغ السرية".

"الحكومة *البريطانية* اللعينة؟" قال ذلك مع السخرية من كلمة *بريطانية*، والتي إذا اقترنت مع الري - بان واللهجة الأميركية ستجعل شعر رأسي يقف في حال لم يكن صديقاً لحنا.

تابعت القول: "*مهام* صديقي تتيح له الوصول بشكل دوري إلى التسجيلات والأشكال الأخرى من الاتصالات التي تتم بين الأمم الأفريقية والأجهزة الأوروبية التي لها علاقات معها".

"أي أجهزة لعينة؟ هل تعني الحكومات أم ماذا؟"

"ليس الحكومة *بالضرورة* يا بابتيست. وليست كل الأجهزة حكومية. والكثير منها أكثر قوة وأقل بروزاً من الحكومة. وأكثر ثراءً أيضاً".

ألقيت نظرة خاطفة على حنا لأحصل على تشجيع منها، ولكنها كانت قد أغلقت عينيها كما لو أنها تدعو.

تابعت القول، بعد أن قررت المضي مباشرة إلى بيت القصيد: "وما أخبرني بــه هذا الصديق بثقة كاملة، بعد الكثير من العذاب، أنه تمّ عقد اجتماع سري مؤخــراً على جزيرة في مكان ما من بحر الشمال - وتوقفت قليلاً للتركيز على ما سأقوله - بين موانغازا - آسف لأنني مضطر لقول ذلك لك - وممثلي بعض الميليشيات في شرق الكونغو - كنت أراقب النصف السفلي من وجهه بحثاً عن علامــات قلق واضحة للعيان، لكن ما حصلت عليه كان بالكاد حركة شفتيه المحسوسة - وممثلين *آخرين* عن نقابة مجهولة من المستثمرين الدوليين. وفي نفس ذلك المؤتمر، تمّ الاتفاق على أن يقوموا سوياً، بمساعدة مرتزقة غربيين وأفارقة، بــانقلاب عسكري ضد كيفو". وانتظرت مجدداً للحصول على إشارة عن رد فعله، لكن عبثاً. "انقلاب خفي. غير معترف به. يستخدم الميليشيات المحلية التي أبــرموا اتفاقــاً معها. وتشكل وحدات من ماي ماي إحدى تلك الميليشيات، والبانياموليننج أخرى".

أخــبرني حدسي أن أُبقي الحاج ولوك خارج المعادلة. وألقيت نظرة خاطفة مجــدداً علــى بابتيست لأشاهد ردّ فعله. وكانت نظارات ري - بان، حتى تلك اللحظة، تركّز على صدر حنا.

تابعــت بــصوت أعلــى: "الهدف *الظاهري* للعملية هو بناء كيفو موحدة وديمقراطية، شمالاً وجنوباً. وبكل الأحوال، الهدف *الحقيقي* مختلف. إنه استنــزاف شــرق الكونغو من كل الموارد الطبيعية التي تستطيع النقابة وضع يدها عليها، بما فــيها المخــزون الضخم من الكلتان، وهكذا يكسب المستثمرون الملايين، فيما لا يحصل شعب كيفو على شيء مطلقاً".

ليس هناك حركة في الرأس، ولا تغيير في اتجاه ري - بان.

قلت محتجاً، بعد أن شعرت بأنني لا أتحدث إلى أحد سوى نفسي: "ستتم سرقة الشعب. نهبه، كما هي العادة. إنها القصة القديمة. الانتهازية باسم آخر". واحتفظت بورقتي الرابحة حتى النهاية. "وكينشاسا مشتركة في الخطة. وستغض الطــرف في حــال حصلت على حصتها، وهو ما يعني في هذه القضية حصة الشعب. كلها".

صـــرخ طفـــل من الطابق الأعلى، وتمّت تهدئته. ورسمت حنا ابتسامة بعيدة، ولكنها كانت للطفل، وليس لي. ولم يتغير تعبير وجه بابتيست الجامد بأي شكل، وكان لجموده آنذاك تأثير سلبـــي فعلاً على مهاراتي في السرد.

"متى يفترض أن يكون كل هذا الهراء قد حدث؟"

"هل تعني متى تحدّثت إلى صديقي؟"

"الاجتماع على الجزيرة اللعينة يا رجل. متى؟"

قلت: "مؤخراً".

"لا أعرف مؤخراً. مؤخراً كيف؟ مؤخراً متى؟"

أجـــبت: "خـــلال الأســـبوع الماضي"، لأنه عندما يكون هناك شك، ينبغي الاقتراب من الحقيقة.

"هـــل حضر رجلك المجهول الاجتماع؟ هل كان يجلس على الجزيرة اللعينة معهم، يستمع فيما يعقدون الصفقة؟"

"لقد درس الأوراق. التقارير. أخبرتك بذلك".

"درس الأوراق. وفكّر بذلك الهراء، وجاء *إليك*".

"نعم".

"لماذا؟"

"لأن لديه ضميراً. ويميّز الخبيث من الطيب. ويهتم بالكونغو. ولا يوافق على قـــيام أشـــخاص بشن حروب أجنبية لتحقيق مصالحهم الخاصة. أليس هذا سبباً كافياً؟"

من الواضح أنه لم يكن كذلك. "لماذا *أنت* يا رجل؟ يبدو أنه متحرر أبيض، وأنت أقرب ما تكون إلى رجل أسود؟"

"جـــاء إليّ لأنـــه يهـــتم. هذا كل ما تحتاج لمعرفته. إنه صديق قديم، ولن أقـــول كـــيف. ويعـــرف أن لديّ علاقات مع الكونغو وأن قلبـــي في المكان الصحيح".

"اللعنة عليك يا رجل. أنت تخدعني".

قفــز على قدميه، وبدأ يمشي في الغرفة، وحذاؤه من نوع تكسان يطرق بقــوة على البساط الذهبــي. وبعد أن مشى جيئة وذهاباً مرتين، توقف أخيراً أمام حنا.

أخــبرها، مع إيماءة من رأسه الشبيه بالجمجمة إليّ: "ربما أصدّق هذا الرجل. ربمــا *أفكّــر* فقط بأنني أصدقه. ربما كنتِ على حق بإحضاره لي. هل هو نصف رواندي بــأي شكل كان؟ أعتقد أنه نصف رواندي. أعتقد أن هذا ربما يكون الدليل على موقفه".

همست حنا بابتيست، ولكنه تجاهلها.

"حــسناً، لا تجيبــي. لنستعرض الحقائق. إليكِ الحقائق. صديقك هنا على علاقة معك، صحيح؟ وصديق صديقك يعرف أنه على علاقة بك، ولهذا جاء إلى صــديقك، وأخــبره قصة، والتي أعادها صديقك على مسامعك لأنه على علاقة معك. وقد تأثرتِ فعلاً بهذه القصة، لهذا أحضرت صديقك الذي يقيم علاقة معك إليّ بحيث يستطيع سردها مجدداً، وهو ما كان يعرف صديق صديقك أنه سيحدث. ونحــن ندعــو ذلــك **تــزييف المعلومات**. والروانديون ماهرون جداً في *تزييف المعلــومات*. ولديهم أشخاص لا عمل لديهم سوى *تزييف المعلومات*. واسمحي لي بأن أشرح كيف يتمّ ذلك، حسناً؟"

كان ما يزال يقف أمام حنا، وحوّل ناظريه إليّ، ثم أعادهما إلى حنا.

"إليكِ كيف يتمّ الأمر. رجل عظيم، رجل عظيم *فعلاً* – أنا أشير إلى موانغازا – يقــدّم رســالة أمل لبلدي. السلام، والازدهار، والمساواة والوحدة. لكن هذا الــرجل العظــيم ليس صديقاً للروانديين، ويعرف بأن رؤيته لا يمكن تحقيقها فيما يستعير الروانديون أرضنا لشن حروبهم عليها، واستغلال اقتصادنا وشعبنا وإرسال فــرق من القتلة لإبادتنا. ولهذا يكره هؤلاء القوم. وهم يكرهونه. وهم يكرهونني. هــل تعرفين كم مرة حاول هؤلاء الأوغاد القضاء عليّ؟ حسناً، إنهم يحاولون الآن القــضاء على موانغازا. كيف؟ بتلفيق كذبة داخل معسكره. ما هي الكذبة؟ لقد سمعــتها للتو. لقد قالها الصديق الذي يقيم علاقة معك: *باع موانغازا نفسه للرجل الأبيض! لقد رهن موانغازا حقنا الطبيعي لمسؤولي كينشاسا!*"

تـــرك حـــنا، ووضـــع نفسه في مواجهتي. وارتفع صوته قليلاً، ليطغى على موسيقى الراب القادمة عبر البساط الذهبـــي.

"هل كنت تعرف من قبل بأن شرارة صغيرة في كيفو تستطيع إشعال المنطقة اللعينة بأكملها؟ هل تلك المعلومات متوافرة لك، في ذهنك؟"

كان ينبغي أن أهزّ رأسي بأن نعم لديَّ معلومات.

"حـــسناً، أنـــت عود الثقاب اللعين أيها الرجل، حتى إذا لم تكن تريد ذلك، حتى إذا كانت كل أفكارك الطيبة في مكانها الصحيح. وهذا الشخص المجهول من طـــرفك الذي يحب الكونغو كثيراً، ويريد حمايتها من الغازي الأبيض، إنه صرصار رواندي لعين. ولا تعتقد أنه الشخص الوحيد أيضاً، فلقد وصلتنا القصة نفسها من حوالى عشرين اتجاهاً مختلفاً، وجميعها تخبرنا بأن موانغازا هو أكبر خائن في التاريخ. هـــل ســـبق ولعبت الغولف؟ لعبة الغولف النبيلة؟ هل أنت لاعب غولف لعين يا سيدي؟"

هزّزت رأسي.

وتمتمت حنا نيابة عني: "لا غولف".

"قلت إنه تمّ عقد هذا الاجتماع خلال الأسبوع الماضي. صحيح؟"

أومأت موافقاً، صحيح.

"هـــل تعـــرف أين كان موانغازا خلال الأسبوع الماضي؟ في كل يوم دون اســـتثناء، صـــباحاً وبعـــد الظهيرة؟ يتفقّد إقطاعياته الخضراء. في ماربيلا، جنوب إســـبانيا، ويستمتع بلعب الغولف قبل العودة إلى الكونغو واستئناف حملته البطولية للوصـــول إلى السلطة سلمياً. وهل تعرف أين كنت أنا، في كل تلك الأيام السبعة الماضـــية وصـــولاً حـــتى أمس؟ أتفقّد إقطاعياتي. في ماربيلا، وألعب الغولف مع مـــوانغازا ومساعديه المخلصين. لهذا ربما، فقط ربما، ينبغي أن تقول لصديقك بأن يرمي بجزيرته في الوحل، ومعها أكاذيبه".

طوال الوقت الذي كان فيه بابتيست يتكلّم، كانت ساعته من نوع رولكس مع سوارها من عيار ثمانية عشر قيراطاً وأطوار القمر تومض عليَّ. وكلما أطال في الكلام، كلما أصبح الوميض أوضح وأكثر لمعاناً.

سأل حنا بالسواحيلية: "هل تريدين الذهاب أو أن يتمّ إيصالك إلى مكان ما؟ هل تريدين سيارة أجرة؟"

قالت حنا: "نحن بخير".

"هل لدى الشخص الذي تقيمين علاقة معه شيئاً في تلك الحقيبة يريد تسليمه لي؟ كتابات تشهيرية؟ ممنوعات؟"

"لا".

"عندما تسأمين منه، دعيني أعرف".

تبعتها عبر المقهى، إلى الشارع. وكانت هناك سيارة مرسيدس سوداء جديدة متوقفة، وسائقها خلف المقود. ومن نافذتها الخلفية، حدّقت بنا فتاة سوداء ترتدي فستاناً قصيراً جداً وتضع شالاً أبيض من الفرو مثل شخص يتهدده الخطر.

17

لم تكـــن حنا من النساء اللواتي يبكين بشكل طبيعي. وحرّكت رؤيتها وهي تجلـــس علـــى طرف سرير السيدة حكيم في ثياب نوم فتاة الإرسالية في الواحدة صـــباحاً، ووجهها مدفون بين يديها، والدموع تنساب من بين أصابعها، مشاعر تعاطف في أعماقي لم أكن قد سبرت أغوارها لغاية تلك اللحظة.

أكّدت لي بين تنهداتها: "لا نستطيع فعل شيء لإنقاذ أنفسنا يا سالفو". وبعد الكـــثير مـــن الملاطفة، استطعت إقناعها بأن تجلس منتصبة. "لقد كان لدينا حلم جميل. سلام. وحدة. ازدهار. لكنّنا كونغوليون. وكلما كان لدينا حلم، نعود إلى البداية. لهذا لا يأتي المستقبل أبداً".

عـــندما فعلـــت مـــا أستطيعه لمواساتها، انطلقت للعمل، وحضّرت البيض المخفـــوق، والخبز المحمّص وإبريقاً من الشاي فيما كنت أخبرها عما فعلته خلال الـــنهار. ولأنني كنت مصمماً على عدم مزج الأسى الذي تشعر به مع اقتراحاتي المتواصـــلة، فقـــد حرصت على حذف أي إشارة إلى بعض المكالمات الهاتفية التي قمـــت بها، أو إلى وثيقة مصنّفة معنونة "أنا أهم!" كنت قد وضعتها خلف خزانة الثـــياب. وســـتغادر في غضون اثنتي عشرة ساعة إلى بوغنور. ومن الأفضل حالياً الانـــتظار حـــتى تعـــود، وأكون حينها قد وضعت خطة العمل، وسيتم حلّ كل الإشـــكالات. ولكن عندما اقترحت الذهاب إلى النوم، هزّت رأسها كما لو أنها شاردة الذهن وقالت إنها تحتاج لسماع الأغنية مجدداً.

"أغنية الحاج. تلك التي غناها بعدما تعرض للتعذيب".

"الآن؟"

"الآن".

ولأنني كنت أتمنى التخفيف عنها بكل وسيلة ممكنة، سحبت الشريط المطلوب من مخبأه.

"هل لديك بطاقة العمل التي أعطاك إياها؟"

أعطيتها إياها. وتفحّصت المقدمة، وابتسمت عندما شاهدت الحيوانات. وقلبتها، وتقطّب جبينها، وتفحّصت الخلفية. ووضعت سماعات الرأس، وشغّلت المسجلة، وغرقت في صمت غامض فيما كنت أنتظر بصبر خروجها من تلك الحالة.

سألتني، بعد أن دار الشريط مرتين في المسجلة: "هل تحترم والدك يا سالفو؟"

"بالطبع أحترمه. كثيراً. وكذلك أنتِ، أنا واثق من هذا".

"الحاج يحترم والده أيضاً. إنه كونغولي. وهو يحترم والده ويطيعه. هل تعتقد فعلاً أنه يستطيع الذهاب إلى والده والقول له: يا ابي، إن صديقك مدى الحياة وحليفك السياسي موانغازا كاذب، دون أن يكون لديه إثبات على ذلك؟ ليس حتى العلامات على جسده إذا قام معذّبوه بعملهم جيداً؟"

"من فضلكِ يا حنا. أنتِ متعبة جداً، وكان يومكِ مريعاً. تعالي إلى السرير". ووضعت رأسي على كتفها، لكنها أزاحته بلطف.

"كان يغني لك يا سالفو".

وأقررت بأن ذلك كان انطباعي.

"إذاً، ماذا تعتقد أنه كان يحاول القول لك؟"

"إنه سينجو، ولنذهب جميعنا إلى الجحيم".

"إذاً، لماذا كتب لك عنوان البريد الإلكتروني؟ إنه مكتوب بخط يرتعش. لقد كتبه *بعد* تعرضه للتعذيب، وليس قبل. لماذا؟"

ألقيت دعابة سيئة بهذا الخصوص.

"يريد مني الاهتمام بنواديه الليلة، كما يبدو".

"إنه يطلب منك الاتصال به يا سالفو. إنه بحاجة لمساعدتك. إنه يقول: ساعدني، أرسل لي تسجيلاتك، أرسل لي الدليل عمّا فعلوه بي. إنه يحتاج للدليل. ويريد منك تقديمه له".

هل كنت أحمق، أم مجرد مخادع؟ لقد كان الحاج بالنسبة لي شاباً مغامراً، وليس فارساً يرتدي دروعه. لقد أفسدته البراغماتية الفرنسية ورغد العيش. وكانت ثلاثة ملايين دولار بحلول ليلة الاثنين دليلاً كافياً على ذلك. هل يجب أن أدمّر أوهامها؟ أم ينبغي أن أدخل في جدال معها مع ثقتي بأنني لن أكون ممتناً للنتائج؟

قلت لها: "أنت محقة. إنه يريد الإثبات. سنرسل له الأشرطة. إنها الطريقة الوحيدة".

تساءلت والشكوك تراودها: "كيف؟"

أكّدت لها أن الأمر بسيط جداً. وكل ما تحتاجه هو شخص لديه المعدّات اللازمة كصاحب محل تسجيلات، أو محل موسيقى. وسيقوم بتحويل الشريط إلى ملف صوتي من أجلها، وتقوم بإرساله عبر البريد الإلكتروني إلى الحاج. انتهت المهمة.

"لا يا سالفو، لم تنتهِ". وتغضّن وجهها فيما كانت تحاول جاهدة الحفاظ على دورها كما حافظت على دوري حتى هذه اللحظة.

"ما المانع؟"

"إنها جريمة كبيرة بالنسبة لك. الحاج كونغولي، وهذه أسرار بريطانية. وأنت بريطاني في الصميم. لهذا من الأفضل ترك الأمر على حاله".

أحضرت تقويماً. وأشرت وأنا جاثٍ على ركبتي بجانبها إلى أنه لا يزال هناك أحد عشر يوماً على مخطط انقلاب ماكسي. لهذا لا يوجد داعٍ للعجلة، أليس كذلك؟

وافقت بتردد. لكن كلما كانت التحذيرات التي يتلقاها الحاج أكثر، كلما كان أفضل.

وعارضتها بمكر أننا نستطيع الانتظار لبضعة أيام أخرى. وأضفت أن الانتظار أسبوعاً لن يشكل ضرراً، وتذكّرت سراً الخطوات الثقيلة التي يتحرك بها السيد أندرسن لتنفيذ معجزاته.

تقطّب جبينها مجدداً: "*أسبوع*؟ لماذا ينبغي علينا الانتظار أسبوعاً؟"

"لأننا قد لا نحتاج عندها لإرسال ذلك الدليل. وربما يتراجعون عمّا يريدون القيام به. وهم يعرفون أننا نعرف القضية. وربما يلغون العملية".

"وكيف سنعرف فيما إذا كانوا سيلغون العملية؟"

لم يكـــن لديَّ جواب جاهز لهذا، واشتركنا في صمت مرتبك نوعاً ما، فيما وضعت رأسها على كتفي شاردة الذهن.

أعلنت بفرح: "ستحين ذكرى ميلاد نوح بعد أربعة أسابيع".

"سيحين فعلاً، وقد قطعنا وعداً بإيجاد هدية له معاً".

"إنه يرغب بزيارة عمه في غوما أكثر من أي شيء آخر. ولا أريده أن يزور منطقة حروب".

"لا ينبغي عليه ذلك. دعي الأمر بضعة أيام إضافية فقط. في حال حدث شيء ما".

"مثل ماذا يا سالفو؟"

وأصـــررت: "إنهم ليسوا جميعاً وحوش. ربما سيسود التعقّل". وجلست لدى سماعها ذلك، وألقت عليَّ نظرة كما لو أنني مريض تشتبه بأنه يكذب حول علّته.

التمست قائلاً: "خمسة أيام. وفي اليوم السادس، سنرسل كل شيء إلى الحاج. وسيمنحه ذلك كل الوقت الذي قد يكون بحاجة له".

أتذكّـــر لاحقـــاً محادثة واحدة ذات أهمية قصوى. كنا نستلقي على ذراعيّ بعضنا البعض، ويبدو أننا نسينا همومنا، عندما بدأت حنا فجأة الحديث عن لاتزي، صديق غريس البولندي المجنون.

"هـــل تعرف ما يفعله لكسب العيش؟ يعمل في مركز تسجيل سوهو لفرق الــروك. إنهـــم يسجلون طوال الليل، ويأتي إلى المنـــزل في الصباح منتعشاً تماماً ويتبادلان الحب طوال النهار".

"إذاً؟"

"إذاً، أستطيع الذهاب إليه، والحصول على سعر جيد".

وحان دوري الآن للنهوض.

"حنا. لا أريدكِ أن تشتركي بأي شكل كان. وإذا كان هناك شخص ينبغي عليه إرسال هذه الأشرطة إلى الحاج، فسيكون أنا".

لم تقل أي شيء إطلاقاً حول ذلك، واعتبرت صمتها قبولاً. واستيقظنا متأخرين في حالة اضطراب كبيرة. وبناءً على طلب حنا، نــزلت الدرج مسرعاً حافي القدمين ورجــوت السيد حكيم أن يؤمن لنا إحدى سيارات الأجرة. وعندما عدت، وجدتها واقفة بجانب خزانة الثياب الواهنة، تحمل حقيبتي والتي كان من الواضح أنها قد انتشلتها من مخبئها على عجل؛ لكنها لم تحصل، والشكر لله، على نسختي الثمينة من "أنا أتهم!"

قلت لها: "هيا، ناوليني إياها"، واستخدمت طولي الفارع وأعدت الحقيبة إلى حيث كانت.

قالت: "آه يا سالفو"، وهو ما اعتبرته إطراءً لي.

كانت ما تزال نصف عارية، وهو شيء لا سبيل لمقاومته.

* * *

وضــعت إدارة الرحلة التي تنطلق دون توقف من محطة حافلات فكتوريا إلى ســيفناوكس حــافلات إضافية لخدمة مسافري القطارات الذين يفضلون الطرق المفــتوحة مــنذ التفجيرات. واقتربت من صف الانتظار بحذر، قلقاً من قبعتي التي تــزينها كــرة صوف تتحرك في كل الاتجاهات ولون جلدي. وقطعت جزءاً من الــرحلة مشياً على الأقدام والجزء الآخر بالحافلة، وترجلت منها مرتين في اللحظة الأخيرة لتضليل من قد يلاحقني. إن للإفلات من الرقابة ضريبته. وفي الوقت الذي ربت فيه الحارس الأمني في محطة الحافلات على كتفي، كنت خائفاً من أن يتعرف علــيَّ ويقــوم باعتقالي. لكنه لم يجد أي عيب في المغلف البني المكتوب عليه "أنا أتهــم!" الــذي طويته داخل الجيب الداخلي لسترتي الجلدية. واتصلت من كشك هاتــف في *السنديانات السبع* بهاتف غريس الخليوي لأجدها في نوبة ضحك. ولم تكن الرحلة إلى بونغور خالية من اللحظات الخاصة بها، كما يبدو:

"أميليا تلك، لقد تقيّأت بطريقة لا تتخيلها يا سالفو. في كل أنحاء الحافلة، وعلى عباءتها وحذائها الجديد. وكنت أقف مع حنا هناك مع مماسح التنظيف. إنها *العقلانية*!"

"سالفو؟"

"أحبك يا حنا".

"أحبك أيضاً يا سالفو".

فأصبحت في حلٍ من واجباتي، وأستطيع المتابعة.

* * *

تقـع مدرسة القدّيس رودريك للفتية والفتيات على حافة بلدة السنديانات السبع. وتشبه المنازل الفاخرة والسيارات الجديدة التي تقف في مرآئب خالية من النباتات الضارة ومفروشة بالحصى، التي تكتمل مع آلات التصوير الأمنية والأسوار العالية التي تعلوها ساعة تنذر بالشؤم. وتبرّع الأهالي الممتنون والتلاميذ السابقون بالنصب التذكاري المصنوع من الزجاج والآجر. ويدل سهم من النيون المشع الزوّار نحو سلالم مكسوة بالآجر. وتبعت سيدات ضخمات الجسم ووصلت إلى مقصورة خشبية، وشغلت مكاناً بجانب قس طاعن في السن شعره أبيض تماماً مثل فيليب. وإلى الأسفل منا، وقف ستون عضواً أقوياء البنية في جمعية كورال السنديانات السبع وشغلوا ثلاثة جوانب من الساحة العسكرية (مجاز). وجثم على المنبر رجل يرتدي معطفاً مخملياً وربطة عنق صغيرة، وخاطب جمهوره حول موضوع الفظائع.

"نحن جميعنا نشعر به. ويسمع به البعض الآخر. لهذا دعونا نفكّر ملياً للحظة. لقد وضع مقرضو المال أنفسهم عالياً بمنزلة الله، وما الذي قد يكون أسوأ من ذلك؟ ولا عجب أننا نتعرض للفظائع. من سيتجنب ذلك؟ لهذا لدينا الكثير من الفظائع. وكونوا حذرين مع عناصر القوة التي نمتلكها، ومغزى الأفعال على وجه الخصوص. وها نحن نبدأ من جديد".

تابع مجدداً. وفي تعبير كامل عن غضبه، نفث السيد أندرسن ما في صدره، وفتح فمه ورآني: لكن بشكل كامل ومباشر بحيث ستعتقد أنني كنت الشخص الوحيد في القاعة، ناهيك عن المقصورة. وعوضاً عن الغناء، أغلق فمه بسرعة. وكان كل من حوله يغنون، والرجل على المنبر يلوّح لهم بذراعيه الصغيرتين

المخمليـــتين، غافلين عن حقيقة أن السيد أندرسن قد خرج من الصفوف ووقف بجانـــبه، متقداً من الإحراج. لكن الجوقة لم تكن غافلة عمّا يجري، وخفت الغناء تدريجـــياً حتى توقف. ولن أعرف أبداً ما دار بين السيد أندرسن وقائد الفرقة لأنني كـــنت قد نـــزلت عندها على السلالم ووقفت أمام الأبواب التي تقود إلى القاعة الرئيـــسية. وانـــضمت إليّ ســـيدة في منتصف العمر ترتدي قفطاناً، وفتاة في سنّ المـــراهقة، والتي إذا انتزعت منها الشعر الأخضر والحلقات عن حواجب العينين، ستـــصبح صـــورة طبق الأصل عن والدها المميز. وبعد ثوانٍ معدودة، ظهر السيد أندرســـن نفسه عند الباب ونظر خلفي كما لو أنني غير موجود، وخاطب زوجته وابنته بنبرة أمر.

"ماري، سأطلب من كلتيكما الذهاب إلى المنـــزل وانتظار عودتي. جينيت، لا تـــرمقيني بتلك النظرة. خذي السيارة من فضلك يا ماري. سأجد وسيلة انتقال أخرى فيما بعد".

كانـــت عيناها بلون الفحم تتوسلان لألمس الضرر الذي سببته لها، وسمحت الفـــتاة جينـــيت لأمهـــا بأن تقودها بعيداً. وعندها فقط، اعترف السيد أندرسن بوجودي.

"سالفو. لقد قاطعت شخصياً تدريبات جوقتي".

كـــان خطـــابي جاهزاً. وكان يتضمن تقديري له، واحترامي لمبادئه العالية، ويستحضر المرات الكثيرة التي أخبرني فيها أنني يجب أن أنقل أسباب قلقي له عوضاً عن إبقائها محجوزة داخل نفسي. لكن تلك لم تكن اللحظة المناسبة لإلقائها.

"إنـــه حول الانقلاب يا سيدي. مهمتي في عطلة نهاية الأسبوع. وهذا ليس مصلحة وطنية على الإطلاق. إنه حول نهب الكونغو".

كـــان الممر المكسو بالآجر الأخضر مزيناً بالأعمال الفنية للطلبة. وكان أول بابين مغلقين. وكان الثالث مفتوحاً. ويوجد في الطرف الآخر من الصف مقعدان يواجهان بعضهما، مع مادة الجبر التي أكرهها على السبورة خلفهما.

* * *

أصغى السيد أندرسن حتى النهاية.

أوجزت قصتي، وهو ما كان يحبه. وأبقى مرفقيه على المقعد ويديه مشبوكتين تحت ذقنه القوية، ولم يرفع ناظريه عني أبداً، ليس حتى عندما تطرقت إلى موضوع المتاهة الأخلاقية الشائكة التي كانت من اختصاصه: الضمير الذاتي مقابل القضية الأسمى. ووضعت نسختي من "أنا أتهم!" أمامه. ووضع نظاراته المخصصة للقراءة، ومدّ يده إلى داخل سترته لإخراج قلمه الرصاص الفضي اللون.

"وهذا عنوانك أنت، أليس كذلك يا سالفو؟ أنت تتهمني".

"ليس أنت يا سيد أندرسن. هم. اللورد برنكلي، وفيليب، وتابيزي والنقابة. الأشخاص الذين يستخدمون موانغازا لتحقيق ثراء شخصي لهم، وسيشعلون حرباً في كيفو لإنجاز ذلك".

"وكل شيء هنا، أليس كذلك؟ مكتوب. من قبلك".

"لمطالعتك فقط يا سيدي. ليس هناك نسخة أخرى".

بدأ رأس قلم الرصاص الفضي انتقاله الممل على الورق.

أضفت، بعدما التمست الحاجة لإزاحة هذا الجزء عن صدري مباشرة: "لقد عذّبوا الحاج. واستخدموا منخس ماشية صنعه سبايدر".

دون أن يقطع قراءته، شعر السيد أندرسن بضرورة تصحيح ما أقول. "التعذيب كلمة انفعالية جداً يا سالفو. أقترح أن تستخدمها بحذر. أعني الكلمة".

بعد ذلك، ألزمت نفسي الصمت فيما كان يقرأ ويقطّب جبينه، أو يقرأ ويكتب لنفسه ملاحظة على الهامش، أو يستهجن عدم الدقة في كتابتي النثرية. وحالما قلّب عدّة صفحات، وقارن ما كان يقرأه بما كان يجري من قبل، هزّ رأسه. وعندما وصل إلى الصفحة الأخيرة، عاد إلى الأولى مبتدئاً بالعنوان. ثم، لعق إبهامه، وتفحّص النهاية مرة أخرى، كما لو أنه يتأكد من أنه لم يفوّت أي شيء، أو كان غير منصف بطريقة ما، قبل أن يضع علامة المصحح.

"وهل تسمح بأن أسأل ماذا تقترح أن نفعل بهذه الوثيقة يا سالفو؟"

"قمت بإعدادها. إنها لك يا سيد أندرسن".

"وماذا تقترح أن *أفعل* بها؟"

"تأخذها مباشرة إلى الأعلى يا سيدي. وزارة الخارجية، أو رقم 10 إذا كان ذلك ضرورياً. الجميع يعرفون أنك رجل مبادئ. الحدود العرقية اختصاصك، كما أخبرتني مرة". وعندما لم يقل شيئاً: "كل ما عليهم فعله هو *التوقف*. نحن لا نطالب بأن تتدحرج الرؤوس. ولا نشير بأصابع الاتهام إلى أحد. *ليتوقفوا* فقط!"

وكرّر: "*نحن*؟ من *نحن* فجأة؟"

أجـــبت: "أنت وأنا يا سيدي"، رغم أن *نحن* كان لها معنى مختلف في ذهني. "وجمـــيع أولـــئك الـــذين لم يدركوا من قبل أن هذا المشروع فاسد من القمة إلى القاعـــدة. ســـنقوم بإنقـــاذ حياة الناس يا سيد أندرسن. المئات، وربما الآلاف. والأطفال أيضاً". كنت أفكّر بنوح عندها.

فـــتح السيد أندرسن راحتي يديه فوق "أنا أتهم!" كما لو أنه يفكّر بأنني قد أنتزعها منه، والذي كان آخر شيء في ذهني. وأخذ نفساً عميقاً، والذي كان يبدو لي مثل تنهيدة.

"لقـــد اجتهدت كثيراً يا سالفو. أنت صاحب ضمير حي إذا جاز لي القول، ولم أكن أتوقع أقل من ذلك منك".

"أشعر بأنني أدين بذلك لك يا سيد أندرسن".

"لديك ذاكرة رائعة، وهو ما يدركه كل من يعرف عملك".

"شكراً لك يا سيد أندرسن".

"هناك مقاطع حرفية هنا. هل هي من الذاكرة أيضاً؟"

"حسناً، ليس تماماً".

"هـــل تمانـــع في تلـــك الحالة بإطلاعي على المصادر الأخرى التي استقيت معلوماتك منها لتوجيه هذا الاتهام؟"

"المواد الأولية يا سيد أندرسن".

"وما هي تلك المواد الأولية؟"

"الأشرطة. ليس كلها. الرئيسية منها فقط".

"حول ماذا بالضبط؟"

"الخطة. حصة الشعب. تعرّض الحاج للتعذيب. اتهام الحاج لكينشاسا. وقيامه بعقد صفقته القذرة. وكشف فيليب للحقائق عبر الوصل الفضائي مع لندن".

"إذاً، ما عدد الأشرطة التي نتحدّث عنها هنا يا سالفو؟ بالإجمال من فضلك؟"

"حسناً، ليست كلها مليئة. كان سبايدر يلتزم بقواعد غرفة المحادثة. إنه تسجيل واحد، وشريط واحد بشكل أساسي".

"قل عددها من فضلك يا سالفو".

"سبعة".

"هل نتحدّث أيضاً عن دليل وثائقي؟"

"دفاتر ملاحظاتي فقط".

"وكم عدد دفاتر ملاحظاتك المتوافرة؟"

أضفت، لأشترك بنفس روح الدعابة: "أربعة. ثلاثة منها مليئة. وأحدها نصف مليء. بخطي البابلي".

"إذاً، أين هي جميعها يا سالفو، أخبرني. في هذه اللحظة بالذات؟ الآن؟"

تظاهرت بأنني لا أفهمه. "المرتزقة؟ جيش ماكسي الخاص؟ ما يزال في طور الاستعداد على ما أعتقد. يجهّزون أسلحتهم، أو مهما كان ما يقومون به. والهجوم لن يقع قبل عشرة أيام أخرى، لهذا لديهم قليل من الوقت ليمضونه".

لكنه لم يكن من النوع الذي يمكن صرف انتباهه حسبما اعتقدت.

"أعتقد أنك تعرف ما أتكلم عنه يا سالفو. تلك الأشرطة ودفاتر الملاحظات وأي شيء آخر حصلت عليه بشكل غير قانوني. ما الذي فعلته بها؟"

"خبأتها".

"أين؟"

"في مكان آمن".

"هذا جواب سخيف فعلاً يا سالفو، شكراً لك. أين هو المكان الآمن الذي خبأتها فيه؟"

أُطـــبقت شفتاي، ولهذا تركتهما مطبقتين، و لم تضغطا بإحكام على بعضهما رفـــضاً للكـــلام، ولكنهما لم تعملا أيضاً، ناهيك عن التيار الكهربائي الذي كان يسري ويجعلني أشعر بوخز خفيف فيهما.

سالفو.

"نعم يا سيد أندرسن".

"تمّ اختـــيارك لـــتلك المهمة بناءً على توصيتي الشخصية. وهناك الكثير من الأســـباب الـــتي تبعدك عن مثل هذه المهمات، مثل حساسيتك العالية وخلفيتك الغريبة. ليس فيما نقوم به. لكني أرسلتك".

"أعرف ذلك يا سيد أندرسن. وأقدّر ذلك. ولهذا السبب جئت إليك".

"إذاً، أيـــن هـــي؟" وانتظر لحظة، ثم تابع كما لو أنه لم يطرح السؤال. "لقد عملت على حمايتك يا سالفو".

"أعرف يا سيد أندرسن".

"كـــنت الترس والحارس منذ اليوم الذي جئت به إليّ. وكان هناك أشخاص داخـــل غرفة المحادثة وخارجها لم يوافقوا على عملك بدوام جزئي فيها، رغم أن مهاراتك ليست موضع تساؤل".

"أعرف".

"كـــان هناك أولئك الذي يعتقدون أنك حساس للغاية. الأشخاص في قسم الاستشارات الطبية كبداية. وقالوا إنك طيب القلب أكثر مما يلزم. ولست متلاعباً بمـــا فيه الكفاية. وأنك، وفقاً للقول القديم، قد تتحول إلى ثائر. وكان هناك أيضاً تساؤل حول أولوياتك الشخصية التي لن أناقشها".

"هذا كله صحيح الآن".

"وواجهـــت كـــل الانتقادات، وكنت بطلك. و لم أتردد مطلقاً. وقلت لهم: الشاب سالفو هو الأفضل. وليس هناك لغوي أفضل منه في مجاله، على افتراض أنه سيبتعد عمّا لا يعنيه، وهو ما سيفعله لأنني سأكون موجوداً للتأكد من ذلك".

"أدركت ذلك يا سيد أندرسن. وأنا ممتن".

"كـــنت تـــريد أن تـــصبح أباً ليوم واحد، أليس كذلك؟ لقد أخبرتني ذلك بنفسك.

"نعم".

"ليس كل ما يتعلق بالأطفال يمنح السعادة، بكل الأحوال. لكنك تحبهم مهما خذلـــوك. وتلتزم بهم، وهو ما أحاول فعله معك. هل تذكّرت أين وضعت تلك الأشرطة؟"

خشيت أنني إذا قلت أي شيء على الإطلاق فقد ينتهي بي الأمر بقول ما لا أريد، ولهذا ضغطت بقوة على شفتي السفلي بسبابتي وإبهامي.

وقلت أخيراً: "سيد أندرسن، ينبغي أن تطلب منهم أن يتوقفوا".

في تلك الأثناء، كان يحمل قلمه الرصاص الفضي اللون بكلتا يديه، وبعد أن تأملـــه بـــصمت لبعض الوقت، أعاده إلى الجيب الداخلي حيث ينتمي. لكن يده بقيت عالقة داخل سترته، بأسلوب نابليون الذي يعتمده ماكسي أيضاً.

"ذلـــك نهائـــي، أليس كذلك؟ إنها كلمتك الأخيرة لي حول هذه المسألة. لا شـــكراً لـــك، ولا اعتذار، ولا أشرطة أو دفاتر ملاحظات. مجرد *أطلب منهم أن يتوقفوا*".

"ســـأعطيك الأشرطة ودفاتر الملاحظات. لكن فقط بعد أن تطلب منهم أن يتوقفوا".

"وإذا لم يكـــن ذلـــك مـــا سأطلبه منهم؟ وإذا لم يكن لديَّ سواء الرغبة أو السلطة لإيقافهم؟"

"سأعطيها لشخص آخر".

"آه؟ ومن سيكون ذلك الشخص؟"

كان اسم الحاج على طرف لساني، لكن الحصافة منعتني.

أجـــبت: "عضو البرلمان المسؤول عن منطقتي أو إلى شخص آخر"، مما جعله يدخل في حالة من الصمت، ولا شيء أكثر.

تابـــع القـــول: "إذاً، برأيك الصريح ما الذي سنجنيه بالضبط يا سالفو من إيقافهم، كما تدعو الأمر؟"

"السلام يا سيد أندرسن. سلام الله".

أصـــابت إشارتي المفعمة بالأمل إلى الله وتراً حساساً لديه بالتأكيد، لأن نظرة من التقوى غمرت معالم وجهه البسيط.

"ألم يخطـــر لك أبداً أنها ربما مشيئة الله أن تكون مصادر العالم الطبيعية، التي تتـــضاءل فيما نتحدّث، بأيدي المسيحيين المتحضّرين الذين يتّبعون طريقة مثقفة في الحياة عوضاً عن بعض أكثر الوثنيين تخلفاً على وجه الأرض؟"

"لست واثقاً فحسب من هم الوثنيون حقاً يا سيد أندرسن".

ردّ بـــسرعة: "حسناً، أنا واثق"، ونهض واقفاً. وحالما فعل ذلك، ظهرت يده وكانـــت تحمــــل هاتفاً خليوياً. ولا بد أنه أغلقه أثناء تدريبات الجوقة، لأن إبهامه الـــضخم كان ملتوياً على قمته فيما كان ينتظر ظهور إشارة الطاقة. وكان جسده الـــضخم يتحرك إلى يساري، وافترضت أنه يريد الوقوف بيني وبين الباب. ولهذا تحركت إلى اليسار أيضاً، وفي الطريق مددت يدي لأحصل على نسخة "أنا أهم!"

"أنا على وشك إجراء مكالمة هاتفية مهمة جداً يا سالفو".

"أعرف ذلك يا سيد أندرسن. ولا أريدك أن تفعل ذلك".

"حالما تتم، لن نتمكن سواءً أنا أو أنت من السيطرة على انعكاساتها. وأرغب منك رجاء أن تمنحني سبباً واحداً، حالاً، لعدم إجراء تلك المكالمة".

"هناك ملايين الأسباب يا سيد أندرسن. تتعلق كلها بكيفو. والانقلاب عمل إجرامي".

"بلـــد فاسد يا سالفو، بلد غير قادر على *ترسيخ طريقة منضبطة في الحياة*، بلد يتـــرك نفسه معرّضاً للإبادة الجماعية وأكلة لحوم البشر، والأسوأ من ذلك أنه ليس – خطوة أخرى – برأيي المتواضع، مؤهلاً للاحترام بموجب القانون الدولي – وقطع عليَّ طـــريق الهروب تماماً آنذاك – بمقدار عدم احترام العنصر المحترف في مجتمعنا؛ مثلك يا سالفو، والمؤهل لتغليب سذاجته على حساب مصالح البلاد التي تبنته. ابقَ حيث أنت مـــن فضلك، فلا حاجة للاقتراب أكثر. ويمكنك سماع ما ينبغي عليَّ قوله لك حيث أنـــت. وسوف أسألك مرة أخرى، وينتهي الأمر. *أين هي المواد التي حصلت عليها بـــشكل غير قانوني؟* ويمكن الاهتمام بالتفاصيل بطريقة هادئة. وبعد عشرين ثانية من

الآن، سأقوم بإجراء مكالمتي الهاتفية، وفي نفس الوقت أو ربما قبل، سأقوم بعملية إلقاء قبض من قبل مواطن. وسأضع يدي على كتفك كما يتطلب القانون وأقول: "برونو سلفادور، أقوم باعتقالك باسم القانون. ويا سالفو، أذكّرك بأنني متوعك الصحة، ويبلغ عمري ثماني وخمسين سنة ومصاب بالسكّري".

أخذت الهاتف من يده دون مقاومة. وكنا نقف وجهاً لوجه، وأنا أطول منه بستة إنشات، مما يجعله فزعاً أكثر مني. وعبر الباب المغلق، كانت جمعية كورال السنديانات السبع تبذل كل جهدها في التمارين دون الاستعانة بصوت مغنيها الرئيسي.

"سالفو. سأقدّم لك عرضاً عادلاً. إذا كنت ستعدني بشرفك، حالاً، بأن نذهب معاً غداً صباحاً - أول شيء - إلى المكان الذي خبّأت فيه هذه المواد، ونستردها. تستطيع البقاء في بلدة السنديانات السبع هذه الليلة ضيفاً عندي، وتناول عشاء لطيف مع عائلتي، والذي سيكون طهواً منزلياً بسيطاً لا أكثر، وهناك غرفة نوم ابنتي البكر التي لا تعيش معنا حالياً. وفي مقابل المواد المستعادة، سأجعل من واجبي التحدّث مع بعض الأشخاص وأؤكّد لهم؛ انتبه يا سالفو، لا شيء من هذا الآن...".

ارتفعت اليد التي كان ينبغي لها اعتقالي لتمنعني من المغادرة. ووضعت يدي على قبضة الباب، ببطء حتى لا ألفت انتباهه. ونزعت المدّخرة من هاتفه الخليوي وأعدت الجهاز إلى جيبي. ثم أغلقت الباب عليه، لأنني لم أكن أعتقد أنه من الصائب أن يرى الناس آخر مستشار لي بهذه الحالة التي يُرثى لها.

* * *

لم أكن قلقاً حيال خطواتي وأفعالي في الساعات القليلة التالية، ولا حتى في الوقت الراهن. وأعرف أنني مشيت، ثم مشيت أسرع، وتجاوزت حافلة المدرسة، وتوقفت أمام موقف حافلات، وعندما لم تأتِ أي حافلة بسرعة كافية بالنسبة لي، عبرت الشارع وصعدت حافلة تسير بالاتّجاه المعاكس، والتي لم يظهر عليها ما يدعو للشك إطلاقاً؛ وعدت من حيث أتيت وسرت بشكل متعرج عبر الريف

بمقدار ما هو ضروري لإزالة صورة السيد أندرسن من ذاكرتي، وصعدت على متن قطـــار متأخـــر من بروملي إلى فكتوريا، ومن ثم بسيارة أجرة إلى القوس الرخامي وبعده إلى نـــزل السيد حكيم، احتراماً لكرم ماكسي. ومن محطة قطارات جنوب بروملـــي، وخـــلال فترة انتظاري التي طالت عشرين دقيقة قبل أن يصل قطاري، اتصلت بغريس من كشك هاتف.

"هل تريد سماع شيء جنوني تماماً يا سالفو؟"

يتطلب التهذيب أن أسمع.

"لقد وقعت عن ظهر حمار، هذا هو الأمر! على مؤخرتي تماماً، وكل الأطفال يـــراقبون ويصرخون!" وبقيت أميليا مكانها، ووقعت أنا. ذلك الحمار يا سالفو، أخـــذ أميليا على طول الشاطئ إلى كشك المثلجات، واشترت له بعض المثلجات ورقائـــق الشوكولاته من أموالها الخاصة، أكل الحمار كل المثلجات والشوكولاته، وعـــاد بأميليا من حيث أتى! إنني لا أكذب عليك يا سالفو! ولن تتسنّى لك أبداً رؤيـــتها، لكـــن لديَّ رضوض في مؤخرتي لن تصدقها، في كلا القسمين، وأطلق لاتزي ضحكته المدوّية!"

تذكّـــرت بسرعة أن لاتزي صديقها البولندي الذي يمتهن الموسيقى. لاتزي الذي سيضمن لحنا سعراً جيداً.

"هل تعرف شيئاً آخر يا سالفو؟"

وعند أي نقطة شعرت بأنها تسايرني؟

"كان هناك عرض كراكوز وعيواظ، حسناً؟"

حسناً، وافقت.

"والأطفال يحبونه كثيراً. و لم أشاهد هذا العدد الكبير من الأطفال المسرورين والخائفين في حياتي كلها".

قلت: "رائع. الأطفال يحبون أن يتمّ ترويعهم".

"وذلك المقهى على الطريق يا سالفو – المكان الذي توقفنا عنده بعدما رفض المكـــان الآخر استقبالنا لأننا دمى سوداء؟ – لقد كانوا مسرورين بالفعل. لهذا لم نهتم بأي شيء آخر".

"أين هي يا غريس؟"

"حـــنا؟" - كمـــا لو أنها تذكّرتها للتو - "آه، حنا، لقد اصطحبت الأطفال الأكــبر سناً إلى دار السينما في آخر الطريق يا سالفو. وكانت تقول إنه إذا اتصل ســالفو، ستعاود الاتصال به قريباً. ربما غداً صباحاً، بسبب التوقيت. أنا وحنا من عائلتين مختلفتين كما تعرف. وينبغي أن أنهي المكالمة من أجل لاتزي".

فهمت.

"لأنه إذا لم يستطع لاتزي الاتصال بي، يصبح عنيفاً. وفيما يخصّ عائلة حنا، حــسناً، لديهم هاتف في المنـــزل لكنّ الأمر معقّد، لهذا من الأفضل عدم الاتصال بها هناك. إنها هناك مع العائلة والتلفاز. ولهذا ستتصل بك حالما تستطيع. هل يجول شيء خاص بذهنك يا سالفو؟"

"أخبريها أنني أحبها".

"هـــل قلـــت هذه المعلومة لحنا سلفاً يا سالفو، أم أنها أنباء عاجلة تلك التي أسمعها؟"

فكّرت بعد أن أغلقت الهاتف أنه كان ينبغي أن أسأل عن الفيلم الذي كانت تشاهده حنا مع الأطفال الأكبر سناً.

* * *

لم أدرك كـــيف تحـــولت غرفة نومنا الخلفية الصغيرة بسرعة إلى منـــزل لنا، وحلّـــت في غـــضون أيام مكان كل سنواتي في شقق نورفولك. ودخلتها وشممت رائحة جسد حنا وليس عطرها كما لو أنها كانت ما تزال هناك. وحييت بامتنان خـــاص سريرنا مع نفحة مريرة من الفرح. ولم يغب عن ناظريّ أي تفصيل تركته خلفهـــا: مـــشطها الأفريقي، والأساور المشغولة على شكل أذن الفيل والتي تخلت عـــنها في اللحظـــات الأخيرة قبل مغادرتها المتأخرة، والفناجين نصف الفارغة التي تناولـــنا بهـــا الشاي، وصورة نوح على الرفّ بجانب الطاولة، والتي وضعتها هناك لتذكّـــرني بها خلال غيابها، وهاتفها الخليوي بألوان قوس قزح، والذي استودعتني إياه لأتلقّى رسائل حبها، ولتخبرني بالوقت المقدّر لعودتها. لماذا لم أحمله معي؟ لأنني

لم أشأ أن يكون معي شيء يربطها بالمسألة في حالة اعتقالي. متى أتوقع ردّه لها؟ تمّ إخبار الأهل بأن يكونوا في الكنيسة عند الساعة الواحدة وقت الغداء، لكنها حذّرتني من أن الأمر لا يتطلب سوى وجود طفل شقي واحد مثل أميليا، أو الخوف من التفجيرات، أو إغلاق الطريق، وربما لا تعود حتى المساء.

استمعت إلى أخبار الساعة العاشرة، وبحثت في قائمة المطلوبين على الإنترنت، متوقعاً رؤية صورتي تحدّق بي فوق وصف معدّل سياسياً حول أصلي العرقي. وكنت أخرج من الشبكة العنكبوتية عندما رنّ هاتف حنا الخليوي بزقزقة العصافير. وقالت لي إن غريس أوصلت لها رسالتي. وكانت في كشك هاتف دون الكثير من العملة النقدية. وعاودت الاتصال بها فوراً.

سألتها، مكافحاً لتبني نبرة مداعبة: "من الذي كنتِ تهربين منه؟"

وأصابتها الدهشة: لماذا أفكّر أنها ستهرب؟

قلت: "هكذا تبدين". وحبست أنفاسي.

كنت أكره تلك المكالمة سلفاً. وتمنيت لو نستطيع إيقافها فوراً، والبدء مجدداً عندما تكون أفكاري أكثر وضوحاً في ذهني. كيف سوف أستطيع إخبارها أن السيد أندرسن قد خذلني مثل اللورد برنكلي تماماً، لكن مع نفاق أكبر؟ وأنه كان برنكلي آخر كما توقعت تماماً؟

سألتها: "كيف حال الأطفال؟"

"بخير".

"تقول غريس إنهم يقضون وقتاً ممتعاً فعلاً".

"هذا صحيح. إنهم سعداء جداً".

"هل أنتِ سعيدة؟"

"أنا سعيدة لأنك في حياتي يا سالفو".

لماذا هذه الكآبة؟ وهذا الوقار؟

"أنا سعيد جداً أيضاً. لأنك في حياتي. أنت كل شيء بالنسبة لي. حنا، ما الذي يجري؟ هل هناك أحد في الكشك معك؟ تبدين... على غير ما يرام".

"آه يا سالفو!"

فجـــأة، كما لو أنها تلقت الإشارة، أخذت تكلمني بمحبة جارفة، وأقسمت بأنها لم تعرف من قبل أن مثل هذه السعادة موجودة، وأنها لن تفعل أبداً أي شيء في حياتها يؤذيني، مهما كان صغيراً أو وضيعاً، طالما بقيت حيّة.

صـــرخت، محاولاً التغلب على حيرتي: "لكن بالطبع لن تفعلي. لا يمكن أن تـــؤذيني أبـــداً، ولا أستطيع أن أؤذيكِ. سنحمي بعضنا البعض دائماً، في السرّاء والضرّاء. هذا هو الاتفاق".

ومجدداً: "آه يا سالفو!"

أنهت المكالمة. ووقفت لفترة طويلة أحدّق بالهاتف الخليوي بألوان قوس قزح. نحن الكونغوليون نحب الألوان. ولماذا منحنا الله الذهب والماس والفاكهة والأزهار إذا لم يكـــن لإرضـــاء حبنا للألوان؟ وتجوّلت في الغرفة؛ وكنت مثل الحاج بعدما تعـــرّض للـــتعذيب، وحدّقت بنفسي بالمرآة، متسائلاً ما الذي تبقّى مني يستحق الإنقاذ. وجلست على طرف سريرنا ووضعت رأسي بين يديّ. وكان الأخ مايكل يقـــول إن الرجل الصالح يعرف متى يضحّي بنفسه. وأن الرجل الطالح ينجو بنفسه ولكـــنه يفقـــد روحه. وكان بالكاد ما يزال هناك متسع من الوقت. وكان هناك محاولة أخيرة. وينبغي أن أستغلها الآن، فيما لا تزال حنا بأمان في بونغور.

18

كانـت الـساعة العاشرة من صباح اليوم التالي. وكنت هادئاً لمعرفتي بأني توصـلت إلى قـرار نهائي، ومشيت بخطوات واسعة مسافة الميل بحيوية قريبة من الـتهور، وقبعتي المزينة بكرات الصوف على رأسي، وحقيبتي المحمولة على الكتف تـرتطم بوركـي. دخلت كشك هاتف أحمر زاهياً إلى جانب طريق منعزل تملؤه الـسيارات. وطلـبت الرقم المألوف جداً بالنسبة لِّي، وتحدثت إلى ميغان صديق الجميع.

"مرحباً يا عزيزي سالفو، كيف حالك اليوم؟"

إذا كـنت مصاباً بالأنفلونـزا سيخبرك ميغان أنها منتشرة في كل مكان يا عزيزي. وإذا كنت في إجازة، يأمل ميغان أن تكون قد قضيت وقتاً ممتعاً.

"يقولـون إن حفلـتها كانـت *رائعة*. من أين اشترت ذلك الفستان؟ أنت تفـسدها، وهذه هي مشكلتك. أخشى أننا مشغولون بالحديث هذه اللحظة. ما الـذي أسـتطيع فعله لك؟ هل يمكنك الانتظار يا عزيزي؟ البريد الصوتي؟ ما هي أولويتنا اليوم؟"

"لا أريد التحدّث مع بينلوب في الواقع يا ميغان. أريد فيرغس".

"هكذا إذاً! حسناً. هناك تغييرات في العالم!"

بينما كنت أنتظر أن يتمّ تحويل مكالمتي، تخيلت الحديث الذي كان يدور بين ثـورن البوق ومساعدته المخلصة السيئة السمعة حول أفضل تكتيك يمكن اعتماده لتلقّـي مكالمة واردة من زوج آخر سريع الغضب. هل فيرغس معزول عن المالك؟ أم يستطيع الاتصال به عبر خط خارجي؟ أم سيكون نفس الشخص الصريح الذي لا يخاف، ويقرر القتال؟

"سالفو، أيها الصديق القديم! يا إلهي، أين *أنت*؟ هل قرأت مقالاتي مؤخراً؟"

"لديَّ قصة لك يا فيرغس".

"صحيح، بحق السماء؟ حسناً، لست واثقاً من أنني أريد سماع القصة يا سالفو. لـيس إذا كانـت ستسبب الأذى لسيدة شابة معينة. الأشخاص الناضجون يأخذون القرارات التي تخصهم في الحياة. وينبغي على بعضنا مواجهة ذلك والمضي قدماً".

"إنها ليست حول بينلوب".

"أنا سعيد لسماعي ذلك".

"إنها قصة أخبارية. مثيرة".

"سالفو؟"

"نعم؟"

"هل تحاول بأي طريقة كانت إضاعة وقتي؟"

"إنها تخصّ جاك برنكلي. إنها فرصتك للنيل منه. منه وكريسبن ميلوز و..." سـردت بسرعة أسماء المشاهير والأغنياء الذين رأيتهم مجتمعين في ميدان بيركلي، لكـن كما توقعت لم يسمع سوى جاك برنكلي فقط الذي كلّف الصحيفة ثروة، وكاد يتسبب بالقضاء على ثورن مهنياً أيضاً.

"النيل من الوغد كيف بالضبط؟ إنني لا أصدّقك بالطبع. هذا شيء منتهٍ".

"لن أخبرك عبر الهاتف".

"سالفو".

"ماذا؟"

"هل تسعى وراء المال؟"

"لا. تستطيع النيل منه مجاناً".

لقد أسأت الحكم على رجلي. لو أنني قلت مئة ألف جنيه أو لا توجد صفقة، لكان شعر بارتياح أكبر.

"هـل هذا نوع من عمليات التحايل الغبية التي تعتقد أنك تستطيع القيام بها، ربما؟ وتسحبنا مجدداً إلى محاكم التشهير للحصول على مليون آخر؟ لأنه، صدّقني يا سالفو، إذا كان الأمر كذلك...".

"لقـــد أخذتنا إلى أحد النوادي مرة. في ستراند. قبو. لا بد أن ذلك كان في الوقت الذي كنت وبينلوب...".

"ماذا عنه؟"

"ما هو العنوان؟"

زوّدني به.

أكّدت له، مستخدماً اللغة التي يفهمها: "إذا قابلتني هناك بعد ساعة، تستطيع الإمساك بخناق برنكلي".

* * *

لم يكن نادي الحصن، رغم أنه على مسافة رمية حجر من فندق سافوي، مكانـــاً صـــحياً في أفضل أوقاته، ولكن روّاده قلائل في الصباح الباكر. وعند مدخلـــه الذي يشبه البرج، كان هناك رجل آسيوي مكتئب يعمل على مكنسة كهـــربائية كما لو أنه في حرب البوير. وذكّرني الدرج الحجري بالنـــزول إلى غرفة المرجل. وكان فيرغس ثورن يجلس وسط الدعامات والوسائد المزخرفة في نفس الخميلة التي خلعت بها بينلوب - قبل ستة شهور، على عشاء لطيف ضمّنا نحن الثلاثة - حذاءها وأصلحت كعبه القصير بأناملها الطويلة فيما كان يخبرني كم هي مصدر قوة للصحيفة. والذي بعث الراحة في نفسي أنه كان وحيداً هذا الـــصباح، مـــع شراب الطماطم عند مرفقه، ويقرأ الطبعة الأولى من صحيفته. جلـــس اثـــنان من مراسليه الماهرين على بعد طاولتين منه: جيليكو الفظيع - الملقّب بجيلي - والذي قرصني في مؤخرتي في حفلة بينلوب، وامرأة هرمة حادة الطـــباع تدعى صوفي التي تجرأت على وضع نفسها كمنافسة لبينلوب، ودفعت الثمن. دون دعوة، جلست إلى جانب ثورن ووضعت حقيبتي بين قدميّ. وأدار وجهـــه المـــرقّط نحوي، وعبس، وعاد إلى صحيفته. وسحبت النسخة من "أنا أتهـــم!" من سترتي ووضعتها على الطاولة. وألقى نظرة جانبية عليها، وأمسك بها، واختفى مجدداً خلف الصحيفة. وحالما بدأ بقراءتها، راقبت الحصافة تذوب ببطء عن وجهه، ليحل مكانها الجشع الواضح.

"هذا محض *هراء* مطلق يا سالفو - قلب صفحة بحرص - تعرف هذا، أليس كذلك؟ تلفيق شديد الوضوح. من كتبه؟"

"أنا".

"وكل هؤلاء الناس أين كانوا؟"

"ميدان برنكلي".

"هل رأيتهم؟"

"نعم".

"شخصياً. بعينيك؟ كن حذراً الآن".

"نعم".

"هل كنت تشرب؟"

"لا".

"ممنوعات".

"لا أقربها".

"جيلـــي. صـــوفي. تعـــالا إلى هنا من فضلكما. أتحدث إلى رجل يعتقد أنه يستطيع النيل من جاك الكبير، ولا أصدّق كلمة مما يقوله لي".

جلـــسنا مـــتلازمين، أربعتـــنا. وتوقفت التحفّظات التي كنت أضمرها تجاه صحافتنا البريطانية الرائعة - مهما تكن - مؤقتاً عندما حشد ثورن قواته.

"جاســـبر *ألـــبين*؟ ألبين *ذاك*؟ إنه نفس الوغد الوضيع الذي كذب أمام قضاة الاستئناف في قضيتنا! وامتلك جاك الكبير الجرأة لإدخاله في *هذا*؟ ذلك هو الغرور بأبشع أشكاله! جيلي، أريد منك إيقاف كل شيء، والسفر إلى بيزانكون والضغط على ألبين بكل الوسائل الممكنة. إذا كان يريد المال، قم بشرائه".

كتب جيلي بعجلة وبشكل فضولي على دفتر ملاحظاته.

"صـــوفي. استخدمي اتصالاتك مع الأجهزة الأمنية. من هو *ماكسي*؟ *العقيد* ماكسي؟ ماكسي ماذا؟ وإذا كان من المرتزقة، فلا بد أنه خدم في القوات الخاصة ســـابقاً. مـــنذ متى؟ من هي المرأة في حياته؟ ما هي المدارس التي ارتادها؟ ما هي

الحروب القذرة التي خاضها؟ واعثري لي على ذلك المنـــزل في ميدان بيركلي. لمن يعـــود، ومن يدفع فاتورة التدفئة والكهرباء، ومن استأجره في تلك الأمسية، وممن، ومقابل ماذا؟"

كتبت صوفي كل ذلك، ولسانها يبرز من فمها. وكان دفتر ملاحظاتها مطابقاً لدفاتر أخرى تقبع عند قدميّ.

"واعثري لي على تلك الجزيرة" - وتكلم مع كليهما - "ومن طار باستخدام مروحية من باترسي إلى لوتون الجمعة الماضية؟ وتفقّدا حركة الطيران غير التجاري المغادرة من لوتون، وتفقّدا أي جزيرة معروضة للتأجير في بحر الشمال. وابحثا عن واحـــدة علـــيها برج. وجدا الممول: من أمر بالعملية، ودفع لها، وسهّل حدوثها. وأحضرا لي الفاتورة. **سلمون مدخّن لغزاة الكونغو**؛ أحب ذلك".

تمتمت صوفي: "وأنا أيضاً".

وقال جيلي: "شِعر".

"واستوضحا عن اللاعبين الكبار. وإذا اشتم جاكي رائحتنا، سيوجّه لنا إنذاراً قـــضائياً قبل أن نستطيع فعل شيء. ذلك الشخص المنافق الصفيق الوجه (الوقح)! يعـــظ في لحظـــة بإعفـــاء الدول الفقيرة من الديون، وفي اللحظة التالية يسرق من الكونغولـــيين البائـــسين كل قرش يستطيع انتزاعه منهم. هذا انتهاك. وهو شيء جميل".

رغم أن حماسة ثورن كانت مثل الموسيقى بالنسبة لأذنيّ، إلا أنني شعرت بأنه ينبغي عليَّ تذكيره بالهدف الأسمى للقصة.

"لا نسعى للنيل من جاك فقط يا فيرغس".

"لا تقلـــق يا رجل. سنجعل كل رجاله يسقطون معه. وإذا ألقوا اللوم عليه، سيكون ذلك أفضل".

"عنيت أن هناك حرباً ينبغي إيقافها. يجب أن لا يقع الانقلاب".

تفحّـــصتني عيـــنا ثورن المحتقنتان، واللتان لطالما كانتا صغيرتين جداً بالنسبة لـــوجهه، بإنكـــار مليء بالازدراء. "هل تعني إيقاف الانقلاب وعدم نشر القصة؟ **الإنسان لا يستطيع عضّ الكلب**. هل هذا ما تعنيه؟"

"أعـــني أن كل الاستفسارات التي تقترح القيام بها - إيجاد المروحية، والممول والجزيرة - ستأخذ وقتاً طويلاً جداً. ولم يعد لدينا سوى تسعة أيام". وصرت أكثر جـــسارةً. "إما أن تأخذ القصة كما هي أو لا شيء على الإطلاق يا فيرغس. هذه هـــي الصفقة. وبعد الانقلاب سيكون الوقت قد فات. وربما تكون شرق الكونغو في فوضى شاملة".

"مستحيل". ورمى "أنا أفهم!" عبر الطاولة نحوي. "نريد دليلاً قاطعاً. يشرعن كـــل خطوة في الطريق. وما تقدّمه لي هنا مجرد ملخص لعين. وأريد جاك برنكلي والأصفاد حول كاحليه ومعصميه. وأي شيء أقل من ذلك، سيجعلني أجثو على ركبتيّ أمام سيادة اللوردات، أقدّم اعتذارات عديدة لوقاحتي".

كانت اللحظة التي أنتظرها، والتي أخشاها أيضاً، قد أزفّت.

"وإذا كان معي ذلك الدليل؟ البرهان القاطع؟ حالاً؟"

انحـــنى للأمـــام، ووضع قبضتيه على الطاولة. وانحنيت للأمام. وكذلك فعل جيلي وصوفي. وتحدّثت بنبرة متأنية.

"إذا كـــان لديَّ صوت برنكلي - عالياً وواضحاً على شريط رقمي - يجيز رشـــوة بثلاثة ملايين دولار لأحد المندوبين الكونغوليين - عبر الهاتف الفضائي - نيابة عن النقابة المجهولة الاسم، هل سيكون ذلك دليلاً كافياً؟"

"من الذي كان يتحدث إليه؟"

"فيلـــيب. المستـــشار المستقل. كان فيليب يحتاج لموافقة عضو النقابة المخوّل بقول نعم لصرف ثلاثة ملايين دولار. والعضو المخوّل هو جاك برنكلي. ويمكنك سماع كل الحوار منذ طلب المندوب المال إلى موافقة برنكلي على الرشوة".

"اللعنة *عليك* يا رجل!"

"إنها الحقيقة".

"أريد مشاهدة الشريط. أريد سماع الشريط. أريد أن يتحقق مجلس من الخبراء من صحة الشريط".

"ســـتفعل. يمكـــنك ذلـــك. يمكننا العودة إلى مكتبك الآن، والاستماع له. وتستطيع استجوابي، وسأخبرك كامل القصة بكلماتي. وتستطيع التقاط صور لي،

ووضع صوري على صدر صفحتك الأولى إلى جانب صورة برنكلي. بشرط واحد". وأغلقت عينيّ وفتحتهما. هل كنت *أنا* من يتكلم فعلاً؟ "هل تعدني وعد شرف أمام هذين الشاهدين بأن تنشر القصة يوم الأحد؟ نعم أم لا؟"

في صمت رافقني لغاية هذا اليوم، سحبت حقيبتي من بين قدميّ، لكني أبقيتها لدواعٍ أمنية في حضني. وكانت دفاتر الملاحظات في الشقّ الكبير، والأشرطة في الشقّ الأصغر. وضممت الحقيبة إلى معدتي، وفتحت سحاب الشقّ الأصغر، ثم انتظرت الحصول على الجواب.

تمتم: "الشروط مقبولة".

"موافق إذاً؟"

"موافق إذاً، اللعنة عليك. سننشر القصة يوم الأحد".

تحوّلت إلى جيلي وصوفي، ونظرت إليهما مباشرة في العينين. "سمعتما ذلك. سينشر القصة يوم الأحد كما وعد. نعم؟"

"نعم".

"نعم".

وضعت يدي داخل الحقيبة وبحثت عمّا أريده. واخترت طريقي بين الأشرطة واحداً تلو الآخر، باحثاً عن الشريط رقم خمسة الذي يحتوي على استجواب الحاج، والشريط رقم ستة الذي يحتوي على صوت اللورد برنكلي يقول نعم للثلاثة ملايين دولار. وفيما كنت أراقب أناملي تروح وتجيء عبر الأشرطة، ودونما شعور خاص، أدركت أولاً أن هناك خمسة أشرطة فقط، وليس سبعة، وهذا يدل على أن الشريطين رقم خمسة وستة مفقودان. وفتحت سحاب الشقّ الكبير، واستشعرت ما بداخله بين دفاتر الملاحظات. وللتأكّد، حاولت في الشقّ الصغير الخلفي، والذي لا يعتبر شقاً بالمعنى الدقيق للكلمة، وإنما مجرد حافظة لتذاكر السفر أو لوح شوكولاته. ولم يكونا هناك أيضاً، ولماذا سيكونان هناك؟ لقد كانا في بونغور.

كان رأسي مشغولاً جداً عندها بإعادة ترتيب الأحداث الماضية والتي لم أكن مهتماً فعلاً بردود أفعال جمهوري عليها - بينما كنت أستعيدها - والذي يتفاوت

من النازع إلى الشك – ثورن – إلى المهتمة التي تسرف في التعبير عن عواطفها – جيلي. واختلقت الأعذار؛ يا لسخافتي، لا بد أنني تركتها في المنـــزل... وسجّلت رقـــم هاتف صوفي الخليوي لأتصل بها عندما أجدها. وتجاهلت عين ثورن المريرة وتلمـــيحاته حول محاولاتي لخداعه. وودّعتهم على أمل اللقاء قريباً، لكني لا أعتقد أن أحـــداً مـــنهم صدّقني، وبالتأكيد لم أصدق ما جرى. ثم لوّحت لسيارة أجرة، ودون أن أزعج نفسي بالطلب من السائق التوجه إلى مقصد مغاير، طلبت منه أن يقلّني إلى نـــزل السيد حكيم.

"هـــل ألقيت اللوم على حنا؟ على العكس تماماً. لقد شعرت بحب جارف تجاهها، حتى قبل أن أصل إلى خلوة غرفتنا، وكنت أستغرب من شجاعتها بوجه المحـــنة؛ أنـــا. ووقفت أمام خزانة الملابس المفتوحة، ولاحظت بفخر – وليس بـــسخط – أن بطاقـــة عمـــل الحاج، مع عنوان بريده الإلكتروني المكتوب في الخلـــف، قد ذهبت مع الأشرطة. وكانت تعرف من صميم قلبها أن برنكلي لم يكن شخصاً طيباً. ولم تكن بحاجة لدورات اليوم الواحد الأمنية لتخبرها أنها مع سالفو تتعامل مع بقايا الولاء المضلل الذي ينغرس مثل فيروس في نظامي ويحتاج للظهـــور بمـــرور الوقت. ولم تكن تريد أن يقضي نوح عيد ميلاده في منطقة حـــرب. وكانت قد مضت في طريقها الخاص بها، مثلما مضيت في طريقي. وكنا قـــد خرجنا كلانا من نفس الطريق، كلٌّ باتجاهه الخاص، هي إلى شعبها، وأنا إلى شعبـــي. ولم تفعل شيئاً يتطلب مني الصفح. وكانت تستند إلى رفّ الموقد نسخة مـــن بـــرنامج أطفال مدرسة الأحد الدينية: 12 ظهراً، غداء أثناء النـــزهة وغناء جماعي في أحد بيوت الشباب... 2:30 بعد الظهر، حفلة نهارية بعنوان **الريح التي تعصف بالصفصاف** في نادي بونغور للرقص والمسرح... 5:30 بعد الظهر، أمسية للعائلات. خمس ساعات. خمس ساعات قبل أن أستطيع ردّ رسالتها المفعمة بالحب الذي لا حدود له.

شـــغّلت الـــتلفاز علـــى أخبار منتصف النهار. إصدار قوانين لمقاضاة مثيري القلاقل... محاكم خاصة للنظر في قضايا الإرهاب سراً. فريق أميركي خاص يلقي القـــبض على... يحتمل أنه يصنع القنابل في باكستان. استمرار مطاردة رجل يبلغ

من العمر ثلاثين سنة من أصل أفرو - كاريبـي، والذي ترغب الشرطة باستجوابه لصلته - انتظروا هذا! - بجريمة محتملة طالت فتاتين تحت السنّ القانوني.

دخلت الحمام، وتمددت فيه. وأمسكت نفسي وأنا أحاول إعادة إنتاج صوت المدرسة الدينية التي ارتادها الحاج. لماذا يغني رجل يتعرض للتعذيب؟ لقد سألتني. ومرضاها لا يغنون، لهذا لماذا غنى الحاج؟ لماذا يشدو رجل ناضج ترنيمة عفّة فتاة صغيرة عندما يتعرض للضرب؟

خرجت من الحمام. وأمسكت بمذياعي الصغير، ووقفت بشكل مائل إلى جانب النافذة، مرتدياً منشفة الحمام. وعبر الستائر الشبكية، تمعّنت في شاحنة خضراء لا تحمل اسماً متوقفة قرب بوابة السيد حكيم الأمامية. *أمطار استثنائية في جنوب الهند. تقارير عن انهيار التربة. يُخشى أن العديدين لقوا حتفهم. والآن إلى الكريكت.*

الساعة الخامسة. مشيت مسافة الميل المعتادة، واستخدمت، خلافاً لنصيحة مدرّبي دورات اليوم الواحد، نفس كشك الهاتف. ووضعت جنيهاً، وأبقيت آخر جاهزاً، لكن أفضل ما سمعته كان آلة ردّ غريس. إذا كنت لاتزي، ينبغي أن أتصل بها بعد العاشرة مساءً عندما ستكون في السرير *لوحدها*! بعض الضحكات. وإذا كنت سالفو، سأكون ضيفاً مرحباً به ويمكنني ترك رسالة حب لحنا. وحاولت الارتقاء إلى مستوى دعوتها:

"عزيزتي حنا، أحبك". ولكني لم أقل، لأسباب أمنية، ما كنت أنويه: أعرف ما فعلتِه، وكنت على حق بشأن ذلك.

باستخدام جانب الطريق، سرت عائداً على غير هدى إلى نزل السيد حكيم. وتجاوزني درّاجون مثل فرسان أشباح. وكانت الشاحنة الخضراء التي لا تحمل اسماً ما تزال واقفة أمام البوابة. وشاهدت لافتة ممنوع الوقوف. واستمعت إلى أخبار الساعة السادسة. وكان العالم ما يزال على حاله منذ أخبار الساعة الثانية.

الطعام كنوعٍ من التغيير. ووجدت في الثلاجة الصغيرة الحجم بيتزا اشتريناها منذ يومين، وسحق بالثوم، وخبز النخالة، ومخلل الخيار، ومربى. وعندما وصلت حنا إلى لندن لأول مرة من أوغندا، سكنت في غرفة مشتركة

مع ممرضة ألمانية، وافترضت بناءً على ذلك أن كل الشعب الإنكليزي يأكل الطعام الألماني ويشرب الشاي بالنعناع. ولهذا توجد علبة فضية من نفس الشاي في ثلاجة السيد حكيم. ومثل كل الممرضات، تضع حنا كل شيء في الثلاجة سواء كان قابلاً للتلف أم لا. وفي بديهياتها، إذا لم تستطع تعقيمه، جمّده. وسخّنت أولاً الزبدة لدهنها على خبز النخالة. ثم وضعت المربى. وأكلت ببطء. وابتلعت الطعام بحذر.

كانت أخبار الساعة السابعة مطابقة لأخبار السادسة. ألم يستطع العالم حقاً أن يفعل شيئاً في غضون خمس ساعات كاملة؟ وتجاهلت الاعتبارات الأمنية، وولجت الإنترنت وفتشت في شؤون اليوم التافهة. *عمليات انتحارية في بغداد تقتل أربعين وتجرح المئات؛* أو العكس؟ *أبدى سفير الولايات المتحدة المعّين حديثاً لدى الأمم المتحدة خمسين اعتراضاً على الإصلاحات المقترحة. الرئيس الفرنسي يدخل المستشفى، أو يخرج منها. ومرضه خاضع* ***لقانون السرية الرسمي*** *الفرنسي؛* لكن يبدو أن هناك خطأ ما في عينه. *تقارير غير مؤكدة من العاصمة الكونغولية كينشاسا تتحدث عن نشوب تلقائي للحرب بين الميليشيات المتنافسة في المنطقة الشرقية من البلاد.*

رنّ هاتف حنا بألوان قوس قزح. ووثبت عبر الغرفة، وأمسكت بهاتفها وعدت إلى حاسوبي.

"سالفو؟"

"حنا. رائع. مرحباً".

مصادر مقرّبة من الحكومة الكونغولية في كينشاسا تلوم عناصر إمبريالية في رواندا. رواندا تنفي تورطها.

وقالت بالفرنسية، لغة حبنا: "هل أنت بخير يا سالفو؟ أحبك كثيراً".

"بخير. رائع. أنتظر قدومك بفارغ الصبر. ماذا عنكِ؟"

"أحبك كثيراً يا سالفو. تقول غريس إنها لم ترَ من قبل شخصاً عادياً يضنيه الهوى لهذا الحدّ".

توصف المنطقة الحدودية مع رواندا بأنها مسالمة مع حركة سير غير عادية.

كــنت أقاتــل على ثلاث جبهات أمامي، وهو ما لن يوافق عليه ماكسي. وكنت أحاول أن أستمع وأقرر فيما إذا كنت سأقول لها ما أراه، رغم أنني لم أكن أعرف فيما إذا كانت حربنا أم حرب شخص آخر.

"هل تعرف أمراً يا سالفو؟"

"ماذا يا عزيزتي؟"

"خسرت ثلاثة أرطال منذ التقيتك".

كــان عليَّ استيعاب هذا، واستنباط سبب له. "ألقِ اللوم على التمارين غير المألوفة!" وصرخت: "ألق اللوم *عليَّ*!"

"سالفو؟"

"ماذا يا عزيزتي؟"

"قمت بعمل سيئ يا سالفو. شيء ينبغي أن أخبرك عنه".

وصــف مــسؤول في السفارة البريطانية في كينشاسا الشائعات حول وجود مرتزقة يقودهم بريطانيون في المنطقة بأنها ***خيالية وسخيفة.***

هــي كذلك بالطبع! وينبغي أن تكون! الانقلاب سيكون بعد تسعة أيام من الآن! أم أن برنكلي أطلق إشارة البدء في اللحظة التي خرجت بها من منــزله؟

"اسمعــي. لم تفعلــي. كل شيء بخير. حقاً! مهما كان! لا يهم! أعرف كل شيء. أخبريني عندما تعودين!"

تعالت ضوضاء الأطفال.

"ينبغي أن أعود إلى هناك يا سالفو".

"أفهم ذلك! اذهبــي! أحبك!"

نهاية التحبب. نهاية المكالمة الهاتفية.

طلــب أربعة تقنييّ طيران سويسريون، علقوا بين النيران المتبادلة، حماية قائد قوات الأمم المتحدة في بوكافو.

جلــست على مقعد مصنوع من أغصان الصفصاف مع مذياعي الصغير إلى الطاولــة بجانبــي، ورحت أتمعّن في ورق حائط السيدة حكيم فيما كنت أستمع

إلى غافين، مراسلنا في أفريقيا الوسطى، ينقل لنا القصة حتى الساعة:

وفقـــاً للحكومة الكونغولية في كينشاسا، تمّ وأد عصيان مسلح تدعمه رواندا في مهده، بفضل عملية أمنية منفّذة بدقة استندت إلى معلومات استخباراتية مهمة.

وتشتبه كينشاسا في تواطؤ الفرنسيين والبلجيكيين، لكنها لم تعلن أسماء قوى أوروبية مجهولة أخرى.

تمّ احـــتجاز اثنين وعشرين عضواً من فريق كرة قدم أفريقي زائر لاستجوابهم بعد اكتشاف مخبأ لأسلحة فردية ورشاشات ثقيلة في مطار بوكافو.

ولم يـــتمّ الإعلان عن وقوع إصابات. ولم يتمّ التحقق بعد من البلد الأصلي للاعبـــي كرة القدم.

ورفـــضت السفارة السويسرية في كينشاسا، التي سألت حول خبراء الطيران السويسريين الأربعة، التعليق في هذه المرحلة. وتمّ إرسال استفسارات تتعلق بوثائق سفرهم إلى بيرن.

شكراً لك يا غافين. نهاية النشرة. نهاية أي شك متأخر.

قاعـــة استقبال السيدة حكيم مكان فخم مع مقاعد وثيرة ولوحة زيتية تمثّل فردوساً إلى جانب بحيرة مع حوريات يرقصن على الشاطئ. وفي غضون ساعة من الآن، ســـيكون هناك باعة آسيويون يدخنون بشراهة ويشاهدون برنامج بوليوود علـــى جهاز تلفاز كبير مثل سيارة كاديلاك، ولكن في الوقت الراهن هناك صمت عـــذب مثل الذي يسود في ردهة الحانوتي، وكنت أشاهد أخبار الساعة العاشرة. رجال في قيود مختلفة الأحجام. لقد انكمش بيني. وتضخّم حجم أنطوان. وازداد طول سبايدر تسعة إنشات منذ أن قدّم الأطباق وكان يرتدي قبعة الطاهي المرتجلة. لكـــن نجم العرض لم يكن قائد قوات الأمم المتحدة الباكستاني في خوذته الزرقاء، ولا العقـــيد في الجيش الكونغولي الذي يختال متباهياً بعصا يحملها، ولكن ماكسي الذي يرتدي بنطالاً ضيقاً دون حزام وقميصاً يبلله العرق وينقصه أحد الأكمام.

كان البنطال كل ما تبقى من بدلة عملية صفراء اللون رأيته يرتديها آخر مرة عندما قدّم لي مغلّفاً أبيض يحتوي على سبعة آلاف دولار مقابل أتعابي، والتي سعى جاهـــداً بكل ما يملك من قوة للحصول عليها من النقابة. وافتقد وجهه، الذي تمّ

تجريده من نظاراته المكبّرة، للجاذبية التي ألقت بظلالها عليَّ، ولكنه تطوّر في مناحٍ أخـــرى وشكّل تعبيراً على قدرة الاحتمال الحازمة التي ترفض الاعتراف بالهزيمة، بغضّ النظر عن عدد الأيام التي قضاها في مركز صنع القرار. وكانت يداه القويتان مقـــيدتين أمامــــه، ومشبوكتين فوق بعضهما البعض مثل مخالب الكلب. ولم يكن ينـــتعل حذاءً صحراوياً، وقدمه العارية تماثل كتفه العارية. ولكن الحذاء المفقود لم يكن سبب تباطئه، وإنما مجموعة أخرى من القيود، القصيرة لرجل بمثل طوله، والتي كانت محكمة الإغلاق. وكان يحدّق بي مباشرة، واستنتجت من خلال وضعية فكه أنـــه يخـــبرني أن أذهب للجحيم، حتى اتضح لي تدريجياً أنه لا بد بأنه يقول هذا للشخص الذي يصوّره، وليس لي شخصياً.

في أعقـــاب ماكـــسي المـــضطرب، ظهر أنطوان وبيني مقيدين إلى بعضهما الـــبعض. وكـــان واضـــحاً وجود بعض الكدمات على الجانب الأيسر من وجه أنطـــوان، والـــتي أعتقد أن لا علاقة لها بالموضوع. وسبب ظهور بيني أصغر من الحجـــم المعتاد هو أن سلاسله تشدّه للأسفل وتجعله يجرّ قدميه بتكلّف. وتمّ قصّ شعره الأشيب الطويل إلى آخره، مما أعطى الانطباع بأنهم جعلوه جاهزاً للمقصلة. وجاء سبايدر بعد بيني - مرتجل منخس الماشية وزميلي في سرقة الأصوات - مقيداً بالسلاسل ولكنه يقف منتصباً. لقد سمحوا له بالمحافظة على قبعته، والتي ضمنت له بعـــض الأناقة. وكونه بهلواناً، لم يواجه المشكلة نفسها مثل رفاقه القصار القامة. وكان الأربعة معاً يشبهون فرقة غير مؤهلة للرقص الكوبي، والتي تهتز جيئة وذهاباً على إيقاع لا يستطيعون التحكم به.

ظهر لاعبو كرة القدم بعد الرجال البيض، وكان عددهم حوالى العشرين في صـــف متقهقـــر مـــن الأشباح السود اليائسة: *محنّكون، لا ينشقّون عن الجماعة، وأفـــضل المقـــاتلين في العالم*. ولكني عندما فتشت بعصبية عن ديدون أو فرانكو، لأرى إن كان قد تمّ إلقاء القبض عليهما في فوضى العملية الفاشلة، كنت مرتاحاً لعدم رؤية هيكل المحارب العجوز الأعرج أو طيف قائد البانياموليننج النحيل ضمن الأســـرى. ولم أبحث عن الحاج لأنني كنت أعرف بطريقة ما أنه لن يكون هناك. وكشف المعلّقون أن ماكسي - المعروف لغاية ذلك الوقت بأنه زعيم *الفتنة المزعوم* - استطاع ابتلاع بطاقة هاتفه لحظة اعتقاله.

عدت إلى غرفة نومنا وتابعت دراستي حول ورق حائط السيدة حكيم. وعبر المذياع، كانت هناك مقابلة مع وزيرة مفوّضة في وزارة الخارجية:

أخبرت محاورها بلغة واضحة: "أيادينا نظيفة مثل الثلج، شكراً لك يا أندرو، ولا دخـل لـنا في أي ممـا حدث، ثق بي. حسناً، إذاً واحد أو أكثر من الرجال بريطانيون. اسمح لي قليلاً! أعتقد أنك تكن مزيداً من الاحترام لنا، بصراحة. وكل المعلومات التي نتلقاها تقول إن ذلك جزء فاشل من عمل شركة خاصة. وليس من المفـيد القول: من قام بهذا؟ طوال الوقت لأنني لا أعرف من قام به! وما أعرفه أن هـذا عمل هواة تنقصهم الخبرة، ومهما كان رأيك بنا، فنحن لسنا هواة. وأؤمن بحرية التعبير أيضاً يا أندرو. عمت مساءً!"

كان لماكسي اسم. وقد شاهدته إحدى زوجاته السابقة على التلفاز. وقالت بـزهوٍ إنـه رجـل طيب لا يريد أن يشيخ وحسب، وابن كاهن. وخريج كلية ساندهرسـت العسكرية، وأدار مدرسة لتدريب التسلق على الجبال في باتاغونيا، وعمل لفترة في إحدى دول الخليج العربي. ويُعتقد أن أكاديمياً كونغولياً يدعو نفسه المتنوّر هو العقل المدبّر وراء المكيدة، لكنه توارى عن الأنظار. أطلق الأنتربول حملة للبحث عنه. ولم يكن هناك شيء عن اللورد برنكلي ونقابته سيئة السمعة المدعومة عالمـياً، وخططهـا لنهب خيرات شرق الكونغو. ولم يكن هناك شيء حول تابيز والمستشارين المستقلين وأصدقائهم. وكانوا جميعاً يلعبون الغولف على ما يبدو.

اسـتلقيت على السرير، أستمع إلى صوت ساعة السيدة حكيم النحاسية التي تـرنّ كـل نصف وربع الساعة. وفكّرت في ماكسي مقيداً بسوط الجَلد. وبزغ الفجر، وارتفعت الشمس، وكنت ما أزال مستلقياً في سريري، غير مقيّد. وكانت الـساعة السابعة تقريباً، ثم أصبحت الثامنة. وبقيت الساعة ترنّ عند أرباع الساعة بطريقة ما. واهتزّ الهاتف بألوان قوس قزح.

"سالفو؟"

"نعم يا غريس".

لـماذا لا تتحدّث؟ هل تعطي الهاتف إلى حنا؟ إذاً، لماذا لم تأخذه حنا؟ هناك ضوضـاء في الخلفـية. صوت نسائي من شمال البلاد ينادي بلهجة آمرة على اسم

رجـــل. من هو سيرل إينلي؟ لم أسمع مطلقاً بسيرل أو إينلي من قبل. أين نحن؟ في المستشفى؟ في غرفة انتظار في مكان ما؟ إنها مجرد ثوانٍ تلك التي أتكلم عنها. أجزاء من الثانية، فيما كنت أسرق كل صوت تستطيع أذناي سماعه.

"هل هذا أنت يا سالفو؟"

"نعم يا غريس. هذا سالفو". واختنق صوتها. هل تتكلم من مكان ممنوعة فيه الهواتـــف؟ أستطيع سماع أشخاص آخرين يتحدّثون عبر الهاتف. وفمها قريب جداً مـــن الـــسماعة، مما قد يشوّش الصوت. ووضعت يدها فوق السماعة. وتدفّقت الكلمـــات مـــنها فجأة: كلام مسترسل دون أخذ نفس لا تستطيع إيقافه حتى إذا أرادت ذلك، و لم أستطع أنا.

"لقـــد أمسكوا بها يا سالفو، ولا يعرف سوى الله نفسه من هم، وأنا الآن في قسم الشرطة لأبلّغ عن الحادثة لكني لا أستطيع الإكثار من الكلام. لقد اختطفوها مـــن الرصـــيف عندما كانت بجانبـــي خارج الكنيسة مباشرة بعدما تخلصنا من الأطفال، كانت أميليا تتظاهر بنوبة مرض ووالدتها تقول إننا أفسدناها، وكنت مع حـــنا ننـــزل التل منـــزعجتين تماماً من ذلك الجحود عندما توقفت سيارة فيها شخـــصان أحدهما أسود والآخر أبيض، مظهرهما عادي يا سالفو، وسائقة بيضاء بقيت تنظر أمامها عبر الزجاج الأمامي ولم تحرك رأسها طوال تلك الفترة، وخرجا وقال الأسود: مرحباً يا حنا، ووضع ذراعه حول خصرها كما لو أنه صديق قديم وسحبها إلى داخل السيارة، وذهبوا، وتسألني الآن هذه السيدة اللطيفة من الشرطة عن نوع السيارة وتريني صوراً لسيارات، وبعد ساعات من اختطاف حنا، لم تقل لي كلمـــة أبداً ولم يكن لديها وقت، وتقول الشرطة الآن إنها ربما أرادت الذهاب مـــع هذين الرجلين، وربما كان شخصاً تخرج معه أو تعتقد أنها تستطيع الحصول لنفـــسها علـــى بعـــض الجنيهات من كليهما كما لو أن حنا من هذا النوع، وقد انتـــزعاها من الشارع وتقول الشرطية اللطيفة: حسناً، ربما كانت من هذا النوع، وربمـــا كنت كذلك يا غريس، وعندها سيكون ذلك هدراً لوقت ضابط شرطة، وأنـــتِ تعرفين أنها جريمة يا غريس، وربما ينبغي أن تقلقي بالنسبة لذلك، وفقدت أعـــصابي، وأخـــبرتها أنه ينبغي عليها أن تضع ملاحظة فوق رأسها تقول إنهم لا

يأخـــذون الـــسود على محمل الجد، وهكذا أصبحت تتحدث الآن إلى الجميع ما عداي".

"غريس!"

قلـــتها مجـــدداً. غـــريس. ثلاث أو أربع مرات. ثم استجوبتها بالطريقة التي نـــستجوب بها الصغار، محاولاً تهدئتها عوضاً عن إخافتها. ماذا حدث؟ لا أعني الآن، وإنما في بونغور، حين كنتما معاً. أعني في أول ليلة لكما هناك، في الليلة التي أخبرتني فيها أنها تشاهد فيلماً مع الأطفال الأكبر سناً. تلك الليلة.

"كانت تلك مفاجأة لك يا سالفو".

"ما نوع هذه المفاجأة؟"

"كانـــت تحـــضّر شيئاً لك، وكانت تسمّيه ملفاً صوتياً، وهو قطعة موسيقية أحبتها وأرادت منحها لك. ذلك هو السر".

"إذاً، إلى أين ذهبت للقيام بذلك يا غريس؟"

"إلى مكـــان أخبرها عنه لاتزي، في مكان ما خلف إحدى التلال، حيث لا تـــوجد حركة سير. واتصلنا بلاتزي في مكان عمله. قوم الموسيقى أولئك، لديهم أصـــدقاء في كل مكان يا سالفو. ولهذا كان لاتزي يعرف شخصاً يعرف بدوره رجـــلاً في بونغور، وذهبت حنا لرؤيته، فيما أبقيت الأمر سراً، وهذا كل شيء. يا إلهي يا سالفو، ما الذي يجري بحق الله؟"

أنهيت المكالمة. بالطبع يا غريس. شكراً لك. وحصلت على الملف الصوتي من الشريطين الخامس والسادس، ودفعت به إلى أحد الحواسب، ولا شك بأن صديق لاتزي يملك واحداً، وأرسلته إلى عنوان بريد الحاج الإلكتروني ليستخدمه بمعرفته، وليساعده في تقديم العذر لوالده الذي يحترمه كثيراً، ولكن لم يكن عليها أن تزعج نفـــسها بفعـــل كـــل ذلك، لأن العملية عندها تحولت إلى دخان دون نار، ولأن المـــستمعين والمشاهدين وكل الناس الآخرين الذين أخطأت مرة باعتبارهم أصدقاء لي كانوا يتحينون الفرصة المناسبة للانقضاض عليها.

* * *

كان الأخ مايكل يقول إنه في سبيل إلقاء القبض على الشرير، ينبغي أن تجد الشرير داخلك - وفي غضون بضع دقائق - وهذا ما فعلته. ومشيت إلى خزانة الثياب حيث كانت سترتي الجلدية معلّقة. وأخرجت هاتفي الخليوي، الذي منعت نفسي عن استعماله لأي سبب عدا الرسائل، وشغّلته. ونعم، كما هو متوقع، كان لديَّ رسالة واحدة جديدة. ولكنها لم تكن من بينلوب هذه المرة، أو باربي أو حنا. كانت من فيليب. وكان فيليب يتكلم ليس بصوته اللطيف الخادع ولكن بنسخة جليدية كنت أعتمد عليها".

> لديَّ رقم تتصل به يا سالفو. سواء في الليل أو النهار. ولديَّ أيضاً صفقة أعرضها عليك. وكلما أسرعت بالاتصال، كلما شعر الجميع بارتياح أكبر.

طلبت الرقم وتحدّثت مع سام. ودعتني بريان، مثل الأيام الخوالي تماماً. *هل لديك قلم رصاص أيها العزيز بريان؟ ودفتر ملاحظات؟ بالطبع لديك، بارك الله فيك. إليك العنوان.*

19

سـأعترف حالاً بأن أفعالي خلال الدقائق العشر التالية لم تكن منطقية تماماً، وأنـي كنت أتأرجح بين الجنون والتعقّل. و لم أستطع استحضار مشاعر عنيفة من الغـيظ أو الغضب، رغم وجود دليل متأخر على أنها كانت بالإضافة إلى مشاعر أخـرى تجيش في نفسي. وكانت أولى أفكاري - إحدى الأفكار العديدة الأخرى - مـتعلقة بمـضيفنا ومضيفتنا آل حكيم، واللذين عقدت وحنا صداقة شخصية معهما والتي امتدت إلى أطفالهما، الغلام المتهور الذي يدعى رشيد الذي كان قُرة عين حنا، وديانا المقلّة في الكلام والتي تقضي معظم وقتها مختبئة خلف باب المطبخ علـى أمـل المرور أمامها. ولهذا السبب وضعت مقداراً كبيراً من المال من ثروتي المشبوهة المصدر وسلّمته إلى السيدة حكيم المرتبكة.

كانت ثاني أفكاري الأولى، التي ارتكزت على افتراض أنني ربما لا أطأ بقدمي ذلـك المنـزل مجدداً لبعض الوقت، إذا لم يكن نهائياً، التأكد من أننا تركنا كل شـيء مرتباً قدر الإمكان حسب الظروف. وعلى اعتبار أن هناك نـزعة ترتيب تـستحوذ علـيّ - كانت بينلوب تعتبرها عادة مستفحلة بناءً على إشارة بولا - عـرّيت الـسرير من الملاءات، وقمت بإزالة أغلفة الوسائد، وربت على الوسائد العارية، وأضفت لها المناشف من الحمام ووضعت حزمة مرتبة من الغسيل في زاوية الغرفة.

كان ما سأرتديه يمثل اهتماماً خاصاً بالنسبة لي. وفيما يتعلق بهذا الشأن، كان علـى قائمة أولويات ذهني المصير الذي لقيه ماكسي ورجاله مؤخراً، والذي كان من الواضح فيه أنهم مجبرون على ارتداء نفس اللباس في السنوات العديدة القادمة. ولهذا وضعت بنطالاً من الجينـز ذي القماش القوي، والسترة الجلدية المفضّلة لديَّ التي كانت ما تزال جيدة للغاية، وحذاءً خفيفاً وقبعتي التي تزيّنها الكرات الصوفية،

وقـــدر مـــا استطعت من القمصان والجوارب والملابس الداخلية في حقيبة الظهر. وأضفت إلى ذلك أشيائي الشخصية العزيزة عليَّ، بما فيها صورة نوح المؤطرة.

كفعـــل نهائي، سحبت حقيبتي من مخبئها خلف خزانة الثياب، وتفقّدت مرة أخـــرى المحـــتويات وتأكّدت من اختفاء الشريطين، لأنه أحياناً، وخلال انقضاء الـــثماني والأربعين ساعة الماضية بين الوهم والحقيقة، كان يتغير مكانها من خلف ظهـــري؛ وأغلقـــت الباب على فردوسنا القصير الأجل، وتمتمت بكلمات وداعي الأخير إلى آل حكيم المحتارين، وركبت سيارة الأجرة التي كانت تنتظر لتقلّني إلى العنوان في منتزه ريجنت الذي زوّدتني به سام.

ســـأتلو الأحداث اللاحقة بحرص بقدر ما تسمح به الذاكرة، مع الأخذ بعين الاعتبار العوائق التي عانت منها رؤيتي وملكاتي العقلية في ذلك الوقت. توقفت أمام منــــــزل أنـــيق في منطقة ألباني كريسنت، ورقمه *إن دبليو 1* – لا يكفي مليونان لتأميـــنه – ورآني شـــابان في بدلـــتين مريحتين يتقاذفان كرة طبية جيئة وذهاباً في الحديقـــة الأمامـــية. ولدى وصولي، توقفا عن اللعب وتحولا لينظرا إليَّ. ودفعت للـــسائق أجـــرته غير مبالٍ باهتمامهما، وحريصاً أيضاً على إضافة إكرامية جيدة، وتقـــدّمت عـــبر الـــبوابة الأمامية، وسألني أقربهما إليَّ بزهوٍ فيما إذا كان يستطيع مساعدتي.

أجبت بزهوٍ مشابه: "حسناً، ربما تستطيع. لقد جئت لرؤية فيليب في مسألة خاصة".

أجـــاب: "إذاً فقد جئت إلى المكان الصحيح يا صاحبـــي"، وتناول بلطف شـــديد حقيبتي عن ظهري فيما حمل الشاب الثاني حقيبتي التي كنت أضعها على كتفـــي، وتـــركاني بذلك حراً دون أعباء. تقدّم الشاب الأول على طول الطريق المفـــروش بالحـــصى إلى الباب الأمامي، وفتحه لتسهيل دخولي، فيما كان الشاب الـــثاني يـــصفّر بلحـــن مـــا ويمشي خلفنا. سرعان ما اتضح سبب سهولة تبادلنا للحديث. لقد كانا نفس الشابين الأشقرين اللذين ارتديا سترتين مغلقتين بإحكام ووقفا خلف مكتب الاستقبال في منـــزل ميدان برنكلي. هكذا، كانا يعرفان أنني شـــخص مطـــيع. لقـــد كنت الرجل المستضعف الذي قدّمته بريدجت لهما. لقد

تفقـــدت محـــتويات حقيبتي معهما. وجلست على الشرفة حيث طلبا مني، والتي اصـــطحبني منها ماكسي بعيداً. وفي علم النفس المتعلق بمهنتهما، كانا يُطبقان عليَّ مثل ضحية لا حول لها ولا قوة. ومنحني هذا - كما أعتقد الآن - عنصر المفاجأة الذي كنت أبحث عنه.

كـــان الـــشاب الذي يقودنا متقدّماً عليَّ بأربع خطوات عندما دخلنا غرفة المعيشة، وكانت حقيبة ظهري تعوق حركته. وكونه شخصاً مغروراً بطبعه، كان خفـــيفاً علـــى قدميه، وليس ثابتاً على الأرض. وكانت ضربة واحدة كفيلة بجعله يطـــير. كـــان الـــشاب خلفـــي في تلك اللحظة مشغولاً بإغلاق الباب الأمامي. ولاحظت في ميدان برنكلي نفوراً أكيداً في موقفه. كان ذلك واضحاً الآن. وربما يعرف أنه بأخذ الحقيبة التي أحملها على ظهري مني سيحصل على الجائزة الكبرى. وستضع ركلة موجهة بدقة إلى أعلى فخذه نهاية لغروره.

كان طريق وصولي إلى فيليب الآن مفتوحاً أمامي. وعبرت إليه بقفزة واحدة، ووضـــعت يديّ مباشرة حول عنقه، وضغطت عليها بكل ما أوتيت من قوة. ولا أعـــرف مـــا كنت أقصد من وراء ذلك، ولم أكن أعرف حينها أيضاً. ولاحظت المـــوقد المصنوع من الآجر الأصفر بلون الشوفان، وفكّرت بتهشيم رأسه الأبيض الجمـــيل عليه. وكان يرتدي بدلة رمادية، وقميصاً قطنياً أبيض وربطة عنق مكلفة من الحرير الأحمر، والتي حاولت استخدامها لخنقه دون جدوى.

هـــل كـــنت أستطيع خنقه؟ لقد كنت بالتأكيد مجنوناً في تلك اللحظة، كما كـــان سيقول والدي العزيز الراحل، إضافة لتمتعي بالقوة القادرة على تنفيذ ذلك، حـــتى أبعـــدني أحد الشابين بالأداة التي كان يحملها: هراوة أو ما شابه، لأنني لم أشـــاهدها أبـــداً. وبعد ثلاثة شهور، كنت ما أزال أحمل، ضمن علامات أخرى، الأثـــر الناتج عن تلك الضربة في الجانب الخلفي الأيسر من رأسي. وعندما تمكنت مـــن الوقوف، كان فيليب يقف سالماً أمام نفس الموقد الآجري، وإلى جانبه سيدة جليلة شعرها أشيب، وترتدي سترة من الصوف الخشن وتنتعل حذاء كبيراً، والتي عـــرفت فوراً وحتى قبل أن تقول "عزيزي بريان" أنها ليست سوى سام. وكانت تـــشبه إلى حدٍّ كبير السيدة الحكم في مباريات كرة المضرب التي نراها تجلس دائماً

أعلى السلم في ويمبلدون، وتوجّه اللاعبين الموجودين إلى الأسفل منها بمسافة ستة إنشات أن يحترسوا في تصرفاتهم.

كانت تلك انطباعاتي الأولى عندما صحوت. وكنت محتاراً من غياب الشابين الأشقرين في البداية، حتى أدرت رأسي بقدر ما أستطيع وحدّدت مكانهما عبر البوابة المفتوحة، كانا يجلسان على الطرف المقابل لنا من الممر، يشاهدان التلفاز دون صوت. وكان ذلك وقت المباراة الدولية، وكان الأستراليون يخسرون. وعندما أدرت رأسي نحو الناحية الأخرى، أدهشني وجود عامل تسجيل في الغرفة، والذي كان حسبما رأيت رجلاً. وكان يختفي خلف طاولة بجانب النافذة البارزة، والتي اعتقدت للحظة أنها نفس النافذة البارزة في غرفة نومنا في نزل السيد حكيم. وكانت أشعة الشمس تتدفق عليه، وتجعله بهي الطلعة، رغم رأسه الأصلع ونظاراته. وكان مكتبه يشبه طاولة حملة العم هنري، مع أرجل قابلة للطي والتي يمكن فتحها قبل الانطلاق إلى المعركة التالية. وكان يرتدي بدلة مثل فيليب، ولكنها لامعة مثل تلك التي يرتديها السائقون، وكان يجثم خلف طاولته مثل موظف في روايات ديكنز خائف من اتهامه بالتهاون.

شرحت سام، وهي تراقب ردّ فعلي: "وهذا هو آرثر من وزارة الداخلية أيها العزيز بريان. لقد وافق آرثر على إبعاد هذه الأشياء عن المستوى الرسمي، أليس كذلك يا آرثر؟"

ولم يبدُ أن آرثر يجرؤ على قول الجواب.

شرح فيليب: "يتمتع آرثر *بقوة تنفيذية* لا نتمتع بها أنا وسام. ودورنا استشاري فقط".

تابعت سام الحديث، بنبرة صوتها اللطيفة: "وحنا في أيدٍ أمينة إذا كنت تخاف من ذلك. ستتصل بك حالما تصل إلى المنزل".

المنزل؟ أي منزل؟ نزل السيد حكيم؟ بيت الممرضات؟ شقق نورفولك؟ وحيّرني المنزل كمبدأ.

شرحت سام: "نخشى أن تكون حنا قد خرقت شروط إقامتها. ولهذا آرثر هنا. لإقرار كل شيء، أليس كذلك يا آرثر؟ جاءت حنا إلى إنكلترا للتدرّب على

التمريض، ونجحت في امتحاناتها، بارك الله بها. وستكون مفيدة لبلدها عندما تعود. ولم تـأتِ إلى هـنا للاشتراك في المسيرات السياسية. ولم يكن ذلك أصلاً ضمن مهامها الوظيفية، أليس كذلك يا آرثر؟"

أكّـد آرثـر، متحدّثاً من رأس أنفه من وكره قرب النافذة البارزة: "محال. كانـت إقامتها للتمريض فقط. وإذا أرادت الاشتراك في المسيرات، لتفعل ذلك في وطنها".

شرحت سام، بنبرة مواسية: "اشتركت حنا في مظاهرات يا سالفو. وأخشى أن ذلك حدث أكثر من مرة".

سألتها، والحيرة تلفّ رأسي: "مظاهرات أين؟"

"ضد العراق، وهو ما ليس من شأنها إطلاقاً".

لاحظ آرثر: "خرق مباشر. ودارفور، والذي ليس من شأنها أيضاً".

قالـت سام: "هذا بالإضافة إلى رحلتها إلى بيرمنغهام، والتي كانت سياسية *تماماً*. والآن *هذا*، حسبما أخشى".

سألت، بصوت عالٍ أو بصمت، لأنني لست متأكداً: "هذا؟"

أعلن آرثر برضا كامل: "مواد ممنوعة. حيازة وتمرير معلومات إلى قوة أجنبية. وهي متورطة قدر ما تتخيل. وإضافة إلى ذلك، كان متلقي المواد المذكورة متورطاً مع ميليشيا غير حكومية، مما يجعل الأمر إرهاباً مباشراً".

كنت أستعيد قواي ببطء. وصرخت، لدهشتي: "كانت تحاول إيقاف الحرب غير الشرعية. كنا نحاول كلانا!"

تدخّل فيليب، الذي لطالما كان دبلوماسياً، للتخفيف من توتر الموقف.

اعتـرض بلطف: "الهدف ليس هذا أو ذاك، بالتأكيد. ولا تستطيع لندن أن تكـون فردوسـاً للناشطين الأجانب. خصوصاً عندما يكونون هنا بموجب إقامة تمـريض. ولقد قبلت حنا بذلك بالكامل، بغضّ النظر عن النتائج القانونية، أليس كذلك يا سام؟"

وافقـت سـام: "حالما شرحنا المشكلة لها، كانت متعاونة تماماً. لقد كانت حـزينة بطبـيعة الحـال. لكنها لم تطلب محامياً، ولم تكن متعبة أو صعبة المراس،

ووقعـــت علـــى إفادها دون همسة، وذلك لأها تعرف ما هو الأفضل لها. ولك. ولابنها الصغير بالطبع، قرّة عينها نوح. إنهم يختارون أسماء لطيفة، أليس كذلك؟"

قلت، أو ربما صرخت: "أطالب بأن أتحدث إليها".

"نعم، حسناً، أخشى أنه لا يمكنك ذلك الآن. إنها في مركز الاعتقال، وأنت حـــيث أنت. وفي غضون ساعات فقط من الآن، ستغادر طوعاً بشكل نهائي إلى كامبالا حيث ستجتمع مع نوح. هل هناك شيء ألطف من ذلك؟"

تطلب الأمر من فيليب أن يشير إلى المغزى:

قـــال، وهـــو ينظر نحوي: "لقد ذهبت بهدوء يا سالفو. ونتوقع منك فعل نفـــس الشيء". وكان قد استعاد صوته الرقيق مثل الزبدة، لكن مع نبرة رسمية. "لقد تمّ إخطار وزارة الداخلية – عن طريق آرثر هنا، الذي كان مفيداً بشكل اســـتثنائي في أبحاثه، وشكراً لك يا آرثر – بأن الرجل الذي يدعو نفسه برونو سلفادور ليس ولن يكون شأناً بريطانياً، موالياً أو خلاف ذلك. وبالمختصر، لا وجود له".

سمح للصمت بأن يسود ثانيتين إحياءً للذاكرة.

"لقـــد حصلت على جنسيتك البريطانية، مع كل حقوقها وميزاتها، بالتحايل. وكانت شهادة ميلادك كذبة. ولم تكن لقيطاً، ولم يكن والدك ملاحاً يسافر برفقة طفـــل يريد التخلص منه؛ حسناً، هل كان؟" وتابع، مقدّماً إغراءً لإدراكي. "ولهذا نـــستطيع أن نفترض فقط أن القنصل البريطاني في كامبالا في وقت ولادتك خضع لإرادة الحـــبر الأعظـــم. وأخشى أن حقيقة كونك آنذاك في عمر لا يسمح لك بالاشتراك في الاحتيال ليس عذراً في القانون. هل أنا محق يا آرثر؟"

انـــضم آرثـــر إلى الحديث بنبرة مفعمة بالحيوية من مكانه: "أي قانون؟ ليس هناك قانون. ليس له".

"الحقـــيقة المـــرة يا سالفو هي، كما تعرفها جيداً، أو ينبغي أن تعرفها، أنك مهاجر غير شرعي منذ كنت في العاشرة من عمرك ووطئت بقدميك رصيف ميناء ســـاوثامبتون، ولم تطلـــب خلال كل ذلك الوقت حق اللجوء. وتابعت حياتك ببساطة كما لو أنك واحد *منا*".

عـــندها، اشتدّ غضبـــي، وأخذت الأفكار تراودني، ولا بد أنها جعلتني أهتز في مقعـــدي، وأفكّـــر مرة أخرى باستهداف عنقه أو جزء آخر من جسده المرن. ولكن عندما يكون المرء مقيداً مثل حمار لعين - كما يقول الحاج — وتكون يداه وكاحلاه مـــربوطين معـــاً، وكل جسمه مثبّتاً إلى مقعد مطبخ، فإن فرص استخدام لغة الجسد تـــصبح معدومـــة، وهـــذا ما كان موضع امتنان فيليب أولاً، وإلاّ لماذا كان يجازف بابتسامة زائفة، ويؤكد لي أن هناك بصيص ضوء في أشدّ الليالي حلكة؟

"بالمختصر المفيد، أخبرنا الكونغوليون بشكل موثوق أنهم سيأخذون وقتهم، مـــن ناحية المبدأ، للضرورات الإدارية - ابتسامة متسامحة - ومع كلمة في مكانها الصحيح من قبل سفيرنا في كينشاسا، وشهادة ولادة تمثّل - هل ينبغي أن نقول - الحقائـــق التاريخـــية بـــشكل أفضل؟ - ابتسامة أكثر اتساعاً - سيكونون سعداء للترحيب بك كأحد مواطنيهم. وسوف يقولون أهلاً *بعودتك*، حيث إنك تقنياً لم تغـــادرهم إطلاقاً. بالطبع إذا كان ذلك يبدو منطقياً بالنسبة لك. إنها حياتك التي نتكلم عنها هنا، وليست حياتنا. لكنها مهمة كثيراً *لنا*، أليس كذلك يا آرثر؟"

أكّـــد آرثـــر من مكانه: "يذهب حيث يشاء، وبعيداً إذا أخذ برأينا. ولوقت طويل طالما أنه ليس هنا".

بطريقة الأم الحنون، وافقت سام بكل جوارحها كلاً من فيليب وآرثر. "الأمر يبدو منطقياً جداً لحنا أيضاً يا سالفو. ولماذا ينبغي أن نحتفظ بأفضل ممرضاتهم، بكل الأحوال؟ إنهم يائسون. وبصراحة يا سالفو، عندما تفكّر بالأمر، ما الذي تستطيع إنكلترا تقديمه لك دون حنا؟ وأعتقد أنك لا تفكر بالعودة إلى بينلوب؟"

اعتـــبر فيليب أن تلك الأمور بديهية، وجاء بالحقيبة التي أحملها على كتفي، وفتح السحاب، ووضع دفاتر الملاحظات والأشرطة على الطاولة واحداً تلو الآخر.

أعلـــن، مـــثل ساحر سعيد بنجاح خدعته: "رائع. ومع شريطي حنا، تصبح النتـــيجة ســـبعة كاملة. ما لم تنسخها بالطبع. وعندها لن يكون هناك *فعلاً* شيء لإنقاذك. هل فعلت؟"

شـــعرت بالـــنعاس الشديد فجأة بحيث لم يستطع سماع جوابي، ولهذا جعلني أعيده، أمام الميكروفونات على ما أعتقد.

قلت مجدداً، محاولاً العودة إلى النوم: "لم يكن ذلك آمناً".

تابع، بنبرة شخص يعمل على إنهاء التفاصيل النهائية: "وكانت تلك نسختك الوحيدة من "أنا أتهم!" التي أخذتها؟ النسخة التي أعطيتها لثورن؟"

ولا بد أنني هززت رأسي موافقاً.

قال براحة: "جيد. إذاً كل ما تبقّى علينا فعله هو تحطيم قرص حاسوبك الصلب"، وأشار إلى الشابين الأشقرين عند البوابة، اللذين حلاّ وثاقي ولكنهما تركاني على الأرض فيما كنت أستعيد توازني.

سألت، على أمل احمرار خدّيه المتغضّنين: "كيف حال ماكسي هذه الأيام؟"

تنهّد فيليب، كما لو أنه تذكّر صديقاً: "نعم، حسناً، المسكين ماكسي، يا حسرة عليه! لقد أخبروني أنهم بدأوا تلك العملية بشكل جيد، ولكنه عنيد جداً. وكان سخفاً منه أن يحاول قبل الموعد المحدد".

قلت: "تعني أن السخف من برنكلي"، ولكن الاسم لم يكن مألوفاً له.

هناك عمل، كما يقولون في عالم المسرح، لجعلي أتخلى عمّا بدأته. وبعد الضربة على الرأس، أصبحت أثقل من ذي قبل، ولم يكن رجل واحد كافياً للقيام بذلك. وحالما ساعدوني على الوقوف، وضع آرثر نفسه أمامي، وفتح بشكل غير رسمي أزرار سترته. ومدّ يده إلى جيب سترته الداخلي، وأخرج منه مغلفاً بنياً مكتوباً عليه **نيابة عن جلالتها** ودفعه بين يديّ المستسلمتين تماماً.

أعلن بصوتٍ عالٍ: "لقد قبلت هذا الإنذار بغياب الشهود. اقرأه من فضلك. *الآن*".

أخبرتني الرسالة المطبوعة، عندما أصبحت قادراً على التركيز أخيراً، أنني شخص غير مرغوب فيه. وأعطاني آرثر أحد أقلام الحاج الباركر. وقمت ببعض الحركات به ووضعت نسخة مشوهة عن توقيعي. ولم تكن هناك مصافحة، فقد كنا بريطانيين كثيراً، أو لم نكن كذلك إطلاقاً. ووقعت بين يدي الشابين. وخرجنا إلى الحديقة، ورافقاني إلى البوابة. وكان اليوم شديد الحرارة. ونتيجة الخوف من التفجيرات، ووجود نصف المدينة في إجازة، لم تكن هناك روح في الشارع.

وتــوقفت شــاحنة خــضراء ليس عليها اسم، ولا توجد بها نوافذ أمام المنــزل. وكانــت تــوأم الــشاحنة التي توقفت خارج نــزل السيد حكيم، وربما نفسها. وخــرج مــنها أربعــة رجال يرتدون سراويل قماشية زرقاء، ومشوا نحونا. كان قائدهم يضع قبعة رجال الشرطة.

سأل: "هل يعاني هذا الرجل من مشكلة؟"

قال الشاب الأشقر: "ليس الآن، إنه لا يعاني من شيء؟"

20

المترجم يا نوح، حتى إذا كان كفوءاً، مجرد رجل يسير على غير هدى إذا لم يكن لديه ما يترجمه سوى نفسه. وهكذا وجدت نفسي أكتب كل هذا دون معرفة حقيقة بمن أكتب إليه، ولكني أعرف الآن أنه أنت. وستنقضي بضع سنوات أخرى قبل أن يتمّ استدعاؤك لفك طلاسم ما يدعوه السيد أندرسن خطي البابلي، وعندما تفعل ذلك، آمل أن أكون هناك إلى جانبك، أعلّمك كيفية فعل ذلك، والذي لن يكون مشكلة بالنسبة لك نظراً لمعرفتك بلغتك السواحيلية.

حاذر يا بني العزيز بالتبني من أي شيء في حياتك معنون **بخاص**. إنها كلمة تحمل معاني كثيرة، ليس أحدها جيداً. وسأقرأ لك يوماً ما **الكونت مونت كريستو**، وهي رواية مفضلة لعمتي إيملدا الراحلة. وتدور حول السجين الأكثر *خصوصية* بينهم جميعاً. وهناك الكثير من المونت كريستو في إنكلترا الآن، وأنا واحد منهم.

شاحنة *خاصة* ليس فيها نوافذ ولكن معدّات خاصة على الأرضية لمعتقلين خاصين، والذين يتمّ تقييدهم إليها لتأمين سلامتهم وراحتهم خلال الرحلة التي استغرقت ثلاث ساعات. ولمخافة تعكير صفو السلم الأهلي، كما يعتقدون في ذهنهم، من صرخات الاحتجاج، وضعوا قطعة جلدية خاصة على فمي دون كلفة إضافية.

يمتلك السجناء الخاصون أرقاماً عوضاً عن الأسماء. وكان رقمي ستة وعشرون.

يتكون مبنى الضيافة الخاص من مجموعة من أكواخ نيسين المطلية من جديد، والتي تمّ بناؤها لحلفائنا الكنديين الشجعان سنة 1940، ومسوّرة بما يكفي من الأسلاك الشائكة لصدّ الجيش النازي بأكمله، وهو مكان جيد للكثير من

البريطانيين الذين ما زالوا يعتقدون أهم يخوضون الحرب العالمية الثانية، ولكن ليس جيداً للنـــزلاء المحتجزين في معسكر ماري.

سبب تسمية معسكرنا تيمناً بوالدة السيد المسيح (عليه السلام) غير معروف بشكل رسمي. ويقول البعض إن أول قائد كندي كان كاثوليكياً ورعاً. السيد جي بي ورنر، القائد السابق في قوات الشرطة العسكرية الملكية، وضابط الضيافة الخاصة الآن. ووفقاً له، كانت ماري سيدة من بلدة هاستنغز المحلية استضافت، في أحلك أيـــام الحرب عندما وقفت بريطانيا وحيدة، فصيلة كاملة من السجناء الكنديين في الساعات الأخيرة بين العرض العسكري ومنع التجول في نفس المساء.

لم تكـــن هـــناك أي إشارة في مناوشاتي المبكّرة مع السيد ورنر على نشوء صداقة ستتطور بيننا، ولكن العلاقة تشكّلت منذ اليوم الذي شعر فيه بأنه قادر على مشاطرتي سخاء ماكسي. وأكّد لي أنه لا يحمل أي ضغينة تجاه داكني البشرة، وقد خدم جدّه في قوات الدفاع السودانية، وكان والده عقيداً في الشرطة الكينية خلال القلاقل.

النـــزلاء الخاصون يتمتعون بحقوق خاصة:

- حق عدم تجاوز حدود أبنيتنا.
- حـــق عدم الانضمام إلى رحلة الفجر المتجهة إلى البلدة مع النـــزلاء الآخـــرين، وعـــدم بيع الورود عديمة الرائحة إلى راكبـــي الدراجات الـــنارية عند إشارات المرور، وعدم تنظيف نوافذ سيارات *بي أم دبليو* مقابل بضع كلمات من الشتائم.
- حـــق الـــبقاء صامتاً طوال الوقت، وعدم إجراء أو تلقّي اتصالات هاتفـــية، وعدم إرسال أي رسالة، وتلقّي المواد الواردة التي توافق عليها الـــسلطات مـــسبقاً، والتي يسلّمها لي السيد جي بي ورنر كمعروف شخصي منه، والذي أكّد لي أن مسؤولياته ضخمة.

كـــان يحب أن ينصحني، ملوّحاً بإصبعه أمام وجهي: "لا أستمع إليك يا ستة وعشرون". ويضيف بعد أن يحتسي معي كأساً آخر من شراب ريغا: "إنني أجلس مع الهواء. ليس لحماً وعظماً على الإطلاق". ورغم ذلك، كان السيد ورنر مستمعاً

لاذعـــاً، والذي خاض في كل المحيطات في حياته. وقام بإدارة سجون عسكرية في القواعد الأمامية، وحتى أنه تذوق، قبل وقت طويل جرعة من دوائه لرفضه تطبيق العقــوبة على أحد السجناء. "المؤامرات يا ستة وعشرون، ليست مشكلة. الجميع يتآمـــرون، ولكن لا أحد ينفذ. لكن إذا حان الوقت المناسب، ليكن الله في عوننا جميعاً".

هناك راحة لمعرفة أنك واحد من هذا النوع.

* * *

عند النظر إلى الخلف، من المؤكد أن ولادة معسكر ماري شهدت دون أدنى شـــك بداية سيئة. وأرى ذلك الآن. وبمجرد الوصول إليه مع العلامات الخاصة على كل جسدي كان كافياً ليتسبب بوقوف شعر رأسي. وكان هناك اختصار "ع م" إلى جانـــب اسمي - "ع م" تعني هذه الأيام "عنيف محتمل" - حسناً، لقد حصلت على ما أستحقه، كما علمت عندما انضممت إلى مجموعة من الصوماليين كدلالة علـــى التضامن فيما بيننا على سطح مقر القس القديم والذي أصبح فيما بعد مقراً لقـــيادة معـــسكر ماري. كانت رسالتنا إلى العالم سلمية. واشترك معنا الزوجات وأطفـــال مـــدارس الأحد الدينية الذين يرتدون الملابس القطنية. وحملت ملاءات الأسرّة التي علّقناها على صواري كشّافات المعسكر كلمات رجاء: "لا ترسلنا إلى أوطاننا لنتعرض للتعذيب، يا سيد بلير! نريد أن نتعرض للتعذيب هنا!" وكنت على خلاف حول نقطة في غاية الأهمية مع أصدقائي المتظاهرين. وفيما كانوا يجثون على ركـــبهم يتوسلون السماح لهم بالبقاء، لم أكن أطيق الانتظار ليتمّ ترحيلي. ولكن عـــندما يبدأ المرء بالتظاهر، كل ما يهمه هو روح الفريق، وهذا ما اكتشفته عندما قامـــت قـــوة مـــن رجال الشرطة الذين لا يحملون بطاقات تعريف عن أسمائهم ويـــرتدون خـــوذات راكبـــي الدراجات النارية بتفريقنا بمساعدة مضارب كرة القاعدة (البيسبول).

رغم ذلك، لا شيء في الحياة يا نوح، حتى بعض العظام المكسورة، لا فائدة منه. وحالما استلقيت في جناح المرضى ذاك، مقيّداً إلى زوايا السرير الأربع أفكّر أنه

لا يــوجد الكثير في الحياة يستحق أن يعيش المرء لأجله، دخل السيد جي بي ورنر مــع أول خمــس عشرة رسالة أسبوعية تلقيتها من يد أمك الحبيبة. وتطبيقاً لأحد شروط مغادرتها بهدوء، استطاعت الحصول من معتقليها على العنوان الذي تستطيع الكــتابة إليّ فــيه. ومعظــم ما كتبته لا يمكن الكشف عنه بعد لعينيك أو أذنيك الشابتين. ووالدتك، رغم عفتها، امرأة شغوفة وتتحدث بحرية حول رغباتها. ولكن في إحدى الأمسيات الهادئة، عندما تصبح كبيراً جداً، وتحب كما أحببت، آمل أن تــوقد نــاراً وتجلس بجانبها وتقرأ كيف استطاعت أمك - من خلال كل صفحة كتبــتها لي - أن تجعلني أذرف دموع الفرح والسعادة على خدّي الأسيرين، والتي غسلت كل أفكار الإشفاق على الذات أو اليأس.

الخطوات التي قامت بها في الحياة أكثر أهمية مما أستطيع الحديث عنه. و لم تعد مجرد الممرضة حنا المجازة فقط، وإنما الأخت حنا في جناح تعليمي جديد في أفضل مستــشفيات كمــبالا على الإطلاق! وما تزال بطريقة ما تجد وقتاً للاستمرار في دراســتها حــول التداخلات الجراحية البسيطة! وأخبرتني أنها، بناءً على نصيحة غريس، اشترت لنفسها خاتم زواج مؤقت لإبعاد الطامعين بها حتى يأتي اليوم الذي أكون فيه قادراً على تجهيزها بمجموعة متنوعة. وعندما راودها طبيب مقيم شاب رافقها إلى مؤتمر جراحي، صدّته بعنف مما اضطره للاعتذار لها لثلاثة أيام متواصلة، ثم دعاها لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في كوخه، فصدّته مرة أخرى.

كــنت قلقاً من احتمال عدم معرفتها أنني سامحتها لأخذها الشريطين خمسة وستة من حقيبتي، ولأنها أرسلتهما دون سابق علم مني إلى الحاج. وإذا استطاعت أن تفهم فقط أنه لا يوجد شيء أسامحها عليه في المقام الأول! وإذا لم تستطع ذلك، فهــل تستطيع، كفتاة إرسالية طيبة، أن تدير ظهرها لي لصالح رجل لا يملك شيئاً يتقرّب به منها؟ وهكذا تكون مشاعر الرعب الخلاقة التي تصيب المحبين المسجونين في ساعات الليل التي لا تنتهي.

كــان هــناك رســالة واحدة يا نوح، والتي لم أستطع فتحها لافتقاري إلى الشجاعة الأخلاقية. وكان المغلف سميكاً، ولونه بني مائل للأخضر وتملؤه الخطوط الباهتة، وهي إشارة مؤكدة إلى أن عالم الاستخبارات البريطاني على وشك الإعلان

عن وجوده. ولأسباب أمنية، كان يحمل ختماً عادياً من الدرجة الأولى عوضاً عن الشعار المطبوع الذي يعلن أنه مرّ عبر *خدمة جلالتها*. وكان كل من اسمي، ورقمي وعنوان المعسكر دقيقاً في كل التفاصيل، ومكتوباً بخط يد مألوفة مثل خطي. ووقف يحدّق بي ثلاثة أيام من عتبة النافذة. وأخيراً، وفي أمسيّة تحصّنت بها بمرور جي بي ورنر وقارورة من الريغا حصلت عليها بمشقة من ثروة ماكسي المشبوهة المصدر، أمسكت بسكين بلاستيكية مصممة بطريقة لا أتمكن بها من إلحاق الأذى بنفسي، وقطعت عنقه. وقرأت الرسالة التمهيدية أولاً. وكانت مكتوبة على صفحة بيضاء من الورق القياسي، دون علامات، والعنوان لندن مع التاريخ.

العزيز سالفو،

لا أعرف رسمياً كاتب الأوراق المرفقة، ولم أتحقق من محتوياتها أيضاً، المكتوبة بالفرنسية. وأكّد لي بارني أنها ذات طبيعة شخصية وليست فاحشة. وكما تعرف، لا أؤمن بالتطفّل في الشؤون الخاصة ما لم تكن مصالح أمتنا على المحك. وأمنيتي الصادقة أن تتذكر يوماً ما تعاوننا بشكل أكثر إيجابيةً، لأنه من الضروري حماية الإنسان من نفسه في كل الأوقات.

أطيب التحيات

آر. (بوب) أندرسن

في ذلك الوقت لمعت عيناي بالطبع على المغلف الثاني الذي أشارت إليه رسالة السيد أندرسن التمهيدية. وكان ضخماً ومعنوناً بطباعة إلكترونية إلى السيد المترجم بريان سنكلير في صندوق بريده في بريكستون. وكان اسم المرسل، المزيّن بسماء زرقاء في الخلف، **قائد بوكافو**: وسرعان ما أدركت أنها كناية عن اسم الحاج الكامل. ولم تكن المحتويات رسالة بالمعنى الدقيق بقدر ما كانت رزمة من الكتابات العشوائية على عجل والتي تمّ إنجازها في فضاء أيام وليال. وعندما أغلقت عينيّ، وتنشّقت رائحة الأوراق، أقسم أنني شممت نفحة عطر نسائي، وقال جي بي ورنر الشيء نفسه. وكان النص بالفرنسية، ومكتوباً بخط اليد بأسلوب أكاديمي دقيق والذي لم يفارقه حتى في أحلك الظروف، وكذلك مفرداته اللغوية البذيئة.

عزيزي حمار الوحش،

لم تكن الأشرطة ضرورية. لقد أرسلتها لي، واستفدت منها.

من هي حنا بحق الجحيم؟

لماذا كانت تتكلم بتوافه طبية معي، وتطلب مني أن يفحص طبيب المسالك البولية قفاي؟

ولماذا طلبت مني أن أواجه والدي الموقّر لوك، وإليك الدليل لمساعدتك على ذلك؟

لم أكن بحاجة لدليل لعين. وحالما وصلت إلى المنزل، أخبرت لوك أنه إذا لم يكن يرغب بأن يلقى حتفه ويتعرض للإفلاس، فإن أول شيء ينبغي عليه القيام به هو سحب دعمه لموانغازا.

الشيء الثاني الذي ينبغي عليه فعله هو أن يخبر ماي ماي والبانياموليننج بأنهم يجعلون من أنفسهم أضحوكة.

الشيء الثالث الذي ينبغي عليه فعله هو الإفضاء بما في مكنونات نفسه إلى أقرب قائد أممي كبير، والشيء الرابع الذي ينبغي عليه فعله هو الذهاب في عطلة مطوّلة إلى ألاسكا.

تقول حنا إنك تمر بظروف صعبة في إنكلترا، وهو حسب معرفتي بك لا يفاجئني. وصلّت أن تتمكن يوماً ما من اصطحابها إلى الكونغو. حسناً، ربما إذا فعلت ذلك، سأتصرف مثل كل المحتالين وأهبك منصباً تعليمياً في جامعة بوكافو، التي هي منطقة كوارث حالياً. ولن أهتم إطلاقاً سواء درّست اللغات أو شربت شراب الشعير.

أسرع في المجيء، لأنه لن تستطيع كل ملائكة الله الصغار على بوابات الجنة حماية عفّة حنا من براثن العم الحاج الشريرة عندما تعود إلى كيفو.

ولا يوجد في بوكافو سوى الأعمال كالعادة. وتهطل الأمطار تسعة شهور في السنة، وعندما تمتلئ مصارف المياه تتحول ساحة الاستقلال إلى بحيرة الاستقلال. ونشهد في معظم الأسابيع الشغب والأعمال

العدائية وتبادل إطلاق النار، رغم أنه لا يمكن التوقع بتوقيت هذه الأعمال. وقبل شهرين، خسر فريقنا الوطني لكرة القدم مباراة مهمة، لهذا أعدم الغوغائيون الحكم، وأطلقت الشرطة النار فقط على الرجال الستة الذين لم يفعلوا أي شيء على الإطلاق. ولم يمنع أي من هذا المبشرين الأميركيين البيض الذين يحملون الإنجيل ويصففون شعرهم بشكل جميل من أن يطلبوا منا محبة جورج بوش دون سواه لأن الله لا يحب ذلك.

كان هناك قس بلجيكي عجوز تلقى رصاصة في قفاه منذ بضع سنوات خلت. وكان يمر بين الحين والآخر على أحد النوادي الليلية التي أملكها للحصول على شراب مجاني، وللحديث حول الأيام الخوالي. وعندما ذكر والدك، ابتسم. وعندما سألته عن السبب، ابتسم أكثر قليلاً. واعتقادي هو أن والدك يمثّل كل الإرسالية.

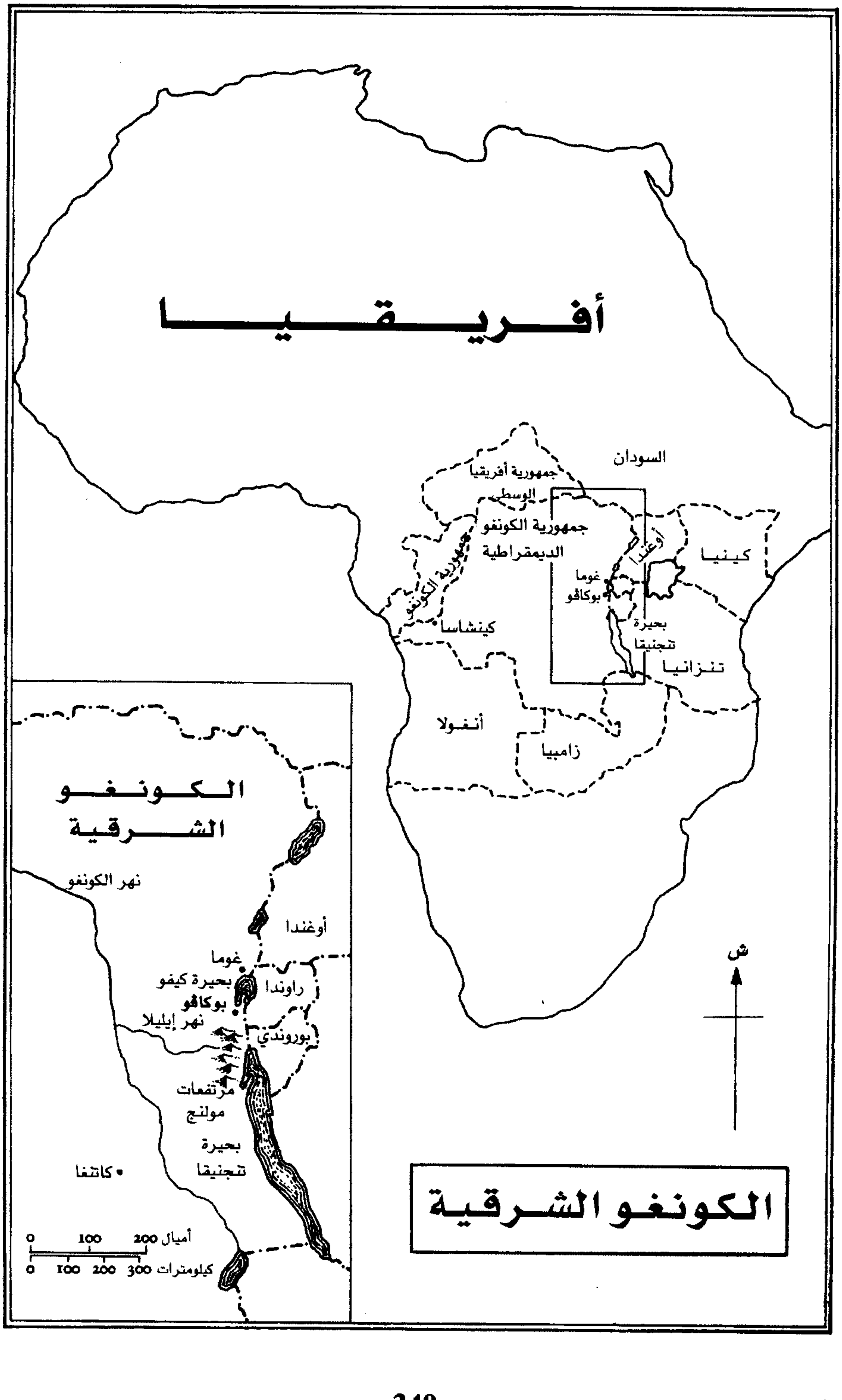
كان منزلي في المقاطعة يعود لمستعمر بلجيكي وغد على حافة البحيرة، ولكن لا بد أنه كان نوعاً محترماً من الأوغاد لأنه بنى حديقة عدن وصولاً إلى الماء، مع كل زهرة سمعت، أو لم تسمع بها. أشجار الشمع، وأشجار الصبار، والجهنّمية، والخبّيزة، والجاكرندة، والأغابنثوس والمُرّان، لكن أزهار الأوركيد مميزة فعلاً. لدينا عناكب بحجم الفئران، وطيور الجرذان برؤوس يكسوها الزغب وذيول طويلة، في حال نسيت. وتمتلك طيور النسّاج تقنية رائعة لجذب أنثاها. وينسج الذكر عشاً كيفما اتفق، ثم يأخذ الأنثى إلى داخله. وإذا أعجبها ما رأت، يتزوجان. أخبر ذلك لمبشّريك.

عنيت القول إن هناك كوخاً صغيراً في هذه الحديقة. وبنيته لمرضتي القدّيسة التي ألقت نظرة واحدة عليه وتوفيت. لقد كانت المرأة الوحيدة التي أحببت، ولم أنم معها. وكان للكوخ سقف من الصفيح وشرفة، وتحتله الآن حوالى مليون فراشة وبعوضة. وإذا تمكنت من المجيء إلى بوكافو، خذه. وما يزال جبن غوما لذيذاً، وتعمل الأضواء لثلاث

ساعات خلال النهار، ولكن لا أحد يضع الأضواء على قوارب الصيد في الليـل. قادتنا أوغاد تماماً، ولا يستطيعون التفكير أكثر من مستوى طفـل في الخامسة من عمره. قبل وقت ليس بطويل، أجرى سادتنا في البـنك الدولي مسحاً عن أسلوب حياتنا في الكونغو. سؤال: إذا كانت الدولة شخصاً، ماذا سنفعل به؟ الجواب: سنقتله. ولدينا "إدراك أسود"، لكـن كـل بائع متجول في أي بلدة يستطيع بيعك مرهماً لتفتيح لون البـشرة كفيل بإصابتك بالسرطان. ويتحدث الكونغوليون الشباب عن أوروبا على أنها أرض الميعاد. لهذا كن حذراً: إذا استطعت الوصول إلى هـنا، ستبدو مثل حمار وحشي مرفوض. والانتخابات لن تقدّم حلولاً، ولكـنها مـن حقـنا. ولدينا دستور. ولدينا أطفال يعانون من شلل الأطفال، وأطفال مصابون بالطاعون والذين يشعرون بأنهم أغنى بثلاثة ملايين دولار قذرة. ويوماً ما، ربما يكون حتى لديك مستقبل.

الحاج

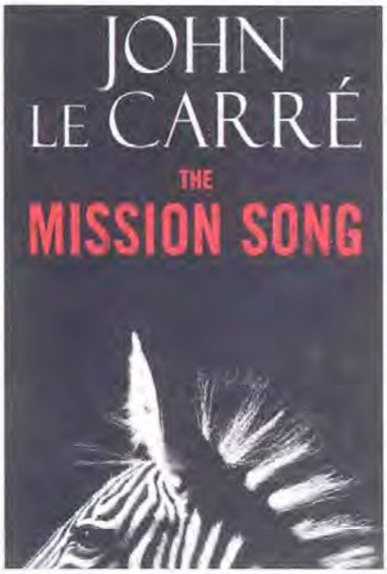
نحـن علـى الساحل هنا أيضاً يا نوح. ويرتفع قلبـي كل صباح مع شمس الخـريف. ويغرق كل مساء. ولكن إذا وضعت مقعدي قرب النافذة، وكان هناك ضـوء قمر ساطع، أستطيع رؤية مياه البحر الفضية على بعد ميل خلف الأسلاك الشائكة. وهناك تنتهي إنكلترا الخاصة بهم، وتبدأ أفريقيا الخاصة بي.


أفــريــقــيــا
السودان
جمهورية أفريقيا الوسطى
جمهورية الكونغو الديمقراطية
جمهورية الكونغو
أوغندا
كينيا
غوما
بوكافو
كينشاسا
بحيرة تنجنيقا
تنزانيا
أنغولا
زامبيا
الكونغو الشرقية
نهر الكونغو
أوغندا
غوما
بحيرة كيفو
راوندا
بوكافو
نهر إيليلا
بوروندي
مرتفعات مولنج
بحيرة تنجنيقا
كاتنغا
أميال 0 100 200
كيلومترات 0 100 200 300
ش
الكونغو الشرقية

جـون لو كـاريّـه

خيوط المؤامرة

رواية



برونو سلڤادور المعروف لدى أصدقائه وأعدائه باسم سالڤو، ليس سوى ذلك اللقيط البريء البالغ من العمر تسع وعشرون عاماً والذي جاء إلى الدنيا إثر علاقة غير شرعية بين مبشّر كاثوليكي إيرلندي الجنسية وابنة أحد زعماء القبائل في الكونغو. في البداية تلقى علومه في مدرسة الإرسالية في مقاطعة كيڤو في شرق الكونغو، ولاحقاً في ملاذ منعزل خاص بأبناء روما السريين، حيث وجّهه مرشده الأخ ميشال للتدرُّب كمترجم محترف مختص بلغات الأقليات الأفريقية التي كان جامعاً نهماً لها.

بعد أن لمع نجمه في اختصاصه، سعت وراءه أهم الشركات العالمية، والمستشفيات، والمحاكم، وسلطات الهجرة - وبالتالي - المخابرات البريطانية. كما أنه كان يواعد صحفية النجوم في إحدى أهم الصحف الوطنية، بينيلوبي البيضاء، المولودة في ساري، والتي تزوجها بتسرّع كبير. رغم هذا، ومع انطلاق أحداث القصة، فإن فجر حب جديد مخالف لا يقاوم أشرق عليه.

وعندما يُستدعى إلى جزيرة لا اسم لها في بحر الشمال لحضور اجتماع فائق السرّية بين ممولين غربيين وأمراء حرب من شرق الكونغو، يُضطر سالڤو لترجمة أمور لا تتوافق وضميره الأفريقي الذي صحا مؤخراً.

متنقلة بين أجواء الحب والتشويق والفكاهة، فإن **خيوط المؤامرة** تروي رحلة سالڤو البريئة من ظلمات النفاق الغربي نحو قلب النور.

جون لوكاريّه ولد في العام 1931، جلبت له روايته الثالثة «الجاسوس الذي جاء من الصقيع» شهرة واسعة، والتي تعززت بصدور ثلاثيته الناجحة، «الجاسوس الرّثا»، و«التلميذ الشريف»، و «ناس سمايلي». رواياته الأخيرة كانت «خيّاط بانما»، «البستاني الثابت»، و«أصدقاء كاملون». أما «خيوط المؤامرة» فهي روايته العشرون.

الدار العربية للعلوم - ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com
ص. ب. 5574-13 شوران 2050-1102 بيروت - لبنان
هاتف: 785107/8 (1-961+) فاكس: 786230 (1-961+)
البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

مكتبة مدبولي
Madbouly Bookshop
6 ميدان طلعت حرب - القاهرة
هاتف: 5756421 - فاكس: 5752854
البريد الإلكتروني: info@madboulybooks.com

ISBN 978-9953-87-090-8
9 789953 870908